علاقة بني يعفر بالخلافة العباسية

د. عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع*

طال عمر دولة بني يعفر الحواليين حوالي القرنين (214-392هـ/829-1001م) ومع هذا لم تحظَ بالدراسة والتحليل - كما أعلم- ويرجع هذا غالباً لندرة المعلومات فيما توفر من مصادر الدراسة، وهذه هي محاولة أرجو أن تسد جانباً من النقص..أو أنها تفتح شهية الباحثين للدراسة والبحث.

لقد تقلبت دولة بني يعفر الحواليين بين أطوار عدة.. تقلبت بين الظهور والاختفاء، وبين الالتئام والانشقاق، وبين الذوبان والتماسك، وبين الولاء للغير والانكفاء على النفس، وبين الانفراد بالسلطة ومقاسمتها مع آخرين. وكانت علاقتها بالدولة (الأم) العباسية متذبذبة أيضاً وغير سائرة على خط واحد.

ويمكننا أن نميز بين أربعة أطوار واضحة تتخلل هذه الأطوار تلك الصور المتأرجحة المضطربة التي مرت بها هذه الدولة، هذه الأطوار هي:

طور الطموح إلى الزعامة ثم الانفصال عن الدولة الأم (دولة الخلافة). وطور التصالح مع دولة الخلافة (الدولة الأم) ثم الحكم باسمها وهو أطول الأطوار زمناً وأكثرها أحداثاً.

وطور الهدوء والاستقرار

وطور الاضطراب الثاني ثم السقوط والذوبان والتسليم لقوى أخرى.

وسنفرد كل طور على حدة مفندين علاقته بالدولة العباسية. متحرين استقصاء المعلومات من مظانها ما أستطعنا إليها سبيلا.

الطور الأول:

طور الطموح إلى الزعامة ثم الانفصال هو الطور الذي يعاصره يعفر بن عبد الرحمن الحوالي.

وفي البداية نحن في حاجة إلى تعريف سريع ببني يعفر الحوالي: فهم ينتسبون إلى يعفر بن عبد الرحمن بن كريب بن الوضاح بن إبراهيم بن مانع بن عون بن يدرص بن عامر ذي حوال الأصغر من حمير[1].

ولا تخبرنا المصادر-كما نحسب- عن موقف لهم في

---

* رئيس قسم التاريخ-كلية الآداب- جامعة صنعاء.

مطلع التاريخ الإسلامي سواء في وفادتهم إلى المدينة المنورة، أو في الردة، أو في حركة الفتوح الإسلامية، أو في أيام بني أمية. وإنما بدات تطل علينا أخبارهم من أواخر القرن الثاني الهجري.

لقد ظهر الخطاب بن الوضاح من ذي حوال- وهو ابن عم يعفر- في مطلع خلافة المأمون حينما ولاه على إقليم الجوف من اليمن[2] وما لبث أن نشبت حرب بين وضاح من ناحية وبين العمريين من همدان من ناحية أخرى ولا نظنها إلا ثارية أدت إلى تمرده على سلطة الخلافة وربما كان ذلك لتعاون الولاة العباسيين مع العمريين وما لبث أن سقط الخطاب قتيلاً وتغلب العمريون على الجوف[3].

ولا نستطيع أن نقول باختفاء الحواليين بعد هذا الحادث بل نعتبره مذكياً لأوار أسرة ذي حوال وبداية لطلوع نجمهم. وما أظن يعفر بن عبد الرحمن الحوالي- الذي نسبت إليه الدولة اليعفرية- ظهر في عام 214هـ/829م[4] إلا لزعامة موروثة، أو قوة مرهوبة، بالإضافة إلى رغبة متأججة لإطفاء نار الثارات المشتعلة.

وكان ظهوره هذا- في عهد المأمون- بداية لإعلان التمرد على السلطة المركزية.. سلطة الخلافة.. ومهما قلبنا صفحات المصادر- المتوفرة لدينا- أو بحثنا بين ثنايا السطور فلن نصل إلى شيء يقنعنا بالباعث من وراء تمرد يعفر الحوالي على دار الخلافة.. وإن كان ولابد من البحث عن باعث فإننا لن نجد سوى الثار القبلي باعثاً ليعفر في تمرده هذا فقد بدأ بتصفية حساباته مع العمريين ومع بني عباد الأكيليين، فنشبت بينهم الحروب وتغلب عليهم[5].

ووجد أبواب المناطق من حوله تفتح له، ووجد قوته تزداد ضخامة، فأندفع يعمل على إخضاع القبائل المجاورة وكان من البديهي أن تتصدى لهُ قوة الخلافة بحكم تواجدهم الفعلي وسلطتهم في اليمن. وكان من الطبيعي - أيضاً - أن يتجه زعماء اليمن- وعلى رأسهم بنو عباد الأكيليين من خولان[6] صوب الخلفاء العباسيين يستمدونهم العون ضد الاكتساح القبلي الممثل بقوة يعفر الحوالي.

وهكذا أصبحت المواجهة بين يعفر الحوالي والولاة العباسيين لازمة لتضارب المصالح ولاتحاد النزعة الانفصالية عند يعفر الحوالي، بينما لم نجد ليعفر الحوالي فكراً يتشربه، ولا انتماءً لمذهب سياسي معين ينشره، ولذا لم نجد لهُ باعثاً لحركته سوى الثار القبلي وتداعي الأحداث أوصلته إلى التصدي للخلافة.

• • •

ولقد توفرت ليعفر الحوالي بعض العوامل التي ساعدته على الانفصال عن الخلافة سواء كانت عوامل محلية - داخل اليمن - أو عوامل مرتبطة بدولة الخلافة نفسها.

فالخلافة العباسية كانت تعاني من ضعف عام تمثل ابتداءً بذلك الصراع الذي نشب داخل الأسرة العباسية (صراع الأمين والمأمون) وبالرغم من أن الصراع حسم لصالح المأمون إلا أنهُ هيأ الفرصة لكل ذي نزعة أن يستلها على شكل تمرد ورفض طاعة الخلافة، فكثرت الحركات الانفصالية ذات النزعة المذهبية أو الشخصية أو القبلية.

وفي اليمن-بصفته إحدى الولايات المنضوية تحت لواء دولة الخلافة ويقع في أطرافها- حدث العديد من الاضطرابات سواء من الداخل أو من الوافدين عليها مستغلين طرفية الموقع وأهميته، سواءً المذهبية (كالشيعة) أو القبلية أو الشخصية[7].

ومما شجع يعفر الحوالي على التمرد أنهُ كان واحداً من ثلاثة زعماء في اليمن وصفهم الهمداني[8] بصفة (الملوك). أما الثاني: فهو أبو إسحاق الجعفري المناخي ملك الكلاع ومقره (المذيخرة)، والآخر: عبد الله بن يوسف الشراحي ملك وصاب، ومقره (عركبة) وكان مسيطراً على مدن تهامة الرئيسية مثل زبيد[9].

ومما ساعد يعفر الحوالي على النجاح في حركته هذه أنهُ استخدم المواقع الحصينة للتمركز والتحصن مثل (شبام) الواقعة شمال غرب صنعاء الواقعة في سفح جبل ذخار، ومثل حصن (كوكبان) في رأس الجبل نفسه وكان يتخذه مكمناً ومتحصناً لهُ وسجناً لمخالفيه[10] بحيث لا يقدرون على الفرار منهُ لصعوبة الطريق الواصلة إليه.

وهكذا تضافرت هذه الأوضاع لتصبح عوامل مساعدة أدت بيعفر الحوالي إلى منافسة الدولة العباسية في سلطانها على اليمن.

* * *

ولا ندري ماذا كان يطلق على نفسه في مراسلاته أو بياناته أو مفاوضاته هل هو الاسم المجرد أو الزعامة القبلية أم ألفاظاً ملوكية مثل (السلطان) (الملك) (الإمام) لأن المصادر لا تسعفنا بهذا إلا أننا نجد الهمداني[11] يصف يعفر الحوالي بأنهُ أكرم ملوك حمير، فهل معنى هذا أنهُ كان يطلق على نفسه لقب (الملك)؟ أم أن الهمداني باعتباره مبالغاً في مفاخرات قومه أعتبر زعامته القبلية هي الملك بعينه، أو أن انتسابه إلى حمير هو الذي دفعه إلى نسبته إلى ملوك حمير، أو أن لفظ الملك هنا أطلق عليه حسب عادة أهل اليمن في إطلاق لفظ (الملك) على كل من تملك وادياً أو منطقة كبيرة من الأرض[12].

* * *

وإذا كان الهمداني-وهو الخبير بتاريخ الدولة اليعفرية- قد أخبرنا أن ملكهم بدأ من رمضان عام 214هـ/829م إلا أن الصدام مع الولاة العباسيين لم يبدأ إلا عام 220هـ/835م وهذا التاريخ نص عليه ابن سعد[13]، وأيده الهمداني[14] بإشارته إلى أن يعفر الحوالي حارب قواد المعتصم والواثق والمتوكل، ولم ينص على محاربته قواد المأمون الذي ظهر في عصره وهذا يعطينا دلالة على أن الفترة الواقعة بين الظهور وبداية الصدام مع الولاة العباسيين كانت فترة كمون وإعداد تربص، وتحصين ولا نظنه انقطع عن تصديه للقبائل المجاورة باعتباره جزءاً من الصراعات القبلية المعهودة في اليمن.

ولا نرى صحة لتأكيد الجندي[15] بأن يعفر الحوالي ظهر في عهد (إيتاخ) التركي الذي ولي اليمن في عهد المعتصم بين عامي 225هـ/840م و 226هـ/841م لأن كلا من ابن سعد والهمداني وهما أقرب زمناً إلى الأحداث أثبتا غير ما يقوله الجندي وهو عام 220هـ/835م وهذا التاريخ يؤكده تسلسل الأحداث فقد توفى المأمون في شعبان أو رجب من عام 218هـ/833م وكان أمير اليمن حينئذ عبد الله بن عبد الله بن العباس ابتداءً من عام 217هـ/832م وفي شوال من العام نفسه استخلف عباد بن الغمر الشهابي على صنعاء[16] وظل على ذلك حتى عام 220هـ/835م حينما خلفه عبد الرحيم بن جعفر بن سليمان[17] ويبدو أن عبادا كان قد أشتبك مع يعفر الحوالي لأن عبد الرحيم ما كاد يستقر في صنعاء حتى اصطدم بقوات يعفر الحوالي ودخل معها في حروب متواصلة وقع-في واحد منها- ابنهُ أسيراً بيد يعفر مما أرغمه على إيقاف الحرب بينهما بل والتفاوض من أجل إطلاق ابنه من الأسر، فقبل يعفر شريطة أن يكون ضمن صفقة مقايضة فهو من جانبه يطلق الأسير ويتسلم بدلاً عنهُ عباد بن الغمر وبعض كبار الشهابيين، ونفذت الصفقة فقبض على عباد وحبس في حصن كوكبان حتى توفى[18]، ولم يقدم يعفر على إبرام هذه الصفقة إلا لما يحمله في نفسه من ضغينة على عباد خصوصاً وبني شهاب عموماً أما للثارات التي أججت الصراع منذ البداية وإما للدور الذي قام به عباد في محاربة يعفر الحوالي بحكم مسئوليته كممثل للدولة العباسية.

وأما الشيء المستهجن من جانب عبد الرحيم بن جعفر فهو التفريط بالوالي العباسي السابق وتسليمه هو وأسرته إلى عدو الدولة العباسية مقابل ابنه. ومهما كانت مأساته الشخصية فلا تجعله يرتكب تلك الأخطاء التي لم تقف عند هذا الحد إنما تعدتها إلى خطأ سياسي وهو أنهُ أعطى الفرصة ليعفر الحوالي للظهور والندية في مقابل

سلطان الدولة.. وما أظن المعتصم سيغض الطرف عن هذا الخطأ وربما جاء عزل عبد الرحيم على إثر سياسته هذه حيث بعث على اليمن عام 225هـ/840م أحد مواليه جعفر بن دينار ويعرف بالديوشار خلفاً لعبد الرحيم ولكن جعفرا لم يذهب بنفسه وإنما استقر في بغداد وأوكل إدارة البلاد إلى نائبين أرسل أولهما منصور بن عبد الرحمن التنوخي ثم أردفه بعبد الله بن محمد بن ماهان فعملا على ضبط الأمور[19] ولكنهما لم يصلا إلى نتيجة تذكر مع يعفر.

ولم تدم ولاية جعفر بن دينار الأولى هذه طويلاً لأن المعتصم سرعان ما عزله وعين أحد مواليه الأتراك وهو (إيتاخ). ولم تعطنا المصادر سبباً لهذا العزل.. لغضب عليه أم لتكليفه بمهمة أخرى..؟

سار (إيتاخ) التركي على نهج سلفه وأكتفى بإقرار نوابه وآثر البقاء في بغداد لأنهُ كان مكلفاً بأعمال كثيرة في دار الخلافة[20] إلى أن توفى المعتصم وتولى الواثق الخلافة عام 227هـ/842م فأبقى (إيتاخ) على ولايته على اليمن بالإضافة إلى سيطرته على العديد من أمور الدولة.

وفي هذه المرة أرسل (إيتاخ) أبا العلاء أحمد بن العلاء العامري نائباً عنهُ بدلاً من منصور التنوخي في الوقت الذي كان فيه هذا مشتبكاً مع يعفر الحوالي (رمضان 227هـ/842م) فقد تواردت الأخبار بقدوم جيش عباسي لمواجهة الأحداث في اليمن فأسرع يعفر بخطواته الهجومية لعله يصل إلى صنعاء قبل أن يقدم الجيش العباسي بقيادة أبي العلاء العامري ولكن خطته باءت بالفشل لما بذله منصور التنوخي من استبسال ودفاع أدى إلى هزيمة قوات يعفر الحوالي بقيادة طريف بن ثابت[21] وعاد الهدوء إلى المنطقة ولكن إلى حين.

وأدرك يعفر الحوالي بهزيمته هذه أنهُ في أمس الحاجة إلى خطوط خلفية آمنة يأوي إليها فسوّر مدينة شبام وتحصّن بها[22].

وفي هذا الوقت ظل أحمد بن العلاء أميراً على اليمن والأحداث كامنة، إلى أن توفى فخلفه أخوه عمرو بن العلاء[23].. والأوضاع ما زالت تلتهب تغذيها الصراعات الثأرية، فقد كانت هناك صراعات مريرة بين بني سعد والأكيليين في خولان وانحاز يعفر الحوالي إلى بني سعد ضد بني عباد الأكيليين فما كان من سيد بني عباد: عبدالله بن محمد بن عباد إلا أن شد رحله إلى الواثق ليطرح عليه أوضاع اليمن. وربما كان هناك باعث آخر دفع ابن عباد لاتخاذ هذا الموقف وهو أن ولآء بني عباد طوال تاريخهم كان للدولة العباسية سواء قبل هذه الأحداث أو بعدها لأنهم كانوا ضد دولة الهادي التي ظهرت بعد ذلك.

المهم أن عبد الله بن محمد بن عباد أوصل في عام 229هـ/843م إلى الواثق تقريراً عما يفعله يعفر الحوالي باليمن فقرر الخليفة إرسال قائد يتولى إدارة الحرب بنفسه فأختار الشير هرثمة بن الشير فذهب إلى اليمن في رفقة ابن عباد[24]، وسواء ذهب من فوره مع ابن عباد إلى اليمن كما ذكر الهمداني أو أنهُ كما يقول ابن جرير[25] مهد لمقدمه إلى اليمن بإسناد المهمة إلى منصور التنوخي الذي دخل اليمن في غرة رمضان من عام 229هـ/843م إلا أنه من الراجح أن (الشير) وصل اليمن أواخر شهر المحرم من عام 230هـ/844م ولا نعرف سبباً لتأخره هذه الشهور إلا إذا احتملنا أنهُ أراد تجهيز جيش مناسب يستعين به في هذه المهمة وهو احتمال قوي يؤيده ما عرف من أن الشير كان على أهبة الاستعداد لمقاتلة يعفر، وكره أن يدخل صنعاء إلا بعد مناجزة خصمه[26].

ولكن سياسة (الشير) هذه تضاربت مع سياسة حليفه ودليله ابن عباد، فقد كانت خطة (الشير) تعتمد على المناجزة العاجلة ليعفر بينما كان ابن عباد يرى رأياً آخر وهو أنهُ قد لا يحتاج لمقاتلة يعفر على مدى عام كامل، معللاً هذا بأن المطلوب الآن هو إخضاع الناس

وتدبير أمورهم وتأمينهم ثم جباية الأموال للاستعانة بها للمواجهة. ولم ترق هذه السياسة للقائد العباسي فأعلن ابن عباد عن رفضه لسياسة المواجهة، واشهد من حوله وقفل راجعاً إلى العراق لمقابلة الخليفة[27].

وظل الشير هرثمة يعسكر خارج صنعاء في مقابل قوات يعفر.. يحاصرها أحياناً، ويرفع الحصار عنها أحياناً أخرى، يدافع تارة، ويهاجم تارة أخرى إلى أن قدم إلى اليمن الديوشار جعفر بن دينار المعروف بالخياط نائباً عن الخليفة[28].

أما سبب تغيير الوالي العباسي فهو يعفر نفسه لأنهُ أصبح- لخطورته على الوضع- يؤثر في سياسة الدولة العباسية في اليمن وفي مسار اتخاذ القرار لأن هم الدولة العباسية في هذه الآونة في اليمن منحصر في القضاء أو احتواء يعفر الحوالي، فقد عاد ابن عباد الأكيلي إلى بغداد مغاضباً للشير هرثمة على سياسته في اليمن ليشكوه إلى الخليفة الواثق وما لبث أن توفى وخلفَه المتوكل في آخر ذي الحجة من عام 232هـ/846م فشكى ابن عباد إلى الخليفة الجديد سوء السياسة الحربية المتبعة في اليمن لمواجهة تفشي نفوذ يعفر الحوالي. ولاشك أنهُ أطلعه على مهمته الأولى إلى الواثق فما كان منهُ إلا أن كلف رجلاً خبيراً كان قد سبق لهُ تولي هذا المنصب في عهد المعتصم وهو الديوشار جعفر بن دينار المعروف بالخياط[29] حيث قدم اليمن وفي رفقته ابن عباد، ثم تسلم الإمارة من (الشير) عام 232هـ/847م بعد مواجهات بين الطرفين وتمت مفاوضات الصلح بينهما عام 233هـ/847م ربما في آخر هذا العام لأن جعفر ابن دينار دخل صنعاء في شهر صفر من عام 234هـ/88م وذلك بعد أن أبرم الصلح مع يعفر الحوالي[30].

وبعد أن ركن جعفر بن دينار إلى الهدوء النسبي في صنعاء بعضاً من الوقت إذ جاءته أوامر الخليفة المتوكل بالتوجه نحو مكة عام 234هـ/848م ليؤدي مهمة استعجال (إيتاخ) بالعودة إلى بغداد[31] فذهب مخلفاً ابنه محمد مكانه ليؤدي المهمة المناطة به، وهي المحافظة على التوازنات التي رسمها أبوه. إلا أنهُ لم يستمر طويلاً فقد تركها ليتولاها أمراء أقل كفاءة من أبيه.

ويحسن بنا الآن أن نبين الظروف والأوضاع التي حدت بجعفر بن دينار إلى الصلح مع يعفر الحوالي لأنهُ يمثل نهاية طور من أطوار العلاقة اليعفرية-العباسية- وبداية طور جديد.

بالتأكيد أن الأوضاع كانت مناسبة بين الطرفين لعقد مثل هذا الصلح. فالهمداني[32] يؤكد بأن جعفر بن دينار قدم اليمن وفي صحبته ابن عباد وسار على مشورته في سياسته ضد يعفر في حصار وكمون وقتال حتى استسلم وصالح والتزم بخراج معين إلى دولة الخلافة.

وأما ابن جرير[33] فنلمح من كلماته أن الصلح جاء بطلب ورغبة من جعفر لعوامل ألمت به فقد واجه متاعب من جنده لأنهم شغبوا عليه-ربما لقلة مخصصاتهم المالية وشحتها مع الحروب وربما لطول الحرب مع يعفر- وجعل ابن جرير من هذه العوامل موت الواثق فاضطر جعفر إلى أن يعقد هدنة مع يعفر ليخفف من ضغط الوضع الذي هو فيه ودون مقابل.

ولا نرى هذا صحيحاً ومتوافقاً مع سير الأحداث بل إن ما جاء عند الهمداني هو الصحيح لأن جعفر بن دينار بخبرته السابقة وبتعاونه مع القوى اليمنية الأخرى التي ما كانت لتقبل الصلح مع يعفر دون شروط بل يعفر نفسه ما كان ليقدم على صلح إلا وله مصلحة منه ولو أدرك أن عدوه قد وهن عظمه وقلت حيلته فما كان ليفلته حتى يقعده تماماً. ومن هنا فإن من حقنا ومن معقولية رصد الأحداث أن نقول إن الهدنة ما تمت إلا بضغط الخلافة على يعفر الحوالي وفي الوقت ذاته لا نستطيع أن ننفي ما أصبح فيه حال جعفر من اضطراب نفسي وهو يرى الخليفة العباسي مهزوز الشخصية وتتغلب على قراره مجموعات من المماليك الأتراك ولهذا جاءت الهدنة استجابة لرغبة متبادلة بين الطرفين.

إلا أن الفوائد التي حققها الطرفان من هذه الهدنة كانت زهيدة جداً بالنسبة للجانب العباسي.. ووفيرة جداً عاجلاً وآجلاً بالنسبة لجانب يعفر الحوالي.

فقد كانت الدولة العباسية تمر في حالة ضعف عام وكانت تلجأ إلى سياسة الترضية والقبول بالأمر الواقع مع القوى التي من الممكن أن تتآلف معها ولا ترى خوفاً من الطموحات الشخصية للزعامات التي تظهر ما دامت لا تتخذ لنفسها فكراً مناقضاً للدولة لذا كانت تتآلف معها دون غضاضة وتشترط عليها التبعية الإسمية، ودفع مبلغ من المال سنوياً لبيت مال المسلمين.

وقد فعل هذا مع الأغالبة في المغرب مثلاً، وها هو ذا جعفر بن دينار يتعامل مع يعفر الحوالي بالسياسة ذاتها.

فقد ذكرت المصادر أنهُ شرط عليه تسليم خراج لبيت مال المسلمين[34] ولكن لا أظنهُ غفل عن اشتراط التبعية الإسمية للدولة العباسية ولا عن رجوع يعفر إلى شبام ولا عن إلزام يعفر بعدم الإعتداء على سلطان الدولة المركزية المستقر في صنعاء لأن هذه الأمور كانت ملموسة واقعياً. وهكذا أصبحت الدولة العباسية معترفة بقوة يعفر الحوالي ومن ثم تقلص نفوذ الدولة العباسية في اليمن وهذا المكسب الذي حققه يعفر كان أعظم مكسب حققه في حياته وفي الوقت نفسه كان لهُ الأثر الكبير في انحسار العباسيين تماماً فيما بعد.

* * *

الطور الثاني:

طور الصلح مع الدولة العباسية ثم الحكم باسمها وهذا الطور هو أطول الأطوار الثلاثة من حيث الزمن ومن حيث الأحداث التي واجهته وقد عاصره من بني يعفر أكثر من أمير واحد كان أقواهم اثنان أولهم محمد بن يعفر وآخرهم حفيده أسعد بن إبراهيم بن محمد بن يعفر. وفي هذا الطور تعددت حالات بني يعفر قوة وضعفاً، استقلالية وتبعية ولاء لبني العباس وولاء لغيرهم.

يبدأ هذا الطوربتغيير سياسة الخلافة العباسية فلم يعد الخليفة يعين نواباً على اليمن من قبيلة وإنما صار اليمن جزءاً من إقليم كبير يشرف عليه ابن الخليفة المتوكل وهو محمد المنتصر فقد أوكل إليه إدارة الحرمين واليمن والطائف[35] ومن المفترض- والحالة كذلك- أن يكون من شأن هذه السياسة أن تؤدي إلى المحافظة على ممتلكات الخلافة وأن يعطي الاهتمام المطلوب للأمصار إلا أن الوضع كان على عكس هذا تماماً فلم يكن الأبناء - كما هي العادة - متحلين بالصبر والمصابرة والحرص وإنما اعتراهم عدم الاكتراث والتفريط فإذا كان محمد المنتصر قد فرط بأبيه وتعاون على قتله[36] فهل يمنعه حمقه هذا من التفريط في أمر أطراف الدولة ولهذا لم نجد والياً عباسياً على اليمن بعد جعفر بن دينار له شخصيته وله فاعليته في إدارة البلاد حتى الثلث الأخير من القرن الثالث الهجري حينما أرسل في آخر عهد المعتمد (279هـ/892م) علي بن الحسين المعروف بجفتم[37].

فقد جاء خمسة ولاة[38] بعد جعفر بن دينار من عام 234هـ/848م إلى عام 344هـ/955م ولم يفعلوا شيئاً يذكر ليحافظوا على النفوذ العباسي في اليمن كما ينبغي.. ولا ندري إلى أي مدى ظل الصلح الذي عقده جعفر بن دينار مع يعفر الحوالي ساري المفعول؟! ولكن من المحتمل أن الحرب عادت بعد أن غادر جعفر اليمن أو بعد انسحاب محمد بن جعفر موكلاً مهمته لصاحب البريد[39] وذلك حينما قدم حمير بن الحارث أميراً على اليمن فقد حصلت في عهده فتن داخل صنعاء بين طوائف من الحرفيين ولا ندري سبباً لها إلا أن الوالي العباسي حاول السيطرة على الموقف وقبض على مجموعة من الناس وصل عددهم إلى نيف وخمسين رجلاً وبعثهم إلى العراق آخر عام 243هـ/857م ويلاحظ أن بعضاً منهم كانوا من العلويين وكأنهم كانوا على صلة بيعفر الحوالي فذهب بعضهم إلى شبام[40].

وفي الوقت الذي كان الاضطراب يعصف بالبيت

العباسي من قتل للخلفاء وعزل واغتيال ومؤمرات حتى عام 256هـ/870م حينما تولى المعتمد على الله الخلافة العباسية[41] وفي الوقت الذي أطلت فيه الشيعة بقرنيها وبعثت الخوارج بعد موهما، وفي هذا الوقت بالذات سقطت صنعاء بيد يعفر الحوالي. فقد دخلتها القوات اليعفرية أكثر من مرة عام 240هـ/854م ثم خرجت منها وعادت إليها عام 244هـ/858م وهكذا تراوحت المواقف -كراً وفراً- بين الطرفين[42].

* * *

ومن جانب آخر يلاحظ الباحث تطوراً ملحوظاً في أوساط بني حوال فبعد الصلح مع جعفر بن دينار لا نجد ليعفر الحوالي ذكراً في الوقائع والأحداث وإنما نجد ابنهُ محمد يبرز على السطح وأصبح غلمانهُ هم الذين يديرون دفة الأحداث وربما حصل هذا التمكين لمحمد بن يعفر من خلال جهوده الذاتية وتغلبه على أبيه وأسرته.

فقد جاءت إشارة عند الهمداني[43] أن أحمد بن يعفر الموصوف بأنهُ كان خياراً فاضلاً جواداً كان قد ولى الأمر قبل أخيه محمد ولكنه خلع إليه الإمارة وتبرأ منها.

وهذا يدل على أن يعفر الحوالي عهد بالإمارة إلى ابنه أحمد إلا أن طبيعة هذا دفعته إلى التخلي عن الإمارة وسلمها لأخيه محمد ومع هذا لا نستطيع أن نلغي فكرة إكراه محمد لأخيه أحمد على التخلي عن الإمارة ولا نعرف ما إذا كان أبوهما ما زال على قيد الحياة أم لا؟ ولعل من المرجح أنهُ قد توفي لأنه لو كان حياً لاستمر في الإمارة واستخدم أولاده قواداً تحت إمرته.

وهكذا نجد سني حكم محمد بن يعفر تبدأ من منتصف العقد الرابع من القرن الثالث الهجري بعد أن توارى نجم أبيه يعفر إلى أن آثر محمد نفسه اعتزال الحياة السياسية عام 262هـ/875م وسلّم أمر إدارة مملكته إلى أبنه إبراهيم مؤثراً حياة جديدة تقوم على العكوف على العلم والزهد وسماع الحديث[44].

وقد تميز محمد بن يعفر بصفات أهلته لتولي الإمارة بعد أبيه فهو على قدر من الصلاح، ويتحلى بالحزم الذي يصل أحياناً إلى البطش والجبروت وفي الوقت ذاته لم يكن يحمل في نفسه نزعة التمرد على الخلافة العباسية، بل لقد وصفه الموفق بأنهُ في طاعة وديانة وأنهُ شديد الولاء والنصح والصدق للخلافة وأنه كان يذب عن الرعية ما وسعته طاقته وأنه كان ضابطا لما تولاه، شاكرا للخلافة ما قلدته، متفقداً لأطراف إمارته، حريصاً عليها[45].

وتوحي بعض الإشارات بأنهُ كان على صلة حسنة بأفراد من البيت العباسي عكست نفسها على علاقة الدولة به.

فالهمداني[46] يمدنا - كعادته - بلمحات إخبارية دون تفصيل فيوقع الباحث في حيرة من أمره فيصف محمد بن يعفر بأنهُ كان مقرباً من الموفق طلحة بن المتوكل (م278هـ/891م) الذي كان يدير أمر الدولة باسم أخيه المعتمد بن المتوكل (م279هـ/892م) ويبين أن سبب ومنشأ هذه المنزلة عند الموفق جاءت من موقف وقفه محمد بن يعفر إلى جانب الموفق في أزمة سياسية أو شخصية تعرض لها الموفق في مكة.

وبالرغم من البحث المستقصي عن هذه الحادثة التي ذكرها الهمداني إلا أننا لم نعثر على شيء يدل عليها، ومع هذا فنحن نعرف أن الموفق كان مقيماً في مكة قبل أن يتولى أمر الدولة لأخيه المعتمد ولعله عاصر الأحداث التي حصلت في مكة عام 250هـ التي قام بها إسماعيل بن يوسف المطلبي فنهب منازل كل من كان لـهُ صلة بالعباسيين[47] ولعل محمد ابن يعفر تدخل شخصياً في تخليص الموفق من هذه الأزمة إما عن طريق بعض أعوانه أو عن طريق المفاوضة المباشرة وأصبح الموفق يرى في عنقه ديناً لمحمد بن يعفر ولعله كان يتحين الفرصة ليفي لهُ بهذا الدين.

وحينما تولى أخوه المعتمد الخلافة ظل يدير أمر الدولة بأعوان معظمهم من الأتراك الذين كان لهم الأثر السيئ في إثارة الاضطراب في الدولة لسيطرتهم على

الخلفاء والتدخل في عزل وتولية من شاءوا. وأستمر الوضع على هذا الحال إلى أن وجد نفسه بعد سنة من حكمه أن الأحداث تتكاثر عليه سواء من قبل الخارجين عليه من علويين وفرس وغيرهم أو من عدم الانسجام بين قواده الأتراك فاستدعى أخاه الموفق عام 257هـ/871م وأعطاه الولاية العامة على جميع أقاليم المشرق ومنها اليمن[48].

وبوصول الموفق إلى سدة الحكم ولأن اليمن تدخل ضمن نطاق نفوذه حانت فرصة المكافأة فأقدم على خطوة جريئة وهي إسناد أمر اليمن إلى عدو الدولة العباسية القديم، محمد بن يعفر الحوالي وهي خطة ليست ببعيدة عن سياسة الدولة العباسية التي تأخذ بسياسة الأمر الواقع كما ذكرنا آنفاً.

وقد ساعد على اتخاذ هذه الخطوة سياسة محمد بن يعفر نفسه فهو بحنكته السياسية كان مدركاً لسياسة الخلافة جيداً، ولمدى العلاقة التي تربطه بالموفق سارع بعد تأكده من نفوذ الموفق في دار الخلافة فأرسل عام 258هـ/872م بيعته للخليفة المعتمد، وبتصرفه هذا قدم للموفق المبرر الكافي لأن يوليه على اليمن كلها في المحرم من عام 259هـ/872م[49].

وقد أحتفظ لنا صاحب كتاب تاريخ اليمن والذي ما زال مجهولاً[50] بمرسوم التولية على اليمن موجه من الموفق إلى محمد بن يعفر.

وبالرغم من إجماع المصادر التاريخية اليمنية على أن محمد بن يعفر ولي على اليمن كلها فوجه عماله إلى المخاليف وإلى حضرموت[51] إلا أن خطاب التولية جاء في ديباجته ما يفيد بأنهُ "ولاه الصلاة وأعمال المعادن والحرب والأحداث والخراج والضياع والأعشار والصدقات ودور الضرب وساير أبواب الجبايات بصنعاء اليمن ومخاليفها وجميع أعمالها ونواحيها"[52].

فهل يعني بصنعاء هنا اليمن كلها فذكر الجزء وأراد به الكل أم أن الأمر على الحقيقة فهو لم يتول إلا صنعاء فقط؟

إن دراسة واقع اليمن في ذلك الوقت يعطينا اليقين بأن المقصود بالتولية على اليمن كلها ما عدا المناطق التي فيها قوى منعزلة عن الدولة العباسية مثل المناخيين في المذيخرة[53] والشراحيين في وصاب[54]. أما تهامة فكانت قد ربطت -كما يبدو- بتهامة الحجاز وأصبحت تابعة لإمارة مكة إحدى إمارات الدولة العباسية.

فاليمن إذن لا توجد فيه قوة منافسة لابن يعفر وبالتأكيد يوم أن وصله خطاب الولاية لم يكن مسيطراً على مناطق اليمن كلها وإنما أمتد نفوذه -وهذا ما تؤكده المصادر- بعد ذلك حتى شمل مخاليف اليمن[55] الواقعة في السلسلة الجبلية الممتدة من شمال نجران شمالاً حتى عدن وحضرموت جنوباً وشرقاً[56]. ويؤكد ما ذهبنا إليه أن الموفق أسند الوزارة عام 265هـ/878م إلى صاعد بن مخلد المعروف بذي الوزارتين[57]. فبعث كتباً إلى الآقاليم والأمصار ومنها اليمن حيث أقر محمد بن يعفر على "ولاية اليمن"[58]، وإن لم يحتفظ لنا بنص كتاب التولية إلا أن الدولة العباسية ممثلة بوزيرها الأول تؤكد على سياستها العامة مع الأمراء المتغلبين على بلدانهم.

ولا أرى صحة لما أقحم في جل -إن لم يكن في كل- المصادر اليمنية المتأخرة بدءا من السلوك للجندي[59] معتمدين على ما جاء من تخليط في كتاب عمارة اليمني[60] من أن محمد بن يعفر بالرغم من غلبته على صنعاء والجند وحضرموت كان يوالي ابن زياد صاحب زبيد، ويحمل الخراج إليه لكونه نائباً عنه لعجزه عن مقاومته.

وهذا الرفض لهذا الإقحام يأتي من اليقين بأن دولة بني زياد لم تكن يوماً ما موجودة بهذا السلطان في هذه الآونة وقد بحثت هذه القضية في بحث مستقل[61] وأكبر برهان على هذا أن أقدم مصدر تاريخي وهو ما كتبه الهمداني لم يذكر ابن زياد إلا في القرن الرابع الهجري وإن لم يكن ما وصل إلينا من كتب الهمداني متخصصاً

في التاريخ إلا أن كتاب ابن جرير لم يذكر ابن زياد وهو أقدم المصادر التاريخية على وجه التأكيد وأما ما جاء عند الجندي ومن تبعه فمنقول عن ابن جرير إلا ما يخص دولة بني زياد فقد نقلت عن عمارة اليمني.

* * *

بعد إضفاء الشرعية على حكم محمد بن يعفر بولائه للخلافة العباسية توجه لإدارة البلاد وإحكام قبضته عليها وبناء المؤسسات المطلوبة للبلاد، ولم يتخذ من صنعاء عاصمة لهُ منذ الوهلة الأولى بل استخلف عليها أحد أمرائه[62].

وربما أقدم محمد بن يعفر على هذا الإجراء لما كانت تمر به صنعاء من عدم استقرار فقد تعرضت لنكبة اقتصادية عام 260هـ/873م وذلك نتيجة القحط الذي ألم بها وبالرغم من تدخل واليها للتخفيف من هذه الأزمة إلا أن أهل صنعاء تضرروا من ذلك كثيراً[63]..وما كادت تدفع عن كاهلها ثقل هذه الأزمة حتى رزحت مرة أخرى تحت نكبة طبيعية أخرى فقد داهمها سيل ضخم في أواخر عام 262هـ/875م وأحدث خسارة جسيمة في الأرواح والأموال والدور[64].

ولا شك أن هذه الكوارث التي ألمت بصنعاء في بداية حصول محمد بن يعفر على شرعية حكم اليمن باسم الخلافة جعلته يظل في قلعته شبام وجعل نواباً عنهُ في صنعاء.

أما إدارة دولته عموماً فقد حاول التشبه بالخلفاء أو الملوك فجعل لنفسه وزيراً كلفه بمهمة الوزارة والكتابة والصلاة[65] وسعى إلى استحداث جهاز إداري ومالي وأمني لضبط البلاد.

وبالرغم من هذا إلا أن الأمير محمد بن يعفر لم يكن لهُ سلطان على السلطة القضائية فقد ظلت مرتبطة بالخلافة فتأتي عهود توليتهم من الخليفة نفسه. وقد أمدنا ابن جرير[66] بأسماء مجموعة من القضاة أسند إليهم منصب القضاء على اليمن في عهد محمد بن يعفر، ولولا تفرد ابن جرير بتسجيل أسمائهم في كتابه لضاع كل شيء حتى هذا القليل الغامض. ومن أبرز القضاة في هذه الآونة محمد بن يوسف الحذاقي[67] وكان خطاب التكليف الذي بعثه إليه ولي عهد المتوكل محمد المنتصر الذي كان مشرفاً على اليمن من أبرع ما كتب في القضاء فقد تضمن العديد من أحكام القضاء الإجرائية للفصل بين المتخاصمين[68]. ولم يصل إلينا ما يدل على الألقاب التي كان محمد بن يعفر يطلقها على نفسه فلا هو ينافس الخليفة في لقبه ولا هو عرف بالملك أو السلطان.. وإنما نجد في الرسائل المتبادلة مع الدولة العباسية بأنهُ أحد ولاتها وأنهُ عامل فيما قلد من أمر البلاد[69]. ويبدو أنهُ كان يكتفي بلقب (الأمير) دون ما عداه.

وكان للخليفة المعتمد وأخوه الموفق اليد الطولى في التوجيه إلى محمد بن يعفر لإنشاء جهازه الإداري. فقد جاء في خطاب توليته توجيهات صريحة بإنشاء جهاز إداري متكامل ليساعد على إدارة البلاد وحدد مهمة كل إدارة وصفات متوليتها. فبعد الديباجة ذكرّه بالالتزامات الفردية التي عليه من تقوى وورع تؤهله لأن يحسن إلى الناس ومما جاء في خطاب التولية ما يلي:

1. أن يقرب القواد ويكرمهم ويحسن إلى الجنود.
2. أن يستعمل على الشرطة من يتصف بالقوة والدين.
3. إنشاء الدواوين وحدد صفات الموظفين في هذه الإدارة.
4. إنشاء فريق لمراقبة ومحاسبة العمال في الأقاليم ليتم بموجب ذلك مجازاة المسيء ومكافأة المحسن.
5. إيجاد منصب المحتسب الذي يتعهد الناس في أسواقهم، ووضع للمحتسب شروطاً دقيقة.
6. أفرد للجانب المالي جزءاً من خطاب التولية: فقد حدد مواصفات موظفي الشئون المالية.. ثم بين متى وكيف يحصل المال الواجب تحصيله مما لا يؤدي إلى الإضرار بالناس[70].

ولم يصل إلينا ما يفيد عدم تنفيذ هذه التوجيهات إن لم يكن محمد بن يعفر قد عمل على إنشائها قبل التوجيه بها.

وينبغي أن نلفت النظر إلى أمر هام سار عليه محمد بن يعفر ولعله فعله إقتداءً ببلاط الخلفاء فقد أسند مهمات دولته إلى غلمانه وكان أشهرهم مسعود بن الحجاج وطريف بن ثابت الذين كان لهما اليد الطولى في التغلب على صنعاء أكثر من مرة بل كان على أيديهم تفرقت دولة بني يعفر كما سيأتي ولعل عمل محمد بن يعفر هذا أدى إلى ما يشبه عصر نفوذ الأتراك على الخلفاء العباسيين.

• • •

لم يستمر هذا العصر المزدهر الذي عاشه بنو حوال طويلاً فقد سعوا – بأيديهم- إلى هدم المبنى على رؤوسهم فقد بنى يعفر ثم ابنه محمد دولة وانتزعت من يد الدولة العباسية وما لبث أن سلمت لأبي يعفر إبراهيم بن محمد بن يعفر الذي أقدم على ممارسات أودت بحياته وتناثرت أشلاء.الدولة اليعفرية على يده وظلت الدولة تلملم نفسها وتضمد جراحاتها حتى توفرت عوامل كثيرة لعودة الدولة اليعفرية مرة أخرى كي تقف على قدميها ولكن بجوار دويلات أخرى وليست منفردة في الساحة.

أما العوامل التي ألمت بآل حوال وأدخلتهم سرداب الاضطراب في هذه الآونة فمنها عوامل داخلية تمثلت في كيفية انتقال السلطة وسوء الإدارة وعوامل خارجية تمثلت في ظهور قوى شابة مدعومة من الخارج كالقرامطة والزيدية، وبروز زعامات قبلية محلية منافسة لزعامة بني يعفر وتدخل الدولة العباسية المباشر لإعادة بسط نفوذها على اليمن.

أما العوامل الداخلية فأولها: ما حصل داخل البيت الحوالي من خلل واضطراب وذلك في الكيفية التي تمت فيها انتقال السلطة من زعيم إلى آخر فلم نعرف –مثلاً– كيف تسلم محمد بن يعفر الحكم بعد أبيه فهل كان ما زال على قيد الحياة وهل تنازل عن الحكم لأبنه محمد وكيف؟ ولماذا؟ هل لكبره وعجزه؟ أم هل سيطر عليه ابنه وهو الموصوف بالجبار[71] وعزله عن الحياة السياسية؟ لا نستطيع أن نجيب على هذه التساؤلات لانعدام المعلومات في المصادر التي بين أيدينا، ولا نتفق مع محقق كتاب: افتتاح الدعوة[72] في استنتاجه العاري عن الدليل من أن محمد بن يعفر خالف أباه ودعا لبني العباس فجاءه مرسوم بالولاية من الخليفة. لأن يعفر الحوالي – كان من الكبر ما جعله ينعزل إن لم يكن قد توفى، لأنهُ كان قد صالح جعفر بن دينار في عهد المتوكل، ولأن محمد بن يعفر كان يرى أن السلطة بيده وأن سلطان الخلافة ضعيف عموماً وفي اليمن خصوصاً ولا يسوغ هذا الوضع الارتماء في أحضان الخلافة وقد أشرنا آنفاً إلى أن من المحتمل أن محمد بن يعفر سيطر على أخيه احمد الذي تنازل لهُ أبوه فأجبره على التخلي عن الإمارة أو أن طبع احمد لم يؤهله للحكم فتولى أخوه من بعده.

والأمر ذاته تم مع محمد بن يعفر حيث ترك الحكم لابنه أبي يعفر إبراهيم وقد أبان لنا الهمداني[73] سبب هذا الترك بأن محمد "تديّن وقرب العلماء وسمع كتب عبدالرزاق وغيره من الحديث" ومعنى هذا أنهُ ترك المشاركة السياسية للبلاد طائعاً وأنعزل بعيداً عن الحكم متخذاً لنفسه حلقة علمية في شبام يتعلم فيها، ولا نظنه أقدم على هذه الخطوة منفرداً بها عمن ولاه على إمارة اليمن وهو الخليفة وإنما أرسل إلى الموفق وطلب منهُ قبل أن يذهب إلى الحج عام 262هـ/876م تجديد العهد لابنه إبراهيم فأقره الموفق على ما قام به وأمده بقاضٍ على اليمن[74].

ولم تنقض عجائب هذه الأسرة في انتقال الحكم فيها فقد تعرض محمد بن يعفر وأخوه أحمد للقتل غيلة في مسجد شبام وبأمر من أبي يعفر إبراهيم ابن محمد.

أما دوافعه إلى ذلك فلا نستطيع أن نقبل ما ذكره الخزرجي[75] نقلاً عن الشريف إدريس بأن يعفر الحوالي

أمر ابن ابنه إبراهيم بن محمد بقتل أبيه وعمه أحمد فقتلهما عام 270هـ/883م ولا نقبل هذا الرأي لأننا نعتقد أن يعفر الحوالي لم يكن على قيد الحياة في هذا الوقت وإذا افترضنا وجوده حياً فإنهُ يكون قد بلغ من الكبر عتيا مما يجعله عازفاً عن المشاركة في أي ممارسة سياسية خصوصاً أنهُ قد توارى عن الأنظار من حوالي أربعين سنة هذا بالإضافة إلى أن كلا من محمد وأحمد نفسيهما قد اعتزلا السياسة تماماً وليست لهما أطماع في السيطرة على إبراهيم لذلك لابد من الموافقة على ما جاء عند الهمداني[76] حينما وصف إبراهيم بأنهُ "كان داعراً إذا سكر، أديباً عالماً خطيباً بليغاً إذا صحى، وحمله الإدمان على الشراب، أن قتل أباه وعمه" والرواية التي وردت عند ابن جرير[77] -بالرغم مما حصل فيها من اضطراب في صياغة النص- تؤيد ما جاء عند الهمداني إضافة إلى ذلك أنها أعطتنا تفصيلات هامة فقد حددت مَن الذي حرض على هذا الفعل ومَن الذي نفذ فالمنفذون هم من همدان والمحرض أظنهُ هو الآخر همداني.. أما دوافعهم إلى هذا فلا أظنه إلا الثأر الناشب بين الحواليين والهمدانيين.. ولكن كيف استجاب أبو يعفر لهذا فلا مندوحة من قبول وصف الهمداني من أنهُ كان في حالة سكر، وسنلاحظ فيما بعد أن الهمدانيين أنفسهم كان لهم الدور الأكبر في زعزعة حكم آل حوال.

وقد أدى هذا القتل الظالم لرجلين لا مطمع لهما في حكم ولا سلطان إلى تشتت حكم إبراهيم بن محمد وتفلت بعض القوى القبلية عنه ويشبه حال أبي يعفر إبراهيم إلى حد كبير بحال المنتصر بن المتوكل المعاصر لإبراهيم الذي رضي بقتل أبيه فتشتت ملكه بعد ذلك.

وأدى أيضاً إلى تأرجح إبراهيم بين الاستمرار في الحكم أو الانعزال عنهُ فتنازل بالولاية لابنه عبدالرحيم ولكنه ما لبث أن عاد إليها وعزل ابنه وظل بعدها قابضاً على الحكم ست سنوات أخرى حتى قتل على يد أعوانه في المحرم من سنة 279هـ/892م[78].

وبقتله تناثر ملكهم وتولى موالي آل يعفر أقاليم البلاد لصالحهم وظهرت الدولة الهادوية الزيدية واضطرت الدولة العباسية إلى أن تبسط سلطانها على اليمن بنفسها دون اللجوء إلى الخطة السابقة وهي تسليم الأمر لقوى من الداخل لأن الوضع الداخلي لم يعد مطمئناً لكثرة بروز مطامع زعماء القبائل.

وثانيهما: سوء الإدارة في الدولة اليعفرية:

فقد أصروا على اتخاذ شبام عاصمة لهم ولم يركزوا اهتمامهم على صنعاء بل ظلت العقلية الحربية مسيطرة عليهم فلم يروا التفريط بشبام بصفتها قاعدة وقلعة حربية حصينة ولم يفرقوا بين الاعتصام بقلعة للحرب وبين مدينة تكون عاصمة تحتوي على جميع المظاهر الحضارية.

بالإضافة إلى هذا الجانب الهام فإنهم أعطوا مقاليد أمورهم الحربية لغلمانهم ولم يقربوا إليهم على النحو المرجو الواعي المستمر الزعامات القبلية ويسندوا إليهم إدارة المناطق مما جعل هؤلاء الغلمان يعيثون في البلاد فساداً.

وكان إبراهيم بن محمد بن يعفر أسوأ من أدار البلاد من بني يعفر وبالرغم من أن حكمه استمر من عام 262هـ/875م إلى عام 279هـ/892م إلا أنهُ استخدم أسلوباً فظاً غليظاً مع الناس حتى ضجوا بالشكوى إلى الخليفة.

ونلمح هذا من خلال وثيقتين هامتين[79] وصلت إلينا إحداهما رسالة أرسلها الموفق إلى أبي يعفر نفسه يعظه فيها ويحذره من التجاوز والظلم. والأخرى هي عبارة عن رد رسالة بعثها الخليفة المعتمد إلى كل من الدعام بن إبراهيم الهمداني وإلى أبي معشر بن الروية المذحجي. أما مضمون الوثيقتين فواحد وهو أن إبراهيم بن محمد أقدم على "سفك الدماء وركوب العظائم، وانتهاك المحارم وإظهار المنكرات، وأخذ أموال الرعية وثقل الوطأة عليهم، وإحداثه ما أحدث على أهل صنعاء".

وأن زعماء صنعاء واليمن قد بعثوا بالشكوى أكثر من مرة.. وأن الموفق قد أرسل بالرسائل إلى أبي يعفر أكثر من مرة وزجره عن فعله باستمرار.

هذا كله ولد عند الزعماء والوجهاء شعوراً بالغضب والغليان والرغبة في التمرد على عمال إبراهيم وعليه هو نفسه فطردوا عماله من صنعاء وأحرقوا ما يمتلكه فيها[80] ووصل الأمر إلى قتله بتحريض من الخليفة العباسي أو برضاه على أقل تقدير[81].

وثالثهما: الصراع الداخلي:

فقد نشب صراع مرير بين غلمان آل يعفر من ناحية واحفاد يعفر من ناحية أخرى وأوصلا الأمر إلى إعادة السيطرة العباسية المباشرة على اليمن ففي هذا الوقت شغب علي آل يعفر غلمانهم الذين ربوهم للدفاع عنهم أمثال آل طريف فقد أصبحت لهم السيادة على صنعاء[82] يقررون أمرها من دون آل يعفر في الوقت الذي أنشغل هؤلاء بتصفية الحسابات فيما بينهم حتى وصل الأمر بغلمان آل يعفر إلى أن يتدخلوا لقتل أميرهم أبي يعفر إبراهيم بن محمد بن يعفر الحوالي[83].

وأصبحت الزعامة الحوالية بيد أسعد بن إبراهيم وعثمان بن أحمد وكل منهما يعمل للانقضاض على الآخر، ولم ينته هذا التنافس إلا حينما تمكن أسعد من قتل عثمان عام 292هـ/904م[84].

أما العوامل الخارجية التي ساعدت على اضمحلال الدور اليعفرية في اليمن في عهد ضعفهم الأول فأهمها:

1. ظهور قوى جديدة فتية تسعى إلى بسط نفوذها على اليمن وهي قوى لها هوية مذهبية، وأبرزها الفرقة الإسماعيلية التي أنبتت القرامطة والفرقة الزيدية، ولهما اصل مذهبي واحد وهو الشيعة ولكنهما يختلفان اختلافاً شديداً في أصولهما وفروعهما معاً.

لقد أصبحت اليمن –لعوامل استراتيجية– مطمع أنظار كل صاحب مذهب أو كل راغب في الخروج عن الخلافة.

ففي الوقت الذي انعزل محمد بن يعفر عن الإمارة عام 262هـ/875م كانت الإسماعيلية – وتشتهر في اليمن باسم القرامطة أو الباطنية– تمد بصرها إلى اليمن جاعلة منها مطمحاً في مستقبلها لتكون مقراً لدولتها المرتقبة فأرسلت دعاتها إلى اليمن في هذه الآونة وزودتهم بالخطط الكاملة (لحرث اليمن) تمهيداً لظهور الإمام[85] وتنبهت لهم السلطات اليعفرية وحاولت إسكات أصواتهم ولكنهم استطاعوا أن ينفذوا من هذه المطاردة لظروف تهيأت لهم في المناطق الجنوبية الشرقية من اليمن. ووصل لهم الحد إلى أن يجتاحوا صنعاء عام 290هـ/903م ويكتسحوا كل القوى القبلية التي كانت امامهم بما فيهم آل يعفر أنفسهم[86].

وفي الوقت ذاته أقدمت الزيدية على وضع الخطط للبحث عن موطئ قدم لها في اليمن وذلك بعد فشل تجربتها على يد إبراهيم الجزار في مطلع القرن الثالث الهجري ونعتقد أن اليمن كان يحتفظ في أحشائه بعاطفة نحو العلويين ولهذا فقد تمكنت الزيدية من النجاح بمساعدة من الداخل على يد قبائل من خولان بل وعلى يد غلمان بني يعفر أنفسهم وهم آل طريف الذين كانوا يبسطون نفوذهم على صنعاء[87] ولم يلبث الهادي يحيى بن الحسين (م298هـ/910م) –الذي دخل اليمن بمساعدة من الداخل– أن أستحوذ على ممتلكات آل يعفر في الوقت الذي كانوا فيه مشغولين بالصراع الدائر فيما بينهم.

2. التدخل المباشر للدولة العباسية في اليمن فقد كانت دار الخلافة تعاني من وباء التطلعات الانفصالية المستشري في البلاد وبالذات تلك التطلعات ذات الخلفية المذهبية التي تقدم نظرية فكرية بديلة لما عليه الدولة وهذا الذي يجعلها أكثر خطورة، واهتمامهم باليمن وحرصهم عليه لا نعتقد أنهُ لما يدره على الدولة من خيرات فهو أضعف من هذا وإنما لأنهُ جزء من الدولة ولا ينبغي التغاضي عنه، ولأنهُ بعيد عن مركز الخلافة

وذو طبيعة وعرة ربما كان صالحاً لإيواء الخارجين عن الدولة ولقربه من مكة والمدينة اللذان يشكلان مركزاً حساساً للدولة وللمسلمين عموماً يحتم على الدولة المحافظة عليه مهما كبدهم من خسائر، وما دام اليمن أصبح مأوى الشيعة الزيدية والشيعة الإسماعيلية وما دامت القوة التابعة للعباسيين ممثلة باليعفريين قد تفلتت فكان لابد من التدخل المباشر فأرسلوا قائداً محنكاً وهو علي بن الحسين (جفتم)[88] إلا أن الوضع كان أكبر من حنكته السياسية والإدارية لذا فقد كان آخر والٍ عباسي يدخل صنعاء وكأنهُ كان هو النَفَس الأخير الذي زفرته الدولة العباسية داخل اليمن.

والغريب أن العباسيين لم يدخلوا ليكونوا في صف بني حوال على مناوئيهم وإنما ليتفردوا بالسيادة على من عداهم مع إقرار الحواليين على منطقة شبام[89]، وكان الإدارة العباسية لم تكن تثق بالقيادة اليعفرية -بعد ضعفهم المتردي- فلم تعمل على تقويتها أو المحافظة على ما لديها من قوة، ربما تصور (جفتم) بأنهُ يستطيع التصدي لهذه القوى كلها والانفراد بالسيادة فاتخذ خطوة إنفرادية محضة كانت سبباً في نكبته بل ونهاية الدور العباسي المباشر في اليمن كما سيأتي بيانه.

3. ظهور شخصيات يمنية متنافسة على السلطة أسهمت إسهاماً كبيراً في اضطراب الأحوال واضعاف آل يعفر.. مثل قوة بن الروية المذحجي والدعام الهمداني وابن الضحاك الهمداني، وبما أن بعضهم كان قد راسل الخليفة يشكو أبا يعفر وسوء إدارته -كما بينا- فإن من المفترض أن كل واحد منهم كان يرى نفسه الأحق بتولي الإمرة على اليمن ولكنهم جميعاً فوجئوا بأن الخلافة أرسلت قائداً من قبلها على رأس قوة عسكرية للحصول على سيادة مباشرة من تلك الولاية الاسمية.

فقد وصل علي بن الحسين - جفتم- إلى اليمن وابن الروية والدعام كانا قد تعاونا ودخلا صنعاء وربما تنفيذاً لتوجيهات الخليفة للخلاص من أبي يعفر فأحنقهما هذا التصرف ثم أصابهما الارتباك وعدم التصرف الموحد فتباينت المواقف فابن الروية أنسحب إلى بلده وإن كان على علاقة حسنة بجفتم إلا أنهُ ربما مد بعض العلاقات بالدولة الزيدية بصنعاء[90]، أما الدعام فقد ظل على علاقة هادئة مع جفتم ولكنها علاقة واجفة متوجسة إلى أن حانت الفرصة للانقضاض على قوات جفتم فانكشفت نواياه فانقلبت خطة جفتم من الدفاع إلى الهجوم فطارد الدعام حتى أخرجه من صنعاء فوجد نفسه مضطراً للتحالف مع دولة الهادي[91] ضد كل من الحواليين والقوات العباسية الممثلة بالوالي (جفتم).

وأما أحمد بن الضحاك الحاشدي عظيم همدان وشريفها فقد ظل مرتبط الولاء بالدولة الهادوية، وقدم إلى صعدة ليبايع الناصر بن الهادي[92] وكان له صولات وجولات في القرن الرابع مع وضد بني يعفر[93].

• • •

بدأ عهد الاضطراب الأول في كيان دولة بني يعفر والعلاقة مع الدولة العباسية ما زالت حسنة خاصة حينما انتقلت الإمارة سلمياً من محمد بن يعفر الذي رغب عن الإمارة وأقبل على الحلقات العلمية يرتشف منها العلم عام 262هـ/85م[94] إلى ابنه إبراهيم راغباً طائعاً طامعاً في استقرار الدولة وهدوئها -ولا أظن محمد بن يعفر كان يعلم أن ابنه غير كفء لهذه المهمة ولا أتصور أنهُ كان يعرف أن ابنه سكيراً كما وصفه الهمداني[95] وهو التقي الورع ولو كان دار بخلده أن ابنه بسياسته الشوهاء هذه التي ستؤدي بالدولة اليعفرية إلى الاضمحلال لما ولاه على ما ورثه من ملك إلا أنهُ بالرغم من طيش أبي يعفر إبراهيم وسوء سياسته فإن الخلافة العباسية لم تصنع شيئاً لكبح جماح شهواته سوى تلك الرسائل الوعظية التي كانت ترسل من الموفق إلى أبي يعفر ناهية وزاجرة ومحذرة من مغبة ما يصنع.

وكان -كما يبدو- يتلقاها على سلطانها بل لقد كان - حينما يتلقى الرسائل من الخليفة- يتناولها بأدب

جم ويلثمها تقبيلاً علامة على المزيد من الاحترام[96] ولا ندري لم كل هذه المبالغة في هذا الجانب بينما لا يحسن فعل هذا في إدارة سياسته كلها.. هل هذا الموقف دخيل على ما عرف عنهُ أم أن ما قيل عن سوء سياسته محض افتراء، إن الواقع يفيد غير هذا كما أوضحناه آنفاً.

بالإضافة إلى احترم الخلافة فإنهُ كان يتلقى منها الأوامر بتعيين القضاة دون أن يظهر منهُ عدم رضاه بهذا الإجراء.

ولعلم الجميع بارتباطه الكلي بالخلافة كانت الشكاوى ترفع من اليمن إلى الخليفة يطالبونه بأن يختار من يرضاه ويقلده العمل مكان أبي يعفر، نظراً لما يتصف به من سوء في إدارته وعلاقاته[97].

وهذا الموقف من وجهاء اليمن يفيدنا بأن أبا يعفر لم يكن على رأس دولة ذات سيادة منفصلة عن الدولة العباسية ولها ثقلها الواقعي بل هي ممثلة للخلافة ومن حق الخليفة بل وفي قدرته أن يعزل من شاء من قادتها —وهذا مفهوم رسائل الدعام وابن الروية إلى الخليفة المعتمد.

وكان المعتمد قد أسند اليمن إلى المعتضد أبي العباس احمد بن الموفق بن المتوكل حينما ولاه ولاية العهد سنة 278هـ/891م بعد موت أبيه الموفق بأيام[98].

كما تلقى الخليفة المعتمد رسائل وجهاء اليمن فرد عليهم وأبلغهم بأنهُ "رد هذه الناحية وغيرها من سائر النواحي شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً إلى أبي العباس المعتضد بالله ولي عهد المسلمين ابن الناصر لدين الله"[99] وطالبهم بالسمع والطاعة له والانتقال -هم وعشائرهم- لما يأمرهم به المعتضد، ولم تخبرنا المصادر بشيء فعله المعتضد[100] ولا يوجد ما يؤكد تدخله في قتله بالرغم من الإشارة الواضحة في رسائل المعتضد المحرضة على الخلاص منهُ إلا أن الراجح أن قتل أبي يعفر يرجع إلى مبادرات داخلية من جانب بعض وجهاء اليمن أنفسهم.

ولم يقم أحد من ابناء يعفر لتولي الأمر من بعده ولكن الذي نهض وتسلم الأمر في شبام هو عبد القاهر بن أحمد[101] وكأنهُ قام منتقماً لمقتل أبيه على يد أبي يعفر ولا صحة لما قاله محب الدين الخطيب[102] من أن الخليفة العباسي (المعتمد) أرسل بعهده بالولاية بعد إبراهيم لأبنه يعفر لأن الهمداني[103] —وهو العليم بأنساب اليمن— لا يذكر ابناً لإبراهيم اسمه يعفر، ولم يمدنا محب الدين الخطيب بالمصدر الذي أعتمد عليه، ومن الملاحظ أن الخلافة العباسية كانت تخطط لإرسال من يقوم بأمر اليمن مباشرة ولذا نجد وصول (جفتم) إلى صنعاء بعد تولي عبد القاهر بأيام مما يدل على أن الخلافة كانت تعد سلفاً لبسط النفوذ المباشر على اليمن دون وساطة من احد وأن مقتل أبي يعفر لم يكن سبباً لمجيء الوالي العباسي بل قد يكون المجيء السريع إلى اليمن هو للتخلص من أبي يعفر واحلال البديل العباسي المباشر مكانه.

ولا نعرف ما إذا كان الوالي العباسي (جفتم) قد أقر عبد القاهر على ما هو عليه أم لا؟ ولكننا نعرف أن عبد القاهر هذا كان مقره شبام[104] في الوقت ذاته ظلت علاقة (جفتم) بالدعام غير مطمئنة إلى أن حصل بينهم القتال فهرب الدعام من صنعاء. ويبدو أن (جفتما) أسند إدارة صنعاء إلى بشر بن طريف أحد موالي محمد بن يعفر فكرست شرعية حكمه أكثر ومع هذا وجد نفسه أمام وضع غير مستقر لأن البحث على الساحة اليمنية عن بديل للسلطة العباسية لا يكل ولا يمل. فالقرامطة — بعملهم السري الدؤوب- بدأ يفوح ريحها، والتطلع إلى شخصية قيادية تقبض زمام اليمن قائم ولو من غير العباسيين، كل هذا جعل بشر بن طريف يزداد تمكناً في إدارته وكان على علم بالخطوة التي أقدم عليها ابنه أبو العتاهية عبد الله بن بشر بن طريف باستدعائه يحيى بن الحسين إلى اليمن عام 280هـ/893م لأنها الأرض الصالحة لتقوم فيها دولة زيدية[105] إلا أن المحاولة باءت بالفشل ربما لأن أبا العتاهية لم يكن صاحب الكلمة في حكم أبيه المرتبط بالوالي العباسي، ولأن بني يعفر في خلاف دائم فيما بينهم أنفسهم وفيما بينهم وبين مواليهم

وفيما بينهم وبين القبائل الأخرى بالإضافة إلى أن القبائل اليمنية – المتشاكسة- لا تجدي معها المحاولات اليائسة هذه فكان الوالي العباسي يرى هذا كله ويرى الأرض تهتز لتولد قوى جديدة وهو لا يملك القوة الكافية للمحافظة على البقاء لهذا آثر الانسحاب إلى العراق عام 282هـ/895م[106] ولا نظنه أنسحب إلا بإذن من الخليفة أو لخطة برزها لهُ أو أن الأوضاع في دار الخلافة كانت من الضعف أو الانشغال ما يجعلها غافلة عن محاسبة أحد ولاتها أو مراقبة أعماله.

ومن البدهي أن انسحاب (جفتم) سيقتضي تكليف من يقوم بمهمة الإمارة خلفاً لهُ فأسند حكم صنعاء إلى بشر بن طريف وأبقى تحت كنفه طائفة من الجند عرفوا (بالجفاتم) استوطنت صنعاء وأصبحت تشكل قوة من ضمن القوى الموجودة في اليمن وهي تدافع عن مصالحها ضد القوى الأخرى.

أما اليمن كلها فقد أسندتها الدولة العباسية إلى إمارة مكة لتكون تابعة لها إدارياً وبالتأكيد فإن هذه الإدارة – لبعدها- ستكون أضعف من إدارة (جفتم).

ولم تظل إمارة صنعاء على ولائها للدولة العباسية فبعد عام من خروج جفتم من صنعاء تولى أبو العتاهية عبد الله بن بشر بن طريف إمارة صنعاء بعد أبيه والذي لا نعرف هل توفى أم تنازل لابنه –الذي بدأ ينهج نهجاً جديداً منفصلاً عن الدولة العباسية فقد عين لنفسه القضاة والكتاب والأمراء[107] وهي نزعة استقلالية تنبئ عن خطة مستقبلية لتحقيقها. وفي خطوة جريئة نابعة من إيمانه بفكره أقدم أبو العتاهية على الاتفاق مع العلويين ليسلم لهم مقاليد صنعاء دون رضا من آل يعفر أو حتى بقية آل طريف أنفسهم الذين صاروا في سجن الهادي بعد أن اجتاح معظم المناطق وتمكن من دخول صنعاء عام 288هـ/901م[108].

ولقد تدخل الدعام لدى الهادي لإطلاق آل يعفر وآل طريف ولا ندري لماذا كان هذا التدخل من الدعام وهو الذي كان مغاضباً لآل يعفر.

واستطاع آل يعفر أن يلملموا شملهم واتفقوا معاً – أسعد وعثمان وعبد القاهر وعبد الحكيم- على التكاتف لمواجهة الأحداث[109] وتحركوا لمطاردة قوات الهادي واشتبكوا معها وتمكنوا من أسر ابنه محمد وحبسوه في شبام ويظهر الدعام مرة أخرى ولكن هذه المرة ليتوسط عند آل يعفر لإطلاق سراح ابن الهادي[110] وكان هذا الانتصار الذي حققه آل يعفر هو الذي دفعهم لقبول مبدأ المفاوضة مع دولة الهادي خاصة أن القرامطة قد أطلت برأسها لذا بدأت المفاوضات لانضمام آل يعفر إلى الهادي[111] لمواجهة الزحف القرمطي ويبدو أن تدافع الأحداث كان أكبر من هذا التحالف فقد وصلت القرامطة إلى صنعاء وهوجمت عاصمة ملك آل يعفر شبام أكثر من مرة فدخلتها القرامطة عام 290هـ/903م إلا أنهم ردوا على أعقابهم وكان آخرها عام 297هـ/909م دخلتها القرامطة وقتلوا فيها عبدالقاهر بن أحمد أمير شبام[112].

أما إمارة اليمن العامة التي أسندت إلى أمير مكة فنظنها كانت في الفترة الواقعة بين انسحاب (جفتم) عام 282هـ/895م وعودته مرة أخرى عام 291هـ/904م فقد كان أمير مكة هو عج بن حاج وهو أحد موالي المعتضد وولاه المكتفي ابن المعتضد عام 281هـ/894م على مكة ثم ضم إليه اليمن[113] وهو أسلوب جديد من أساليب التنصل العباسي من المسئولية. ولم يفعل أمير مكة سوى تجديد الولاية لأسعد وعثمان على اليمن[114]، ووقف يشاهد الهادي وهو يجتاح مناطق نفوذ دولة الخلافة.. ويشاهد القرامطة (الإسماعيلية) وهي تقتطع أملاك الدولة قطعة قطعة.. وتصل إلى علمه أخبار تعرض آل يعفر للقتال بل والسجن –كما بينا– واستيلاء الهادي على شبام مقر ملك بني يعفر[115]، ومع هذا كله لم يحرك أمير مكة ساكناً وليس ذلك إلا لما يعتري الدولة العباسية من ضعف واستخذاء.

وكما هو العادة أن يتوجه الناس نحو الخلافة يستنجدون بها.

فقد ذهب أحمد بن عبدالله بن عباد الإكيلي إلى العراق وقابل الخليفة المكتفي وشرح لهُ الأوضاع المتردية باليمن وتغلب الهادي والقرامطة عليها وعدم جدوى ما يفعله عج بن حاج. فأرسل الخليفة للمرة الثانية علي بن الحسين (جفتم) عام 290هـ/903م[116].

ولم يصنع (جفتم) ما كان متوقعاً منهُ لأن الطائفة التي ذكرناها آنفاً باسم (الجفاتم) كانت في احتكاك مستمر مع سكان صنعاء فما أن وصل حتى كان الناس في أشد الحنق على جفتم نفسه ولهذا اصطدم بآل طريف وليس بقوات الهادي ولا القرامطة وتمكن آل طريف من هزيمة جفتم وحبسوه في صنعاء فتدخل أسعد وعثمان فأطلقاه وحاولا التعامل معه ولكنهُ لم يكن متوازناً –رغم حنكته السياسية– ولم يكن موفقاً في سياسته هذه المرة لأنهُ أراد الانفراد بالسلطة بطريقة غير مأمونة، فحاول تدبير خطة للانقضاض على أسعد وعثمان فبادراه مع أهل صنعاء بالقتل قبل أن يقدم على قتلهما[117]. وبدأ دور جديد لآل يعفر.

• • •

تجمعت عدة عوامل في البلاد جعلت من نجم أسعد الحوالي دائم الصعود في الوقت الذي بدأ نجم منافسيه بالأفول فقد تولت القرامطة القضاء على ابن عمه عبد القاهر وأسعد نفسه تولى القبض على عثمان وحبسه في شبام[118] وتمكن من تحجيم آل طريف بالتعاون مع الدعام والهادي[119] وحاول الفرار من أمام القرامطة الزاحفة إلى شبام ثم خرج منها خائفاً يترقب مسترضياً ابن عمه عثمان بن أحمد فأطلقه من سجنه وحمله معه فارين من مطارديهما[120]. وفي خضم هذه الأحداث تعرض الناس لمجاعة أقعدتهم عن الحركة[121] وسقط الهادي ميتاً عام 298هـ/910م كل هذه الظروف جعلت من أسعد الحوالي يتطلع ليكون الرجل الأقوى في المنطقة.

ولم يقم بنو العباس بإجراء حازم لإعادة هيبتهم داخل اليمن بل حصل العكس من ذلك فبعد مقتل (جفتم) أسندوا اليمن مرة أخرى في عهد المكتفي (تولى الخلافة عام 289هـ/902م) إلى أمير مكة وقام هذا بتدبير إداري جديد وهو أنهُ أرسل والياً من قبله إلى اليمن لا ليصل إلى العاصمة صنعاء ولكن ليتخذ لنفسه مقراً جديداً وهو تهامة. فهي أقرب إلى مكة وأهلها أكثر أهل اليمن مسالمة، ولعل مقتل جفتم عام 290هـ/903م من قبل حلفائهم –بالإضافة إلى عوامل أخرى– جعلهم يصرفون النظر عن إرسال الولاة إلى صنعاء واقتصروا على تهامة ومنها تبذل المحاولات –إن أفلحت– لإخضاع القوى الخارجة على سلطان الخلافة لا لشيء إلا لأن دار الخلافة لم تعد مهتمة بالإطراف على النحو الذي كان متبعاً في مطلع الدولة العباسية فلديها ما يكفيها من متاعبها ومشاغلها في عقر دارها هي نفسها وما كان إسناد اليمن إلى سلطان أمير مكة إلا تحلة القسم فإن استطاع أن يصل إلى شيء فبها ونعمت وإلا فالعذر مقبول. فهذا هو السهم الأخير الذي بقي في جعبة الدولة العباسية.

لقد كلف مظفر بن حاج – وهو أخ لعج بن حاج أمير مكة– القيام بالولاية على تهامة فأرسل هو بدوره إلى أسعد بن أبي يعفر وعثمان بن أحمد يقرهما على ولايتيهما[122] بالرغم من أنهما في وضع لا يحسدان عليه سواء معمواليهما أو مع الهادي أو مع قبائل همدان أو ما يتوقعونه من زحف القرامطة.

واستمر الأمر كما هو بعد تولي المقتدر الخلافة عام 295هـ/907م حيث واصل مظفر بن حاج مهمته في تهامة يحاول إخضاعها للسلطان العباسي فأقر أسعد الحوالي على صنعاء بينما كانت القرامطة قد استولوا عليها[123] ولم يمده بأي عون وتركه يلاقي مصيره لوحده. وهو يتلقى الضربات من كل ناحية إلى الحد الذي جعله يدخل في موازنات عديدة ويغير ولاءه

السياسي من نظام إلى آخر فقد أضطر في وضعه هذا إلى أن يقبل لنفسه أن يكون تابعاً لعلي بن الفضل الإسماعيلي (القرمطي) ويتولى صنعاء باسمه عام 299هـ/911م[124]، ولا نظنه قبل بهذا الوضع إلا لخطة يعمل لها مع أطراف أخرى، ولعلها تمثلت في العمل الدؤوب لإنهاء النفوذ الإسماعيلي (القرمطي) في اليمن عام 304هـ/916م[125] لأنهُ تقرب من الهادي وكاتب القوى القبلية وجمع كل ذلك في جيش واحد ليحقق الهدف المطلوب وهو التخلص من علي بن الفضل الذي مات فجأة وتنافس خصومه في إدعاء اغتياله مسموماً كل يدعي لنفسه هذا العمل (الإسماعيلية-الزيدية-الدولة العباسية-أسعد الحوالي)[126].

وفي غمار انشغال أسعد الحوالي بتجهيز حملة واسعة ضد القرامطة متضامناً مع من حوله من القوى أرسل الخليفة المقتدر بالله إلى أسعد الحوالي رسالة ولاه بموجبها على: "أعمال الحرب والمعادن والأحداث بصنعاء وأعمالها، والمذيخرة ومخاليفها، وعدن وأبين والحج وما يتصل بها لما رجا في ذلك من الصلاح وأمل فيه من السداد وقدره عند أسعد من الغناء والكفاءة والوفاء والأمانة والنصح لهُ فيما قلده والاستقلال بأعباء ما كلفه[127].

وإن لم يحدد الكتاب تاريخ هذه التولية هل هي من قبل سقوط المذيخرة أم بعده، وإن كنا نرجح أنهُ في الفترة الواقعة بين رجب 303هـ/ورجب 304هـ/916 وهو العام الذي كان فيه أسعد الحوالي يعد العدة ويرتب نفسه للانقضاض على دولة القرامطة في المذيخرة. وأما ذكر هذه المدينة في الكتاب ضمن مناطق نفوذه فهو من قبيل دفع أسعد لأن يبذل وسعه لاسترجاعها، ومن المحتمل وجود مراسلات بين الخليفة وبين أسعد الحوالي قبل هذا الوقت سواء أكانت مباشرة أو عن طريق طرف ثالث حول طبيعة العلاقة بينهما وربما كان هذا الطرف هو مظفر بن حاج نائب أمير مكة على اليمن القابع في تهامة.

وعلى إثر ذلك فضل الخليفة أو أقتنع بطريقة ربط أسعد الحوالي -إدارياً- بالخليفة مباشرة دون المرور عبر والي مكة ونائبه أمير تهامة، ولكن لا نستطيع أن ننفي وجود تنسيق من نوع ما بين الأطراف الثلاثة: الخليفة من ناحية، وأسعد الحوالي من ناحية ثانية، وأمير تهامة التابع لإمارة مكة من ناحية أخرى لتحديد سلطان كل من أسعد ومظفر بن حاج أو إمارة مكة، وتعيين من يتصل به أسعد عند اقتضاء الحاجة نتيجة بعد المسافة[128].

ونتيجة لهذا التنسيق جاءت صياغة الكتاب الموجه إلى أسعد الحوالي خالية من ذكر تهامة التي ظلت كوحدة إدارية تتبع إمارة مكة. وأصبح الاتصال المباشر هو الأسلوب الأفضل بين دار الخلافة وأسعد الحوالي، وقد رأيناه واضحاً في أكثر من موطن.. في مرسوم التكليف الآنف الذكر.

وفي الكتاب الذي أرسله أسعد الحوالي إلى الخليفة يبشره فيه بسقوط المذيخرة عام 304هـ/916م ذلك الكتاب الذي كان يزخر بالعبارات الدالة على الرابطة الوثيقة بالخلافة.. فالنصر تم باسم الخلافة..والذين شاركوا في هذا النصر هم "من أولياء أمير المؤمنين وفي عساكر ضخمة وكتائب جمة" وأن الهدف من هذا كله هو الذب عن دولة أمير المؤمنين موالياً لهُ وعارفاً لما أوجب الله عليّ من طاعته، وقلدني من نصحته، وخصني به وآبائي قديماً وحديثاً من خدمته[129].

وأما السبب الذي جعل أسعد الحوالي مرتبطاً بالدولة العباسية -رغم قوته وضعفها- بحيث يحرص على طلب رضى الخلفاء عنه ويوافيهم بأخباره وولائه وينسب كل نصر يحرزه باسم الخلافة.

إن السبب الذي يكمن وراء هذا المسلك هو إضفاء الشرعية على حكمه فهو يستمد من ولائه هذا للخلافة ضمانة الاستمرار في سلطانه..هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنهُ -شرعاً- لابد من خلافة ولابد من خليفة وما دام الخليفة الشرعي قائماً فلا حق لأحد أن يدعي الخلافة

لنفسه وهذا ما استمسك به جميع الولاة الذين خرجوا على الخلفاء فهم على استعداد لقتالهم والتصدي لأمراء دار الخلافة. أما أن يدعي أحد منهم الخلافة لنفسه أو نكرانها تماماً فهذا ما لم يخطر على بال أحد منهم إلا إذا كان يحمل فكرا مذهبياً آخر مناقضاً لما قامت عليه الخلافة كما هو شأن من خرج باسم الشيعة أو الخوارج حتى أن الأمويين في الأندلس لم يتجرأ أحد من أمرائهم – بالرغم من التباين بينهم وبين العباسيين– أن يطلق على نفسه لقب الخلافة إلا بعد أن ظهرت الدولة التي لقبت بالدولة الفاطمية وأضفى زعماؤها على أنفسهم لقب الخليفة عام 297هـ/909م[130].

• • •

ولا يشغلنا تدافع الأحداث الحربية والسياسية عن الجوانب الإدارية والقضائية والمالية في عهد أسعد الحوالي فمما يلاحظ أن العهد الذي أسند لأسعد خلا من الإشارة إلى منصب القضاء مما يشي بأن الخلافة العباسية لم تعد تتدخل في تولية القضاة كما كان الحال في عهد أبيه وجده وما أحسب ذلك إلا لما وصلت إليه الدولة من ضعف وعدم اهتمام بالأطراف ما دامت هناك زعامات محلية قابضة على أمور البلاد مقدمة للدولة الأم فروض الطاعة والولاء.

أما العملة (السكة) فقد ظلت تضرب باسم الخلافة العباسية مع إضافة السلطات المحلية[131] لأن الخليفة فوض آل حوال الإشراف على دور ضرب السكة التي كانت تضرب في صنعاء باعتبارها عملة رسمية لدولة الخلافة[132].

ومن مظاهر الولاء اليعفري للدولة العباسية –أيضاً– أن مدينة صنعاء ظلت طوال عهد بني يعفر – تقريباً– ضمن المدن التي تحتوي على المصانع أو المناسج المعتمدة رسمياً للطراز الخاص[133] أي اللباس الرسمي للخلفاء ورجال الدولة وتحتوي القطع التي وجدت من الطراز العباسي المصنوعة في صنعاء على مكان الصنع وتاريخها ممتد من عام 266هـ/879م إلى عام 331هـ/942م[134].

أما الصلة المالية بين دار الخلافة ودولة بني يعفر فيمكننا استخلاصها من نصوص العهود التي وصلت من دار الخلافة إلى بني يعفر.

فأول كتاب تولية كان كتاب الموفق إلى محمد بن يعفر وجاء في تحديد ولايته في النص ما يلي:

"ولاه الصلاة وأعمال المعادن والحرب والأحداث والخراج والضياع والأعشار والصدقات ودور الضرب، وساير أبواب الجبايات بصنعاء اليمن ومخاليفها وجميع أعمالها ونواحيها"[135].

وواضح تماماً من هذا النص أن الولاية شملت الجبايات المالية.

ولم نجد نص كتاب التولية إلى أبي يعفر إبراهيم بن محمد إلا أننا نجد في الوثيقة المبتورة التي وجدت موجهة من الموفق إلى أبي يعفر ناصحاً لهُ وموبخاً على مسلكه الشائن في ظلم الرعية ومنها (المكس)[136] وإن لم يوجد في النص الموجود من الوثيقة ما يفيد عن طبيعة هذا (المكس) إلا أن ابن رستة[137] والمقدسي[138] يقرران بأن اليمن كانت عشرية أي ليس على أرضها من شيء سوى الزكاة وهو نصف العشر أو ربع العشر على ما هو محدد في نصاب الزكاة بينما لجأ أبو يعفر إلى فرض خراج على اليمن فجعل على مخلاف صنعاء مثلاً مائتي ألف دينار في السنة وكأن الخلافة كانت تتدخل في السياسة المالية التي ينتهجها أبو يعفر إبراهيم.

أما خطاب التولية لأسعد الحوالي فقد نص على إطار ولايته بأن "قلده أعمال الحرب والمعادن والأحداث بصنعاء وأعمالها، والمذيخرة ومخاليفها وعدن وأبين ولحج وما يتصل بها"[139].

وللوهلة الأولى يجد القارئ المقارن بين النصوص خلو هذا النص من أي ذكر لشئون المال، وكأن الدولة العباسية لم تعد من القوة بحيث تستطيع أن تتدخل في أمر المال بالرغم من أن النص يضم العديد من التوجيهات

منها الذاتية والشخصية ومنها حول أدب القضاء وتقصي الأعمال والأمر بإقامة الحدود والنظر في أحوال السجناء والاهتمام بالعبيد والأمر بإقامة المحتسب للنظر في أمور الأسواق والتوجيه بالاهتمام بقواته الحربية وأن يتحرى متابعة ولاته. ويأمره بأن يبلغهم بنص كتاب أمير المؤمنين ليكونوا على علم بما هو مطلوب منهم..وهكذا فالنص طويل ولكن لا أثر فيه للجانب المالي.

• • •

الطور الثالث: طور الهدوء والاستقرار:

بدأ – حينما تولى أسعد الحوالي مقاليد بني يعفر– طور جديد من أطوار الدولة اليعفرية تميز بهدوئه واستقراره وطوله حيث أستمر إلى عام 332هـ/943م حينما توفى أسعد الحوالي ولهذا أنتج حركة عمرانية خيرية، وبز فيها رجال في الحركة العلمية كانوا محط أنظار طلاب العلم من الأمصار المختلفة.

ولا شك أن السياسة التي أنتهجها أسعد بن أبي يعفر في إدارة دولته سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي أو في إدارة الصراع مع منافسيه في الساحة اليمنية كان لهذه السياسة دورها في هدوء واستقرار هذه الحقبة من تاريخ آل يعفر.

بالإضافة إلى ما تميز به أسعد من مرونة ورغبة في السلامة ودهاء وحنكة بحيث أصبح الرجل الأول الذي يرجع إليه المتخاصمون في اليمن على الرغم من اختلافهم معه وعدم دخولهم تحت سلطانه ولذلك لم يبالغ الهمداني[140] –وهو الذي اكتوى بنار حبسه، ومع هذا لم يتردد عن إنصافه والثناء عليه– حيث يقول "وأسعد هو أبو حسان ملك عصرنا، وذهب على من قبله بالصوت، وهو الذي اجتث عرقاة (أي أصل) القرامطة باليمن، وهو فارس حمير في عصره..وله تواقيع معجزة لا يجارى فيها، مع حسن السياسة وعظم الدهاء، وبعد الغور وكتمان ما في النفس، وإذا غضب غضب، وإذا رضى رضى".

وأول ما بدأ به أسعد الحوالي بعد بسط نفوذه على المذيخرة أنهُ أعلن وبرهن عملياً وخطياً على أنهُ تابع للخلافة العباسية –كما أسلفنا– وضمن هذا الجانب تماماً وكان صادقاً في هذا الولاء غير مخادع فيه لأنهُ يملك القوة التي تجعله ينفرد بالسلطان، فقد سارع بعد ذلك لبسط نفوذه على المناطق الممتدة من حضرموت وعدن حتى شمال نجران شمالاً[141].

ثم أرجع كل زعيم –تضرر مما فعله القرامطة– إلى زعامته في قبيلته وقومه وأصبحوا ممتنين لهُ ومن ثم دائنين لهُ بالطاعة، في الوقت الذي يستمد شرعية استمراره والرضا عنه بالاتصال بالخلافة.

وكان في ذات الوقت حريصاً على عدم جرح مشاعر الناصر بن الهادي فهو صادق المشاعر نحو حب آل البيت ولكن ليس على أساس التشيع الممقوت بل كان يحبهم تديناً مثله مثل بقية المسلمين المأمورين بحب رسول الله وأهل بيته.

ولم يتغير موقفه هذا في المواقف المتنوعة سواءً وهو مستضعف مطارد من صنعاء وشبام حينما وجد أبناء الهادي محبوسين من قبل بعض المناوئين فعمل على فك إسارهم وحرص على كسر القيود من على أقدامهم بيديه ومن حرصه عليهم أنهُ كان يدخل يده بين ساق ابن الهادي والقيد الحديدي عند محاولة فكه عنه حتى لا يتعرض ساقه للأذى وحينما أراد بعض أتباعه أن يقوم بهذه المهمة رفض تبركاً[142].

وصارت سياسته مع الناصر في حياته سياسة متعاونة للقضاء على القرامطة وقد استخرج أبو حسان دهاءه في علاقته مع الناصر –الذي ما كان ليسكت عن وجود قوة منافسة في الساحة– فالناصر يولي جل اهتمامه لمحاربة القرامطة، وأسعد الحوالي يغريه ويمنيه ويمد إليه يد العون دون أن يلقي بثقله معه في هذا الصراع وبهذا اشتغل الناصر عن التفكير في التوسع على حساب أسعد الحوالي، وربما كان سجن أبي محمد الحسن بن أحمد

الهمداني لدى أسعد الحوالي بإيعاز من الناصر هو جزء من سياسته السلمية مع الناصر من ناحية وفي الوقت ذاته تعبر عن عدم رغبته فيما دخل فيه الهمداني من صراع المفاخرة بالأحساب والأنساب والحط من الآخرين على أساس احسابهم، فهي نظرة ضيقة من ناحية، وتثير له في دولته قلقاً لا تؤمن عواقبها[143].

وبعد وفاة الناصر كفل أسعد أبناء الناصر ودعمهم وبرّ بهم وكان لهم بمثابة الأب الشفيق عليهم[144].

ولم يعد أسعد الحوالي إلى شبام لتكون لهُ مقراً لحكمه كما كان من سبقه بل استقر بعض الوقت بصنعاء ثم انزوى إلى كحلان فكان معظم إقامته فيها[145] واتخذ منها حصناً يحتمي فيه وينعزل إليه في منطقة تقع جنوبي ذمار وشرقي مدينة يريم وربما اتخذ هذا الموقع لميوله السلمية في منطقة مسالمة وأهلها ليسوا كغيرهم من سكان مناطق الشمال والشرق الذين تميزت منطقتهم بالوعورة وعدم الاستقرار بينما المنطقة التي عاش فيها أسعد الحوالي منطقة زراعية وأهلها مستقرون باستمرار ولا رغبة لهم في الصراع مع الغير.

ومن ضمن سياسته أنهُ استخدم أبناء ذي حوال لتولي مناصب دولته في كثير من المناطق فضمن بذلك ولاء أهل بيته وأمن جانبهم ولم يخشهم.

وكما أمن جانب الدولة الهادوية بتكوين علاقة حميمة بالناصر بن الهادي –كما أسلفنا– وأمن أيضاً جانب القوى القبلية بعدم حرمانها من مصالحها وتطلعاتها كذلك أمن القرامطة بجعل الناصر بن الهادي هو المتصدي الآمر لها. أخيراً أمن الجانب العباسي حيث ضمن عدم تدخلهم في حكمه وضمن عدم تدخل بني زياد أمراء زبيد لارتباطهم بإمارة مكة التابعة للخلافة العباسية..وهكذا وصف هذا الطور بالهدوء والاستقرار.

* * *

الطور الرابع والأخير:

وهو طور الاضطراب الثاني الذي أدى إلى السقوط والانتهاء، ويبدأ هذا الطور زمنياً من وفاة أسعد الحوالي عام 332هـ/943م.

كان المسعودي[146] عام 332هـ/943م قد دخل اليمن وعرف أوضاعها وكنا نطمع منهُ الكثير إلا أنهُ أحبط آمالنا.

ففي أثناء حديثه عن قرود اليمن وأماكن تواجدهم ذكر قلعة كحلان وربما جاء الغلط من النُسّاخ فكتبوها كهلان –بالهاء وليس بالحاء– وجعل هذه القلعة مما يكثر فيها القرود ثم وبشكل عرضي ذكر مالكها وهو أسعد الحوالي ووصفه بأنهُ ملك اليمن لأنهُ بقية من ملوك حمير –حسب تعبيره– وأنهُ كان محتجباً عن الناس إلا عن خواصه.

ولم يكلف المسعودي نفسه تدوين ما يعلمه عن أسعد الحوالي ويعطينا تفصيلاً عما رآه وشاهده من دولة أسعد هذا وإنما شغل القارئ بصفحة ونصف الصفحة بالحديث عن القرود وأنواعها وطباعها وأماكن تواجدها في اليمن.

وأياً كان الأمر فإن الإشارة التي وردت عند المسعودي في خضم حديثه عن القرود تعطينا مؤشراً على سياسة أسعد الحوالي في أواخر سني العمر، هذه السياسة السلبية التي لا تختلف عما فعله جده الأكبر يعفر وجده المباشر محمد بن يعفر وعما فعله أبوه في بعض حالاته حيث كانوا يؤثرون إنعزال الناس بدلاً من أن يمارسوا مهماتهم على أكفأ وجه حتى يحافظوا على الدولة عن السقوط.

وبما أن أسعد الحوالي لا ولد لهُ[147] فقد أوصى بالأمر من بعده إلى ثلاثة من أبناء أخويه عبد الرحيم وعبد الله وهم: أبو الفتوح الخطاب وأبو يعفر احمد أبني عبد الرحيم بن إبراهيم وأبو حمير قحطان بن عبد الله بن إبراهيم، وأن يشاركوا معهم أبني عمهما: أبي محمد وأبي الحسن أبني أبي الخير[148] وكان الخطاب أمير صنعاء في عهد عمه[149].

وبالرغم من نصائح أسعد لأبناء أخوته وتحذيره

الطويل من الاختلاف وبالرغم أيضاً من ترضية بقية بني يعفر -كما جاء في وصيته الطويلة- إلا ان كل هذا يوحي بتخوف أسعد الحوالي من المستقبل ولو كان يعلم وجود من يقوم بمهمة (السلطنة) أو (الدولة) فما أظنه كان يتردد عن توليته من بعده ولهذا أسند الأمر من بعده إلى مجموعة رأى فيها صلاحيتها لتسلم مقاليد الدولة من بعده.

وجعل تنفيذ وصيته قبل وصول أبناء أخيه إلى أبي القاسم علي بن الحسين بن وردان وأخيه سابور وهما من مواليه المقربين إليه بالإضافة إلى وزيره محمد بن هارون العيني الحميري(150).

ولم تتحقق وصية أسعد الحوالي كما كان يتمنى فقد رفض كل من قحطان والخطاب الوصول إلى كحلان وأظنهما رفضا خوفاً من مستقبل غامض وليس إعراضاً وزهداً في السلطة. بينما خالفهما أبو يعفر وقدم إلى كحلان وكان عمه قد توفى فتولى السلطة حوالي سبعة أشهر فكان خليفة عمه من بعده(151).

ولا ندري ماذا كان مصيره بعد هذه الشهور السبعة إلا أننا نعرف أن علي ابن وردان وثب فتولى السلطة من جمادى الآخرة من سنة 333هـ/944م ودخل صنعاء في رجب وهرب من وجهه أمير صنعاء خطاب بن عبد الرحيم وبنوه والتجأ إلى أبي جعفر احمد بن محمد الضحاك ليظل تحت حمايته..وظل ابن وردان يمهد لنفسه الأمر ويتخلص من مناوئيه حتى تمكن من القبض على الخطاب وقيل قتله هو وأبناؤه وأنتقل ابن وردان منذ عام 335هـ/946م من موقف التابع إلى موقف المتبوع متخلصاً من أبناء يعفر مستولياً على السلطنة متفرداً بالسلطان من دون بني يعفر وأصبحت الخطبة باسمه وحسب العادة في تحول ولاء الزعامات القبلية إلى الأقوى فقد أنضم أبو جعفر أحمد الضحاك إلى ابن وردان الذي كافأه بتوليته على صنعاء(152).

وفي ظل هذا الصراع داخل البيت اليعفري ومواليهم لم نجد لبني العباس أثراً لا من قريب ولا من بعيد، إلا أننا نلاحظ ان ابن وردان اشتبك مع أبي الجيش الزيادي سنة 343هـ تقريباً في حرب قرب زبيد وإن كان ابن وردان قد مني بالهزيمة(153) إلا أننا لا ندري سبباً لتوجهه هذا هل أراد أن يبسط سلطانه على تهامة ليكون ممثلاً للدولة العباسية في اليمن أم أن ابن زياد كان قد تحرش بابن وردان وأراد التدخل لنصرة آل يعفر باعتباره وإياهم يمثلون جبهة واحدة موالية للدولة العباسية..كل هذا لا نملك دليلاً على تأكيد أي منها..ولا نعرف ما هو موقف بقية آل يعفر القابعين في شبام من هذه الأحداث ولكن يوجد احتمال موافقة أو رضا بقية آل يعفر في شبام بسلوك ابن وردان في مقاتلته لابن زياد وقد يؤيد هذا ما عرف عن عبد الله بن قحطان بعد ذلك حينما داهم زبيد وقضى على سلطان بني زياد فيها.

ولن نجد من يقف في مواجهة ابن وردان سوى الأسمر يوسف بن أبي الفتوح الخولاني وقد تمكن هذا من إنهاء سلطان أبناء وردان وذلك حينما تمكن من قتل سابور بن وردان الذي تولى السلطة بعد أخيه علي بن وردان بعد وفاته عام 350هـ/961م فلم يدم ملك سابور طويلاً فقد قتل في طريق انصرافه إلى ذمار في 22 من ذي الحجة 350هـ/961م(154) وفي جو الاضطراب هذا التف ابن الضحاك وسارع للاتصال بأبي الجيش بن زياد وخطب باسمه في صنعاء بدءا من شوال 352هـ/963م(155) وكأنه أراد أن يحل محل بني يعفر المتصلين بالدولة العباسية الذين آثروا الانكفاء على أنفسهم لما أصابهم من وهن وصاروا تابعين لمواليهم ولكن بني زياد كانوا أضعف من أن يمدوا ابن الضحاك بالقوة المؤازرة.

وبالرغم من هذه الأحداث إلا أن الوظائف العامة ذات التأثير ظلت مرتبطة بشخصيات اعتبارية مقبولة فالقضاء في صنعاء تولاه قاضي صنعاء المشهور أبو سلمة

يحيى بن عبد الله بن إسماعيل بن كليب التنوخي الحميري (341هـ/952) وله شهرة عند رجال الحديث[156] وقد تولى ابنه مسلمة قضاء صنعاء في أثناء حكم أبي جعفر بن الضحاك الهمداني على صنعاء أواخر عام 374هـ/984م[157].

وخطبة الجمعة في الجامع الكبير بصنعاء كانت لعبد الأعلى بن محمد البوسي وهو الآخر من رجال الحديث[158] وبعد أن توفي ابن كليب عام 341هـ/952م تولى عبدالأعلى القضاء بينما جعلت أمامه الصلاة لأبي بكر بن البعداني[159].

وتلفت الناس فلم يجدوا قوة محترمة ينظر إليها فالدولة الهادوية تحتضر بين أبنائها والدولة العباسية لا وجود لها أصلاً وبنو يعفر وهنت قواهم والقوى القبلية الأخرى متقلبة الأهواء ولم يجد الناس –في هذا الجو– سوى الأسمر يوسف بن أبي الفتوح الخولاني وكانه كان شخصية مقبولة أو لأنهُ تمكن من قتل سابور وأصبح وارثاً لحكم بني يعفر إلا أنهُ – كما يبدو – لم يكن مؤهلاً للقيادة فأوعز إليه وجهاء القوم بدعوة عبد الله بن قحطان بن عبد الله بن أبي يعفر الذي اتخذ من شبام مقراً لهُ، واستقدمه ليتولى أمر البلاد على أن يعينوه ويساعدوه وكأن الناس كانوا على يقين من أنهُ يحمل خصائص الإمارة. فاستجاب لدعوتهم عام 352هـ/963م والتقى بابن أبي الفتوح ودخلوا معاً صنعاء عام 353هـ/964م[160] وكانت تحركاته تنبئ عن سياسة جديدة ويتبين منها اتجاهاً آخر غير اتجاه آبائه من آل يعفر الذين كانوا يستمدون شرعية سلطانهم من الدولة العباسية فقد مضى عبد الله بن قحطان على نهج آخر وهو منابذة الخلافة العداء، ويتضح هذا من موقفه – أولاً– من بني زياد باعتبارهم ممثلين للسلطان العباسي فقد طالبهم في البداية بدفع إتاوة ترفع إليه وبما أن الأمير الزيادي –وعرفه ابن جرير باسم أبي الفتح بن زياد– لم يكن من القوة بحيث يبسط نفوذه على الإمارة إذ اضطربت عليه الأحوال وتمردت عليه بعض القوى القبلية في تهامة نفسها، لهذا كله لم يتمكن ابن زياد من الوفاء لعبد الله بن قحطان بما طلب فزحف هذا على زبيد ودخلها عام 379هـ/989م واستباحها لجنوده.

ويتضح – ثانياً– موقف عبد الله بن قحطان المعادي للاتجاه العباسي من إعلانه الصريح بالتخلص من الولاء للدولة العباسية وتقديم فروض الولاء والطاعة للسلطان العبيدي (الفاطمي) فقد قطع الخطبة الاسمية للخلفاء العباسيين وخطب للعزيز نزار بن معد الذي أعلن نفسه خليفة في مصر عام 344هـ/955م[161].

وأما الدوافع التي جعلت عبد الله بن قحطان ينتهج هذا الطريق فبعضها شخصية وبعضها سياسة الأمر الواقع.

أما الجانب الشخصي فمن المعروف أن أم عبد الله بن قحطان هي إبنة زعيم الإسماعيلية في اليمن وهو علي بن الفضل التي أسرت يوم أن سقطت المذيخرة بيد أسعد الحوالي فأسر بنات على بن الفضل وأعطى واحدة منهن لابن أخيه قحطان فأولدت له عبد الله هذا[162] ولا نستبعد أثر تربية أمه فيه حيث ربت فيه عدم حب بني العباس وربما – أيضاً– أعطته ما تعرف من المذهب الإسماعيلي فأصبح ولاؤه للفاطميين أكثر من غيرهم.

أما جانب سياسة الأمر الواقع فقوة بني العباس أصبحت شبه منعدمة على المستوى العام في دار الإسلام بينما كانت قوة العبيديين (الفاطميين) تتنامى حتى أن مكة والمدينة منذ عام 366هـ/976م صارتا تابعتين لهم ويخطب فيهما باسم خلفائهم[163].

لهذا وذاك فلا نستطيع أن ننفي وجود اتصال سابق بين عبد الله بن قحطان وبين العبيديين (الفاطميين) قبل أن يقدم على الإعلان أو أن ابن قحطان أراد أن يقدم بين يدي هذه العلاقة إعلان الولاء لهم لتنقطع العلاقة تماماً بين بني يعفر والدولة العباسية.

وعلى الرغم من أن عبد الله بن قحطان أشاع الأمل

بعودة دولة بني يعفر إلا أنهُ بصلته الجديدة بالدولة العبيدية (الفاطمية) لم تؤهله للاستمرار لذا لم يفعل في سني حكمه شيئاً لإعادة سلطان بني يعفر حتى توفي عام 387هـ/977م وأكبر دليل على هذا ان ابنه أسعد الذي خلف أباه في الإمارة لم يحافظ على ما تحت يده وإنما سلم أمره إلى الإمام يوسف بن يحيى بن الناصر ثم للإمام المنصور القاسم بن علي العياني[164]. وبوفاة أسعد بن عبد الله بن قحطان عام 392هـ/1001م[165] انتهت دولة بني يعفر تماماً..ومن موافقات الأقدار أن أسعد بن إبراهيم أعاد بناء دولة بني يعفر وانهار هذا البناء تماماً على يد أسعد بن عبد الله.

الهوامش

1. الهمداني: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (متوفى بين عامي 350 و 360م / 961 و 970م). الإكليل 177/2 تحقيق / محمد علي الأكوع. مطبعة السنة المحمدية 1386هـ/1966م، القاهرة
2. الهمداني. الإكليل 13/10. تحقيق محب الدين الخطيب. السلفية. القاهرة.
3. الهمداني. الإكليل 177/2- الدامغة 468/2 (القصيدة وشرحها) تحقيق / محمد علي الأكوع. مطبعة السنة المحمدية 1978م. القاهرة.
4. الهمداني. الإكليل 71/2، 72 كان هذا في شهر رمضان من عام 214هـ / 829م.
5. المصدر نفسه 475/1 و 177/2.
6. الهمداني. الإكليل 475/1 تحقيق / محمد علي الأكوع ط 2 1397هـ / 1977م. دار الحرية. بغداد - والإكليل 177/2.
7. راجع كتابنا: اليمن في عيون الرحالة 13-65 ط الأولى 1413هـ 1993م دار الفكر. دمشق.
8. الإكليل 66/2.
9. الوصابي. عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر الحبيشي الوصابي (م 782هـ /1380 م). الاعتبار في التواريخ والآثار (تاريخ وصاب) 101. تحقيق / عبد الله محمد الحبشي ط أولى 1979م. مركز الدراسات والبحوث اليمني. صنعاء.
10. ابن رسته. أبو علي أحمد بن عمر (متوفي بين 290 و 300هـ / 902 و 912م). الأعلاق النفيسة 113 مطبعة بريل 1891م. ليدن - الهمداني. الإكليل 475/1، 476 و 8 / 151 تحقيق / محمد علي الأكوع طبعة سنة 1399هـ / 1979م - صفة جزيرة العرب 231 تحقيق / محمد علي الأكوع. دار اليمامة 1394هـ / 1974م. الرياض.
11. الإكليل 66/2، 181.
12. ياقوت الحموي. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (م 626هـ / 1929م) معجم البلدان 271/2. دار صادر 1397هـ 1977م. بيروت.
13. ابن سعد. محمد (م 230هـ / 844م) الطبقات الكبرى 247/6. دار صادر. بيروت.
14. صفة جزيرة العرب 231، 232.
15. الجندي. أبو عبد الله بهاء الدين محمد (م 732هـ / 1332م). السلوك في طبقات العلماء والملوك 219/1 تحقيق / محمد علي الأكوع. نشر وزارة الإعلام والثقافة. صنعاء 1409هـ / 1989م.
16. الهمداني. الإكليل 471/1، 472 كان عباد هذا قد تولى صنعاء للمأمون عام 209هـ / 824هـ مما يدل على أنه كان على صلة بالخلافة العباسية. ابن جرير. إسحاق بن يحيى بن جرير الزهري الصنعاني (متوفي في أوائل القرن الخامس الهجري). تاريخ صنعاء 57، 58. (تحت الطبع بتحقيق / عبد الله محمد الحبشي).
17. الجندي. السلوك 218/1. الخزرجي. أبو الحسن علي بن الحسن بن أبو بكر بن الحسن الخزرجي الأنصاري (م 812هـ 1409م) طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن (ق 36/ب) مخطوط بمكتبة الجامع الكبير المكتبة الغربية. تحصلت على صورة منها.
18. الهمداني. الإكليل 475/1 و 181/2 - ابن جرير. تاريخ صنعاء 63.
19. ابن جرير. تاريخ صنعاء 63.
20. ابن الأثير. أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (م 630هـ / 1232م). الكامل في التاريخ 43/7. دار صادر 1965م. بيروت فقد كان مكلفاً بالجيش والمغاربة والأتراك والأموال والبريد والحجامة ودار الخلافة وظل الأمر كذلك أيضاً في بداية عهد المتوكل.
21. ابن جرير تاريخ صنعاء 64- الجندي. السلوك 218/1، 219 - الخزرجي. العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك 32، 33 نشر وزارة الإعلام اليمنية. صنعاء بتصوير المخطوطة - واليمن في عهد الولاة 104، 105 تحقيق / د. راضي دغفوس للفصول الخمسة الأولى من كتاب الكفاية والإعلام. كلية الآداب. جامعة تونس.
22. الهمداني الإكليل 151/8، 152.
23. ابن جرير. تاريخ صنعاء 64.
24. الهمداني. الإكليل 322/1، 323 والشير: يطلق عليه الطبري (تاريخ 128/9) القائد شار باميان وعرفه الهمداني (صفة 232) بأنه الشير وأن العجم تسميه: الشارميان فعرب فقيل (البشير) (الإكليل

332/1) وذكره الخزرجي (اليمن في عهد الولاة 106) ويحيى بن الحسين (غاية الأماني 254/1) باسم هرثمة بن بشير، إلا أن ابن جرير (تاريخ صنعاء 64) ربما رجع إلى مصادر قديمة معاصرة – أثبته باسم: الشير هرثمة بن الشير وسناخذ بهذا الاسم لتفصيله.

25. ابن جرير. تاريخ صنعاء 64 – الطبري. محمد بن جرير (م 310هـ – 922م) تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري 218/9 تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ط 2. دار المعارف بمصر.
26. الهمداني. الإكليل 234/1 – ابن جرير. تاريخ صنعاء 64، 65.
27. الهمداني. الإكليل 324/1، 325.
28. أبن جرير. تاريخ صنعاء 65، 66.
29. الهمداني. الإكليل 324/1 – 327 . ابن عبد المجيد. تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني (م 744هـ / 1343م). تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن 44 – تحقيق / عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني ط أولى 1408هـ / 1988م. دار الحكمة اليمانية. صنعاء – ابن الديبع. عبد الرحمن ابن علي بن الديبع الشيباني الزبيدي (م 943هـ 1536م) قرة العيون بأخبار اليمن الميمون 1/ 155 تحقيق / محمد علي الأكوع. السلفية. القاهرة – يحيى بن الحسين بن القاسم (م 1100 هـ / 1688م). غاية الأماني في أخبار القطر اليماني 155/1 تحقيق / د. سعيد عبد الفتاح عاشور. دار الكاتب العربي 1388هـ 1968م. القاهرة.
30. أبن جرير. تاريخ صنعاء 65 / 66 – الهمداني. الإكليل 325/1، 327.
31. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (م482هـ/997م)، تاريخ اليعقوبي، 2/ 485 دار صادر. بيروت أراد الخليفة بعمله هذا لمعرفته بوجود تآمر بين جعفر وإيتاخ وكان الخليفة قد أزمع على التخلص من إيتاخ لأنه – وهو التركي – قد تجاوز حده في عصر نفوذ الأتراك فقد طلب إيتاخ من الخليفة السماح له بالحج وكأنه كان يطمع أن يكون هو أمير الحج فسمح الخليفة له بالحج أما إمارة الحج فقد أعطاها لجعفر وطلب منه ألا يبقي إيتاخ في الحجاز لكي يتلقاه الخليفة في بغداد ليس بالترحاب وإنما بإيداعه السجن ليظل فيه حتى الموت.
32. الإكليل 1/ 227.
33. تاريخ صنعاء 65، 66.
34. الهمداني. الإكليل 1/ 327.
35. الطبري. تاريخ 162/9، 176 – ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد (م 808هـ / 1405م) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. المعروف بتاريخ ابن خلدون 579/5، 589 دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة. بيروت – الأكوع. محمد بن علي الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة 332هـ 330 ط الأولى 1396هـ / 1976م دار الحرية. بغداد.
36. ابن العمراني. محمد بن علي بن محمد (م 580هـ / 1184م). الأنباء في تاريخ الخلفاء 121 تحقيق / د. قاسم السامرائي. نشر المعهد الهولندي للآثار المصرية والبحوث العربية. القاهرة. طبع ليدن 1973م.
37. مجهول. تاريخ اليمن في الكواني والفتن (ق 124 / 1) (معهد المخطوطات العربية بالقاهرة. ميكروفيلم رقم 18 عن مخطوطة الامبروزيانا G 15).
38. وهم: محمد بن جعفر وأبو المسبح يونس بن ياسين وأبو الفرج الزحيجي ومحمد بن يوسف الاشتر وحيوره بن الحارث (ابن جرير. تاريخ صنعاء 66 – 69).
39. ابن جرير. تاريخ صنعاء 66.
40. المصدر نفسه 67 ورد أسم هذا الأمير عند أبن جرير بلفظ (حيوره) بينما جاء عند الجندي. السلوك 1/ 219 بان اسمه حمير.
41. قتل المتوكل عام 247هـ / 861م ومات بعده المنتصر مسموماً عام 248هـ / 862 وعزل المستعين مكرها ثم قتل في سجنه عام 252هـ / 866م وتبعه المعتز فعزل ثم قتل تحت التعذيب عام 256هـ / 869م وخلفه المهتدي فخلع وضرب حتى مات عام 256هـ 870م وخلفه المعتمد على الله (ابن الأثير. الكامل 7/ 95، 114، 167، 172، 195 228 – 235).
42. ابن جرير. تاريخ صنعاء 66 – ابن عبد المجيد: بهجة الزمن 33، 34 – مجهول ، تاريخ اليمن (ق 168) – الجندي. السلوك 1/ 219.
43. الإكليل 2/ 182.
44. المصدر نفسه 184.
45. مجهول. تاريخ اليمن (ق 142) وانظر: الأكوع. الوثائق السياسية 227.
46. الإكليل 2/ 182.
47. الفاسي. تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي (م 832هـ / 1429م). شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام 2/ 186، 188. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.
48. ابن الأثير. الكامل 7/ 235 – 241 (حوادث سنة 257هـ) – السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن (م 911هـ / 1505م). تاريخ الخلفاء 363 تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد.ط. الأولى 1371هـ / 1952م. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة.
49. أبن جرير. تاريخ صنعاء 68، 69 – ابن عبد المجيد. بهجة الزمن 45 هناك اضطراب في عبارة ابن عبد المجيد ولم تحرر من قبل المحقق وهناك سقط في كتاب ابن جرير وجبر من كتاب ابن عبد المجيد وهذا غير دقيق.
50. هناك دراسة في مقدمة كتاب الأكوع. الوثائق السياسية لمحاولة الوصول إلى مؤلف هذا الكتاب ولكنها محاولة لم تمد بأسباب التوفيق.
51. أبن جرير. تاريخ صنعاء 69.

52. مجهول. تاريخ 123 – الأكوع. الوثائق 235.
53. الهمداني. صفة 222، 259.
54. الوصابي. تاريخ وصاب 101 وكان الشراحيون على صلة بالعباسيين ويضربون السكة باسمهم.
55. الحمادي. محمد بن مالك بن أبي الفضائل (متوفى نحو 470هـ / 1077م). كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة 44، 45 تحقيق / محمد زينهم محمد عزب. ط أولى 1406هـ / 1986م دار الصحوة للنشر – القاهرة.
56. أبن جرير. تاريخ صنعاء 69.
57. كان صاعد بن مخلد قد تولى مقاليد الوزارة عام 265هـ / 878م بأمر من الموفق ثم غضب عليه فقبض عليه عام 272هـ / 885م حتى مات عام 295هـ / 908 (أبن الاثير. الكامل 7/ 327، 419 – الشابشتي. الديارات 270 – 273)
58. أبن جرير. تاريخ صنعاء 72.
59. السلوك 1/ 229 – الخزرجي. العسجد المسبوك 33 – اليمن في عهد الولاة 111 – أبن الديبع. قرة العيون 1/ 162.
60. عمارة اليمني. أبن علي (م 569هـ / 1173م) تاريخ اليمن المسمى: المفيد في أخبار صنعاء وزبيد 54، 55 تحقيق / محمد علي الأكوع ط2، 1396هـ / 1976م. مطبعة السعادة. القاهرة.
61. راجع حول هذا الموضوع كتابنا: اليمن في عيون الرحالة 66 – وللأستاذ / محمد الأكوع تعليقات مفيدة في تاريخ عمارة وفي قرة العيون وكتاب السلوك للجندي.
62. الهمداني. الإكليل 2/ 135 – أبن جرير. تاريخ صنعاء 69 هذا الأمير هو أحمد بن حفص من أولاد بحير الحميري.
63. الهمداني. الإكليل 2/ 153.
64. أبن جرير. تاريخ صنعاء 69.
65. المصدر نفسه الوزير هو محمد بن أبان ولما توفى خلفه أبو رجاء روح بن عبد الرحمن وجعله على الوزارة والكتابة والصلاة.
66. تاريخ صنعاء 70 – 73.
67. وردت ترجمته في الأنساب للسمعاني واللباب لابن الأثير الجزري 1/ 350 – وطبقات فقهاء اليمن لابن سمرة الجعدي 64.
68. انظر النص كاملاً في تاريخ اليمن لمجهول (ق 170/ب) وقد نشره محمد علي الأكوع في كتابه الوثائق السياسية 23.
69. مجهول. تاريخ اليمن (ق142). أنظر الأكوع الوثائق السياسية، 227.
70. أنظر نص الكتاب: الأكوع (الوثائق السياسية) 234–237.. وقد أسند محمد بن يعفر إمارة الشرطة إلى رجل كان مقيما في العراق فانتقل إلى اليمن في عهد يعفر الحوالي وظل تابعاً له. هل بتوجيه من العباسيين أم لا ؟ لا ندري.. وهو أبو قبيح محمد بن يونس من أولاد أبرهة ابن صبيح، وكان ابنه أبو الأشعث وزيراً لأسعد بن ابراهيم بن محمد بن يعفر الحوالي (للهمداني. الإكليل 2/ 151).
71. الهمداني. الإكليل 2/ 182.
72. وداد القاضي 42 (الهامش رقم 4) رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد (م 363هـ / 1973م) ط أولى 1970م. دار الثقافة.بيروت.
73. الإكليل 2/ 184 ووافق على هذا القاضي النعمان في كتابه: افتتاح الدعوة 42، 43 وإن كان قد استغل هذا الانعزال لإشاعة النبوات الإسماعيلية.
74. ابن جرير. تاريخ صنعاء 69، 70.
75. اليمن في عهد الولاة 112 – العسجد المسبوك 34.
76. الإكليل 2/ 183.
77. تاريخ صنعاء 71 كانت هذه الرواية على النحو التالي: ثم قتل محمد بن احمد أبناء يعفر (هكذا) ليلة النصف من جمادى الأولى من سنة سبعين ومائتين... بأمر أبيهما أبي يعفر بعد صلاة المغرب، وقد نبهت المحقق / الأستاذ الفاضل / عبد الله الحبشي إلى هذا اللبس أثناء تصحيح الكتاب للنشر ووعد مشكوراً بتصحيح ذلك لأنه في الحقيقة أن محمد بن احمد هما شخصان محمد وأحمد وهما أبناء يعفر وأبوهما كما هو معروف يعفر وليس أبا يعفر لان أبا يعفر ليس له من الأبناء ما يعرف بهذه الأسماء (الهمداني. الإكليل 2/ 184) وكلمة (أبيهما) ربما أقحمت من قبل النساخ وكذلك كلمة (بن) بين محمد وأحمد ويصبح النص بهذا التحقيق متناسقاً لاعوج فيه ولا أمتي.
78. ابن جرير. تاريخ صنعاء 74– ابن عبد المجيد. بهجة الزمن 46.
79. المجهول. التاريخ (ق 142، 173) – الأكوع. الوثائق 226، 227. وانظر: ابن رسته، الأعلاق النفيسة 112، فقد نبه إلى أن أبا يعفر وأسماه المؤلف ابن يعفر وهو غير صحيح غير النظام المالي المفروض على اليمن من الزكاة إلى الخراج مما أدى إلى الإضرار بالناس.
80. ابن جرير، تاريخ صنعاء، 74.
81. مجهول، تاريخ اليمن (ق142، 143) الأكوع الوثائق السياسية 266– 267.
82. العلوي. علي بن محمد بن عبيد الله العباسي (متوفى في القرن الرابع). سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين. 245، 251 تحقيق / د. سهيل زكار ط1 1392هـ / 1972م دار الفكر. بيروت – الهمداني. الإكليل 2/ 239 (الهامش).
83. ابن جرير. تاريخ صنعاء 74– ابن عبد المجيد. بهجة الزمن 46.
84. مجهول. تاريخ اليمن (ق 1/129) – العلوي. السيرة 388.
85. الحمادي. كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة 42، 43 – إدريس عماد الدين بن حسين القرشي. عيون الأخبار وفنون الآثار 5/ 36 تحقيق / د. مصطفى غالب. دار الأندلس. بيروت – النعمان. افتتاح الدعوة 44، 45
86. المصادر السابقة نفسها وعمارة. تاريخ اليمن 64 والرازي. تاريخ مدينة صنعاء 263 – الهمداني. الإكليل 8/ 248.

87. راجع كتابنا: اليمن في عيون الرحالة 24 وما بعدها.
88. الخزرجي. اليمن في عهد الولاة 116.
89. مجهول. تاريخ اليمن (ق 124 / ب).
90. ابن جرير. تاريخ اليمن 78 – العلوي. سيرة الهادي 20 – ابن عبد المجيد. بهجة الزمن 48.
91. الهمداني. الإكليل 10 / 180 – مجهول. تاريخ اليمن (ق 129 / 1) – الخزرجي. اليمن في عهد الولاة 124.
92. مسلم اللحجي. أبو الغمر مسلم بن محمد بن جعفر اللحجي (م 545هـ / 1150م) سيرة الإمام أحمد بن يحيى الناصر لدين الله 20 نشر بتحقيق / ويلفرد ماديلونغ ط. الأولى 1990م. اتياكا برس اكسيتر مع المعهد الشرقي بجامعة أكسفرد.
93. يحيى بن الحسين. غاية الأماني 1/ 238 – 240.
94. القاضي النعمان. افتتاح الدعوة 42 – الجندي. السلوك 1/ 233.
95. الإكليل 2/ 183.
96. ابن جرير. تاريخ صنعاء 73.
97. مجهول. تاريخ (ق 173) – الأكوع. الوثائق 226 جاء هذا في الرسائل التي بعث بها كل من الدعام بن إبراهيم الهمداني. وأبي معشر بن الروية المذحجي إلى الخليفة المعتمد.
98. ابن الأثير. الكامل 7/ 444 – الطبري. تاريخ 22/10.
99. مجهول. تاريخ 173 – الأكوع. الوثائق 226
100. قتل أبو يعفر إبراهيم على يد جماعة منهم على بن مسعود بن الحجاج ليلة الجمعة لإحدى عشر ليلة بقت من المحرم عام 279هـ/892م وقدم جفتم في صفر من نفس العام (ابن جرير. تاريخ صنعاء 74. ابن عبد المجيد. بهجة الزمن 46 – الهمداني. الإكليل 180/10، 182. مجهول. تاريخ اليمن (ق129/1).
101. ابن جرير. تاريخ صنعاء 75.
102. جاء هذا في تعليقاته على الإكليل 179/10.
103. الإكليل 185/2.
104. مجهول. تاريخ اليمن (ق129/1).
105. العلوي. سيرة الهادي 136– 140– المحلي. أبو الحسن حسام الدين حميد بن أحمد المحلي (م. 652هـ/1254م). الحدائق الوردية من مناقب أئمة الزيدية 19/1 صورت المخطوطة على نفقة السيد يوسف المؤيد واعتبرها الطبعة الأولى 1402هـ/1982م – الجنداري. أحمد بن عبد الله (م 1337هـ/1918م). الجامع الوجيز في وفيات العلماء أولي التبريز(ق29/ب). المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء رقم 65 تاريخ. وبالتأكيد لم يقدم أبو العتاهية على هذه الخطوة إلا بمعرفة أكيدة بالهادي وربما جاءت هذه المعرفة من خلال دعاة الهادي في اليمن وكان منهم أحد وزراء أبي العتاهية فيما بعد وهو: محمد بن أحمد بن عباد التميمي (ابن جرير. تاريخ صنعاء 75– العلوي. السيرة 17 – الخزرجي. اليمن في عهد الولاة 119، 120– ابن أبي الرجال. مطلع البدور 129/1).
106. ابن جرير. تاريخ صنعاء 75.
107. المصدر نفسه 75.
108. المصدر نفسه 75– العلوي. السيرة 19، 20، 273– ابن عبد المجيد. بهجة الزمن 47.
109. ابن جرير. تاريخ صنعاء 77– العلوي. السيرة 20.
110. العلوي. السيرة 273، 274.
111. يحي بن الحسين. غاية الأماني 188/1.
112. الهمداني. الإكليل 183/2– يحي بن الحسين. غاية الأماني 192/1، 201.
113. ابن فهد. عز الدين عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي القرشي (م922هـ/1516م). غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام 466/1 تحقيق/ فهيم محمد شلتوت. ط. الأولى 1406هـ/1986م) مركز البحث العلمي التابع لكلية الشريعة. جامعة أم القرى. مكة المكرمة– الفاسي. شفاء الغرام 191/2 وقد أسماه الهمداني (صفة 323) عج بن شاح وأطلق عليه لقب سلطان مكة.
114. ابن جرير. تاريخ صنعاء78 – الخزرجي. اليمن في عهد الولاة 122– ابن الديبع. قرة العيون 175/1.
115. العلوي. سيرة 19، 20، 273– ابن جرير. تاريخ صنعاء 77– ابن عبد المجيد. بهجة الزمن 47.
116. يحي بن الحسين. غاية الأماني 187/1، 189.
117. ابن جرير. تاريخ صنعاء 78، 80– يحي بن الحسين. غاية الأماني189/1.
118. مجهول. تاريخ اليمن (ق129) – ابن جرير. تاريخ صنعاء 81.
119. ابن جرير. تاريخ صنعاء80، 81– يحي بن الحسين. غاية الأماني 189/1.
120. العلوي. سيرة 390، 391.
121. مجهول. تاريخ اليمن (ق129)– ابن جرير. تاريخ صنعاء 79، 80– ابن عبد المجيد. بهجة الزمن 48.
122. ابن جرير. تاريخ صنعاء 79، 80.
123. المصدر نفسه 83.
124. الرازي. أحمد بن عبد الله (م. 460هـ/1067م). تاريخ مدينة صنعاء 309، 310 تحقيق/ د. حسين عبد الله العمري ود. عبد الجبار زكار ط1 1974م بيروت– الخزرجي. العسجد 39.
125. العلوي. سيرة 398، 403– نشوان الحميري. أبو سعيد (م 573هـ/1177م) الحور العين 20 تحقيق/ كمال مصطفى. مطبعة السعادة بمصر. نشر مكتبتي الخانجي بمصر والمثنى ببغداد– الوصابي. الإعتبار 25.
126. العلوي. سيرة الهادي 398، 403– نشوان الحميري. الحور العين200– الوصابي. تاريخ وصاب 25– ابن الديبع. قرة العيون 207/1 –209– يحي بن الحسين. غاية الأماني 209/1– إدريس عماد الدين. عيون الأخبار 42/5.
127. مجهول. تاريخ اليمن (ق133)– الأكوع. الوثائق 237– 242.

128. الأكوع. الوثائق السياسية 240.
129. المصدر نفسه 242- 246.
130. القلقشندي. أحمد بن عبد الله (م 821هـ/1418م). مآثر الإنافة في معالم الخلافة 281/1 تحقيق/ عبد الستار أحمد فراج ط. الأولى 1964 وطبع بالأوفست 1980م. عالم الكتب بيروت.
131. ناهض عبد الرزاق (الدكتور). المسكوكات وكتابة التاريخ 65، 66.. دار الشئون الثقافية العامة. وزارة الثقافة. بغداد 1988.
132. الأكوع. الوثائق 235.
133. الطراز. مصطلح مصتق من الكلمة الفارسية (ترازيدن) وتعني التطريز والنسيج ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة والأمراء والسلطان أو الحاشية وعليها أشرطة من الكتابة مثل أسم الخليفة الذي نسجت في عهده والتاريخ ومكان النسيج وبعض الأدعية والألقاب، والطراز بهذا المعنى نوعان: الأول: طراز الخاصة ولا يلبسه إلا الخليفة ورجال الدولة، والثاني: طراز العامة.. وكلاهما يكون تحت رقابة الحكومة (زكي محمد حسن. فنون الإسلام 346، 347. دار الفكر العربي).
134. يحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بمجموعة من هذه القطع وتحمل أرقام (9464) و(13666) و(22517) و(9053) و(10378) و(14470) (أنظر: د. ربيع حامد خليفة. مناسج الطراز الخاصة بمدينة صنعاء. دراسة حول المنسوجات اليمنية في العصر الإسلامي. مجلة الإكليل. العدد الثاني. السنة السادسة. صيف 1408هـ/1988م صنعاء).
135. الأكوع. الوثائق 235.
136. المصدر نفسه 227. والمكس: هو الجباية أو الإتاوة أو الخراج أو ما يفرضه الملوك على الناس كضريبة (ابن منظور. لسان العرب 4248/6 دار المعارف بمصر).
137. الأعلاق النفيسة 112.
138. المقدسي. محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي البشاري (م 380هـ/990م). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم 105 ط. الثانية 1906. مطبعة بريل. ليدن. هولندا.
139. الأكوع. الوثائق 237، 242.
140. الإكليل. 184/2، 185.
141. الخزرجي. العسجد المسبوك 45- يحي بن الحسين. غاية الأماني 206/1.
142. الأكوع. تعليقات على الإكليل 186/2.
143. أنظر: لصاحب هذه الدراسة بحثا بعنوان (نكبة الهمداني). مجلة الآداب. جامعة صنعاء. العدد 16.
144. جاء هذا بوضوح في وصية أحمد الحوالي (أنظر: الأكوع. الوثائق السياسية 258).
145. المسعودي. مروج الذهب 185/2.
146. المصدر نفسه.
147. الهمداني. الإكليل 185/2.
148. جاء هذا في وصية طويلة كتبها أحمد الحوالي قبل وفاته (أنظر: الأكوع. الوثائق 255- 263)- الهمداني. الإكليل 185/2.
149. الهمداني. الإكليل 187/2.
150. الأكوع. الوثائق 259، 264.
151. ابن جرير. تاريخ صنعاء 84، 85- الهمداني. الإكليل 186/2، 187.
152. ابن جرير. تاريخ صنعاء 85، 86.
153. المصدر نفسه 86.
154. كان هذا في نقيل العصى من بكلا (بكلسي) في سنحان وبلاد الروس (ابن جرير. تاريخ صنعاء 87).
155. ابن جرير. تاريخ صنعاء 87.
156. أنظر: ترجمة الهمداني. الإكليل 156/2- سمرة الجعدي. عمر ابن علي (متوفى بعد 586هـ/1190م). طبقات فقهاء اليمن73 تحقيق: فؤاد سيد. مطبعة السنة المحمدية 1957م. القاهرة.
157. مجهول. تاريخ اليمن (1/99).
158. الرازي. تاريخ مدينة صنعاء 212- ابن سمرة. طبقات فقهاء اليمن 73- الجنديز السلوك 165/1.
159. ابن جرير. تاريخ صنعاء 86.
160. المصدر نفسه 88.
161. المصدر نفسه 89، 90.
162. ابن عبد المجيد. بهجة الزمن 59- ابن الديبع. قرة العيون 224/1- 227- يحي بن الحسين. غاية الأماني 227/1.
163. ابن فهد. غاية المرام 482/1، 483.
164. ابن عبد المجيد. بهجة الزمن 60، 61.
165. الجرافي. المقتطف، 62.

المقررات الدراسية في عهد الدولة النجاحية من 412- 554 هـ الموافق 1022- 1159م

د. فاروق أحمد حيدر*

1. المقدمة:

شهدت السنوات الأخيرة عناية ملحوظة بتراث اليمن وثقافته فكثرت الدراسات المتخصصة في جوانب مختلفة، ومعظم هذه الدراسات اهتمت بالجوانب السياسية والأدبية، وأغفلت الاهتمام بتاريخ التربية والتعليم، رغم أهميته ومن أجل الاستفادة منه في واقعنا التربوي الحالي.

ولذا حاول الباحث دراسة تاريخ التعليم في فترة من فترات التاريخ اليمني، لمعرفة ما تم في الماضي، وما يمكن الاستفادة من تلك التجارب في الحاضر، وبما يتناسب مع ظروف المجتمع، وذلك باستخلاص الدلالات والمضامين الاجتماعية والفكرية والتربوية، مما يفيد في حسن التعامل مع مشكلات التعليم اليمني الذي اندمجت في نسيجه كثير من قيم الماضي وتفاعلاته وحركته أو محاولة الاستفادة من التجارب ونتائج الخبرات الماضية في التصدي للمشاكل الحاضرة والتخطيط للمستقبل ومحاولة كتابة التاريخ التربوي والتعليمي، بصورة تعيد إليه تاريخيته وتنظر إلى الأجزاء من خلال الكل وتعمل على إبراز الوحدة من خلال التعدد، وتاريخ بناء الرأي وليس تاريخ الاختلاف في الرأي.

والباحث في دراسته هذه يقتصر على المقررات الدراسية في دولة بني نجاح، التي حكمت منطقة تهامة، خلال الفترة من 412- 554هـ/1022- 1159م وتعتبر تلك الدولة من الدول المستقلة التي حكمت اليمن وإن كانت تتبع من الناحية الاسمية الدولة العباسية في بغداد[1].

وقد تميزت فترة حكم الدولة النجاحية لتهامة بالصراع المستمر مع الدولة الصليحية، حول حكم تهامة، ومحاولة كل فريق القضاء على خصمه، فظل الصراع طيلة فترة بقاء الدولتين وعلى أية حال فإن تهامة ظلت في معظم فترات الصراع مع الصليحيين تحت سيطرة النجاحيين[2].

وعلى الرغم من أن حكام هذه الدولة، كانوا من

* أستاذ أصول التربية، كلية التربية، جامعة صنعاء.

غير اليمنيين، فهم موالي من أصول حبشية، فقد التف حولهم وساندهم في صراعهم مع الدولة الصليحية سكان تهامة وعلماؤها، لأنهم حملوا لواء السنة ضد الدولة الصليحية الإسماعيلية الشيعية[3].

ولكن مع ما واجهته تلك المنطقة في ذلك العصر من صراع واضطراب، إلا أن التعليم قد أزدهر بجميع مدارسه، وعلى اختلاف مذاهب تلك المدارس وذلك بفضل التنافس في نشر العلم واكتساب العلماء بين حكام تلك الدولة ووزرائها أو من قبل الدولة الصليحية، التي كانت في الغالب تتعامل مع علماء تلك المنطقة بروح التسامح والتشجيع[4].

وكانت زبيد عاصمة الدولة النجاحية، في ذلك العصر من أمهات المدن اليمنية وأحد أمهات المدن الإسلامية[5] وقد تميزت برجال العلم، وأصبحت مقصداً لطلبة العلم من جميع نواحي تهامة، وغيرها من المناطق اليمنية والبلدان الإسلامية، بما توفر فيها من العلماء وأماكن الدراسة بالإضافة إلى شهرتها التجارية[6] كما اشتهرت تلك المدينة وغيرها من مدن تهامة بنشاط علمي وفقهي واسع وبكثرة الفقهاء والعلماء والطلاب، وظهرت العديد من الأسر المشهورة بكثرة علمائها وأدبائها[7].

ولذا فالباحث في دراسته هذه درس المقررات الدراسية والعلوم التي كانت سائدة في تلك المنطقة، ومدى تأثرها بالظروف المجتمعية آنذاك، وكيف يمكن الاستفادة من هذه التجربة في الحياة التربوية المعاصرة.

2. أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في موضوعها حيث تركز على المقررات الدراسية في عهد دولة بني نجاح، التي حكمت منطقة تهامة، في عصر اضطربت فيها أحوال اليمن، وتوزعتها دول مختلفة المذاهب والأهواء السياسية وبرغم ذلك أزدهر العلم والتعليم كما تكمن أهمية الدراسة في الأتي:

أ. هذه الدراسة محاولة للإسهام في دراسة تاريخ التعليم اليمني في فترة من فتراته الهامة.

ب. تسعى هذه الدراسة إلى تأصيل الهوية الإسلامية لليمن، من خلال الاستجلاء العلمي للتاريخ اليمني الإسلامي في حلقاته المختلفة عامة والتعليمية بوجه خاص.

جـ. الوقوف على المتغيرات التي حدثت في تلك الفترة، وانعكاساتها التعليمية مما يمكننا من الاستفادة منها في حياتنا المعاصرة.

3. منهج الدراسة:

استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الاستردادي (التاريخي) الذي يقوم بتحليل نظم التعليم، وربطها بالقوى التي أثرت فيها في فترة تاريخية معينة وهي في هذه الدراسة فترة حكم بني نجاح في تهامة، وذلك بالرجوع إلى المصادر التاريخية المختلفة، وكذلك الاستعانة بالمصادر الأخرى ذات الصلة بالموضوع.

4. حدود الدراسة:

الحدود الزمانية: درس الباحث المقررات الدراسية في عهد دولة بني نجاح باليمن خلال الفترة من 412-554هـ الموفق 1022- 1159م.

الحدود المكانية:- دراسة المقررات الدراسية في المنطقة التي حكمها بنو نجاح وهي تهامة اليمن، التي تمتد من موزع جنوبا إلى مدينة حرض شمالاً ومن ساحل البحر الأحمر غرباً إلى منطقة الجبال شرقاً.

5. خطوات الدراسة:

قسم الباحث دراسته إلى مبحثين:

المبحث الأول: خصص الحديث فيه على العوامل السياسية والاقتصادية التي أثرت على المقررات الدراسية في عصر دولة بني نجاح.

المبحث الثاني: خصص الحديث فيه على المواد

والمقررات الدراسية في عهد دولة بني نجاح.

المبحث الثالث: خصص الحديث فيه على انعكاسات هذه الدراسة على الواقع التربوي المعاصر.

للإجابة على ما الذي يمكن أن نستفيده من هذه الدراسة ؟

المبحث الأول
العوامل السياسية والاقتصادية التي أثرت على التعليم في عهد دولة بني نجاح

1. العوامل السياسية:

بدأت إمارة بني نجاح في تهامة، باستيلاء مؤسسها نجاح الحبشي على الحكم فيها سنة 412هـ - 1022م بعد زوال دولة بني زياد، وقد أيد الخليفة العباسي القادر بالله الأمير نجاح بمرسوم النيابة ومنحه لقبي (المؤيد) و(نصر الدين) وفوض إليه النظر العام في المنطقة التي يحكمها، وتقليد القضاء من يراه أهلا لذلك[8]، وقد وصف الأمير نجاح بأنه كان عادلاً رفيقاً بالرعية محبوباً[9] وضبط منطقة تهامة ضبطاً تاماً، كما اتسمت إمارته بالسنية بحكم تبعيتها للعباسيين ولذا فقد كسبت رضى المواطنين في مناطق نفوذها، بل وساعدها في مقاومة الصليحيين في الحروب الطويلة التي قامت بين الدولتين، طيلة عهد يهما تقريباً، إذ وجد فيها السنيون في اليمن في بني نجاح ملاذاً ونصيراً وحصناً وحامياً لمعتقداهم من عقائد الإسماعيلية وآرائهم التي كان ينشرها الصليحيون[10].

وقد انتهت حياة الأمير نجاح بمقتله مسموماً بواسطة جارية أهداها إليه الملك على بن محمد الصليحي سنة 452هـ/1060م. وخلف الأمير نجاح أولاداً صغاراً، فتولى الوصاية عليهم أحد مواليه المسمى كهلان الذي حكم تهامة نيابة عنهم لمدة سنتين إلى أن تمكن الملك على الصليحي من الاستيلاء عليها سنة 454هـ/1602م[11] وولى عليها صهره أسعد بن شهاب سنة 456هـ/1064م الذي أحسن سيرته في الرعية، وفسح لأهل السنة في إظهار مذهبهم، وكان يحمل من تهامة إلى صنعاء بعد خصم أرزاق الجند بها، وغير ذلك من الأسباب اللازمة ألف ألف دينار[12] أما ولدا الأمير نجاح سعيد وجياش فقد هربا إلى جزيرة دهلك، وأقاما هناك يتعلمان القرآن والآداب[13] ويخططان للعودة إلى الاستيلاء على تهامة، وقد عاد سعيد الأحول واستولى هو وأصحابه على زبيد سنة 459هـ/1607م، ثم تمكن بعد ذلك من قتل الملك علي الصليحي، الذي كان في طريقه إلى الحج، وأسر زوجته أسماء[14].

وبعد مقتل الملك علي الصليحي تولى الحكم بعده ابنه الملك المكرم أحمد بن علي (ت477هـ/1185م) الذي تمكن بعد عام من مقتل أبيه أن يثأر له ويستولي على زبيد سنة 460هـ/ 1068م، ويفك أسر أمه أسماء، بعد أن هزم الملك سعيد الأحول، الذي فر هارباً، ثم بعد ذلك رجع إلى زبيد، واستولى عليها سنة 479هـ/1087م[15] واستمر يحكمها إلى أن دبرت الملكة أروى قتله سنة 481هـ/1089م[16].

وبعد مقتل الملك سعيد الأحول فر أخوه جياش إلى الهند، ثم عاد واستولى على مدينة زبيد وتهامة سنة 482هـ 1090م[17] ولكن الصراع لم ينته بين الصليحيين وبني نجاح فقد تداول الفريقان حكم تهامة، وكانا أثناء ذلك يتقاسمان خراج تهامة بالعدل ولا يظلمان أحداً من الرعية، وكان أهل هذه المنطقة أكثر ميلاً إلى تأييد النجاحيين وترحيباً بهم لاتفاقهم معهم مذهبياً، وكرههم للمذهب الإسماعيلي، مذهب الصليحيين[18].

وتنتهي هذه الفترة بهزيمة الصليحيين في معركة الكظائم، وسيطرة النجاحيين على تهامة بقيادة الملك جياش الذي عمل على تثبيت حكمه وساد الاستقرار هذه المنطقة حتى وفاته سنة 498هـ/1104م[19] ويوصف جياش بالملك العادل، وكان فاضلاً وله شعر رائق وترسل فائق، وهو مصنف كتاب «المفيد في أخبار زبيد»[20] وبعد موته ساد الاضطراب السياسي والأمني هذه المنطقة بسبب الصراع بين أولاده مما أدى إلى ضعف نفوذهم

واستيلاء وزرائهم العبيد الأحباش على السلطة[21].

ولقد أجمل المؤرخ عمارة في تاريخه، وصف حال أمراء بني نجاح من أولاد فاتك بن جياش وحال وزرائهم العبيد، فقال «ولم يكن لأولاد الفاتك بن جياش من الأمر سوى النواميس الظاهرة من الخطبة بعد الخليفة العباسي والسكة والركوب بالمظلة في المواسم وعقد الآراء في مجالسهم، وأما الأمر والنهي والتدبير وإقامة الحدود وإجازة الوفود، فلعبيدهم الوزراء وهؤلاء الوزراء وإن كانوا من العبيد فلهم «الكرم الباهر والعز الظاهر والجمع بين الوقائع المشهورة والصنائع المأثورة[22].

وأول من وزر منهم أنيس الفاتكي (ت517هـ/1123م) وأعقبه الوزير أبو منصور من الله الفاتكي (524هـ/1130م) وكان من كرام الوزراء وأعيانهم في الشجاعة والكرم، وفي إثابة الشعراء والقاصدين الكثير من الأموال، فقد ذكر مؤدب أولاده محمد بن عبد الله السهامي، أنه جلّد مما مدح به هذا الوزير عشرة أجزاء من شعر الشعراء المجيدين المشاهير، ومن أعماله أنه أنفق على مدارس الفقهاء الحنفية والشافعية بمنحهم الأراضي والمرافق والرباع، التي تدر عليهم دخلاً كبيراً يكفيهم، أغناهم به[23].

وكان آخر هؤلاء الوزراء وأكفأهم الوزير سرور الفاتكي (551هـ/1156م) فقد اتصف بالعدل والصلاح والتواضع، وخاصة مع فقهاء المذاهب السنية الثلاثة المالكية والحنفية والشافعية،وكان يصرف للفقهاء والقضاة والمتصدرين للتدريس في الحديث والنحو واللغة وعلم الكلام اثنا عشر ألف دينار، عدا ما يعطيهم من جوائز، واشتهر كذلك بطلب العلم والمذاكرة فيه، ويذكر ابن الديبع في بغية المستفيد، عن هذا الوزير (ثم يخرج إلى المسجد بعد الزوال، فلا يشتغل بشيء بعد الفريضة، غير سماع المسندات الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صلاة العصر ثم يدخل داره ويخرج قبل المغرب فإذا صلاها تناظر الفقهاء بين يديه حتى العشاء[24].

بعد مقتل الوزير سرور لم تلبث الدولة النجاحية بعده غير فترة قصيرة، بأن تصارع القواد وأعيان الدولة، وتنافسوا على منصب الوزارة مما أدى إلى مقتل الأمير النجاحي فاتك بن محمد (ت 544هـ /1159م) آخر حكام هذه الدولة، فأتاح ذلك للثائر علي بن مهدي، من أن يقضي عليهم جميعاً، ويسيطر على زبيد وتهامة ويزيل حكم بني نجاح[25].

وقد حملت هذه الدولة العداء المستمر للدولة الإسماعيلية الصليحية فكان الصراع بينهما مستمراً سياسيا وفكرياً، وقد شجع حكام هذه الدولة ووزراؤها العلماء والفقهاء لمعرفتهم بقوة تأثيرهم على المجتمع آنذاك، ولأجل أن يقفوا معهم في هذا الصراع فخصصوا لهم الرواتب، وأغنوهم وأعفوا أراضيهم من ضريبة الخراج[26] بالإضافة إلى مشاركة هؤلاء الحكام في العلوم مشاركة فعالة، سواء في طلب العلم أو نشره أو التأليف فيه، وبذلك فقد قاموا بدور مؤثر في تطور المسيرة الفكرية والعلمية في المنطقة التي حكموها.

وعلى الرغم من الصراع والاضطراب الذي واجهته تلك الدولة في تلك الفترة إلا أن العلم قد أزدهر بجميع مدارسه، وعلى اختلاف مذاهب تلك المدارس بسبب التنافس في نشر العلم واستقطاب العلماء بين حكام تلك الدولة ووزرائها، أو من قبل الدولة الصليحية، التي كانت تتعامل مع علماء تهامة بروح التسامح والرفق للتقليل من معارضتهم لها[27].

وكان للعلماء وللمؤسسات التعليمية التأثير الواضح على حكام دولة بني نجاح في تعليمهم وحسن تربيتهم، وكثير منهم كان على مستوى عالٍ من التعليم والخلق الرفيع والسياسة الحكيمة العادلة، وذلك بتأثير التعليم الذي نالوه، فقد كان للمؤسسات التعليمية دورها في التخفيف من انحراف الفئات الحاكمة واستبدادها بالسلطة، وخروجها عن مقتضى الشرع الحنيف الذي

يحتم على المسلمين الالتزام بالشورى، إما بالوقوف ضد هذه الانحرافات أو التأثير على الحكام بتعليمهم وتثقيفهم، فكل هؤلاء الحكام تعلموا على أيدي مؤدبين خاصين أكسبوهم قدراً كبيراً من تعاليم الإسلام وآدابه.

2. العوامل الاقتصادية:

امتازت منطقة تهامة التي حكمها بنو نجاح، بأنها أخصب أقاليم اليمن وأغناها بمنتجاته الزراعية، لذلك كانت تعتبر ميدان ثراء واسع للحكام والأمراء الذين يحكمونها، فسرعان ما تنمو ثرواتهم وتزداد قوتهم[28] فهي تنتج أربعة محاصيل زراعية اعتماداً على رية واحدة[29].

ويتصف هذا الإقليم بشدة الحرارة وارتفاع نسبة الرطوبة وأمطاره قليلة معظم العام ويسقي أراضيه عدد من الأودية التي تنحدر من المرتفعات العالية التي تطل على تهامة، والتي تجلب معها الطمي الذي يجدد خصوبة التربة، وتتدفق هذه الأودية عليها بكميات غزيرة، في فصل الصيف وبعضها يسير باستمرار، وكأنه نهر صغير[30] وأهمها حرض ومور وسردد وسهام ورمع وزبيد ورسيان والجريب وموزع[31].

والأراضي الزراعية في هذه المنطقة سهلة ومنبسطة، وتمتد بطول السهل الساحلي وعرضه، فهي واسعة المساحة وفيرة الإنتاج، وأهم حاصلاتها الزراعية الذرة والدخن والسمسم، والأرز والقطن، وقصب السكر، والنيلة، وأنواع عديدة من الفواكه، مثل الموز والتين والرمان والليمون والخضروات المختلفة، وأنواع الرياحين[32].

وفي إقليم تهامة ينمو النخيل بكثرة، وينتج مختلف أنواع التمور. ويأتي إليه اليمنيون من حرض إلى أبين، وينزل إليه أهل الجبال، ويقيمون فيه شهرين أو ثلاثة أشهر، يقضون هذه الفترة في لهو ومرح وسرور، ويشترون البر والتمر، وقد بلغ ضمان النخل في ذلك العهد في العام سبعين ألف دينار[33].

بالإضافة إلى شهرة تلك المنطقة التجارية والصناعية، حيث كانت تتمتع بشهرة عالمية[34] وتبادل تجاري وصناعي مع مختلف الدول مثل الحبشة ومصر والحجاز والهند والصين وسواحل أفريقيا الشرقية[35].

ومما اشتهرت به تلك المنطقة صناعة ودباغة الجلود، وصناعة النسيج وحازت صناعتها شهرة عالمية واسعة[36]، وكانت تقوم على القطن المنتج محليا في تهامة، والمستورد من الهند، وعلى الحرير ومعظمه مستورد من الخارج، بالإضافة إلى الصناعات المتعددة التي اشتهرت بها مدينة زبيد وغيرها من المدن التهامية، اشتهرت بصناعة العطور الراقية، والتي كان يختص بعضها بالرجال وبعضها بالنساء، وصناعة الحلي المختلفة، وكذلك مختلف أنواع المربى، التي كان لها شهرة عالمية، وتصدر إلى مختلف البلاد[37].

أما التجارة فقد انتعشت في تلك الفترة بسبب عودة الخط التجاري العالمي إلى موانئ اليمن والبحر الأحمر بعد أن كان يمر عبر الخليج الفارسي والعراق بسبب اضطراب الأمن في العراق، وكذلك قيام الدول المختلفة في اليمن بتنمية الموارد الذاتية، وأول هذه الدول هي الدولة الزيادية والدولة الصليحية ودولة بني نجاح[38].

ولذا فقد نشطت التجارة، واتسع التبادل التجاري بين تلك المنطقة والبلدان المختلفة، وتم تصدير كثير من منتجاتها بواسطة موانيها المختلفة، مثل ميناء الفازة وغلافقة والمندب[39] وأشهر هذه الموانئ هو ميناء الفازة الذي شارك في التجارة الخارجية لمنطقة تهامة، معتمداً على خلفية صناعية كبرى في مدينة زبيد تتمثل في صناعة النسيج ومعامل الدباغة وغيرها من الصناعات المتعددة التي اشتهرت بها تلك المدينة، بالإضافة إلى الفائض الزراعي الكبير لتلك المنطقة[40] كما كانت ترد إلى هذه الموانئ مختلف أنواع التجارة سواء من سواحل إفريقيا الشرقية والحبشة أو من مصر وغيرها من البلدان[41].

وكانت زبيد في ذلك العهد، نتيجة للازدهار الاقتصادي الذي عاشته تلك المنطقة، حاضرة تهامة وأشهر مدن اليمن الأسفل وأحد أمهات المدن الكبرى وأفخمها، ربة العرفان وكعبة القصاد، ومطمح أنظار العلماء والمتعلمين، ومعهد علمي يزخر بالعلوم والآداب وشتى الفنون، ومتجراً لأرباب الصنائع والحرف والباعة والتجار والأدباء والشعراء يرتادونها من كل صوب، ويصدرون عنها روءا ملينة، وقد منحها المولى عز وجل موقعا طيباً، فواديها الخصيب المسمى الحصيب في شرقيها يتدفق بالخيرات بأعظم محصولات الحبوب والثمار والفواكه، والبحر من غربيها يمخر بالجواري المثقلات جائية ذاهبة تقذف بنفائس الهند والصين، وتزودها أفريقياً ومصر بكل ما تحتاج إليه، وتعود منها بجر الحقائب من وشي صنعاء وزبيد وتحف اليمن[42].

وهذه الظروف الاقتصادية التي اشتهرت بها منطقة تهامة في تلك الفترة مكنت ملوك تلك الدولة من المساهمة في تشجيع العلماء والفقهاء وطلاب العلم وبناء المؤسسات العلمية والتعليمية، ومجيء العلماء والتجار ومساهمتهم في نشر التعليم وفي استقدام المؤدبين لأبنائهم مما أدى إلى ارتفاع مستواهم العلمي والثقافي ومشاركتهم في العلوم المختلفة، والعمل على بناء المؤسسات الاجتماعية وتقدم العمران في منطقة تهامة، رغم الظروف السياسية التي اتسمت في كثير من الأحيان بعدم الاستقرار والصراع الداخلي والخارجي.

المبحث الثاني
المواد والمقررات الدراسية في عهد دولة بني نجاح

تنوعت المقررات الدراسية والعلوم التي كانت تدرس في المؤسسات التعليمية في ذلك العصر بين العلوم الشرعية من تفسير، وقراءات، وحديث، وفقه، وعلوم لغة، وأدب، وعروض، وعلم التاريخ، والعلوم الرياضية، والهندسة، والمنطق وعلم الكلام، وغيرها من علوم ارتبطت بحاجة المجتمع ومتطلباته.

مع العلم أن هذه المواد الدراسية لم تقم بها مؤسسة تعليمية واحدة وإنما تعددت المؤسسات التعليمية التي قامت بتدريسها، وخضع ذلك لعوامل مختلفة منها الضرورة والحاجة وتوفر المدرسين، ويمكن إجمال المواد الدراسية والموضوعات التي كانت تدرس في ذلك العهد في المواد والمقررات الدراسية التالية:

أولاً: علوم القرآن الكريم:

اهتمت المؤسسات التعليمية بتعليم القرآن الكريم، فهو المادة الأساسية الأولى، فقد كان أول ما يتعلمه الصبيان في مرحلتهم الأولى هي مادة القرآن الكريم، والقيام بحفظه وقراءته، واهتم بقراءته وترتيله وتعليمه للأطفال منذ الصغر، وقد حرص أولياء أمور الصبيان على ذلك في عهد بني نجاح، مثال ذلك ما ذكر في رسالة الملك جياش بن نجاح إلى مؤدب ولده منها «وعلمه كتاب الله، فإنه الحبل المتين، ولا ترخص في نسيانه، فإنه الخسران المبين، وعلمه قراءة أبي عمرو فإنها أشهر القراءات في البدو والحضر»[43].

وقد نشأت علوم تتعلق بالقرآن الكريم، أبرزها علم القراءات، وعلم التفسير واهتم اليمنيون في منطقة تهامة في ذلك العصر بهذين العلمين اهتماماً كبيراً، وفي السطور التالية قام الباحث بتعريفهما، ثم تطرق لمدى اهتمام الدارسين في تلك الفترة بهما:

1. علم القراءات: وهو علم يبحث فيه عن صورة نظم كلام الله تعالى، من حيث وجوه الاختلافات المتواترة، وفائدته صرف كلام الله عن طريق التحريف والتغيير[44] ويتضمن عدة فروع، منها مخارج الحروف ومخارج الألفاظ، علامات الوقف، علل القراءات، ورسم كتابة القرآن في المصاحف وآداب كتابة المصحف[45].

وهو العلم «الذي يتناول قراءة القرآن الكريم بحسب رواية الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم، بطرق مختلفة في بعض ألفاظه، كيفية الحروف في أدائها[46] وقد عرفت في تلك المنطقة مختلف القراءات، ومن أهم ما اشتهر من هذه القراءات هي قراءة عمرو بن العلاء[47] وهي القراءة المنتشرة في منطقة تهامة في تلك الفترة، كما تدل المراجع المختلفة[48].

وبرز في تلك الفترة الجم الغفير من القراء من العلماء منهم أحمد بن محمد أبو العباس الحضرمي (ت: 554 هـ/1159م) شيخ المؤرخ المشهور عمارة الذي قرأ عليه حرف عمرو بن العلاء[49].

2. علم التفسير: وهو علم يبحث عن معنى نظم القرآن الكريم بحسب الطاقة البشرية، وبحسب ما تقتضيه قواعد اللغة العربية وفائدته حصول القدرة على استباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة[50] ويتضمن تفسير القرآن الكريم فروعاً كثيرة منها معرفة المكي والمدني، وسبب النزول، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وخاصه ومجمله[51] والتفسير في الاصطلاح: هو توضيح معنى الآية وأسبابها، وقصتها، والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة[52].

وقد نال علم التفسير وشرح أحكامه العناية التامة، وتنوعت كتب التفسير، وكانت الكتب المشهورة في التفسير في العالم الإسلامي مادة التدريس في المؤسسات التعليمية في ذلك العصر، ومرجعاً يرجع إليه العلماء والدارسون، ومن هذه التفاسير «تفسير القرآن الكريم» للإمام الطبري (ت310هـ/922م) وكتاب «الكشف والبيان في تفسير القرآن» للإمام أبو إسحاق النيسابوري المعروف بالثعلبي (ت 427 هـ /1035م)[53] وكتاب «التفسير الكبير» لأبي إسحاق القشيري النيسابوري (ت 465هـ/1072م)[54] وكتب التفسير الثلاثة للإمام الواحدي (ت 468هـ/1075م) وهي البسيط والوسيط والوجيز[55] وكتاب «الكشاف» للإمام الزمخشري (ت 538 هـ/1143م)[56].

واختلفت كتب التفاسير التي كان يعتمد عليها من مذهب إلى آخر نتيجة لاختلاف المذاهب السائدة في منطقة تهامة، بل لقد تنوعت كتب التفسير عند اتباع المذهب الواحد، فمثلاً اعتمد الشافعية ذوو المعتقد الحنبلي على تفسير «ناسخ القرآن ومنسوخه» لأبي يعقوب إسحاق الصفار «ت 249هـ/863 م»[57] أما الشافعية الأشعرية الذين انتشروا في منطقة تهامة في ذلك الوقت، فقد اعتمدوا على تفاسير القرآن للإمام الواحدي لأنها توافق معتقدهم[58].

تبين فيما سبق تأثير العامل الديني في شدة اهتمام المؤسسات التعليمية في تلك المنطقة بدراسة القرآن الكريم وعلومه، منذ مراحل الدراسة الأولى، واندفاع أفراد المجتمع لدراسته، بالإضافة إلى أن للاتصال والعلاقات الجيدة بالدول الإسلامية المختلفة تأثير في وصول التفاسير القرآنية المختلفة، والقراء إلى تلك المنطقة، بالإضافة إلى تأثير العامل المذهبي في اختلاف التفاسير من مذهب فقهي إلى آخر، علماً أن هذه العلوم كانت هي المحور الأساسي للدراسة في مختلف مراحلها.

ثانياً: علم الحديث:

ويبحث علم الحديث عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول عليه الصلاة والسلام من حيث روايتها ضبطاً وعدالة، ومن حيث كيفية السند اتصالا وانقطاعاً، وغير ذلك من الأقوال[59] وكذلك يبحث عن المعنى العام من ألفاظ الحديث، وعن المعنى المراد مبيناً على قواعد اللغة العربية، وضوابط الشريعة، ومطابقاً لأحوال النبي عليه الصلاة والسلام[60] ويقصد بعلم الحديث ما صدر عن النبي عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل أو تقرير بمعنى استحسانه شيئاً، وهو ما اصطلح تسميته أيضاً بالسنة، وله حجته مثل القرآن الكريم[61].

وقد اهتم بتعليم هذا العلم في تلك الفترة، وكثرت مجالسه، وتوفرت للدارسين كتب الحديث المشهورة،

ومنها كتب الصحاح، وكتاب "الجمع بين الصحيحين"، وكتاب "تجريد الصحاح الستة"، وكتاب "النجم"، وكتاب "الكواكب"، "وأمالي الشجري"، "وأمالي الهاروني"، "وأحاديث الأشج"، "والأحاديث المنتقاة"، والأحاديث "الأربعون السيليقية"، "والأحاديث الزمخشرية" "وسنن المزني" في الحديث[62]، وغيرها من كتب الحديث[63].

بالإضافة إلى كتب الحديث التي جمعها محدثو تلك الفترة منها: ((الأربعون حديثاً)) وكتاب ((الميمون في فضائل أهل اليمن)) جمع فيها الأحاديث الواردة في فضل اليمن[64] ومثل كتاب ((المستصفي من سنن المصطفى)) لمحمد بن سعيد بن معن القريظي (ت 576 هـ/1180م)، وكتاب ((الزلازل والأشراط)) الذي جمعه علي بن أبي حمير الهمداني العرشاني (ت557 هـ/1162م) والذي كان يوصف بأنه إماماً للحديث متفنناً للرواية عالماً بصحيح الحديث ومعلوله[65].

وكان هذا العلم موضع اهتمام جميع فقهاء تلك الدولة، حيث كان يتوجب عليهم حفظ الأحاديث التي تساعدهم على استنباط الأحكام الفقهية، فكان لا يكتمل فقه العالم، إلا إذا أتقن هذا العلم، ولذا فقد كانوا يحرصون على حفظ الأحاديث ومعرفة رواتها، وينتقلون من بلد إلى آخر لسماع الحديث من مصادره، وممن يشتغل به، وأعلاهم سنداً، منهم الإمام المشهور أبو عبد الرحمن الحسين بن خلف بن حسين المقبعي، الذي وصف بأنه كان فقهياً عارفاً فاضلاً كاملاً أصولياً وفروعياً محدثاً، وهو أحد فقهاء تهامة المشهورين[66] والشيخ بن أبي الصيف، الذي تنتهي إليه أكثر أسانيد أهل اليمن[67] وكان تقام في مساجد تلك الدولة في تلك الفترة، حلقات لسماع كتب الأسانيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحضرها طلبة العلم من جميع فئات المجتمع، مثال ذلك أن الوزير سرور الفاتكي، كان يحضر إلى المسجد بعد الزوال، فيسمع المستندات الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صلاة العصر[68].

ومن دراستنا لهذا العلم في تلك الفترة، نرى شدة اهتمام الدارسين بتعلمه وحفظه والتثبت في أخذه باعتباره الأصل الثاني من أصول الشريعة الإسلامية بعد القرآن الكريم، فقد حرصوا على الإطلاع على مختلف كتب الحديث وحفظها، والتثبت من صحتها، والرحلة في طلبها، وكان لهذا العلم الشريف دوره في اكتساب المجتمع القيم الإسلامية الفاضلة، وتهذيب الدارسين وتأدبهم بآداب الإسلام.

ثالثاً: علم الفقه:

وهو علم أحكام التكاليف الشرعية كالعبادات والمعاملات، وما يتصل بالأمور الدنيوية من أحكام قضائية وسياسية وحربية[69].

وبالنسبة للمذاهب الفقهية في تلك الفترة، فقد قلد معظم سكان تهامة في الفروع مذهب الإمام الشافعي، وقلدوا في العقيدة الإمام الأشعري، وبعضهم قلد مذهب الإمام أبي حنيفة، ووجدت في مدينة زبيد بعض الأسر التي قلدت مذهب الإمام مالك[70].

ولذا فقد كثرت الكتب الفقهية المعتمدة للدراسة، واختلفت من مذهب إلى آخر، فقد استتبع انتشار مذهب الإمام الشافعي في تهامة دراسة أصوله وفقهه من مؤلفات واجتهادات مؤسس المذهب وشيوخ المذهب المشهورين، سواء من خارج اليمن أو من داخلها، ومن أهم كتب الشافعية التي كانت تدرس في تهامة في ذلك الوقت هي ((الأم)) و ((الرسالة الجديدة)) للإمام الشافعي و ((سنن المزني)) و((سنن الربيع)) و ((مختصر المزني)) ومصنفات القاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر الطبري (ت450 هـ/1058 م) ومنها ((شرح مختصر المزني)) وكتب أبي علي الحسن بن محمد بن العباس الطبري الزجاجي (ت415هـ/1024م) وشروح المزني المشهورة، وبكتب الفروع لأبي الفتح سليم بن أيوب بن

سليم الرازي (ت447هـ/1055م)[71] ومنها المجرد والتقريب والكافي)).

وظلت هذه الكتب هي المتداولة بين شافعية اليمن، إلى أن دخل إليها كتاب (المهذب) للإمام أبي إسحاق بن علي بن يوسف الفيروز ابادي (ت 446هـ 1055م). في آخر المائة الخامسة أدخله اليمن الفقيه محمد بن عبدويه (ت525هـ 1131م) فأقبل عليه الدارسون واهتموا به اهتماماً شديداً[72].

وبالإضافة إلى الكتب السابقة فقد تفقه أهل تلك المنطقة من أتباع المذهب الشافعي بكتاب (البيان) للإمام يحيى بن أبي الخير العمراني الذي اشتهر شهرة كبيرة في ذلك الوقت[73].

أما الأحناف فكانت كتبهم المدروسة في تلك الفترة كتاب (القاضي) لمحمد ابن عوف الزبيدي[74] و(مختصر القدوري) للفقيه الحنفي أبو الحسن أحمد بن محمد (ت428هـ/1037م) بالإضافة إلى كتب المذهب المشهورة وخاصة كتب الإمام محمد بن الحسن الشيباني (ت189هـ/805م) منها "الجامع الكبير" والجامع الصغير[75].

أما المالكية فكانت لهم كتبهم الفقيهة مثل (الموطأ) للإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت179هـ/795م) وإن كان هذا المذهب قد قل أتباعه في اليمن والمحصر في أسر قليلة في مدينة زبيد، لقلة انتشاره في الدول المجاورة القريبة من اليمن، وقلة من يرد إلى اليمن من علماء هذا المذهب، وممن ورد إلى زبيد من علماء المالكية الإمام بن جبيرة القرضي الحافظ (ت551هـ/1156م) وقد أفاد منه الدارسون[76].

وقد شارك التأليف في هذا العلم جماعة كبيرة من فقهاء تهامة ومن جاء إليها من خارجها، في ذلك العصر من فقهاء الشافعية أبو الفتوح عبد الله بن محمد أبي عقامة الذي صنف كتباً جليلة لم يتفقه بمذهب الإمام الشافعي أحد من أهل تهامة زبيد ومن حولها بعد وجودها إلا منها وهي: كتاب (التحقيق) ((كتاب أحكام الخنائي))[77] وعمارة اليمني الذي ألف كتاباً في الفرائض هو ((مختصر في الفرائض)) بالإضافة إلى مشاركته بالتدريس في هذا العلم[78] وألف العالم المشهور محمد بن عبدويه الذي أقام في تلك المنطقة، وتوفي في جزيرة كمران كتاب ((الإرشاد في أصول الفقه))[79].

ومن فقهاء الحنفية الذين شاركوا في التأليف في الفقه الإمام محمد بن أبي عوف مؤلف ((كتاب القاضي)) والذي تخرج علي يديه كثير من فقهاء الحنفية[80].

وقد لقي علم الفقه في منطقة تهامة في تلك الفترة عناية خاصة وأقبل الدارسون والعلماء على تعلمه والاشتغال به، لأن الفقهاء كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة في ذلك المجتمع، فهم فئة الأعيان، فمنهم المفتون والمدرسون والقضاة والصدور، وكان الفقه وسيلة هامة لتولي المناصب والسلطة في الدولة.

وقد أثرت العلاقات الخارجية بالدول الإسلامية الأخرى في انتشار مذهب الإمام الشافعي في تهامة في تلك الفترة،، لسيطرة علماء هذا المذهب على المؤسسات التعليمية في مكة والمدينة لأن منطقة تهامة كانت أكثر ارتباطاً بهاتين المدينتين الشريفتين لقربها منهما، وقلة علماء المذهب المالكي في هذه المسجدين الشريفين، أدى إلى انحساره في اليمن.

وكان للحكام النجاحيين دورهم البارز في تشجيع فقهاء السنة وخاصة الشافعية للوقوف معهم في صراعهم ضد الدولة الصليحية الشيعية.

مع ملاحظة أن الفقه في تلك الفترة بدأ يعاني من التدهور ، فقد عني أتباع كل مذهب، أسوة بما حدث في العالم الإسلامي بالانتصار لمذهبهم وتأييد فروعه وأصوله بكل الوسائل وإقامة البراهين على صحة ما ذهب إليه، وبطلان ما خالفه وصار الواحد منهم في الغالب لا يرجع إلى نص قرآني أو حديث إلا ليلتمس فيه ما يؤيد مذهب إمامه، وبهذا حصرت أبحاثهم في مذاهبهم، وحصر همهم في الاجتهاد في المذهب أو تقليده دون تبصر، وبلغ من

تقليدهم أن قالوا كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا، فهو مؤول أو منسوخ، وكان هذا هو بداية هبوط الفقه الإسلامي[81].

رابعاً: الدراسات اللغوية والنحوية والأدبية:

كانت الحياة الأدبية هي الدعامة الثانية التي أمدت الحركة التعليمية في تلك الفترة بالجمع الكبير من الكتب والمؤلفات، وساهمت بدورها في نشر المعارف المتنوعة، وزاد من تأثيرها وفاعليتها وانتشارها أفواج العلماء والأدباء القادمين من خارج اليمن الذين أثروا في الحياة الفكرية[82].

اهتم العلماء والطلاب في تلك المنطقة بعلوم اللغة العربية لأنها وسيلتهم لفهم نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، أما أبرز علوم اللغة العربية التي اهتم بها العلماء فهي النحو واللغة والأدب، وكان معظم العلماء والطلاب على دراية واسعة بها.

وقد نال علم اللغة عناية خاصة من الدارسين باعتباره العلم الموصل لمعرفة أسرار اللغة العربية، بل كان هذا شرطاً لدراسة كثير من العلوم عند العلماء، مثل علم القراءات وعلم التفسير وعلم الفقه، وكذلك نال النحو عناية كبيرة باعتباره أداة لتقويم اللسان[83] وحظي هذا العلم باهتمام كبير من علماء تلك المنطقة خلال فترة الدراسة، ويعد من المواد المهمة للدارسين، وكان يتم تدريسه للصبيان منذ المرحلة الأولى للتعليم، لاتصاله الوثيق بالعلوم الشرعية، ولذا أخذ كل دارس بنصيب من علم اللغة والنحو، حيث كان يفترض فيمن سيدرس العلوم الشرعية، أن يكون ملماً بهما، حيث لا يكون الفقيه العالم مشاركاً في العلوم إلا بعد أن يتقنهما[84].

وتنوعت كتب النحو واللغة، واطلع الدارسون على مختلف الكتب التي ألفت على اتساع العالم الإسلامي، لأن مدرس النحو واللغة أو طالبه لم يكن مقيداً بكتب محددة[85] فقد اعتمد العلماء والطلاب على ما جمعه وكتبه من سبقهم في علمي اللغة والنحو في اليمن أو في بلاد الإسلام الأخرى.

وقد استأثرت عدة مصنفات لغوية ونحوية باهتمام الدارسين والعلماء منها كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ/791م) و «كتاب سيبويه» في النحو لعمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت180هـ/796م) و«الجمل» لعبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (474هـ/1081م) و«الكافي في النحو» لأبي جعفر الصفار (ت 337 هـ/948 م) و«الجمل» للزجاجي (ت 329 هـ/940 م) و «غريب الحديث» لأبي عبيدة و«نظام الغريب» لأبي علي عيسى بن إبراهيم الوحاظي (ت 480 هـ/1087م).

أما الأدب من شعر ونثر فقد ازدهر ازدهاراً كبيراً، وكان يدرس في المؤسسات التعليمية منذ المرحلة الأولى، لذا فقد نبغ في ذلك العصر العديد من الشعراء والأدباء المشهورين، الذين خلفوا ثروة شعرية وأدبية ضخمة، وتولى بعضهم الكتابة في دواوين الإنشاء في دولة بني نجاح وفي الدولة الصليحية، وممن اشتهر بالشعر القاضي محمد بن أبي عقامة، وعمارة بن علي اليمني الحكمي (ت 569هـ/1175 م) والملك جياش بن نجاح الذي اشتهر بالشعر وإجادته[86].

وممن اشتهر بالأدب والكتابة في تلك الفترة إسماعيل بن محمد المعروف بابن النوقا، الذي تولى وزارة القلم للملك جياش بن نجاح[87] وأحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري (ت 550 هـ/1155 م) الذي وضع كتاباً في النثر الأدبي أسماه «اللباب ونزهة الأحباب»[88].

وكذلك اشتهر بالكتابة والأدب الحسين بن علي المعروف بابن القم الزبيدي بالإضافة إلى اشتهاره بالشعر، حيث يعتبر من أعظم شعراء عصره[89] وممن نبغ في هذا المجال العالم النحوي واللغوي المشهور محمد بن يحي بن علي الزبيدي (ت 555 هـ/1160 م) والذي اشتهر بكثرة مؤلفاته في هذين العلمين، ومن هذه المؤلفات (الرد على ابن الخشاب)، (كتاب العروض)، كتاب القوافي، مقدمة في النحو، منار الاقتضاء ومنهاج الاقتفاء في

النحو[90].

ومن دراستنا لعلوم النحو واللغة والأدب يتبين لنا مدى ازدهارها واهتمام الدارسين بمختلف التخصصات على اكتساب قدرمنها، وظهور العديد من الأدباء والنحويين البارعين، الذين كانت لهم اليد الأولى في اللغة والنحو وفصاحة اللسان، حيث إن إتقان هذه العلوم كان ضرورياً لكل عالم وطالب علم (أو لتولي المناصب المهمة في الدولة، وقد مر بنا أدلة كثيرة على تشجيع حكام ووزراء الدولة النجاحية وكذلك أفراد المجتمع ورعايتهم لأهل العلم والأدب، ومدى التنافس بين حكام الدويلات اليمنية المختلفة في استقطاب هؤلاء الأدباء والشعراء، وقد ساعد كذلك على ازدهار هذه العلوم كثرة الكتب التي كانت في متناول الدارسين لمختلف المؤلفين من مختلف بلاد الإسلام.

خامساً: علم التاريخ والأنساب:

حظي علم التاريخ والأنساب بعناية واضحة من الدارسين والعلماء، وتوفرت لهم مختلف التراجم والتواريخ التي أُلفت من قبل المؤرخين المسلمين من جميع الأقطار الإسلامية.

وتدل المؤلفات التاريخية والتراجم التي أُلفت في تلك الفترة على سعة إطلاع الدارسين اليمنيين في تلك المنطقة، ومدى توافر المراجع التاريخية[91].

وقد جاء الاهتمام بدراسة هذا العلم من أجل خدمة العلوم الشرعية ومعرفة رجال الحديث والوقوف على سيرة الرسول صلوات الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم ؛ وخاصة من قبل الفقهاء وعلماء وطلاب الدراسات الشرعية، ومعرفة أخبار الأمم السابقة والحكام السابقين، لأخذ العبرة والعظة مما جرى لهم والاستفادة من خبراتهم ؛ وذلك لمن يتولى الحكم والإمارة وسياسة الأمور[92].

وأدى الاهتمام بهذا العلم والتعمق في دراسته إلى بروز عدد من العلماء المؤلفين الذين ألفوا في علم التاريخ منهم: النسابة شهاب الدين أبو الحسن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري (ت 550هـ/1155م) الذي وضع كتاب «اللباب إلى معرفة الأنساب» والمؤرخ المشهور عمارة بن علي الحكمي، الذي ألف في هذا العلمين كتابين هما: «تاريخ اليمن، المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها» و «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية» والملك جياش بن نجاح الذي ألف كتاب: «المفيد في أخبار زبيد» ويوصف هذا الملك بمعرفته الواسعة بالتاريخ والأنساب والاستفادة منها[93].

ومما سبق يتبين أن هذا العلم كان من العلوم المزدهرة في تلك الفترة في منطقة تهامة، ويدل على ذلك غزارة الإنتاج العلمي وبروز العديد من العلماء ذوي الإنتاج الغزير في علم التاريخ والأنساب، مما يدل على سعة اطلاعهم ومقدرتهم العلمية، ساعدهم على ذلك توفر الكتب التاريخية التي ألفها العلماء المسلمون من مختلف البلاد، نتيجة للاتصال القوي لهذه الدولة مع الدول الإسلامية المختلفة. وكذلك يتبين اهتمام الدارسين في ذلك العصر بدراسة هذا العلم لحاجتهم الشديدة إليه وخاصة في علم الحديث وغيرها من العلوم الشرعية، وحاجة الحكام والأمراء لمعرفة تاريخ الأمم السابقة والحكام الماضين لزيادة وعيهم في معالجة أمور الدولة ومقدرتهم السياسية والإدارية.

سادساً: علوم الحساب والجبر والمقابلة والهندسة:

كانت العلوم الثلاثة الأولى من العلوم المنتشرة في المؤسسات التعليمية لذلك العصر في منطقة تهامة، ولقيت اهتماماً كبيراً من الفقهاء والتجار، ولأهميتها كان يتم تعلمها منذ المرحلة الأولى في الكُتّاب، وخاصة علم الحساب، أما الجبر والمقابلة فكان يتم تدريسها في المرحلة التالية لمن يريد أن يتخصص بهما، وخاصة الفقهاء الفرضيين الذين يتخصصون في علم الفرائض ويحتاجون إلى تعلم المسائل الحسابية التي تحتاج إلى استخراج

المجهولات من فنون الحساب، كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور[94] وكان يطلق على هؤلاء الفقهاء، إما: العالم الفرضي، أو الشيخ الحاسب.

وهكذا فالعلوم الشرعية الإسلامية، لا كما يعتقد بعض الباحثين المعاصرين أنها دراسات دينية محضة، لا علاقة لها بشئون الدنيا، ولا رابط بينهما وبين العلوم الوضعية وأحوال المادة، وربما ألصقت هذه الشبهة بوحي من الثقافة الغربية، التي فصلت بين الدين والدنيا، فصلاً يكاد يكون تاماً، ولكن واقع الحال يؤكد أن معرفة العلوم الإسلامية تحتم دراسة كثير من العلوم العقلية كالرياضيات بفروعها، فالمعاملات مثلاً، وهي باب من أبواب الفقه «تستخدم الحساب في المبيعات والمشتروات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات» ويصرف في ذلك صناعة الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها[95] وعلم المواريث يحتم دراسة الحساب، بل ويقود إلى الجبر وكذلك الزكاة وضبط الكيل والميزان، تفتح الباب لدراسة الأثقال والحجوم والروافع وخواص المواد التي تصنع منها، ومراقبة الهلال لمعرفة أوائل الشهور، ودراسة حركة الشمس والظل لتحديد مواقيت الصلاة والعدة وتحرير القبلة، كما تحتم الاهتمام بدراسة الفلك وتقسيم الزمن، وتفتح الباب لدراسة عن الضوء والجغرافيا والهندسة وتقود إلى اكتشاف البوصلة[96].

وهكذا كما يبدو لا غنى عن دراسة العلوم الكونية، بل إن الشريعة الإسلامية تحتم دراساتها، لأن الحياة لا تستقيم إلا بها[97].

وتذكر المصادر التاريخية لذلك العصر أسماء العديد من العلماء الذين اشتهروا في التأليف بهذه العلوم منهم أبو محمد الحسن (ت 483 هـ/1090م) وله مختصر في علم الفرائض، وأحمد بن محمد الأشعري (ت 550 هـ/1155م) والذي ألف كتاباً بعنوان «التفاحة في علم المساحة» وعمارة اليمني الذي اشتهر في ذلك العصر بالفرضي، وله مختصر في الفرائض[98].

واشتهر كذلك بتدريس هذه العلوم والفروع فيها عثمان الصفار ومحمد بن على التهامي اللذان كانا إمامين في علم الفرائض والدور والمقابلة[99].

وكما سبق وأن ذكرت أن المجتمع في تلك الفترة في منطقة تهامة اهتم اهتماماً كبيراً وملحوظاً بهذه العلوم لحاجة الناس إليها سواء في الأمور الشرعية أو لحساب الخراج والزكاة وأعراض التجارة الواردة والصادرة في موانئ تلك البلاد، و لذا فقد حتمت الضرورة على الدارسين دراستها بفروعها والاستفادة منها في حياتهم المعيشية.

وكذلك حظي علم الهندسة بعناية بعض العلماء والطلاب، شجعهم على ذلك حاجة المجتمع الشديدة لهذا العلم في مجال البناء والتشييد وقد ساعد على ذلك مجيء بعض العلماء المشهورين بهذا العلم من خارج اليمن منهم القاضي الرشيد من علماء عصره المبرزين في مختلف العلوم، ومنها علم الهندسة، الذي تعلم على يديه بعض الدارسين منهم العالم اليمني المشهور في هذا العلم محمد بن عيسى اليماني (ت حوالي 557هـ/ 1162م)[100]. وقد أجرى العالم المصري في مدينة زبيد قناة تأتي من شرق المدينة في سرب تحت الأرض حتى تقترب من المدينة ثم تظهر فتسقى جميع البساتين فيها[101]

سابعا: علم الطب:

لم يجد الباحث ما يشير إلى تدريس هذا العلم في المؤسسات التعليمية العامة في تلك الفترة، ولكن تشير بعض المصادر التاريخية لذلك العصر إلى وجود أطباء في مناطق متعددة سواء في منطقة تهامة أو في غيرها من مناطق اليمن، مما يدل على انتشار هذا العلم – وإن كان على نطاق ضيق – وكذلك على وجود أساتذة وكتب، فيذكر أنه عندما أصيب العالم المشهور محمد بن عبدويه في بصره أحضر أحد زائريه من العلماء طبيباً لمداواته من

مدينة المهجم[102] وكذلك يذكر أنه عندما أصيب الملك المكرم الصليحي بالفالج نصحه الأطباء بالركون إلى الراحة[103].

وهذه المنطقة كغيرها من مناطق العالم الإسلامي لا تخلو من هذا العلم الهام، علماً أن العلاقات القوية لهذه المنطقة وغيرها من البلاد الإسلامية، شجع بعض علماء هذه الدول المبرزين في علم الطب على زيارة هذه البلاد وإفادة الدارسين من علومهم[104]. ومن دراستنا لأحوال تلك المنطقة وانتعاشها التجاري والصناعي والزراعي في تلك الفترة، والذي يؤدي بدوره في الغالب إلى انتعاش الخدمات الصحية والاهتمام بالصناعات المرتبطة بالطب مثل صناعة الأدوية، وإن كان تعلم هذه العلوم والصناعات المرتبطة بالطب كان يتم بواسطة التطبيق العملي.

ثامناً: علوم الكلام والمنطق والفلسفة:

نتيجة لانتشار المذهب الأشعري الذي وضعه الإمام أبو الحسن الأشعري (324هـ/ 936) والذي وجدت تعاليمه قبولاً لدى شافعية تهامة، وهذا المذهب يشجع على تعلم علم الكلام والمنطق، ويستخدمها في كثير من مبادئه، ولذا فقد اعتني بدراسة هذين العلمين ولقيا التشجيع من حكام تلك الدولة ومؤسساتها التعليمية، واستخدم في مقارعة خصوم هذا المذهب أمام المذاهب الأخرى[105].

ومن مظاهر تشجيع الدولة النجاحية لعلم الكلام ومدرسيه، ما ذكره عمارة في مفيده، أن ما يصرفه الوزير سرور الفاتكي للفقهاء في العلوم المختلفة ومنها علم الكلام اثنا عشر ألف دينار في كل سنة[106].

وكانت كثيراً ما تقام المناظرات الكلامية بين علماء المذهب الأشعري وغيرهم من العلماء، وألف بعض علماء هذا المذهب في علم الكلام ومن هؤلاء الإمام أبو بكر بن إسحاق المخيري كتاب في الرد على الحشوية المجسمة[107].

أما الفلسفة فلم يشتهر بتعلمها وكانت من العلوم النادرة في تلك المنطقة، وقد تكون درست على نطاق ضيق في أماكن خاصة في فترة استيلاء الصليحيين على تهامة. أو عند من يتقن هذا العلم من العلماء الذين وردوا تلك المنطقة[108] مع العلم أن الجانب الفلسفي ومايتصل به من علوم أخذ يضعف بشكل عام في الحركة الفكرية في العالم الإسلامي ومنها اليمن، وخاصة بعد ما تعرضت له الفلسفة من حملات شديدة من قبل الإمام الغزالي (ت505هـ/ 1111م) وخاصة في كتابه «تهافت الفلاسفة» الذي رد فيه على الفارابي وابن سيناء، وأظهر تهافتهم وتناقضهم، وتعتبر حملته على الفلسفة ذات تأثير عميق في مصير الفلسفة في المشرق الإسلامي، فتداعت أركانها وتقطعت أوصالها، وتأثر علماء الكلام بهذه الحملة فصبغوها بصبغة دينية[109].

تاسعا: علم التصوف:

عرف التصوف في ذلك العصر من جانبه الزهدي والنسكي، ولم يدخل كفلسفة، ولذلك كانت أكثر الكتب المصنفة والتي تدرس تدور حول الزهد وتصفية النفس من بواطن الآثام ومجاهدة النفس والإكثار من الأذكار[110] ومن الكتب التي كانت تدرس في هذا العلم في تلك الفترة كتاب «الزهد والإرشاد» للعالم الشاعر على بن أبي حريصة (ت325هـ/937م)[111].

وزاد من انتشار تعاليم الصوفية الغنى والبذخ الشديد اللذان برزا في ذلك العصر نتيجة لاستغلال الثروة والمال من جانب الفئة الحاكمة في مظاهر الترف والرفاهية، والإكثار من الجواري والعبيد والخدم والحشم على حساب بقية أفراد المجتمع[112].

وأشتهر في ذلك العصر الكثير من أعلام النساك الزهاد منهم: ابن حمر طاش (ت554هـ/1159م) وهو أبو العباس أحمد بن حمر طاش وله كتاب «المقالات» في

طرق أهل التصوف، وأحمد بن أبي الصياد (ت597هـ/1183م) وهو أحد أعلام الصوفية بزبيد، سلك طريق التصوف، وترقى في المقامات حتى أصبح أحد الأعلام، وله كتاب «تكملة مقالات ابن خمر طاش»[113] وكذلك أشتهر بهذا العلم على بن مهدي (ت554هـ/1159م) الذي يصفه عمارة اليمني أنه كان قائماً بالوعظ والتفسير أتم قيام[114] والصوفي إبراهيم بن على الفشلي (ت 613هـ/1217م) والذي اشتهر بطلب العلم، ثم تحول إلى التصوف، وله أقوال في التهذيب وعلى يديه نبغ الصوفي الكبير الشيخ أحمد الصياد[115].

وقد شجعت الدولة النجاحية هؤلاء المتصوفة المتنسكين، فأعفتهم من خراج أراضيهم، مثال ذلك إعفاء الحرة علم أم فاتك بن منصور (ت115/545م) ابن مهدي من خراج أملاكه هو وإخوانه وأصهاره، ومن يلوذ بهم، فأثروا واتسعت أحوالهم[116] علماً أن زوال تلك الدولة كانت على يد ابن مهدي.

والخلاصة إن انتشار علم التصوف في تلك الفترة تأثر بما هو حادث في البلاد الإسلامية الأخرى، بعد تأثر المسلمين واختلاطهم ببعض الطوائف غير الإسلامية التي تدعو إلى النسك والبعد عن الدنيا مثل الرهبان المسيحيين والعباد الهنود وساعد على انتشارها في منطقة تهامة كثرة ورود كتب المتصوفة، بالإضافة إلى تشجيع ملوك الدولة ووزرائها للمتصوفة، لنشر الأفكار التي تدعو العامة إلى الركون والرضا بالقضاء والقدر وتفسيره تفسيراً يبرر أعمال الحكام واستئثارهم بالمال والسلطة.

عاشراً: علم الكيمياء:

وهو علم يقوم أساساً على الصناعة والخبرة المكتسبة والمران الطويل[117] ولذا يمكننا أن نستنتج على وجود هذا العلم وانتشاره في تلك المنطقة بكثرة الصناعات التي اشتهرت بها في ذلك الوقت والتي تقوم على المعرفة بعلم الكيمياء والصناعة، مثل اشتهار تهامة بمعالجة المعادن من الذهب والفضة وغيرهما، سواء كان لصناعة الحلي أم الأواني أو النقود، فقد اشتهرت تلك المنطقة بسك النقود منها العشرية والسعيدية[118].

وكذلك اشتهار منطقة تهامة بصناعة العقاقير والأدوية والعطور الراقية، وهذه الصناعات تحتاج إلى خبرة ومران طويل ومعرفة بهذا العلم، بالإضافة إلى صناعة الثياب والصناعات الجلدية التي اشتهرت بها مدينة زبيد شهرة عالية، والتي كانت تحتاج إلى أصباغ وألوان ومعرفة بعلم الكيمياء[119].

مما سبق يتبين لنا أن هذه المنطقة قد استفادت من هذا العلم في كثير من الصناعات التي اشتهرت بها شهرة عالية سواء في الصناعات المعدنية أو الملابس أو صناعات المأكولات والعطور والعقاقير.

بالإضافة إلى المقررات السابقة فقد كان الاهتمام كبيراً بإكساب المتعلم الأخلاق الحميدة التي حث عليها الإسلام وتكوين أفراد كريمي الأخلاق مهذبين في أقوالهم وأفعالهم. فقد أتفق علماء المسلمين على أن العلم الذي لا يؤدي إلى الفضيلة والكمال لا يستحق أن يسمى علما[120].

ولذا فقد أهتم في ذلك العصر بالأخلاق وتقويم المتعلمين منذ بداية تعليمهم وربط القول بالعمل. مثال ذلك الرسالة التي كتبها الملك جياش بن نجاح إلى معلم ولده وهي (الأمانة ديانة تحرم فيها الخيانة، والمرء مرتهن عمله لمعاده، فإن راعى فمرعي وإن أضاع فمخزي، فكن أيدك الله عند ظني بك، أعلمك أني ألتمنك على بضعة مني، إلى أن يقول فخذه بالتعبيس والابتسام، وعلمه وقار القعود، وعدل القيام، ولا تسمه بطول المكث عندك، ولا ترخص له الإبطاء إن استأذنك، ورضه بالصلوات في أوقاتها ليمرن على أداء مفترضاتها وعلمه إسباغ الوضوء من ابتدائه إلى انتهائه[121].

والأمثلة التي تدل على الاهتمام بالتربية الخلقية في ذلك لا حصر لها في ضرورة اتصاف العلماء وطلابهم،

وكذلك أهل الحكم والرئاسة بالأخلاق الفاضلة[122].

من دراستنا للمقررات الدراسية في تلك الفترة في منطقة تهامة يتبين لنا أن العلوم الشرعية كانت هي الشغل الشاغل للمؤسسات التعليمية، وأن أغلب رجال العلم هم علماء الفقه والعلوم الشرعية، كما أن معظم الإنتاج الفكري يدور في إطار العلوم الشرعية والعلوم المساعدة لها، مثل علوم اللغة والتاريخ وعلم والكلام والعلوم الرياضية، أما الفلسفة فكانت من العلوم النادرة بسبب ما واجهته من هجوم ونقد من الفقهاء.

وإن الفقه برغم الاهتمام الكبير به حيث كان طريقاً مهماً للترقي الاجتماعي، قد بدأ يعاني من التدهور، بسبب اقتصار أتباع كل مذهب على مذهبه والانتصار له، وحصر همهم في الاجتهاد في إطار المذهب أو تقليده دون تبصر، ولكن على الرغم من ذلك فإنه لم يوجد الفصل بين العلوم الشرعية وغيرها من العلوم الأخرى التطبيقية كما يحدث في الوقت الحاضر، بل كان الفقه الإسلامي يعتمد عليها – آنذاك – اعتمادا كبيراً، حيث إن الفقه كان يستخدم لحل مشاكل المجتمع آنذاك، ولا ينفصل عن الواقع ومتطلباته.

وإن من العوامل المساعدة على ازدهار العلوم هو انتعاش الحياة الاقتصادية في تلك المنطقة بعد عودة الخط التجاري إلى البحر الأحمر وموانيه وتشجيع دول المنطقة على تنمية الموارد الذاتية في بلدانها وتحقيق الاستقرار النسبي وتشجيع العلماء والأدباء كان له أثر مهم في تطور الحركة العلمية، وأن نمو الحركة الفكرية والعلمية وتطورها في تلك البلاد، قد ساير التطور العام الذي شهدته بلاد اليمن في حقول متنوعة.

وأضيف إلى ما تقدم من مؤثرات عاملاً هاما أسهم في تطور الحركة العلمية في تلك الفترة، هو التنافس السياسي القائم على أساس فكري بين الدول القائمة في اليمن آنذاك، كالدولة النجاحية والدولة الصليحية ودولة بني زريع ودولة الأئمة الزيديين. لقد كان هذا التنافس حاداً إلى الدرجة التي يصبح معها رعاية الفكر أمراً ضرورياً وحتميا تفرضه طبيعة الصراع السياسي القائم وهذا يفسر لنا مثلاً إغداق الدولة النجاحية الهبات والمرتبات على العلماء وإعفاء أراضيهم من ضريبة الخراج.

ويلاحظ المتتبع لخصائص الحركة العلمية في اليمن أنها بشكل عام لا تختلف عن الحركة العلمية للأمة الإسلامية، فالفكر والعلم في تلك المنطقة هو امتداد لهذا الفكر والعلم في البلاد الإسلامية الأخرى

من دراستنا للمقررات الدراسية في عهد دولة بني نجاح في منطقة تهامة، يرى الباحث أنه يمكن الاستفادة منها فيما يأتي:

1. النظر إلى التعليم من حيث كونه نظاما فرعياً في نظام أكبر فتلك النظرة ضرورية، لا مفر منها عند التفكير في التعليم لتغييره أو لإصلاحه، فالتعليم يتأثر بغيره من الأنظمة المجتمعية مثل النظام العقدي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي وغيرها من الأنظمة.
2. الاهتمام بتعليم القرآن الكريم والحديث الشريف للناشئة منذ بداية تعليمهم، تعليماً يقوم على الحفظ والفهم، حتى إذا أتقنهما الدارس أنتقل إلى غيرهما من العلوم، لما لهما من تأثير في اكتساب الدارس العقيدة السليمة والنظرة الشاملة لله سبحانه وتعالى والكون والإنسان والحياة الدنيا، وإكسابهم الأخلاق القويمة، لإعداد جيل رباني.
3. الاهتمام بتعليم اللغة العربية للمتعلمين تعليماً يقوم على الإتقان والتجويد وعدم مزاحمتها بلغة أجنبية اخرى، وخاصة في المرحلة الأولى من التعليم كما يحدث في كثير من المدارس الخاصة التي تهتم بتعليم اللغات الأجنبية على حساب لغتنا العربية لغة القرآن.
4. الاهتمام بالتربية الخلقية لما لها من تأثير في بناء المجتمع وقوته وصلاحه، فالمجتمع اليوم يعاني من عدم

الاهتمام بالأخلاق وغياب القدوة الحسنة، مما ترتب عليه تخلف في جميع المجالات.

5. الاهتمام بتطبيق ما يتعلمه الدارسون، والاستفادة من نتائج العلوم، أسوة بما كان يحدث في عصر بني نجاح، حيث كان يستخدم المجتمع العلوم لحل مشاكله سواء في مجال الفقه أو في غيره من العلوم الأخرى لا كما يحدث الآن فنجد الطالب يحفظ ويلقن، ولا يستطيع التطبيق، فكم من آلاف مؤلفة من الطلبة درسوا نظريات أو قوانين علمية في مختلف العلوم، ولكنهم لا يستفيدون منها في الحياة العملية لأنهم لا يحسنون تطبيقها.

6. عدم الفصل بين العلوم وتقسيمها إلى علوم دينية وعلوم غير دينية، فلا يوجد في التعليم الإسلامي هذا الفصل كما رأينا في عصر دولة بني نجاح، فكل هذه العلوم يجب أن يستفاد منها لحل مشاكل المجتمع والأمة.

7. الاستمرار في دراسة التراث التربوي الإسلامي اليمني لاستكمال حلقاته وجمع ما تفرق منه.

الخلاصة:

تميزت فترة حكم بني نجاح لتهامة التي امتدت من سنة 412 – 554هـ/الموافق 1022– 1159م بالصراع المستمر مع الدولة الصليحية حول حكم تهامة، إلا أن تهامة ظلت في معظم فترات الصراع تحت سيطرة النجاحيين.

وعلى الرغم من أن تلك الدولة التي كانت تختلف مع سكان منطقة تهامة، من حيث اللون والأصل، فقد التف حولها في صراعها مع الدولة الصليحية، سكان وعلماء تلك المنطقة، لأنها تتفق معهم مذهبياً وحملت لواء السنة ضد الدولة الصليحية الإسماعيلية.

وقد حملت تلك الدولة العداء للدولة الصليحية، وكان الصراع بينهما سياسياً وفكرياً، وقد شجع حكام تلك الدولة ووزراؤها العلماء والفقهاء، لأهمية تأثيرهم على المجتمع آنذاك، لأجل أن يقفوا معهم في هذا الصراع، فخصصوا لهم الرواتب، وأغنوهم وأعفوا أراضيهم من ضريبة الخراج، وبذلك فقد قاموا بدور مؤثر في تطور المسيرة العلمية والفكرية في تهامة خلال تلك المرحلة.

وكان للعلماء وما ينشرونه من علوم التأثير الواضح على حكام تلك الدولة، الذي كان كثير منهم على مستوى عالٍ من التعليم والخلق الرفيع والسياسة الحكيمة والعدل، وذلك بتأثير التعليم الذي نالوه، فقد كان للمؤسسات التعليمية دورها في التخفيف من انحراف الفئات الحاكمة واستبدادها، إما بالوقوف ضد هذه الانحرافات أو التأثير على الحكام بتعليمهم وتثقيفهم، فكل هؤلاء الحكام قد تعلموا على أيدي مؤدبين خاصين أكسبوهم قدراً كبيراً من تعاليم الإسلام وثقافته.

ساعدت الظروف الاقتصادية في ذلك العهد حكام دولة بني نجاح من المساهمة في تشجيع العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، وازدهار العلم بجميع مدارسه، وعلى اختلاف تلك المدارس والعلوم، وفي استقدام الحكام المؤدبين لأبنائهم، مما أدى إلى ارتفاع مستواهم العلمي والثقافي ومشاركتهم في اكتساب العلوم المختلفة، والعمل على بناء المؤسسات التعليمية والاجتماعية وتقدم العمران في تلك المنطقة، رغم الظروف السياسية التي اتسمت في كثير من الأحيان بعدم الاستقرار والصراع الداخلي والخارجي.

وبالنسبة للمحتوى الدراسي والمقررات الدراسية في تلك الفترة في منطقة تهامة، فقد كانت العلوم الشرعية هي الشغل الشاغل للمؤسسات التعليمية، وأن أغلب رجال العلم هم علماء الفقه والعلوم الشرعية، كما أن معظم الإنتاج العلمي والتأليف يدور في إطار العلوم الشرعية والعلوم المساعدة، مثل علوم اللغة والنحو

والتاريخ وعلم الكلام، والعلوم الرياضية مثل الحساب والجبر والمقابلة، أما الفلسفة فكانت من العلوم النادرة بسبب ما واجهته من هجوم ونقد. وأن الفقه رغم الاهتمام الكبير به، حيث كان طريقاً مهماً للترقي الاجتماعي، فقد بدأ في تلك الفترة، أسوة بما حدث في العالم الإسلامي، يعاني من التدهور بسبب اقتصار أتباع كل مذهب على مذهبهم والانتصار له، وحصر همهم في الاجتهاد في إطار المذهب، أو تقليده دون تبصر.

ولكن على الرغم من ذلك فإنه لم يوجد الفصل بين العلوم الشرعية وغيرها من العلوم الأخرى، كما يحدث الآن، بل كان الفقه يعتمد على العلوم المختلفة في حل مشاكل المجتمع، حيث وإن الفقه، هو اجتهاد وحل مشاكل المجتمع، ولذا لم ينفصل عن المجتمع ومشاكله.

إن من أهم العوامل المساعدة على ازدهار العلوم هو انتعاش الحياة الاقتصادية في تلك المنطقة بعد عودة الخط التجاري إلى البحر الأحمر وموانيه، بعد تدهور الأحوال الأمنية في العراق والخليج، وتشجيع دول المنطقة ومنها الدولة النجاحية على تنمية مواردها الذاتية، وتحقيق الاستقرار، مما كان له أثر مهم في تطور الحركة العلمية.

وإن مما أسهم في تطور الحركة العلمية والفكرية في تلك الفترة، هو التنافس السياسي القائم على أساس فكري بين الدول القائمة آنذاك في اليمن، فقد كان هذا التنافس حاداً إلى الدرجة التي يصبح رعاية الفكر ضرورياً وحتمياً تفرضه طبيعة الصراع السياسي القائم، وحرص كل دولة على اجتذاب العلماء والأدباء وتشجيع دراسة العلوم المختلفة، ليرتفع مكانة هذه الدولة بين الدول الأخرى وبين رعاياها.

ويلاحظ أن خصائص الحركة العلمية في تلك المنطقة في تلك الفترة بشكل عام لا تختلف عن الحركة العلمية للأمة الإسلامية، فالفكر في تلك المنطقة هو امتداد للفكر في البلاد الإسلامية الأخرى.

الهوامش

1. نجم الدين عمارة بن علي اليمني (ت 569هـ/1173م): تاريخ اليمن المسمى المفيد في إخبار صنعاء وزبيد، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر 1387هـ، 1967م،ص86 ووجيه الدين عبد الرحمن بن محمد الحبيشي الوصابي: تاريخ وصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، نشر مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء 1979م، ص30 .
2. محمد عبده السروري: مظاهر الحضارة في الدول المستقلة في اليمن من سنة 439-626هـ الموافق 1047- 1228م، دار الأهرام القاهرة 1997م ص276.
3. المرجع الأسبق، ص21.
4. حسين بن فيض الله الهمداني الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن من 268- 626هـ،ط 3، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1407هـ، 1986م، ص151.
5. محمد يحيى الحداد: التاريخ العام لليمن، اليمن في موكب الإسلام، جـ2، شركة التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1407هـ/1986 م، ص90.
6. أبو عبد الله محمد بن محمد بن إدريس الحموي (ت 560هـ/1311م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جـ1، عالم الكتب، بيروت 1409هـ، 1989م ص53 والسروري، مرجع سابق، ص 557.
7. محمد رضا حسن الدجيلي: الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، 1405هـ /1985م ص59 وعمارة اليمني، تاريخ اليمن، مرجع سابق، ص38.
8. الحداد، مرجع سابق، ص212 وابو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي (ت 732هـ/1332م) السلوك في طبقات العلماء والملوك، ج2، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت 1406هـ، 1986م ص484.
9. عبد الرحمن بن علي بن عمر ابن الديبع (ت 944هـ/1547م) بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبد الله الحبشي، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، 1979م، ص42.
10. عصام الدين عبد الرؤوف الفقيه: اليمن في ظل الإسلام، منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1981م، ص19.
11. السروري، مرجع سابق، ص241 وعمارة اليمني، تاريخ اليمن، مرجع سابق، ص198.
12. ابن الديبع، بغية المستفيد، مرجع السابق، ص47.
13. محمد حسين الفرح: اليمن في تاريخ ابن خلدون، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، 1421هـ/2001م، ص586، وعمارة اليمني، تاريخ اليمن،مرجع سابق، ص199.
14. الهمداني مرجع سابق، ص 101.
15. عبد الرحمن ابن الديبع: قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع، بيروت 1409هـ، 1988م ص249.
16. محمد بن إسماعيل الكبسي (ت 1308هـ/1886م) اللطائف السنية في

أخبار الممالك اليمنية، مطبعة السعادة، القاهرة (د.ت) ص38.

17. عمارة اليمني، تاريخ اليمن، مرجع سابق، ص216.
18. الهمداني، مرجع سابق، ص207.
19. المرجع الأسبق، ص207.
20. ابن الديبع، بغية المستفيد، مرجع سابق، ص54.
21. المرجع السابق ص56.
22. تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني (743هـ/1341م) بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني دار الحكمة اليمانية، صنعاء، اليمن 1408هـ/1988م ص94- 96.
23. المرجع السابق، ص98.
24. ابن الديبع، بغية المستفيد، مرجع سابق، ص62.
25. ابن الديبع، قرة العيون، مرجع سابق، ص258.
26. الوصابي، مرجع سابق، ص106.
27. الحداد، مرجع سابق، ص290.
28. يحيى بن الحسين بن القاسم (ت حوالي 1100هـ/1688م): غاية الأماني في إخبار القطر اليماني، جـ1، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، 1388هـ، 1968م، ص336.
29. محمد علي مسفر عسيري: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي، 569- 626هـ، مكتبة المدني، جدة، 1405هـ 1985 ص28.
30. المرجع السابق، ص268.
31. الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت بعد 334هـ/943م) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الأكوع، دار اليمامة الرياض 1394هـ، 1974م ص120- 126.
32. المرجع الأسبق، ص28.
33. جمال الدين بن الفتح يوسف بن محمد المعروف بابن المجاور (بعد 630هـ/1232م) صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة تاريخ المستبصر، ط2 شركة التنوير للطباعة والنشر بيروت، 1407هـ، 1986م ص20.
34. السروري مرجع سابق، ص556- 557.
35. المرجع السابق، ص557 والقلقشندي، أبو العباس أحمد القلقشندي (ت 821هـ/1248م)/صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، جـ5، دار الكتب المصرية القاهرة، 1922م ص5-17.
36. 36- عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع: اليمن في عيون الرحالة، دار الفكر المعاصر، بيروت 1413هـ، 1993م، ص169.
37. 38- الدجيلي، مرجع سابق، ص217 وشاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، جـ2، بيروت، 1979م، ص322.
38. القلقشندي، مرجع سابق، جـ5، ص10.
39. السروري، مرجع سابق، ص553.
40. المرجع السابق، ص557 والحموي، مرجع سابق، جـ1، ص53.
41. ابن المجاور، مرجع سابق، ص77.
42. عمارة اليمني تاريخ اليمن، مرجع سابق، ص21.
43. عبد الله الطيب أبا مخرمة (ت 947هـ/1408م) تاريخ ثغر عدن جـ2، تحقيق أوسكار لوفغرين مطبعة بريل ليدن، 1936م، ص46.
44. طاش كبري زاده (أحمد بن مصطفى) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، جـ2، مراجعة وتحقيق كامل كامل بكري عبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1968، ص6.
45. المرجع السابق، جـ2، ص 60.
46. عبد الرحمن محمد بن خلدون (ت 808هـ، 1406م): المقدمة، طبعة لجنة البيان العربي، تحقيق عبد الواحد وافي، دار الشعب، القاهرة (د.ت)، ص484.
47. عمارة اليمني، تاريخ اليمن مرجع سابق، ص213- 214.
48. أبو مخرمة، مرجع سابق، ص46.
49. المرجع الأسبق، ص213- 214.
50. ابن خلدون، مرجع سابق، ص62.
51. طاش كبري زاده، مرجع سابق، ص 380.
52. علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت816هـ/1413م) كتاب التعريفات، حققه إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، القاهرة، 1403هـ، ص87.
53. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ/1505م) طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، 1396هـ/1976م ص38.
54. المرجع السابق، ص30.
55. المرجع السابق ص73، 74.
56. المرجع السابق ص78- 79.
57. عمر بن سمرة الجعدي (ت 587هـ/1190م) طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد السيد، القاهرة، 1957م ص186- 189.
58. الدجيلي، المرجع السابق ص121.
59. طاش كبري زاده، مرجع سابق، ص60.
60. المرجع السابق، جـ 2 ص128.
61. حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي) (ت 1067هـ/1656م) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون جـ1 استبول، 1943م، ص422.
62. الدجيلي، مرجع سابق، ص127.
63. المرجع السابق ص128.
64. الجعدي، مرجع سابق، ص247 – 248 والسبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت 771هـ/1369م) طبقات الشافعية الكبرى جـ1 تحقيق محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة 1973م ص10.
65. الجعدي، مرجع سابق، ص172.
66. الدجيلي مرجع سابق ص58.
67. تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي (ت 832هـ/1429م) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، جـ 1، تحقيق فؤاد السيد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1967 ص415.
68. ابن الديبع، بغية المستفيد، مرجع سابق، ص64.
69. سيد سابق، فقه السنة، جـ 1، مكتبة الآداب، القاهرة 1356 هـ ص12.
70. عبد الله محمد الحبشي: حياة الأدب اليمني، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، اليمن، 1980م، ص56.
71. جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن (ت 772هـ/1370م) طبقات الشافعية، جـ 1 تحقيق عبد الله الجبوري، رئاسة ديوان الأوقاف، بغداد

1391هـ، ص562 وأيمن فؤاد السيد: تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1408هـ/1988م، ص 64.

72. الجعدي، مرجع سابق، ص144- 147.
73. المرجع السابق، ص177.
74. أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان (ت 681هـ/1282م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ 1، تحقيق إحسان عباس، مطبعة الغريب، بيروت، 1968، ص 78، والدجيلي، مرجع سابق، ص 133.
75. خير الدين الزركلي الأعلام، جـ 5 المجلد السادس، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص 80وبن النديم، محمد بن إسحاق (ت 412هـ/1021م) الفهرست جـ 1، المطبعة التجارية، القاهرة 1348هـ ص302.
76. الدجيلي، مرجع سابق، ص 102.
77. الجندي، مرجع سابق جـ 1 ص 201.
78. عمارة اليمني: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، مكتبة مدبولي تحقيق هرتوغ درنبرغ، القاهرة، 1411هـ، 1991م، ص23.
79. الدجيلي، مرجع سابق، ص130.
80. بن خلدون، مرجع سابق، جـ 1ص 78.
81. تقي الدين النبهاني، الشخصية الإسلامية، القسم الأول، بدون مكتبة 1953م، ص347.
82. الدجيلي، مرجع سابق، ص105- 113.
83. عبد الله الحبشي: مصادر الفكر العربي الإسلامي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ص376.
84. المرجع السابق، ص13- 14.
85. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 903هـ/149م) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ 5، منشورات مكتبة القدس القاهرة، 1353م، ص 290.
86. با مخرمة، مرجع سابق، جـ2، ص 47 والحبشي مصادر الفكر مرجع سابق صـ533.
87. عمارة، تاريخ اليمن، مرجع سابق، صـ 284.
88. الحبشي، مصادر الفكر مرجع سابق صـ 316.
89. المرجع الأسبق، صـ 257.
90. المرجع الأسبق، صـ 370.
91. الدجيلي مرجع سابق صـ 149 - 156.
92. المرجع السابق، صـ 155، 157.
93. ابن الديبع، قرة العيون، مرجع سابق، وحاجي خليفة، كشف الظنون مرجع سابق، صـ 177.
94. بن خلدون، مرجع سابق، صـ 417 - 418.
95. المرجع السابق، صـ 457.
96. محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، دار المعارف، القاهرة 1978م، صـ 87، وعلي سالم النباهي نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1981م، صـ 229.
97. المرجع السابق، نفس الصفحة
98. ذو النون المصري: عمارة اليمني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1966م، صـ 31.
99. عمارة اليمني، تاريخ اليمن، مرجع سابق، صـ 214.
100. ابن الديبع، بغية المستفيد، مرجع سابق صـ 35.
101. العماد الأصفهاني أبو عبد الله بن أبي الرجاء (ت597هـ/1202م) خريدة القصر وجريدة العصر، جـ 3، تحقيق، شكري فيصل، د المجمع العلمي العربي، دمشق ، 1964م صـ 61.
102. الجندي، السلوك جـ2، صـ 325.
103. الهمداني، مرجع سابق، صـ 138.
104. ابن العماد الحنبلي، أبو الفتح عبد الحي (ت 1089هـ/ 1677م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ2، بيروت، 1350هـ، صـ312.
105. الجعدي، مرجع سابق، صـ 103.
106. عبد الباقي اليماني، مرجع سابق، صـ 116.
107. الدجيلي، مرجع سابق،صـ 195.
108. العماد الأصفهاني، مرجع سابق، جـ3، ص 61.
109. المرجع الأسبق صـ 221.
110. الحبشي مصادر الفكر مرجع سابق، 171.
111. أحمد محمد الشامي: تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي، السفر الأول، دار النفائس، بيروت، 1408هـ، 1987م، صـ 567.
112. عمارة، تاريخ اليمن، مرجع سباق، صـ 232 والسروري، مرجع سابق صـ 285.
113. الحبشي، مصادر الفكر، مرجع سابق، ص272، والشامي، مرجع سابق، صـ 567.
114. عمارة، تاريخ اليمن، مرجع سابق، صـ 185.
115. عبد الله الحبشي، الصوفية والفقهاء في اليمن، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء 1396 هـ/1976م صـ 4 وأبو العباس أحمد بن عبد اللطيف الشرجي الزبيدي (ت 168/893م) طبقات الخواص أهل الصدق و الإخلاص، الدار اليمنية للنشر والتوزيع صنعاء، 1406هـ، 1989م.
116. ابن الديبع، قرة العيون، مرجع سابق، صـ 256.
117. عن عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع الحياة العلمية في اليمن في القرن الثالث والرابع للهجرة، دكتوراه غير منشورة كلية اللغة جامعة الأزهر القاهرة 1406هـ، 1986 م صـ 407.
118. محمد أبو الفرج العش: المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، مجلة الإكليل اليمنية العدد (5) سبتمبر 1981، ذو القعدة، 1401هـ، صـ 42.
119. ابن المجاور، تاريخ المستبصر مرجع سابق، صـ 90.
120. محمد عطية الأبراشي. التربية الإسلامية فلسفتها...، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر 1395هـ، 1975م، صـ 110 - 111.
121. عمارة، تاريخ اليمن، مرجع سابق صـ 110 - 111.
122. ابن الديبع، بغية المستفيد، مرجع، سابق 95.

بحث في:

الحضارة اليمنية القديمة والمنقولات الأثرية للخارج

د. محمد عبد الله با سلامة*

مقدمة

كان لليمن القديم دور حضاري، امتدت جذوره منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وظهر نشاطه التاريخي خلال الألف الأول قبل الميلاد وبداية العصر الميلادي من خلال ممالك سبأ ومعين وحضرموت وقتبان وأوسان وأخيراً مملكة حمير(سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمانه...) ولا يعرف بالتحديد بداية كل منها أو كيف اختفت ومتى انتهت بعضها، إلا أن اسم سبأ استمر منذ ظهورها حتى انتهاء دورها بعد الاحتلال الحبشي لليمن في القرن السادس للميلاد وظهور الإسلام.

وقد تعاصرت بعض الدول أو أدخلت في كيانات سياسية في بعض الفترات، وكان لها وجود سياسي وجغرافي ومراكز حكمها، وتفاعلت مع بعضها البعض ومع دول الجوار بأنشطة حضارية مختلفة. نتج عن النشاط الحضاري لليمن القديم ظهور شواهد أثرية متعددة ومتنوعة في مواقع مختلفة، عثر على بعضها بواسطة أعمال البحث والتنقيب لبعثات أجنبية وأغلبها كانت لقى التقطها أشخاص وعرضت في متاحف اليمن وخارجه، ومن بين تلك الشواهد الأثرية نقوش كتابية ونماذج فنية لأشكال آدمية وهندسية بما فيها من عناصر حيوانية ونباتية وأدوات ورموز دينية عملت من الطين وأنواع الأحجار، الجيري والكلسي والرخام والمرمر، والبرونز ومن الخشب والعظم والزجاج.

إن أعمال نهب الآثار ونقلها إلى الخارج مسألة قديمة ومستمرة، خاصة إذا ما علمنا أن المواقع الأثرية في اليمن كثيرة، وتحتاج إلى المزيد من الحرص والوعي لأهمية كل أثر. كما أن فقدانه وعرضه أو الاحتفاظ به في أي بقعة من العالم يشكل نقصاً في مدلوله العلمي والثقافي لدى

---

* أستاذ الآثار القديمة المساعد بقسم الآثار كلية الآداب – جامعة صنعاء – مايو 2003م.

الباحثين والمهتمين.

الممالك اليمنية القديمة

ينبغي أن يسبق المراحل التاريخية الحضارية لليمن القديم، ذكر لعصر التاريخ المبكر وعصر ما قبل التاريخ، وهما عصران لم تتضح بعد الصورة الأولية لهما نظراً لقلة العمل الأثري في اليمن بهذا الخصوص، وقد أنبأت الشواهد القليلة المتوفرة عن فترات العصر البرونزي والعصر الحجري وهي العصور السحيقة التي ينبغي أن تسبق في العادة عصر التاريخ القديم أو فترة الحضارة الراقية. بل يرجح أن بلاد اليمن قد شهدت مراحل التحولات الحضارية الأولى التي عهدت في بقاع مهد الحضارات المعروفة مثل حضارة ما بين النهرين وحضارة وادي النيل وحضارة بلاد الشام، فموقعها المجاور والملامس لتلك البقاع يقتضي أن تكون قد عرفت حضارة مبكرة تشكل امتداداً لها أو من بعض أصولها.

غير أن اليمن لم تنل حظها من الجهود الأثرية التي نالتها تلك البقاع، ولما كانت الدلائل الأثرية القليلة التي تومئ إلى تلك العصور السحيقة غير كافية، ولا بد من جهود كبيرة متضافرة ومسح آثاري شامل وتنقيب علمي منظم يتم في هذه البلاد حتى يتسنى لها إبراز شواهدها الحضارية وكتابة فصولها التاريخية منذ أقدم العصور[1].

ظهرت في اليمن حضارة عريقة، امتدت قديماً إلى معظم أجزاء الجزيرة العربية ففي هذا الإقليم من بلاد العرب، قامت حضارة يعود أقدم آثارها إلى ما قبل الألف الأول قبل الميلاد، حضارة جذبت إليها أنظار العالم القديم وأثرت فيه، وبلغت من ذيوع الصيت مما جعل الكتاب الكلاسيكيين من أمثال سترابو وبلني وبطليموس يتحدثون عنها بكثير من الإعجاب والانبهار ففي تلك العهود عاشت على مسرح الحوادث في العربية السعيدة ممالك في فترات متداخلة ومتعاقبة هي: سبأ ومعين وحضرموت وقتبان، ومملكة لم تظهر هويتها كاملة، هي تلك التي كانت تدعى أوسان، والتي تبدو أنها كانت على الأغلب متعاصرة متعاونة أو متنافسة متناصرة، كل منها تستقل بنفسها تارة وتدين بالولاء لبعض جاراتها تارة أخرى[2].

وتنافست الممالك الأربع التي تختلف في قوتها، بعضها البعض. وفي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد برزت سبأ قوة استطاعت أن تغزو معين وكذلك أجزاء من مملكة قتبان الغربية. أما التهديد الخطير الوحيد لممالك اليمن فهو الذي جاء في حوالي (25–24 ق.م) عندما سيطر الجيش الروماني بقيادة اليوس جاليوس (Aelius Gallus) على مصر ومن ثم تغلغلوا إلى الجنوب العربي بمساعدة ادلائهم من الأنباط وهاجم الرومان نجران ومعين التي ربما فتحت أبوابها للأعداء. أما مأرب فقد صمدت وتراجع الرومان بسبب قلة الماء وانتشار الأمراض. وكان في خطط الاسكندر المقدوني القيام بحملة عسكرية الغرض منها السيطرة والتي لم تتم بسبب موته المبكر، أما مملكة قتبان فقد استمرت في ضعفها، فعاصمتها تمنع دمرت في الربع الأول للقرن الأول بعد الميلاد من قبل حضرموت، أما الأجزاء الأخرى لقتبان فقد سقطت في أيدي السبأيين وأهل حضرموت.[3]

مملكة سبأ

مملكة سبأ هي الأقدم من بين الممالك اليمنية القديمة فتاريخ سبأ هو في الحقيقة سناد التاريخ اليمني القديم وعموده، ودولة سبأ في العصر الأول، هي أكبر وأهم تكوين سياسي فيه، وما تلك الدول التي تذكر معها سوى تكوينات سياسية كانت تدور في الغالب في فلكها، ترتبط بها حيناً وتنفصل عنها حيناً آخر، مثل دول معين وقتبان وحضرموت، أو تندمج معها لتكون دولة واحدة مثل حمير، والتي لقب ملوكها بملوك سبأ وذو ريدان، وذو ريدان هم حمير، وأرض سبأ في الأصل هي منطقة مأرب، وتمتد إلى الجوف شمالاً، ثم ما صالاها من

المرتفعات والهضبات إلى المشرق، مثل مناطق أرحب وخولان وقاع صنعاء وقاع البون. كان موقع مارب عاصمة مملكة سبأ في وادي سبأ على مشارف الصحراء يسيطر على طريق التجارة الهام المعروف بطريق اللبان[4].

وقد وصفت أرض (شبا) (سبأ) في التوراة بأنها كانت تصدر اللبان وكانت ذات تجارة، وأن تجارها كانوا يتاجرون مع العبرانيين، واشتهرت قوافلها التجارية التي كانت ترد محملة بالأشياء النفيسة، وتبين من المواضع التي ورد فيها ذكر السبئيين في التوراة أن معارف العبرانيين عنهم قد حصلوا عليها من اتصالهم التجاري معهم[5].

جاء في وصف حديث للمدينة (مارب وسبا) والمنطقة المجاورة ما يأتي (وهناك وهدة واسعة وبالأحرى سلسلة من الوهاد المتقاربة على طول (160) ميلاً إلى الشمال والشمال الشرقي من بلاد اليمن، ويفصل هذه الوهاد عن هضبة صنعاء والمناطق الفاصلة من (لهم وبلاد خولان) ويمتد هذا المنخفض الكبير غير المنتظم من الشمال إلى الجنوب منحدراً من هضبة اليمن بما فيها عسير ويحاذيه من الشرق الكثبان العالية من الصحراء الشرقية الكبرى، ويدعى القسم الجنوبي من ذلك المنخفض بالجوف (ويدعى كثيراً بجوف اليمن) وقد كان مركزاً لحضارة السبئيين والمعينيين قديماً[6]. وسبا أرض اليمن مدينتها مأرب بينها وبين صنعاء مسير ثلاثة أيام[7].

ورد اسم سبأ دون غيرها من الممالك اليمنية القديمة في القرآن الكريم في سورة النمل وفي سورة تحمل أسمها (سورة سبأ) وهو بذلك أول مصدر يعتد به في الحديث عن هذه المملكة، وعن مملكة سبأ وقومها وما كانوا من ديانة وأوضاع اجتماعية. وخط (سبأ) في الموارد التاريخية لا بأس به بالقياس إلى خط الشعوب الأخرى، لقد ورد ذكر السبئيين في التوراة وفي الكتب اليونانية وفي الكتابات الآشورية ويظن أن كلمة (Sabu) (sa-ba-a-a) الواردة في نص سومري يعود إلى (Aradnannar) (لجش) (Lagash) (تلول الهبة) معاصر لأخر ملوك سلالة أور، أي في النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد، تعني أرض سبا)[8].

فإن صح هذا فإن المعلومات التي لدينا ترجع إلى حوالي 2500 ق.م. ووردت أقدم إشارة إلى سبأ لا يتطرق إليها الشك في حوليات تجلات بلاصر الثالث (745-727ق.م) والإشارة الثانية في حوليات سرجون الأشوري (حوالي 715 ق.م) (يثعمر) (يثع أمر) السبئي بين الذين قدموا الجزية ذهباً وبخوراً[9]. وفي نقش يعود للملك سنحاريب الأشوري (704-681 ق.م) فقد ورد من هذا النقش لفظ (كرب أيلو) ملك سبأ وهذا يؤيد أنه كان معاصراً لسنحاريب ويلاحظ من الآثار الأشورية أنها كانت في عصر خاص استمر نحو ثلاثين عاماً من ذكر (آتي أمر) و (كرب أيلو) كذلك نجد (يثع امر وكرب أيلو بين وكرب أيلو وتر)، وهي فترة حكم مكربي سبأ، فلا مجال للشك إذاً في أن المقصود هنا عند سرجون وكذلك عند سنحاريب هو المكرب (يثع أمر) وخلفه المسمى (كرب إل) ويلاحظ أيضاً أن الأشوريين لم يهتموا كثيراً بالقاب هؤلاء الأمراء البعيدين ولذلك دعوا مكرباً ملكاً[10]. ويقدر العلامة (فون فيسمن) تاريخ عهد المكرب كرب أيل وتر بن ذمار علي بالقرن السابع قبل الميلاد وهو نفسه الذي بعث بهدية إلى الملك الأشوري سنحاريب[11].

بيد أن أغلب المعلومات الخاصة بالسبئيين تعود إلى الكتابات النقشية التي عثر عليها في المواضع المتعددة في بلاد اليمن وكذلك في المواقع التجارية الشمالية في بلاد الحبشة (أكسوم) ومن هذه الكتابات تبين لنا أن لقب حكام سبأ لم يكن لقباً ثابتاً مستقراً بل تبدل مراراً طبقاً لتبدل لقب الحكم في سبأ، مما جعل الحكم بها على رأي علماء تاريخ جنوب الجزيرة يمر بأدوار:

1. مكرب سبأ وهو أقدم الادوار.
2. دور ملك سبأ.

3. دور ملك سبأ وذوريدان، وقد ظهر ذلك حوالي 115 ق.م

4. دور مملكة سبأ وذور يدان وحضرموت ويمانه وأعرابها من المرتفعات والتهايم من نهاية القرن الثالث الميلادي.

مملكة معين

أقام المعينيون في الجوف مملكتهم، وفيه لا تزال خرائب حاضرتهم (قرنو) التي تعرف باسم (معين) باقية إلى اليوم، والجوف منفهق من الأرض، تحيط به الجبال: برط والشعف واللوذ من الشمال، وسليام ثم يام من الجنوب وتفضي إليه أربعة أودية، أهمها وادي الخارد[12].

وقد ذكر الهمداني، مواضع كثيرة في منطقة الجوف مثل معين ونشق وبراقش وكمنا وغيرها[13] وأقدم من ذكر المعينيين الجغرافي اليوناني سترابو نقلها من مصادر يونانية قديمة عندما عدد ممالك بلاد العرب الجنوبية، فقد ذكر مملكة المعينيين، وأن عاصمتهم هي قرنا (Karna) وحسب وصف سترابو، تقع معين في الشمال إلى الجنوب منها سبأ وإلى الجنوب البعيد تقع قتبان وإلى الشرق منها كلها تقع حضرموت[14]. ومعين اسم حصن ومدينة باليمن.[15]

ويرى بعض العلماء أن مملكتي سبأ ومعين، قد وثقتا العلاقة بينهما، وأصبحت معين مستقلة حتى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، ومنذ القرن الرابع دخلت فترة طويلة من الازدهار والرخاء الاقتصادي وخلال تلك الفترة سيطرت على معظم طرق التجارة، التي تستمر مدة شهرين من طريقها للبحر المتوسط. ولتوفير الحماية لهذه الطرق فإن المعينيين أنشأوا مستعمراتهم بعيداً في الشمال الغربي للجزيرة العربية من منطقة واحات ددان[16].

وفي واقع الأمر فإننا لا نستطيع تحديد تاريخ الدولة المعينية بدقة، إذ لا يزال هناك جدل بين علماء الآثار حول تاريخ جنوب شبه الجزيرة العربية. وتعتبر النقوش المصدر الرئيسي في دراسة دولة معين (الكثير من معلوماتنا عن نشاط المعينيين التجاري الواسع إلى نقوش معينية ولحيانية عثر عليها في العلا (موضع ددان) بأعالي الحجاز، حيث يبدو أنهم أقاموا مستوطنة تابعة لهم على طريق القوافل، ولعلهم سيطروا حينذاك على طول الطريق من الجوف ونجران إلى فلسطين ويرى أحد الباحثين أن فترة هذه الدولة عرفت إشراقها خلال الفترة الهلينية (الإغريقية) وخصوصاً في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد[17].

مملكة قتبان

يورد (ثيوفراستوس) (حوالي 312 ق.م) (كتبيا أو كتبينا) (Kattabaina) (Katabani) (قتبان) ضمن ممالك بلاد العرب الجنوبية الأربع وهذه التسمية تتفق مع ما ذكره سترابو عن القتبانيين وما جاء في بلني. كما ورد اسم قتبان في النقوش اليمنية القديمة. ويصف سترابو هذه المملكة بأنها تشغل أقصى الزاوية الجنوبية الغربية من بلاد العرب في المنطقة المجاورة لمضيق باب المندب، الذي يشكل مدخل البحر الأحمر، وعلى ساحلها الجنوبي يقع ميناء عدن[18].

قتبان اسم دولة وأرض وقبيلة كانت مثاويها في الأصل فيما يعرف اليوم بمنطقة بيحان (وادي بيحان)، ويعتبر وادي حريب الواقع إلى الغرب من بيحان ضمن أراضي مملكة قتبان، وقد حرص القتبانيون على ربط الواديين بطريق عبر عقبة مبلقة المواجهة لمدينة ذوغيل ثاني المدن القتبانية أهمية (بعد العاصمة القديمة تمنع)[19]، وقتبان جمع قتب: موضع في نواحي عدن[20].

وقد اختلف علماء الآثار في تحديد ظهور قتبان ونهايتها. أقدم النقوش تعود إلى عصر المكربين (الملوك) الأول الذي يقدر (البرايت) زمنهم بالفترة ما بين القرن السابع والخامس قبل الميلاد، ويظهر أن أقدم من ورد اسمه منهم في النقوش المعروفة (المكرب سمه على وتر) من

القرن السادس قبل الميلاد، وفي القرن الرابع ومنذ حوالي 350 ق.م فيما يبدو، أصبحت قتبان تسيطر على الشريط الساحلي الممتد من باب المندب حتى ما وراء عـدن إلى الشرق ومنذ ذلك الوقت ازدهرت قتبان، واتت أغلب النصوص الطويلة وأغلب النصوص التذكارية[21].

ومنذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، أخذ الحميريـون يقتطعون أجزاء من الأراضي التابعة لقتبان. وبنهاية القرن الأول ق.م تمتد سيطرة حمير على الأجـزاء السـاحلية وفقدت بذلك قتبان سيطرتها على التجارة البحرية[22]. ومن المعروف أنه في حدود بداية عصر ما بعد المـيلاد، قامت دولة سبأ وذي ريدان، ورافق قيامها أو جـاء في أثره استحواذ تلك الدولـة علـى أراضـي قتبـان في المرتفعات ومحاصرتها في شبكة أوديتها الأصلية، ولكـن دون أن يؤثر ذلك تأثيراً بالغـاً في الاقتـصاد القتبـاني فحديث بلني عن تمنع العاصـمة ودورهـا في النـشاط التجاري على طريق البخور إنما يعود إلى فترة ما بعد قيام نظام سبأ وذي ريدان، وباستيلاء مملكة حضرموت على قتبان في القرن الثاني للميلاد، خرجت قتبان من الساحة كدولة مستقلة، ولكنها ظلت منطقة صراع بين الكيانات الباقية حتى قيام دولة التبابعة الذين وحـدوا في القـرن الرابع كل تلك الكيانات تحت اللقب الذي اتخذه (شمـر يهر عش) أول التبابعة وهو ملـك سـبأ وذي ريـدان وحضرموت ويمانه، دون الإشارة إلى قتبان التي ظلـت باقية كقبيلة حتى وقت متـأخر نـسبياً في الإسـلام ثم اختفت، هذا ويختلف الباحثون حـول الوقـت الـذي دمرت فيه تمنع والتي كما سبقت الإشارة قد دمرت على يد القوات الحضرمية[23].

وفي عام 1950م قامت بعثة (مؤسسة دراسة الإنـسان الأمريكية) بإجراء حفريات في (هجر كحلان) بوادي بيحان وهو الموقع الذي كانت تقوم عليه تمنع، والتي قال بلـني أن (بها خمسة وستين معبداً) الأمر الذي يصور لنا مدى اتساعها. وتوصل القائمون على الحفريات على الرغم من عدم اكتمالها إلى نتائج هامة يتعلق البعض منها بتاريخ قتبان[24].

مملكة أوسان

اسم إحدى الممالك اليمنية القديمة، فقـد جـاء في النقوش السبئية والقتبانية (ملك/ أوسن) و(ملك أوسن)، وهو الاسم الذي أطلق على المنطقة الواقعة على سـاحل خليج عدن وبعض المناطق الداخلية، ويرجح أن موطنها الأصلي في وادي مرخة[25].

ويستفاد من نقش صرواح الكبير الـذي يـذكر أن (الملك المكرب) السبئي كرب إل وتار بن ذمار علي، قـد قام بعدة حملات عسكرية داخلية خلال فترة حكمه (القرن السابع قبل الميلاد) يهدف منها إلى تثبيت السلطة المركزية لدولته وتأديب من خرج عنه.. وشملت حملاتـه منـاطق أوسان وغيرها من المناطق الجنوبية حتى بـاب المنـدب.. ويستفاد من النقش أن ذلك الحاكم تمكن من إقامة دولـة مركزية قوية انضوى تحت لوائها كل اليمن تقريباً[26].

يذكر بعض العلماء أنه لا يعرف على وجه الـيقين أين كان مركز هذه المملكة غير أن دلائل كثيرة تشير إلى أنه كان في الأنحاء الواقعة جنوب قتبان، ربمـا في وادي مرخة وما حواليه، فمن هناك فيما يبدو أخذت تتوسـع على حساب جاراتها فاقتطعت بعض الأرضي القتبانيـة والحضرمية التي عمل كرب إل (الآنف الـذكر) علـى إعادتها إلى أصحابها بعد أن تمكن من إخضاعها[27].

مملكة حضرموت

يرد اسم حضرموت في التاريخ بأسماء مختلفة فهـي عند ارثوسثنيس (حضر موتيتاي) وعاصمتها (كباتاتون) وعند سترابو وثيوفر استوس فهي (حضرميتا) بينما يشير بلني إلى أهل حضرموت أنهم جماعة من السبئيين[28] ويأتي ذكر مملكة حضرموت في العديد من النقـوش الكتابيـة القديمة، فقد ورد اسم حضرموت في الكتابات المعينيـة، كما وردت أسمـاء ملـوك حـضرموت في كتابـات حضرمية[29] أما الهمداني فيقول (حضرموت من الـيمن وهي جزؤها الأصغر، نسبت هذه البلدة إلى حضرموت

بن حمير الأصغر فغلب اسم ساكنها[30]. واسم حضرموت في التوراة (حاضر ميت)، وقيل سميت بحضرموت بن يقطن بن عامد، وحضرموت بن قحطان، فهو اسم موضع واسم قبيلة[31].

وقد ظلت حضرموت تعرف بهذا الاسم دون انقطاع ولم يزال الاسم بزوال المملكة القديمة، كما حدث لشقيقاتها، كما أن اكبر ودياها يعرف باسم وادي حضرموت ويبلغ طوله 160كم ويربط الأجزاء الغربية والشرقية في منطقتها[32].

وقد كانت حضرموت بلاد البخور لأنها كانت مملكة مترامية الأطراف تتوسط بلاد العرب، وتمتد إلى ظفار أعظم المناطق المنتجة للبخور، ولا شك أن مملكة حضرموت في أوج ازدهارها وقوتها أكبر الممالك اليمنية القديمة رقعة، امتدت من مشارق بيحان (قتبان) غرباً إلى حدود عمان شرقاً شاملة ظفار كلها، وأمتدت أيضاً عبر البحر إلى جزيرة سقطرة[33] ويذكر أن مدينة شبوه (العاصمة) تقع في الداخل وأنها محل إقامة الملك، وإليها يجلب اللبان لخزنه، كما أن مدينة قنا كانت الميناء التجاري لحضرموت[34]. ويقع في أسفل جبل يعرف اليوم باسم (حصن الغراب)[35].

وتتضارب آراء العلماء حول زمن بدء مملكة حضرموت القديمة وتطورها. وقد عرفت حضرموت نظام المكربين (لقب ديني ومدني) وفيما عدا العلاقة الخاصة بين حضرموت ومعين في الثلث الأخير من الألف الأول قبل الميلاد فإننا لا نكاد نعرف شيئاً عن نشاط أهل حضرموت في ذلك الوقت، ولكن الإشارات الواردة في كتب المؤرخين الكلاسيكيين تدل على أن تجارة البخور كانت مزدهرة وإن شبوه كانت مركزاً رئيسياً لتجميع تلك السلعة الثمينة[36]. وازدهرت حضرموت ازدهاراً شديداً في الفترة التي نسميها فترة (ملوك سبأ وذو ريدان) أي القرون الثلاثة الأولى لعصر ما بعد الميلاد، ويعود ذلك فيما يبدو إلى عدة عوامل منها ازدياد الإقبال على مادة اللبان الذي جعلها تولي اهتماماً خاصاً بمنطقة (إقليم ظفار) حيث أقامت ميناء (سمهر) (على خور روري) بالقرب من صلالة. كما أن حركة التجارة في ميناء قنأ وفي سقطرة كما يظهر في كتاب (الطواف حول البحر الأحمر) كانت نشطة، وكانت الوفود والتجار يتوافدون على البلاد براً وبحراً، كما نلمس من نقوش العقلة[37].

وخاضت حضرموت حرب الثلاث مائة عام التي دارت حول توحيد كل من سبأ وذي ريدان، وقد تمكنت في مطلع القرن الثاني الميلادي من السيطرة على معظم بلاد (ولد عم)(قتبان). وبعد ذلك الوقت دخلت حضرموت ضمن المملكة الحميرية التي شملت اليمن كله منذ بداية القرن الرابع الميلادي.

جهود نقل الآثار سابقاً

اهتمت المؤسسات العلمية والمتاحف العالمية باقتناء الآثار والنقوش اليمنية منذ بدء الرحلات الاستكشافية في القرن الثامن عشر، ثم بتنظيم رحلات البعثات العلمية والآثارية إلى اليمن لجلب الآثار في العصر الحديث، وذلك خلال الوجود التركي والاستعمار البريطاني والحكم الإمامي حيث شجعت عملية بيع الآثار وتهريبها إلى الخارج. ووجدت في اليمن – حيث مناطق الآثار وانتشارها– شبكات تجميع الآثار ونقلها إلى عدن حيث يوجد تجار وسماسرة الآثار.

ولهذا نجد الآن كميات كبيرة من النقوش والقطع الأثرية في حوزة المتاحف العالمية ولدى أرباب المجموعات الأثرية الخاصة ومن هذه المتاحف:

متحف بومبي	الهند
متحف هامبورج	ألمانيا
متحف اسطنبول	تركيا
المتحف البريطاني– لندن	بريطانيا
المتحف الأشمولي إكسفورد	بريطانيا

متحف اللوفر	فرنسا
المتحف الوطني في روما	إيطاليا
متحف فيينا	النمسا
متحف برلين	ألمانيا
متحف برمنجهام	بريطانيا
متحف جامعة وليم كامبردج	بريطانيا
متحف الإيرميتاج لينجراد	رويسا
متحف مانشتر	بريطانيا
متحف بنسلفانيا	الولايات المتحدة الأمريكية
متحف جامعة الملك سعود بالرياض	السعودية

من المجموعات الخاصة في الخارج:

مجموعة دمبرثون أواكس	واشنطن
مجموعة برناردكاس درهام	بريطانيا
مجموعة إيفرسون ليتمن	(أسمرا)
مجموعة كاليبجيان	باريس

وما زال الإتجار والتهريب قائمين إلى يومنا هذا.[38]

يستفاد من كتاب المستشرقون وآثار اليمن بجزأيه لمؤلفه د. محمد بافقيه 1988م الشخصية الهامة الذي يرد اسمه في رسائل الكتاب، هو الكونت دي لندبرج أو عمر السويدي (1848 – 1924م) زار اليمن مرات ما بين عام 1882 وعام 1894 بلغ في إحداها مأرب تحت اسم الشيخ حسين.. ظل تطلعه إلى اختراق المناطق الداخلية مشروعاً على ورق الرسائل التي تبادلها مع أولي الشأن في تلك المناطق نصاب ويشبم وبيحان وعدن وسقطرى وقشن والشحر والمكلا وبالحاف وحورة وعرقة وأحور وشقرة...

تشكل الرسائل إضافة هامة إلى حصيلتنا من الوثائق عن الفترة التي تعود إليها، وهي فترة شهدت تسارعاً في وتيرة التغلغل البريطاني في المناطق الداخلية من جنوب اليمن – تغلغل لعب فيه دوراً ملحوظاً المغامر البريطاني وايمان بري (أو عبد الله منصور) الذي تردد اسمه في الرسائل أكثر من أي مخلوق آخر وتغطي الرسائل العائدة إلى الأعوام من 1895– 1911 مجمل الفترة التي ظل خلالها، بل وإلى ما وراءها قليلاً، المستشرق السويدي الكونت كارلودي لندبرج على اتصال بمعاريفه اليمنيين، يلتقيهم بداره في عدن أو أماكن إقامته في (أوروبا).

أما الجانب الطاغي في الرسائل فهو ذلك الذي يتعلق بتجارة الآثار وفي مقدمتها (الأحجار المكتوبة) أي النقوش أو المساند، تلك التجارة المشؤومة التي ألحقت الضرر في مجال التراث وعناية المثقفين. فهي تراث الحضارة العريق والعادات والتقاليد والفنون[39].

تصدمنا الرسائل بعنف حين تظهر أن تجارة الآثار في اليمن قد اتخذت عند التقاء القرنين التاسع عشر والعشرين أبعاداً خطيرة إذ كادت تشمل اليمن كله رغم وعورة الطرق وصعوبة التنقل من جراء اهتزاز الأمن المرافق لحالة التمزق التي أضعفت البلاد وقتها وخلقت فيها حالة القابلية للاستعمار.

لقد قامت في تلك الفترة شبكة تخريب وتسريب للآثار كانت الحلقة العدنية – كما يظهر من رسائل الملف – أبرز حلقاتها، وذلك لأن حركة السفن التي تربط الميناء اليمني بالموانئ الهامة في أوروبا والهند قد سهلت في ظل الوجود البريطاني عملية التسريب.

وكان القانون في عدن هو إرادة المستعمر، ولم تكن إرادته تتعارض مع تشجيع الإتجار بالآثار رغم علمه بأنها مسروقة. بل كان الضباط البريطانيون أنفسهم من عسكريين وأشباه مدنيين لا يتورعون عن الاستحواذ على ما تصل إليه أيديهم من قطع أثرية، بعضها يتهافتون عليه لقيمته المادية، وبعضها يحتفظ به الأفراد منهم على سبيل التذكار، وبعض آخر يجد طريقه إلى متاحفهم والمتاحف الأوروبية الأخرى بيعاً وإهداء[40].

في الرسالة برقم 2/96 1896/3/20م

بأن محمد صالح قد اتخذ الترتيبات من أجل إحضار (التواريخ الحميرية ومؤلفات الهمداني للكونت من صنعاء).

(التواريخ الحميرية) عبارة فضفاضة ولكنها تشير إلى طبيعة الوثائق التي كان لندبرج يسعى إلى اقتنائها. ويحتمل أنها تعني النقوش.

أما مؤلفات الهمداني فكثيرة ولعل ما كان يبحث عنه لندبرج هو المزيد من أجزاء (الإكليل) عاش الهمداني وهو أبو محمد الحسن بن يعقوب في القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي – وهو العالم الموسوعي اليمني الذي اشتهر بلقب لسان اليمن.

من خلال الرسالة برقم 9/98 بتاريخ 98/4/12م

تشير إلى جلب 11 حملاً نقوش واضحة أحجار كبير وصغير، حملها إلى عدن إلى لندبرج وهي من أرض الخورة والعلهين ودمان وأرض عوذلة وأرض النخعين. بخمسمائة ورقة مطبوعة (مضغوطة) وأن هناك أحجارا أخرى تقدر بـ 15 حملاً[41].

من خلال حفريات المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان في اليمن بين عامي 1950–1952م بقيادة وندل فيلبس والتي عملت تنقيبات أثرية في بيحان (تمنع، حيد بن عقيل، هجر بن حميد) التابعة لمملكة قتبان وفي مأرب مملكة سبأ جاء في وصفه: كانت مقبرة تمنع في حيد بن عقيل مصدراً طيباً للدخل لبعض البدو لمدة طويلة من الزمن.. كانت القطع الأثرية تباع في الأسواق منذ عدة سنوات قبل عمل البعثة الأمريكية بالحفريات الأثرية، عن طريق البدو الباحثين عن الكنوز.. كان هؤلاء يحفرون في الرمال في المناطق الأثرية فيخرجون بقطع جميلة ذات قيمة. وتوجد في عدن مجموعة ممتازة من هذه القطع الأثرية يملكها تاجر هندي ثري يدعي كيكي منشرجي، وكان التاجر قد عرض هذه المجموعة على متحف أفريقي؟؟؟ مقابل مائة ألف دولار. وقد تحققت شكوكنا أن معظم القطع الأثرية الموجودة لدى جامعي الآثار إنما استخرجت من تمنع... ولعل الكثير من القطع الأثرية قد اخذت من المقبرة في حيد بن عقيل.

بعد عودة وندل فيلبس من رحلته إلى مصر عاد في بداية عام 1951م إلى اليمن، وعند وصوله إلى بيحان طلب منه الشريف حسين (مسئول بيحان آنذاك) طلباً من 15 نقطة منها تسليم جميع الذهب والفضة التي تكتشفها البعثة. ثم اتفق على تقسيم المكتشفات الأثرية على أن يتم التقسيم بمعدل النصف لكل فريق.

أثناء تواجد وندل فيلبس في تعز حيث سمح له التنقيب في مأرب بعد التوقيع على اتفاق بينه وبين الإمام احمد بتوقيع محمد البدر ابن الإمام (والتي لم تتضمن مسألة تقاسم المكتشفات الأثرية التي يعثر عليها أثناء التنقيب). كتب العقد عدنان ترسيسي مساعد الإمام للترجمة[42].

المنقولات الأثرية خارجياً والمشاركة في معرض الحضارة اليمنية المقام حالياً في دول أوروبية عن كتاب (اليمن في بلاد ملكة سبأ 1999م)

م	الأثر	مكان العثور	مكان العرض	العدد	ص
1	رأس امرأة (رخام معرق) بعيون مطعمة	تمنع	ميونخ، المتحف الوطني فولكر كنده	1	10
2	مجموعة جمال من البرونز	مصدر مجهول	ميونخ، المتحف الوطني	5	12، 13
3	كأس من الفخار بمقبض ذو رأسين لحيوان الوعل	هجر بن حميد	واشنطن، قاعة عرض أرثرم. ساكلر، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	1	51

م	الأثر	مكان العثور	مكان العرض	العدد	ص
4	ثلاثة أواني فخارية	هجر بن حميد	واشنطن، قاعة عرض أرثر م. ساكلر، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	1	52
5	يد ذهبية على ظهرها نقش بخط المسند	مصدر مجهول ربما ظفار	لندن المتحف البريطاني	3	62
	مبخرة مربعة عليها كتابة بأربعة أوجه	مصدر مجهول	المتحف البريطاني	1	75
	مبخرة برونزية يتقدمها وعل بارز	مأرب	باريس، مجموعة خاصة	1	75
6	مائدة مستديرة بأربعة أرجل	قتبان	لندن، المتحف البريطاني	1	75
7	مائدة من الأليستر يتقدمها رأس ثور	معبد سميع	باريس، مجموعة خاصة	1	80
8	تمثال شخص جالس من الحجر	مصدر مجهول	ميونخ، متحف الدولة للأنثروبولوجيا	1	91
9	تمثال شخص جالس من الحجر	المصلوب	ميونخ، متحف الدولة للأنثروبولوجيا	1	92
10	رأس فتى من المرمر	قتبان	باريس، مجموعة السيدة انطوان بس	1	99
11	تمثال امرأة (مرمر)	قتبان	باريس، مجموعة السيدة انطوان بس	1	100
12	نصب مع رأس ثور (مرمر)	قتبان	باريس، مجموعة خاصة	1	101
13	نصب جنائزي باسم إيل ذو سحر	مأرب	باريس متحف اللوفر	1	105
14	جزء من عمود مضلع (برونز)	تمنع	واشنطن، أرثر ساكلر غاليري، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	1	110
15	لوحة نقش مسند مع مصباح تمسكه يد (برونز)	تمنع	واشنطن، أرثر ساكلر غاليري، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	2	110
16	مكيال بمقبضين (برونز) عليه كتابة بخط المسند	تمنع	واشنطن، أرثر ساكلر غاليري، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	1	111
17	مزهرية بمقبضين	تمنع	واشنطن، أرثر ساكلر غاليري، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	1	111
18	ختم مفرع بخط المسند (حجر)	تمنع	واشنطن، أرثر ساكلر غاليري، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	1	112
19	ميزاب برأس ثور (برونز)	شبوه تمنع	واشنطن، أرثر ساكلر غاليري، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	1	112
20	لوح زوجان (برونز)	بين نجران والجوف	ميونخ، المتحف القومي للأنثروبولوجيا	1	125
21	تمثال جمل (فخار) عليه كتابة حروف المسند	مصدر مجهول	ميونخ، المتحف القومي للأنثروبولوجيا	1	129

م	الأثر	مكان العثور	مكان العرض	العدد	ص
22	تمثال حمار (برونز) مع نقش إهداء	مصدر مجهول	لندن، المتحف البريطاني	1	129
23	رأس امرأة (مرمر)	تمنع	واشنطن، قاعة أرثرم ساكلر – إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	1	153
24	رأس امرأة (مرمر)	تمنع	لندن، المتحف البريطاني	1	153
25	رأس امرأة (رخام)	تمنع	باريس، مجموعة السيدة انطوان بس	1	153
26	رأس رجلين ورأس امرأة رخام	قتبان	باريس، مجموعة خاصة	3	154، 155
27	رأس رجل وتمثال نصفي لامرأة (رخام)	قتبان	باريس، مجموعة خاصة	2	156
28	تمثال شخص جالس (حجر جيري) بنحت تكعيبي	الجوف	لندن، المتحف البريطاني	1	158
29	تمثال شخص جالس (حجر جيري) بنحت تكعيبي تمثال شخص جالس (حجر جيري) بنحت تكعيبي	الجوف	برلين متحف Vorderasiatlsches	1 1	159
30	تمثال رجل، بقاعدة (مرمر)	مارب أو قتبان	لندن، المتحف البريطاني	1	160
31	تمثال رجل، بقاعدة (مرمر)	قتبان	باريس، مجموعة السيدة انطوان بس	1	160
32 33	تمثال رجل ملتح بقاعدة، (مرمر) تمثال رجل ملتح بقاعدة، (مرمر)	قتبان	ميونخ، المتحف القومي للأنثروبولوجيا	1 1	160 160
34	تمثال رجل بقاعدة (مرمر معرق)	قتبان	باريس، مجموعة خاصة	1	160
35	تمثال امرأة جالسة (مرمر أخضر)	قتبان	برلين متحف vorderasiatlsches	1	161
36	تمثال امرأة جالسة (مرمر أحمر)	قتبان	باريس، مجموعة خاصة	1	161
37	رأس امرأة (مريم) (مرمر معرق)	تمنع مقبرة حيد بن عقيل	واشنطن، قاعة أرثرم ساكلر، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	1	171
38	1- رأس رجل (مرمر) 2- رأس ذو عنق طويلة (حجر كلسي) 3- نصب شخص يحمل خنجرا (مرمر) 4- رأس ذو عنق طويلة وقاعدة منقوشة (مرمر وحجر كلسي)	كلها من تمنع مقبرة حيد بن عقيل	واشنطن، قاعة أرثرم ساكلر، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	8	172، 173

م	الأثر	مكان العثور	مكان العرض	العدد	ص
	5- شخص جالس (مرمر) 6- نصب مع شخص امرأة (مرمر) 7- نصب ذو عينين وأنف (حجر كلسي) 8- نصب ذو عينين (حجر كلسي)				
39	نصب رأس ثور (مرمر) نصب هرمي (مرمر) نصب قبوري (مرمر وحجر كلسي) افريز وعل (مرمر)	تمنع – مقبرة حيد بن عقيل	واشنطن قاعة أرثرم، ساكلر، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	2 1 2 1	174، 175
40	طوق ذهب	تمنع حيد بن عقيل	واشنطن قاعة أرثرم، ساكلر، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	1	176
41	مزهرية ذات غطاء للاستخدام القبوري (مرمر) بيدق قبوري (مرمر) مبخرة مكعبة الشكل بأربعة أرجل (حجر رخامي)	تمنع، مقبرة حيد بن عقيل	واشنطن قاعة أرثرم، ساكلر، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	5	176
42	أواني للطبخ حجرية	تمنع	واشنطن قاعة أرثرم، ساكلر، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	مجموعة	176
43	مبخرة على واجهتها كتابة بخط المسند (مرمر وحجر كلسي)	السوداء الجوف	لندن، المتحف البريطاني	1	186
44	أختام مفرعة (برونزية) عليها حروف المسند	مصدر مجهول	ميونخ، المتحف القومي للأنثروبولوجيا	5	196
45	أسدان يمتطيهما طفلان (الهة الحب) (برونز) على واجهة القاعدتين كتابة بارزة بخط المسند: (ثويب وعقرب ذو مهصنع)	تمنع	واشنطن قاعة أرثرم، ساكلر، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	2	202
46	تمثال امرأة (برونز)	تمنع	واشنطن قاعة أرثرم، ساكلر، إيداع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان	1	203

موقف الحكومة اليمنية

من الحق العلمي لبعثات التنقيب وكذلك نقل الآثار والإتجار بها والعقوبات المترتبة على سرقة وتهريب الآثار وإتلافها، من خلال قانون الآثار الصادر بموجب القرار الجمهوري بالقانون رقم (21) لسنة 1994م بشأن الآثار، وتعديلات بالقانون رقم (8) لسنة 1997م، كما جاء في بعض مواده التالية:

مادة (27): ...ويكون للجهة المنقبة الحق في الملكية العلمية لنتائج الحفائر التي تجريها، كما أن لها أيضاً الأسبقية في نشر هذه النتائج، وتعتبر جميع الآثار التي يعثر عليها المنقبون ملكاً للدولة ويجوز منح الفريق المنقب أو البعثة حق اخذ قوالب للمنقول منها واستنساخها لأغراض غير تجارية شريطة ألا يسبب ذلك أي تلف أو تشويه للأثر.

مادة (29): يحظر الإتجار بالآثار المنقولة أو التصرف في ممتلكات ثقافية وطنية المسجل منها وغير المسجل لدى الهيئة (الهيئة العامة للآثار) أو نقل ملكيتها خلافاً لأحكام هذا القانون.

مادة (33): يحظر تصدير الآثار ومع ذلك يجوز بقرار من رئيس الهيئة التصريح بالتصدير للعينات الأثرية والثقافية والطبيعية بغرض التحليل وبقرار من الوزير (وزير الثقافة) للمواد الأثرية والثقافية بغرض الصيانة والترميم أو العرض والإعارة المؤقتة وفقاً لنماذج خاصة يصدر بها قرار من الوزير ويجب أن يتضمن هذا النموذج أن للهيئة الحق في إجازة التصدير أو رفضه بعد اتخاذ كافة الإجراءات القانونية.

مادة (34): على السلطة الأثرية الاستفادة من الاتفاقيات والمعاهدات وتوصيات المؤسسات الدولية لاستعادة الآثار المهربة إلى خارج الجمهورية وأن تساعد كذلك على إعادة الآثار الأجنبية بشرط المعاملة بالمثل.

مادة (35): يحظر على السلطة الأثرية إهداء الآثار إلا في أضيق الحدود ولتحقيق مصلحة عامة وبشرط أن يكون الأثر منقولاً ومسجلاً ومما يمكن الاستغناء عنه لوجود ما يماثله من حيث المادة والصنع والدلالة التاريخية والقيمة الفنية ويتم ذلك بقرار من مجلس الوزراء بناء على عرض الوزير (وزير الثقافة).

مادة (39):

1. يعاقب كل من هدم أو أتلف أو زور عمدا أثرا منقولا أو ثابت أو شوه أو غير أو طمس معالمه أو فصل جزء منه أو تعمد إخفاءه أو اشترك في ذلك بعقوبة الحبس لمدة لا تزيد عن ثلاث سنوات أو غرامة مالية تساوي قيمة الأثر أو بالعقوبتين معا.
2. يعاقب كل من سرق أثر أو جزء من أثر مملوك للدولة أو اشترك في ذلك بالعقوبات المنصوص عليها في أحكام الشريعة الإسلامية مع مصادرة جميع الأشياء المستخدمة في تنفيذ الجريمة لصالح صندوق دعم الآثار[43].

إن تخريب الآثار كانت ولا تزال ظاهرة عالمية، وليست مقصورة على اليمن، بل الآثار اليمنية نفسها قد مرت بفترات حرجة في تاريخها كزمن الحروب الطويلة الضارية بين سبأ وحمير في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد، أو فترات أخرى مثل الغزو الحبشي في القرن السادس الميلادي أو دخول الأتراك اليمن في القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر. أو فترة معارك الدفاع عن الثورة اليمنية في (1962م) وحرب التحرير حديثاً كل ذلك حدث في اليمن وفي كثير من بقاع العالم، كما ان سرقة الآثار تمت في كل من متحف القاهرة ومتحف اللوفر في باريس ومتاحف إيطاليا. وليس اليمن هو البلد الوحيد الذي يتجر بآثاره بل إن التنقيب علمياً هو بحد ذاته تدمير للآثار. إذ إن الحفر مهما كان هو عبث بطبقات الموقع الأثري[44].

نشر في صحيفة الشرق الأوسط خلال شهر إبريل سنة 2003م موضوعاً صحفياً عن اعتراض السلطات السعودية على الحدود مع اليمن، تجار سرقة آثار يمنية

ومعهم واحد وثلاثون قطعة أثرية ومن ثم تم حجزها وإرجاعها إلى السلطات اليمنية (انتهى) وهذا جاء ترجمة لما نصت عليه المادة رقم (34) من قانون الآثار اليمني.

ونشر في صحيفة الثورة الصادرة في صنعاء يوم الخميس 29 صفر 1424هـ الموافق 2003/5/1م موضوع استعادة آثار يمنية من لندن حيث تمكنت السفارة اليمنية في لندن من استعادة قطعتين أثريتين عرضتا للبيع في مزاد علني بأحد مزادات لندن الشهيرة، وهما عبارة عن شاهدي قبرين أحدهما يعود تاريخه للقرن العاشر الهجري والآخر للقرن الحادي عشر. وقد تم تهريبهما إلى لندن بعد الاستيلاء عليهما من مقبرة قديمة في مدينة صعدة... ذلك أن القوانين في الجمهورية اليمنية وبريطانيا وغيرها من دول العالم تحرم بيع الآثار والتحف التي تعتبر ثروة وطنية، كما أنها تعاقب بشدة من يقدم على ذلك.

وتقوم السلطات اليمنية ممثلة بالهيئة العامة للآثار والجهات الأمنية بمراقبة محاولة تهريب الآثار واسترجاعها من منافذ اليمن إلى الخارج.

مميزات الفن اليمني القديم

إن اقدم نماذج النحت اليمني تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وهي شواهد القبور التي ظهرت في حضرموت بأسلوب نحتها البدائي السمج في تشكيل معالم الوجوه واللحية الكثة والأذرع المحورة، وأهم ما تتميز به هو وجود خناجر ذات طرف حاد ومقبض ينتهي برأس هلالي الشكل ويليها التماثيل الحجرية فاقدة الأرجل، سطوحها وجوانبها نحتت بأسلوب تكعيبي بدائي وملامح الوجوه فيها لا تظهر بوضوح، كما أن نسب الجسم غير متناسبة وتأتي بعدها الدمى الطينية التي عملت بأصابع اليد في تشكيل الرأس والوجه المستدير وتسطيح أو تدوير الجسم، بأطراف قصيرة وهي أما واقفة أو جالسة، تتصف بعجز واسع، وقد أضيفت لبعضها قطع طينية للدلالة على خصال الشعر أو القلائد التي عملت أيضاً بأشرطة مثقوبة أو خطوط محززة، ويستدل إلى العيون والأثداء بثقوب أو قطع بارزة ومنها ما يتشابه بما وجد على دمى طينية في بلاد وادي الرافدين والتي تمثل آلهة الخصب ورمز الأمومة.

ظهرت تماثيل حجرية بأوضاع واقفة وجالسة ذات صفة دينية خلال الألف الأول قبل الميلاد، اتسمت أقدمها بأن اتبع في نحتها أسلوب النحت التكعيبي البدائي بحيث تبدو سطوح وجوانب الجسم مستقيمة، ولا تظهر ملامح الوجوه في معظمها بصورة كافية وهي في مجملها لا تتسم بالمحافظة على النسب الصحيحة لأجزاء الجسم وقد مدت الأذرع القصيرة للأمام مقبوضة الاكف، كما وضعت الأقدام على قواعد وبرز الرأس في بعضها كجزء رئيسي بحجم أكبر لبعض هذه النماذج، عيون مطعمة بمادة مضافة.

تميزت بعض التماثيل المدورة بصقل سطوحها وتنعيمها ، خاصة عند استخدام النحات لأحجار الرخام والمرمر، ومع ذلك لا يتوافر فيها التناسق في أجزاء الجسم وشكل الأرجل المكعبة أو الأسطوانية.

وتأتي التماثيل البرونزية لتعطي انطباعاً على مدى التطور الذي وصلت إليه في المحافظة على نسب أجزاء الجسم، ذلك أنها اختلفت في تشكيلها عن التماثيل الحجرية من حيث عملها في قوالب برونزية وجاءت معبرة لسمات الشخصية اليمنية لتماثيل الذكور والإناث، وكان للفنان الحرية في وضع الأيدي وابتعادها عن الالتصاق بالجسم، ودلت ملامح الوجوه عن دقة تمثيلها لتحاكي الشكل الطبيعي وإظهار الابتسامة على محياها باستثناء تمثال معدي كرب الذي يبدو عليه الصرامة كما في التماثيل الحجرية وقد افرد تمثال معدي كرب قدمه اليسرى لتتقدم على اليمنى وهو الوضع في تمثال برونزي لرجل.

تميزت التماثيل ذات الوضع الجالس والنحت المدور، بتناسق أجزائها وقد وضعت الأقدام على الجزء

البارز من القاعدة التي تأخذ شكل الزاوية القائمة، ووضعت الأذرع فوق الفخذين بأكف مقبوضة وأحياناً يفرط النحات في حجم الأذرع وفي حجم العجز الملتصق بالقاعدة وتميز اقدم هذه النماذج بقصر الذراعين البارزين للأمام وكبر حجم الأرجل أو أن تجلس امرأة على مقعد وتحمل طفلاً ونفس حالة جلوس الشخص بتناسق أجزاء جسمه المعمول بنحت بارز داخل لوح مؤطر، وقد وضعت الأقدام على حافة الإطار السفلي ووضعت الأذرع مشدودة على الركبتين.

لأشكال الأشخاص المعمولة بنحت بارز على ألواح حجرية، أوضاع الوقوف أو جالسه، مع تعبير الأذرع لحالات التعبد، واتسمت مثل هذه النماذج، ورافق بعضها كتابة بخط المسند لتدل على اسم صاحب اللوح.

وتتميز النماذج الأنثوية ذات النحت النصفي البارز على ألواح حجرية، بأنها تعد أدق ما أنتجه النحات اليمني القديم في شكل الرأس وملامح الوجوه وإبراز الصدر وتقنية القلائد وشفافية الثوب، ولهذه الألواح أهمية دينية.

وتنوعت شواهد القبور التي تمثل أشخاصاً بأوضاع مختلفة في مشاهد بنحت بارز على سطوح ألواح حجرية مؤطرة، وأقدم هذه النماذج عملت بأسلوب ساذج لا تظهر فيه ملامح الوجوه بصورة جيدة ، واكتفي بتحديد ملامح الجسم والملابس ووقوف الأشخاص بوضع أمامي أو بالاتجاه إلى أحد الجانبين وتطور بعض الشواهد إذ استطاع النحات التقيد بالمحافظة على تناسق أجزاء الجسم وأعطى انطباعاً لمشاهد الطرب.

ونحتت الرؤوس الآدمية بأشكال واحجار مختلفة، وهي في ثلاثة أنواع: أولها ما تتميز بتسطيح خلف الرأس وقطع هامته، ورقبة طويلة وبروز الأذنين جانباً ووجه مسطح بعيون غارقة،محاجرها واسعة وأنف بارز حاد يلتقي مع ارتداد الجبهة وفم مطبق الشفاه وأحيانا يمثل الشعر عند بداية الرأس وعلى جانبي الرقبة، نوع ثاني يبرز الرأس من لوح وهي أفضل حالاً في بعض النماذج في ملامح الوجوه وصقلها خاصة عند استعمال النحات لحجر الرخام والمرمر لعملها مع وضع الأذنين بارزتين للجانبين، وقد تنوعت أشكال العيون فيها بين غارقة ومحززة وبارزة بيضوية أو مطعمة ومثل بؤبو العين بثقب وسط مركز العين.

النوع الثالث، رؤوس مدورة بعضها برقبة أسطوانية الشكل مبالغ في طولها، ملامح الوجوه فيها بسيطة وأخرى تبدو بأحسن ما أنتجه النحات وهي معمولة من المرمر، تتميز بامتلاء الوجه وصقله وتنعيمه ودقة ملامحه وملء العينين بمادة تطعيم مضافة ارتسمت البسمة على محياها وأن كان رأس الفتى حليقاً إلا أن رأس الفتاة عليه شعر ذو ظفائر مفروقة من وسطه.

أن ما يمكن استنتاجه حول قطع هامة الرأس وتسطيح الخلف أو تدرجه، إنما كان الغرض منه وضع الرأس داخل كوة مجوفة ومؤطرة، وللدلالة على أن بعض الرؤوس للذكور فقد أطلقت اللحي هلالية الشكل تصل إلى تحت الأذنين كما كتبت أسماء بعض منها بخط المسند وقد يحور الوجه إلى شكل عيون تشبه الحلقات فقط مع ذكر الاسم.

إن تمثيل الملابس للتماثيل الحجرية، يأخذ أشكالاً وأحجاماً مختلفة وفي بعض التماثيل ذات النحت التكعيبي البدائي، يأخذ الثوب شكلاً مسطحاً ينتهي في أسفله بحافة أفقية بينما في تمثال لامرأة جالسة، يلتف حول الجسم والرأس وهو ذو ثنايا وفي الرسم الملون لامرأتين لف الثوب حول الجسم بطيات جميلة وغطى الرأس بلفائف من نوعه وأفضل تشكيلاً للثوب بطياته وثناياه وشفافية ظهر على تمثال (برات) البرونزي أو يأخذ الثوب شكل جسم المرأة الرشيق كما في تمثالين من البرونز وقد يكون الثوب مقصوراً على مئزر ذي حزام أو كفة طويلة كما في تمثال معدي كرب وتمثال آخر برونزي وأحياناً يعمل المئزر بطيات يمتد طرفه على ساق

إحدى الأرجل والتفت خصل منه على الكتف الأيسر معقودة عند الصدر أو قد يكون مئزراً قصيراً ذا حزام عريض أو يكون ثوباً على شكل طيات منحنية وعلى هيئة طيات طولية تأخذ شكل جسم الشخص الجالس.

وفي شواهد القبور السبئية ترتدي النساء أثواباً طويلة تصل إلى القدمين،على شكل طيات ملتفة ويبدو الثوب على النصف العلوي المنحوت للمرأة بتشكيل متقن دقيق شفاف وقد يمثل عند فتحة الرقبة على شكل أشعة الشمس مع إظهار مواضع التكفيت وطرف الأكمام القصيرة بالإضافة إلى الملابس فقد شكلت الأحذية لبعض النماذج أنواعاً منها على شكل حذاء ذي مشبك أو حذاء يغطي كامل القدمين والتي من المحتمل أنها عملت للمتوفى صاحب شاهد القبر وهو الحذاء الذي وجد بجانب المومياوات المكتشفة في اليمن.

واختلفت تسريحات الشعر بين نماذج الذكور والإناث، ففي التماثيل الأنثوية ذات النحت التكعيبي البدائي، عملت تركيبات مقصوصة على جانبي الرأس وحصل تطور في بعضها لتصبح التسريحة طبيعية وفي التماثيل ذات النحت المدور منها ما عمل الشعر على شكل إكليل مضفور أو أرسلت تسريحات الشعر للخلف كما في نماذج التماثيل الأنثوية البرونزية أو يصفف ويشد للخلف وقد يعمل على شكل طاقية بخصلات مضفورة مركزها وسط الرأس كما في نموذج تمثال معدي كرب والذي عملت له أيضاً لحية من خصل مجعدة مصفوفة أو قد يربط الشعر باستدارة في مقدمة الرأس وتترك خصلة صغيرة تتدلى للخلف ويمثل الشعر في مقدمة الرأس بخصل صغيرة مشدودة للخلف ثم يظهر على جانبي الرأس يتهدل إلى فوق الرقبة بهيئة خصلتين عريضة مضفورة بقصة سفلية أفقية.

أن أبدع ما أنتجه النحات اليمني القديم في تصفيف الشعر يبدو واضحاً في المنحوتات الأنثوية النصفية التي تحمل حزماً نباتية، فقد سرح الشعر المضفور المفروق من بداية الرأس إلى الجانبين من فوق الأذنين وبلغ تصفيف الشعر ذروته، على رأس فتاة المفروق شعرها من وسطه الممتد من القمة إلى نهايته في الخلف وقد سرح بهيئة خصل وضفر عند تهدله على الجانبين ليلتصق طرفه فوق الكتفين.

تميزت الأشكال الهندسية بأنها عملت على كتل حجرية كتصميمات هندسية محورة، تمثل مباني مقدسة بما فيها من أبواب ونوافذ وشبابيك واسعة وضيقة، تحيطها إطارات مستطيلة الشكل وعقود، مدببة مثلثة مقوسة ترتفع فوق الأبواب.

يرافق هذه العناصر المعمارية رموز دينية، إلى جانب أعمدة ومباخر متنوعة ومختلفة لها أشكال هندسية، والتي تظهر فيها دقة وبراعة النحات في تشكيلها وتنفيذها وإخراجها محافظاً على نسبها الهندسية وصقل مسطحاتها حتى وإن تكررت في أوجه الكتل الهندسية، إن النحات اليمني القديم قد اتبع في نحت نماذجه طرائق وأساليب خاصة به وقد تنوعت وتعددت تفاصيل النحت، ومع ذلك فإن للنحات اليمني أسلوباً متميزاً ومعبراً عن خصوصية الحضارة اليمنية القديمة.

الهوامش:

(1) يوسف محمد عبد الله – الصورة التاريخية لليمن القديم – مجلة الإكليل العدد (2) 1987 – ص45.

(2) با فقيه، محمد عبد القادر – تاريخ اليمن القديم – المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1985م – ص11

(3) muller, walter. W.Outline of the History of Southern Arabia – Yemen 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix. Munchen 1988. p.51

(4) يوسف محمد عبد الله – أوراق في تاريخ اليمن وآثاره (بحوث ومقالات) دار الشئون الثقافية، بغداد 1989 – ص9.

(5) جواد علي – تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني – مطبعة الفيض، بغداد 1951، ص 102.

(6) اوليري، دي لاسي – جزيرة العرب قبل البعثة – ترجمة وتعليق موسى

علي الفول – منشورات وزارة الثقافة بالمملكة الأردنية الهاشمية، عمان 1990م – ص108.

(7) الحموي، ياقوت – معجم البلدان – المجلد الثالث – بيروت، بيروت 1376هـ – 1957م، ص181.

(8) جواد علي – المصدر السابق – ص102.

(9) اوليري، دي لاسي – المصدر السابق – ص106.

راجع أيضاً: Muller, Walter. W.Op Cit, p.49

(10) هومل، فرتز – التاريخ العربي القديم – ترجمة فؤاد حسنين القاهرة 1958م – ص56.

(11) العمري، حسين عبد الله وآخرون – في صفة بلاد اليمن، دار الفكر المعاصرن بيروت – الطبعة الأولى 1990– ص12.

(12) با فقيه، محمد عبد القادر – المصدر السابق – ص25

(13) الهمداني، الحسن بن احمد – صفة جزيرة العرب – تحقيق، محمد علي الأكوع – مركز الدراسات والبحوث اليمني، الطبعة الثالثة 1983 – ص280.

(14) اوليري، دي لاسي – المصدر السابق – ص110.

(15) الحموي، ياقوت – معجم البلدان – المجلد الخامس – بيروت 1376هـ – 1957م، ص160.

حول معين والجوف راجع: العمري، حسين وآخرون – المصدر السابق – ص101–133

راجع أيضاً: يوسف محمد، عبد الله، أوراق تاريخ اليمن وآثاره – الجزء الثاني – صنعاء، 1985م ص36–37.

(16) Muller, Walter. W. Op. Cit. P.50

(17) با فقيه، محمد عبد القادر – المصدر السابق – ص27.

(18) Robin, Christian. La Civilisation De L'Arabie Meridionale Avant L'Islam. – L'Arabie du sud Histoire et Civilistion 1 Le Peuple Yemenite et rauines. Paris 1984. P.210

(19) الموسوعة اليمنية تأليف نخبة من المؤلفين، الجزء الثاني، مؤسسة العفيف الثقافية – بيروت 1992 ص754.

(20) الحموي، ياقوت – معجم البلدان – الجزاء الرابع – بيروت 1376هـ – 1957م، ص310.

(21) با فقيه، محمد عبد القادر – المصدر السابق – ص34.

(22) جواد علي – المصدر السابق – ص35.

(23) الموسوعة اليمنية – الجزء الثاني – ص757.

راجع أيضاً: Muller, Walter. W. Op. Cit. P.50

(24) با فقيه، محمد عبد القادر – المصدر السابق – ص23.

(25) يوسف محمد، عبد الله – (1987) – ص49. والملك كرب إل وتر هو نفسه الذي بعث بهدية إلى الملك الأشوري سنحاريب، حسب ما يذكر نقش بناء معبد بيت أكيتو في أشور حوالي 685 ق. م – راجع نفس المصدر.

(26) با فقيه، محمد عبد القادر – المصدر السابق – ص22.

(27) الموسوعة اليمنية – الجزء الأول – ص145.

(28) اوليري، دي لاسي – المصدر السابق – ص115.

(29) جواد علي – المصدر السابق – ص65.

(30) الهمداني، الحسن بن احمد – المصدر السابق – ص165.

(31) الحموي، ياقوت – معجم البلدان – المجلد الثاني، بيروت 1956 – ص270.

(32) الموسوعة اليمنية – الجزء الأول – ص405.

(33) با فقيه، محمد عبد القادر – المصدر السابق ص43–45.

(34) نقولا زيادة – دليل البحر الأرتري وتجارة الجزيرة العربية البحرية – دراسات تاريخ الجزيرة العربية. الكتاب الثاني – جامعة الملك سعود – الطبعة الأولى 1404هـ – 1984م – ص272.

(35) الموسوعة اليمنية – الجزء الأول – ص408.

(36) با فقيه، محمد عبد القادر – المصدر السابق – ص40.

(37) الموسوعة اليمنية – الجزء الأول – ص49.

(38) د. احمد با طايع – الموسوعة اليمنية – الجزء الأول – مؤسسة العفيف الثقافية، 2003م: 109، 110

(39) با فقيه، محمد عبد القادر – المستشرقون وآثار اليمن – مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1988، ص31، 32، 43.

يصعب حصر مضامين النقوش اليمنية القديمة وتصنيفها وفق موضوعات محددة فالمحتوى العام يدور حول مجالين، الحياة العامة والحياة الخاصة. ويكتنف ذلك إطار عام هو إطار الحياة الدينية. راجع المسألة الأثرية في اليمن – يوسف محمد عبد الله – أوراق في تاريخ اليمن وآثاره – دار الفكر المعاصر، الطبعة الثانية، 1990م – ص348 – 371.

(40) با فقيه، محمد عبد القادر – المستشرقون.. ص33.

(41) با فقيه، محمد عبد القادر – المستشرقون.. ص123، 129، 406.

(42) Phillips. Wendell Qataban and Sheba, London. 1955. P.P.163-170 , 178-179, 201-209.

راجع: وندل فيلبس: كنوز مدينة بلقيس، تعريب عمر الديراوي، الطبعة الثانية، دار نوبار للطباعة، الناشر دار الكلمة، صنعاء، ص127، 160، 161، 226.

(43) مجلة المسند، العدد الأول، المجلد الأول، السنة الأولى2001 – ص82–89

(44) راجع المسألة الأثرية في اليمن – يوسف محمد عبد الله – أوراق في تاريخ اليمن وآثاره – دار الفكر المعاصر، الطبعة الثانية، 1990م – ص348 – 371.

قائمة المراجع

1. muller, walter. W.Outline of the History of Southern Arabia – Yemen 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix. Munchen 1988.
2. Phillips. Wendell Qataban and Sheba, London. 1955.
3. Robin, Christian. La Civilisation De L'Arabie Meridionale Avant L'Islam. – L'Arabie du sud Histoire et Civilistion 1 Le Peuple Yemenite et rauines. Paris 1984.
4. اوليري، دي لاسي – جزيرة العرب قبل البعثة – ترجمة وتعليق موسى علي الفول – منشورات وزارة الثقافة بالمملكة الأردنية الهاشمية، عمان 1990م .
5. با فقيه، محمد عبد القادر – المستشرقون وآثار اليمن ، جزئين– مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1988.
6. با فقيه، محمد عبد القادر – تاريخ اليمن القديم– المؤسسة

العربية للدراسات والنشر بيروت 1985م

7 جواد علي – تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني – مطبعة التفيض، بغداد 1951 – 1952.

8. الحموي، ياقوت – معجم البلدان – بيروت 1376هـ – 1957م.

9 العمري، حسين عبد الله وآخرون – في صفة بلاد اليمن، دار الفكر المعاصرن بيروت – الطبعة الأولى 1990.

10. مجلة المسند، العدد الأول، المجلد الأول، السنة الأولى2001 – ص82–89

11. الموسوعة اليمنية تأليف نخبة من المؤلفين، جزءان، مؤسسة العفيف الثقافية – بيروت 1992.

12. نقولا زيادة – دليل البحر الأرتري وتجارة الجزيرة العربية البحرية – دراسات تاريخ الجزيرة العربية. الكتاب الثاني – جامعة الملك سعود – الطبعة الأولى 1404هـ – 1984م.

13. الهمداني، الحسن بن احمد – صفة جزيرة العرب – تحقيق، محمد علي الأكوع – مركز الدراسات والبحوث اليمني، الطبعة الثالثة 1983.

14. هومل، فرتز – التاريخ العربي القديم – ترجمة فؤاد حسنين القاهرة 1958م.

15. وندل فيلبس: كنوز مدينة بلقيس، تعريب عمر الديراوي، الطبعة الثانية، دار نوبار للطباعة، الناشر دار الكلمة، صنعاء.

16. يوسف محمد عبد الله – أوراق في تاريخ اليمن وآثاره (بحوث ومقالات) دار الشئون الثقافية، بغداد 1989 – الطبعة الثانية، دار الفكر المعاصر، 1990.

17. يوسف محمد عبد الله – الصورة التاريخية لليمن القديم – مجلة الإكليل العدد (2)،1987م.

18. اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة د. بدر الدين عرودكي، مراجعة د. يوسف محمد عبد الله، معهد العالم العربي، باريس ودار الأهالي، دمشق، (الطبعة العربية) 1999.

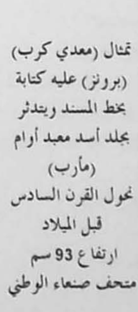


لوحة نذرية نصفية لمرأة (مرمر) يحتمل أنها رمز للآلهة الشمس، الجوبة (مأرب)
القرن الأول قبل الميلاد
ارتفاع 53 سم × عرض 34 سم
متحف صنعاء الوطني



تمثال (برأت) (برونز) وقاعدة (حجر جيري) على
واجهتها كتابة نذرية بخط المسند
تمنع (هجر كحلان)، القرن الثاني قبل الميلاد
ارتفاع التمثال 52 سم
متحف عدن





تمثال (معدي كرب)
(برونز) عليه كتابة
بخط المسند ويتدثر
بجلد أسد معبد أوام
(مأرب)
نحول القرن السادس
قبل الميلاد
ارتفاع 93 سم
متحف صنعاء الوطني



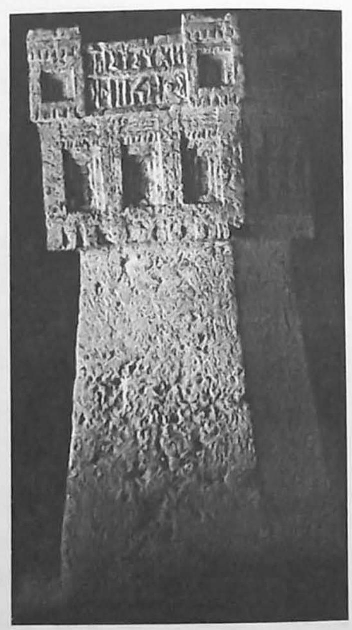
لوح متعبد بنحت بارز
(رخام) باسم (بعث
إلعسمم) يعلوه إفريز
لثلاثة رؤوس ثور. من
الجوبة (مأرب)
القرن الأول قبل الميلاد
ارتفاع 44 سم × 27 سم
متحف صنعاء الوطني



رأس فتاه برقبة طويلة (رخام) وعيون مطعمة
هجر كحلان – القرن الأول قبل الميلاد
ارتفاع 21.6سم وسمك 12سم
ميونخ، المتحف الوطني



لوحة نذرية (رخام) عليها نقش مسند يحيطه أفاريز جانبية قوامها أشكال حيوان الوعل رابضاً متجهاً للداخل، وفي الجزء العلوي رؤوس الثور يعلوها زخرفة هندسية.
مأرب ، معبد برأن ، القرن الخامس قبل الميلاد
ارتفاع 110سم × عرض 65 سم
متحف صنعاء الوطني



مبخرة طويلة (حجر كلسي) ريبون حضرموت عليها كتابة نذرية بخط المسند وزخرفة هندسية القرن الأول قبل الميلاد
ارتفاع 1.5 م × عرض 24سم
متحف سيئون



مائدة قرابين يتقدمها رأسي ثور (حجر جيري) مأرب، معبد برأن القرن الأول الميلادي
الطول 36.5 سم × العرض 84 سم
متحف مأرب

المسجد والمدرسة الإسلامية
الفروق الإنشائية (رؤية جديدة)

د. عبد الرحمن حسن جار الله*

المقدمة:

إن مناقشة الفرق بين المسجد والمدرسة الإنشائية والوظيفية تعتبر من الموضوعات الهامة في مجال العمارة الإسلامية التي لم تأخذ حقها من المناقشة والبحث، وإنما كانت ترد ضمن بحوث تناولت نشأة المدرسة الإسلامية وتطورها، في إطار مميزات المدرسة المعمارية التي تميزها عن المنشآت الأخرى خاصة المسجد في أي قطر من أقطار العالم الإسلامي كل علي حدة ، مثل مصر واليمن وسوريا وغيرها.

وقد انحصرت تلك المميزات في وجود إيوان التدريس والمساكن، ومن المؤسف أن هذا الرأي أخذ به الباحثون على أنه نظرية مسلم بها لا يمكن الخوض فيها أو مناقشتها، وطبقت في كل الأبحاث التي تناولت نشأة وتطور المدرسة من الناحية الإنشائية والوظيفية.

لذلك جاء تناولي لهذا الموضوع بناءً علي خاصية من أهم الخصائص العامة للفن الإسلامي، وهي عروبة وعالمية الحضارة الإسلامية، التي بناء عليها يمكن القول إن المكونات المعمارية الأساسية للمدرسة الإسلامية في أي قطر إسلامي لا تختلف عن مثيلاتها في بقية الأقطار الإسلامية لارتباطها بوحدة العقيدة الإسلامية، على الرغم من وجود طُرَزٍ محلية لها سماتها العامة التي تميز بها الفن الإسلامي.

من المعروف أن الدرس والتدريس نشأ بنشأة الإسلام، وقد استخدمت المساجد للتدريس منذ العهد الأول[1]، فكان هناك حلقات الدراسة في المساجد منذ نشأتها واستمرت كذلك على مر السنين والقرون وفي مختلف البلاد الإسلامية دون انقطاع[2].

لذلك نجد المساجد قد قامت بدورها العلمي منذ القرن الأول الهجري، إلى جانب دورها كأماكن للعبادة

* أستاذ العمارة الإسلامية المساعد بقسم الآثار – جامعة صنعاء.

ومراكز تدار منها شئون الدولة[3]، ومع مرور الزمن زاد إقبال الناس على حلقات العلم، فزادت حلقات الدرس، كما ترتب على تقدم العلوم وتقدم المعارف وجود مواد تستدعي دراستها كثيراً من الحوار والنقاش والجدل كعلم الكلام وعلم الجدل والمناظرة، مما أفسد هدوء المسجد والجَلال الذي يجب أن يكون عليه حتى يتمكن المصلي من الخشوع أثناء تأدية الصلاة[4].

ونتيجة لذلك جاءت الحاجة إلى بناء منشأة تعليمية متخصصة تقوم بهذه الوظيفة عرفت بالمدرسة، وأصبحت في أوائل القرن الخامس الهجري (11م) مؤسسات تعليمية على مستوى عال هدفها التفقيه في الدين حسب المذاهب السنية والتبحر في العلم ونشر الإسلام، وتسهم في إنشائها الدول الإسلامية[5].

لقد تعرض الكثير من العلماء والباحثين لنشأة المدارس وعرجوا على الفرق بينها وبين المسجد من ناحية التكوين المعماري في العالم الإسلامي، وهناك عدة آراء حول هذا الموضوع، تذهب في مجملها إلى أن الفرق بين المدرسة والمسجد يكمن في أن المدرسة تتميز بوجود المساكن وإيوان التدريس، وتعيين المدرسين فيها يكون من قبل صاحب المنشأة[6].

ولكن الفرق بين هاتين المنشأتين يكتنفهُ بعض الغموض لأن هناك ترابطاً بين المصطلحين يتضح من خلاله أن هناك هدفاً مشتركاً بين إنشاء المسجد والمدرسة، يتمثل في التطلع إلى حسن الأجر والثواب، ومن الناحية المعمارية فإن المدرسة قد روعي في تخطيطها أن تكون مقاربة في هندستها وصورتها للمسجد[7]، لذلك نجد أن كلا المنشأتين تشترك في كثير من الوحدات المعمارية مثل رواق القبلة وإيوان التدريس وسكن الطلاب وعملية التدريس والصرف على الطلاب من أموال الوقف.

وأتفق مع تلك الآراء في كون الإيوان والمساكن من أبرز وأهم مرافق أغلب المدارس، ولكن هذا لا يمنع من وجود الإيوان في المساجد، وهذا ما نجده في كثير من المساجد اليمنية التي تحتوي على إيوان للتدريس يقوم بنفس الوظيفة التي يقوم بها في المدرسة، إلى جانب وحدات المسجد الأخرى، ومثال ذلك الجامع الكبير بمدينة ثلا، ومسجد السيد بمدينة ذي السفال[8] (شكل 1،2)، جامع الهادي، جامع صبيح، مسجد الشيبان، ومسجد النزاري بمدينة صعدة، جامع محمد بن الهادي بمدينة ثلا (شكل 4،3،5،6، مكرر).

بل يمكن القول أن طراز تخطيط الأواوين المتعامدة الذي يعتبره الباحثون من سمات تخطيط المدارس في العصر المملوكي، نجده قد استخدم في المنشآت التي أطلق عليها بنص الإنشاء " جامع" أو" مسجد" مثل منشآت جاني بيك الأشرفي 830هـ، وقجماس الإسحاقي بالقاهرة، مسجد آل ملك الجو كندار 719هـ/1319م، مسجد أحمد المهمندار 725هـ/1324م (شكل 7،8،9)، جمال الدين يوسف الأستدار[9]، جامع جوهر شاه الكبير في مشهد[10]، الجامع الكبير بالموصل (543هـ/1148م)، المسجد الجامع في يزد (725هـ/1324م)، ومسجد قوة الإسلام بالقرب من دلهي (590هـ/1193م)، كما نجد الجامع الكبير بمدينة حيس قد جاء تخطيطه أشبه بتخطيط المدرسة الإيوانية وإن كان إنشاؤه في الأصل مسجدا أو مدرسة حسبما ورد في النص التأسيسي للمنشأة، ويشبه في تخطيطه المدرسة القاسمية بماردين، والنورية بدمشق 567هـ/1172م، مدرسة كوموشتكين في بصرى 530هـ/1136م، المدرسة الظاهرية بحلب 616هـ/1219م[11]، (شكل 10،11).

وهذا يعني أن هذا التخطيط سار جنباً إلى جنب مع التخطيط المتعارف عليه بالجوامع ذوات الأربعة أروقة، وبالمقابل فإن هذا التخطيط المرتبط بالجوامع نجده قد استخدم في تخطيط مدرسة نصر الدين بمدينة فوه بمحافظة كفر الشيخ في مصر[12]، والمدرسة الأسدية بمدينة إب، بل نجد أن مسجد لاجين السيفي 857هـ من المساجد القليلة النادرة التي بنيت في العصر المملوكي على غرار المساجد

ذات الأروقة بدلاً من الإيوانات[13] وهناك مثل آخر يجمع في تخطيطه بين نظام الأروقة والإيوانات المتعامدة يتمثل في المسجد الجامع بأصفهان (شكل 14،15)، ومسجد بيبي خانوم في سمرقند[14]، وهذا يدل على مدى التداخل بين المنشأتين[15].

أما المساكن فهي من المرافق المهمة والأساسية في كثير من المدارس، ولكن لا يمكن الاعتماد على وجودها كعامل اساسي للتفريق بين المنشأتين إذا توجد مدارس في اليمن لا تحتوي على مساكن للطلبة مثل المدرسة الفخرية والمدرسة الياقوتية ومدرسة مدية، ومدرسة الزيادة، ومدرسة عماد الدين بمدينة ذي السفال[16] (16،17،18،19)، مدرسة الهتاري المدرسة الإسكندرية، مدرسة المعجار بمدينة حيس، المدرسة الدعاسية، المدرسة المنصورية العليا، مدرسة المزجاجي بمدينة زبيد، المدرسة المنصورية بجبن، المدرسة المعتبية بتعز، الأسدية في إب[17](شكل 20،21،22،23،24،25،26)، وعلى العكس لدينا جوامع منها مساكن ومن أمثلتها الجامع الأزهر، جامع المؤيد شيخ بالقاهرة[18]، والأمثلة على ذلك في اليمن كثيرة من اهمها الجامع الكبير بمدينة ذي السفال[19]،جامع الهادي بمدينة صعدة (2،27)، وقد ترتب على ذلك وجود أموال موقوفة على هذه الجوامع للصرف على الفقهاء والمهاجرين والطلبة، ونستدل على ذلك من خلال ما جاء في وقفية علي بن محمد بن المنصور بن المتوكل الذي أوقف أموالاً كثيرة للصرف على الطلبة والمهاجرين بالجامع الكبير بذي السفال مؤرخة بسنة 1184هـ[20].

وبناءً على ما سبق فإنني أرى أن الفرق بين المدرسة والمسجد لا يكمن في وجود المساكن أو الإيوان من عدمها، بل في الآتي:

1- الغرض الذي أنشئت من أجله المنشأة، ويتضح ذلك من خلال النص التأسيسي، وذلك لوجود علاقة بين النص التأسيسي والتخطيط المعماري الذي يترتب عليه تحديد الوظيفة سواءً كانت مسجداً أم مدرسة[21].

2- متطلبات المنشئ لها علاقة كبيرة بتحديد شكل تخطيط المنشأة ونوعية الوحدات المعمارية بها[22]، لذلك نجد أن بناء المدارس والمساجد كان يتم تحت إشراف دقيق من اهل العلم فهم أعرف بما يريدونهُ ويحتاجونهُ في منشآتهم، وكان المهندس يوائم بين متطلبات رجال العلم وبين الموقع ويستغل ذلك أحسن استغلال[23]، وكان المنشئ يكلف أحد الثقاة من تابعيه بالإشراف على عملية البناء، وكان هؤلاء المشرفون عادةً من ذوي الخبرة والقدرة على إنجاز العمل، فقد كان العمل يتطلب جهداً كبيراً، كما أنهُ كان يستمر لسنوات عديدة[24]، ومثال ذلك ما ورد في الوقفية الغسانية قيام جهة الطواشي الأجل افتخار الدين ياقوت الظاهري بإسناد الإشراف على إنشاء المدرسة الياقوتية بمدينة ذي السفال إلى جمال الدين محمد بن أبي السرور البريهي[25].

3- الطراز المعماري السائد في المنشآت العامة الإسلامية[26]، ومثال ذلك وجود مدارس بنيت على طراز تخطيط المساجد والعكس بالنسبة للمدارس.

4- تحدد وثيقة الوقف عادة وظيفة المنشأة بما تتظمنه من وصف وثائقي دقيق للمنشأة، وتبين شكل تخطيط ووظيفة كل الوحدات المعمارية للمنشأة، مما يساعد على الاستغلال السليم للوحدات. كما أن الإشارة إلى من يتم تعيينهم بالمنشأة من موظفين وما يقرر لهم من مرتبات يبين لنا الوظيفة الأساسية التي تؤديها وحدات المنشأة المعمارية بغض النظر عن تخطيط المبنى ذاته[27].

ونتوصل من خلال ذلك إلى أنه ليس هناك فرق كبير بين المسجد والمدرسة من الناحية المعمارية، بل على العكس هناك نوع من التشبه والتقارب والتداخل سواءً من الناحية المعمارية أم من ناحية الوظيفة، إذ نجد أن المدرسة في العصر المملوكي بمصر كانت تؤدي وظيفة المسجد أو المسجد الجامع، فقد عين بهذه المدارس من يقوم بأداء شعائر الصلاة، ويعين خطيب يخطب بالناس أيام الجمع[28]، ومثال ذلك المدرسة الزمامية (سنة 797هـ)التي بناها

الأمير زمام الدين مقبل الرومي"جعل فيها درساً وصوفية ومنبراً يخطب عليه كل جمعه"[29].

كما أن هناك عناصر تأثير وتأثر بين المدرسة والمسجد من الناحية المعمارية، ويلاحظ وجود هذه الظاهرة في اليمن، مثل تأثير عمارة المدرسة الرسولية على جامع أحمد بن علوان بمدينة يفرس (920 –923 هـ/1515-1517م) من حيث تخطيط رواق القبلة الذي على هيئة قبة مركزية كبيرة يكتنفها جناحان بكل جناح أربع قباب صغيرة[30]، كما نجده قد أثر على تخطيط رواق القبلة بالجامع الكبير بمدينة ذي السفال، وكان أول ظهور هذا النوع من التخطيط في اليمن بشكل عام في الجامع المظفر(666هـ/1267م) بمدينة تعز(شكل27، 28، 29، 30)، ولكن هذا التأثير كان بشكل محدود، إذ نجد أن تأثير عمارة المسجد على عمارة المدرسة بشكل أكبر وواضح في اليمن ونلاحظ ذلك في مدارس مدينة ذي السفال،فقد تأثر تخطيطها بالتخطيط الشائع وجوده في أغلب المساجد اليمنية التي تتكون من رواق قبلة وفناء مكشوف ودورات مياه، ومن أمثلة ذلك المدرسة الفخرية ومدرسة علقمة والمدرسة الياقوتية، مدرسة عماد الدين، مدرسة الزيادة بمدينة ذي السفال[31]، المدرسة الياقوتية بجيس وبزبيد (شكل16، 17، 18، 19، 31)، كما نجده في مدارس الإمام شرف الدين في كل من صنعاء، كوكبان، السود، ذمار، ثلا. ولا ينحصر وجود هذه الأمثلة على اليمن بل نجدها خارج اليمن منها على سبيل المثال المدرسة البندقدارية 682هـ/1284م، المدرسة الطيبرسية 709هـ/1309م[32] (شكل32، 33)، كما أن بعض الوحدات والعناصر المعمارية قد انتقلت من الجوامع والمساجد إلى عمارة المدارس مثل المئذنة التي كانت من الوحدات الأساسية بالمساجد الجامعة نجدها ضمن الوحدات المعمارية المكونة للمدرسة، الأمثلة على ذلك كثيرة سواءً في اليمن أو في بقية أنحاء العالم الإسلامي. مثل مدرسة السلطان حسن بالقاهرة[33]، مدرسة طاش في أقشهر بتركيا 648هـ/1250م[34] المدرسة الأشرفية بتعز[35] (شكل34، 28).

وفي الأخير يمكن القول أنه تحت تأثير هذا التداخل الوظائفي بين المسجد والمدرسة، والتشابه بينهما من ناحية التخطيط المعماري وجدت مصطلحات تجمع بين الاثنين هي " الجامع المدرسة"،" المسجد المدرسة"،" المدرسة المسجد" أطلق كل منها على منشأة واحدة ومن أمثلة ذلك المدرسة التي أنشأها السلطان الناصر حسن بن قولون بالقاهرة[36]، مدرسة ومسجد حاجي قليج بقيصرية 647هـ/1249م[37]، مدرسة ومسجد سنجر الجاولي[38]، وجامع المدرسة التي أنشأها الإمام شرف الدين بمدينة صنعاء، جامع حيس الكبير الذي ورد في نصه التأسيسي" بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا المدرسة المظفرية والمسجد مولانا السلطان المظفر يوسف..."، وأيضاً مسجد المدرسة الياقوتية بمدينة حيس، مسجد مدرسة ابن الديبع بمدينة زبيد[39] (شكل35، 36، 37).

الهوامش

1. كانت الدروس منتشرة في المساجد الجامعة في الحجاز والشام والعراق ومصر والقيروان وقرطبة وغيرها، أحمد فكري (د)، مساجد القاهرة ومدارسها، ج2، العصر الأيوبي، دار المعارف، ص145، 144. زكي محمد حسن (د)، فنون الإسلام، دار الرائد العربي، ص23. حسن الباشا (د)، مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، ص127. حسين مؤنس (د)، المساجد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 37، سنة 1401هـ/1981م، ص37، 34.
2. أحمد شلبي (د)، تاريخ التربية الإسلامية، ج4، مكتبة النهضة العربية 1966م، ص102.
3. فاروق أحمد حيدر (د)، التعليم في اليمن في عهد بني رسول، رسالة دكتوراه، مخطوط، جامعة عين شمس، كلية التربية، ص103. عبدا لرحمن الشجاع(د)، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة،

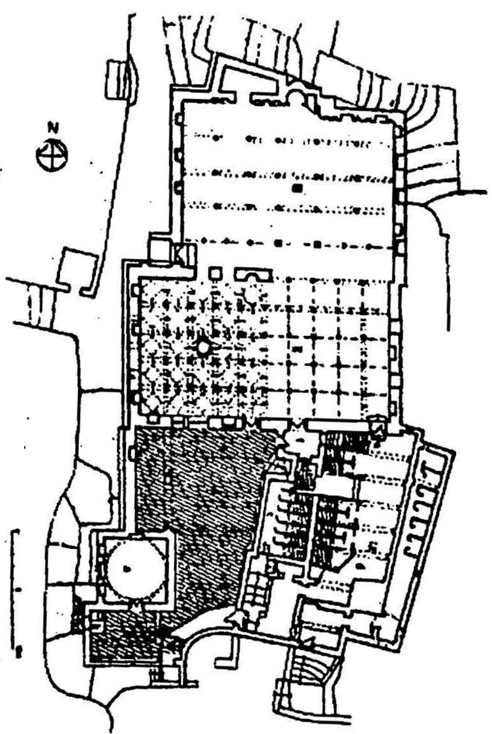
رسالة دكتوراه، مخطوط، جامعة الأزهر كلية اللغة العربية، قسم التاريخ 1406هـ/1986م، ص70، محمد السروري(د)، مظاهر الحضارة في الدول المستقلة في اليمن، رسالة دكتوراه، مخطوط، القاهرة كلية الآداب، قسم التاريخ 1990م، ص221.

4. احمد شلبي(د)، المرجع السابق، ص113.
5. حسن الباشا(د)، دراسة جديدة في نشأة الطراز المعماري للمدرسة المصرية ذات التخطيط المتعامد، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد الثالث 1989م، ص43.
6. احمد فكري(د)، المرجع السابق، ص155–160. حسن الباشا(د)، المرجع السابق ص56. مصطفى شيحة (د)، دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية، كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، أعدها للنشر عبد العظيم رمضان(د)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م، ص413،414. احمد شلبي (د) المرجع السابق، ص102. عفاف صبره(د)، المدارس في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1403هـ/1983م، ص11. آمال العمري(د)، علي الطايش (د)، العمارة في مصر الإسلامية (العصر الفاطمي والأيوبي) مكتبة الصفاء والمروة 1996م، ص105. أيمن فؤاد سيد (د)، المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، كتاب ندوة تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، أعدها للنشر د.عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992م، ص99. مصطفى شيحة (د)، دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية، كتاب ندوة تاريخ المدارس، ص412.
7. سعيد عبد الفتاح عاشور(د)، بين المسجد والمدرسة، كتاب ندوة تاريخ المدارس، ص27.
8. عبد الرحمن جار الله(د)، عمائر مدينة ثلا الدينية باليمن خلال العصر الإسلامي حتى نهاية العصر العثماني، دراسة أثرية حضارية، رسالة ماجستير، مخطوط جامعة القاهرة كلية الآثار 1994م، ص109، Lucingo Lvin, Thula Architecture et Urbanisme dune cite de haute montagne en Requique Arabe du Yemen,p7,8 . عبد الرحمن جار الله(د) عمائر مدينة ذي السفال الدينية باليمن حتى العصر العثماني، دراسة أثرية معمارية، رسالة دكتوراه، مخطوط، جامعة جنوب الوادي، كلية الآداب، قسم الآثار، 2000م ص66.
9. محمد حمزة الحداد(د)، بحوث ودراسات، ص212،211،210.
10. John d Hoag, Islamic Architecture, History of World Architecture, copyright 1975 by Electa Edit,p 95.
11. أو قطاي آصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، مطبعة رنكلر استانبول 1407هـ/1987م، ص174،204،205،231. عبد الله الحداد (د) مدينة حيس اليمنية تاريخها وآثارها الدينية، دار الآفاق العربية القاهرة 1999م، ص117،118.
12. سعاد ماهر (د)، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مطابع الأهرام التجارية 1980م، جـ4، ص146.
13. سعاد ماهر (د)، المرجع السابق، جـ1، ص174.
14. John d Hoag, Op Cit,p131.
15. محمد عبدالستار عثمان(د)، نظرية التوظيف، ص223،224.
16. عبد الرحمن جار الله(د)، عمائر مدينة ذي السفال الدينية باليمن، ص98–103، 104–109، 111–121.
17. عبد الله الحداد(د)، مدينة حيس، ص.
18. محمد عبد الستار عثمان(د)، المرجع السابق، ص283.
19. عبد الرحمن جار الله(د)، عمائر مدينة ذي السفال الدينية باليمن، ص46.
20. انظر نص الوثيقة المنشورة لدى، عبد الرحمن جار الله(د)، المرجع السابق، ص363.
21. محمد حمزة الحداد(د)، العلاقة بين النص التأسيسي والوظيفة والتخطيط المعماري للمدرسة في العصر المملوكي، كتاب ندوة تاريخ المدارس، ص247.
22. حسين نويصر(د)، عوامل مؤثرة في تخطيط المدرسة المملوكية، كتاب تاريخ ندوة المدارس، ص247.
23. محمد عبد الستار عثمان(د)، المرجع السابق، ص51.
24. محمد عبد الستار عثمان(د)، المرجع السابق، ص92.
25. عبد الرحمن جار الله(د)، المرجع السابق، ص113.
26. حسن الباشا(د)، المرجع السابق، ص56.
27. محمد عبد الستار عثمان(د)، المرجع السابق، ص101.
28. محمد عبد الستار عثمان(د)، المرجع السابق، ص112.
29. عاشور(د) المرجع السابق، ص16.
30. عبد الرحمن جار الله(د)، المرجع السابق، ص56.
31. عبد الرحمن جار الله(د)، المرجع نفسه، ص98–103، 104–109، 111–121، 123–131، 132–135.
32. محمد حمزة الحداد(د) بحوث ودراسات، ص208.
33. Richard B Parker, Islamic Monuments In Cairo, The American Univ In Cairo, press 1985,p66,177,202.
34. أو قطاي آصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستنبول، الطبعة العربية الأولى 1407هـ/1987م، ص105.
35. مصطفى شيحة (د) مدخل إلى العمارة الإسلامية، ص92.
36. عاشور(د)، المرجع السابق، ص33.
37. أوقطاي، المرجع السابق، ص85.
38. Grahum Jahn, Islamic Cairo 876-1857, An introduction to Islamic Cairo UIA, internationalArchitect,p45.
39. عبد الله الحداد(د)، المرجع السابق، ص117،118.

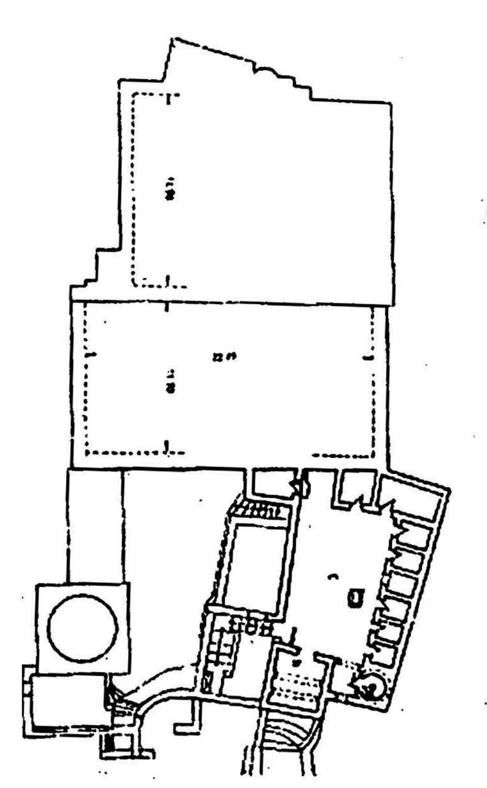
قائمة المراجع

- إبراهيم احمد المطاع (د)، جامع الإمام الهادي إلى الحق والمنشآت المعمارية الملحقة به دراسة أثرية معمارية مقارنة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة جنوب الوادي، كلية الآداب، قنا 1421 هـ/2000م.
- احمد شلبي (د)، تاريخ التربية الإسلامية، ج4، مكتبة النهضة العربية 1966م، ص102.
- أمال العمري (د)، علي الطايش (د)، العمارة في مصر الإسلامية (العصر الفاطمي والأيوبي) مكتبة الصفاء والمروة 1966م.

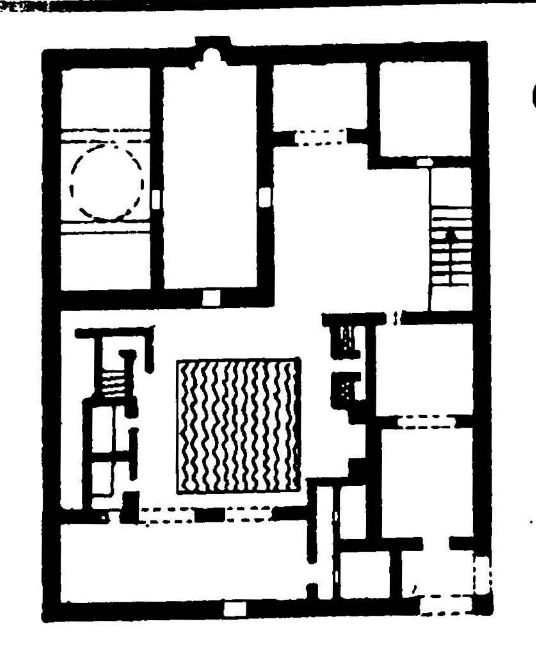
- اوقطاي آصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة احمد عيس،مركز الأبحاث للتاريخ والفنون و الثقافة الإسلامية باستنبول، الطبعة العربية الأولى 1407 هـ/187.
- أيمن فؤاد سيد(د)، المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، كتاب ندوة تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، أعدها للنشر د. عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992م.
- حسن الباشا(د)، دارسة جديدة في نشاة الطراز المعماري للمدرسة المصرية ذات التخطيط المتعامد، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العداد الثالث 1989م.
- حسن الباشا(د)، مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة.
- حسني نويصر(د)، عومل مؤثرة في تخطيط المدرسة المملوكية،كتاب تاريخ لدوة المدارس.
- حسين مؤنس(د)، المساجد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد37، سنة 1401هـ/1981م.
- زكي محمد حسن (د)، فنون الإسلام،دار الرائد العربي، ص23. حسن الباشا(د)، مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة.
- سعاد ماهر(د)، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، وزارة الأرقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، جـ4، مطابع الأهرام التجارية 1980م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور(د)، بين المسجد والمدرسة، كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، أعدها للنشر عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.
- عبد الرحمن جار الله (د)، عمائر مدينة ثلا الدينية باليمن خلال العصر الإسلامي حتى نهاية العصر العثماني، دراسة أثرية حضارية، رسالة ماجستير، مخطوط، جامعة القاهرة كلية الآثار 1994م.
- عبد الرحمن جار الله (د)، عمائر مدينة ذي السفال الدينية باليمن خلال العصر الإسلامي حتى نهاية العصر العثماني، دراسة أثرية حضارية، رسالة ماجستير، مخطوط، جامعة جنوب الوادي كلية الآداب، قسم آثار 2000م.
- عبد الرحمن الشجاع (د)، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة، رسالة دكتوراه، مخطوط، جامعة الأزهر كلية اللغة العربية، قسم التاريخ 1406هـ/1986م.
- عبد الله الحداد(د) مدينة حيس اليمنية تاريخها وآثارها الدينية، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1419هـ/1999م.
- عفاف صبرة (د)، المدارس في العصر الأيوبي، كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، أعدها للنشر عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.
- فاروق احمد حيدر، التعليم في اليمن في عهد بني رسول، رسالة دكتوراه، مخطوط، جامعة عين شمس، كلية التربية.
- محمد السروري (د)، مظاهر الحضارة في الدول المستقلة في اليمن، رسالة دكتوراه، مخطوط، القاهرة كلية الآداب قسم التاريخ 1990م.
- محمد عبد الستار عثمان (د)، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، رسالة دكتوراه، جامعة أسيوط، 1979م.
- محمد حمزة الحداد(د)، العلاقة بين النص التأسيسي والوظيفة والتخطيط المعماري للمدرسة في العصر المملوكي، كتاب ندوة تاريخ المدارس.
- محمد حمزة الحداد(د) بحوث ودراسات.
- مصطفى شيحة (د)، دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية اليمنية، كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، أعدها للنشر عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.
- John d Hoag, Islamic Architecture, History of World Arhitecture, copyright1975 byElecta Edit
- Richard B parkar, Islamic Monuments In Cairo, The Amrican Univ In Cario, press1985
- Lucin Golvin, Thula Architecture et Urbanisme d une cite haute montabne en Republque Arabe du Yemen
- Grahum Jahn, Islamic Cairo876- 1857, An introdduction to Islamic Caairo, UIA, international Architect



شكل (1) أ- مسقط أفقي للجامع الكبير بمدينة ثلا والاضافات التي أدخلت عليه. (عن Golivn)

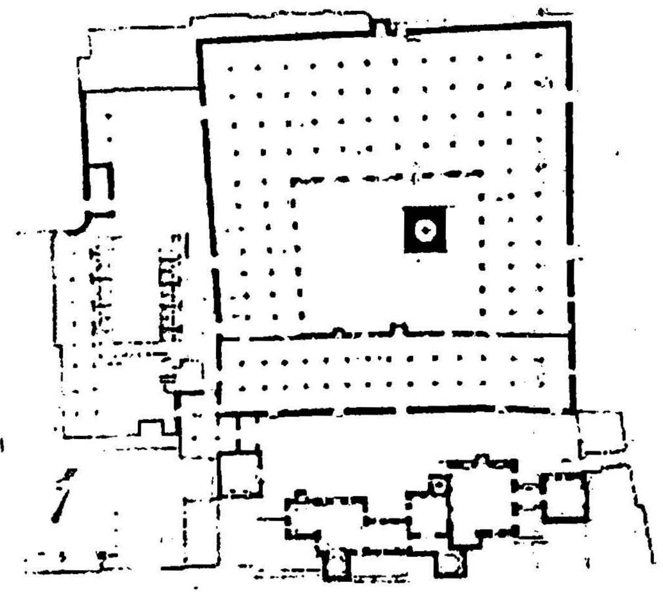


شكل (1) ب- مسقط أفقي للجامع الكبير بمدينة ثلا فيه حجرات السكن. (عن Golivn)

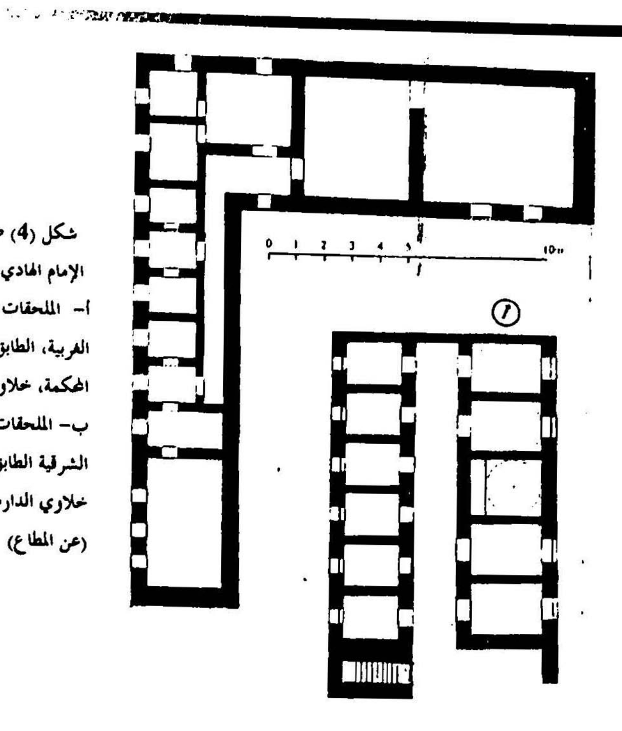


شكل (2) مسقط أفقي
لمسجد السيد بمدينة ذي
السفال. (عمل الباحث)

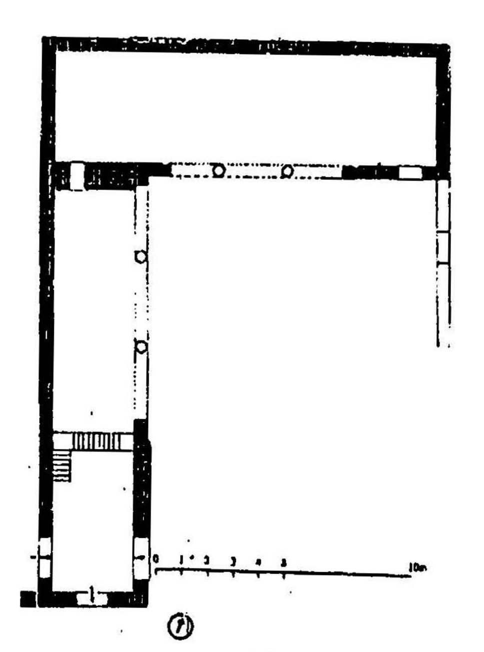




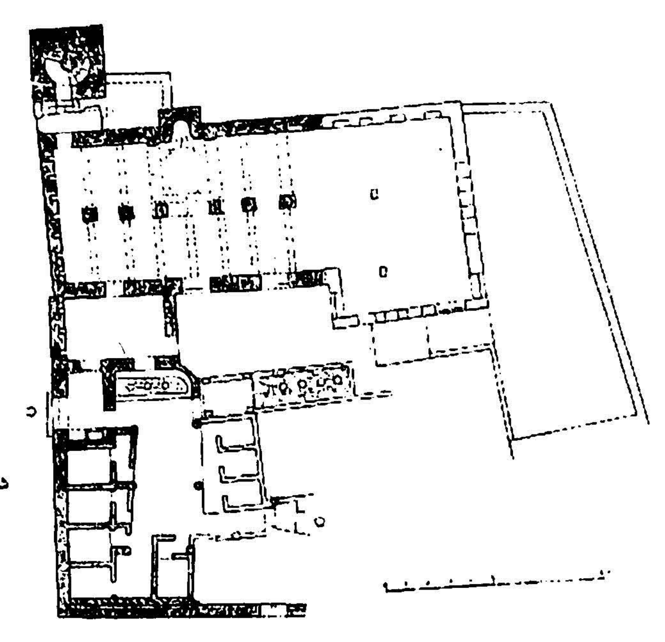
شكل (3) صعدة، جامع
الإمام الهادي، مسقط أفقي.
(عن The Italian
Archaeological
Activities)



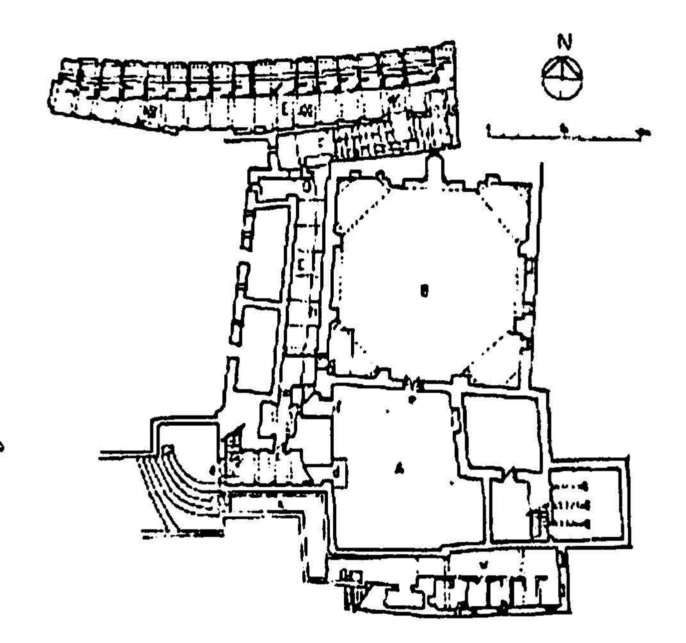
شكل (4) صعدة، جامع الإمام الهادي. مسقط أفقي
أ- الملحقات الشمالية الغربية، الطابق الأعلى المحكمة، خلاوي الطلبة.
ب- الملحقات الجنوبية الشرقية الطابق الأعلى، خلاوي الدارسين.
(عن المطاع)



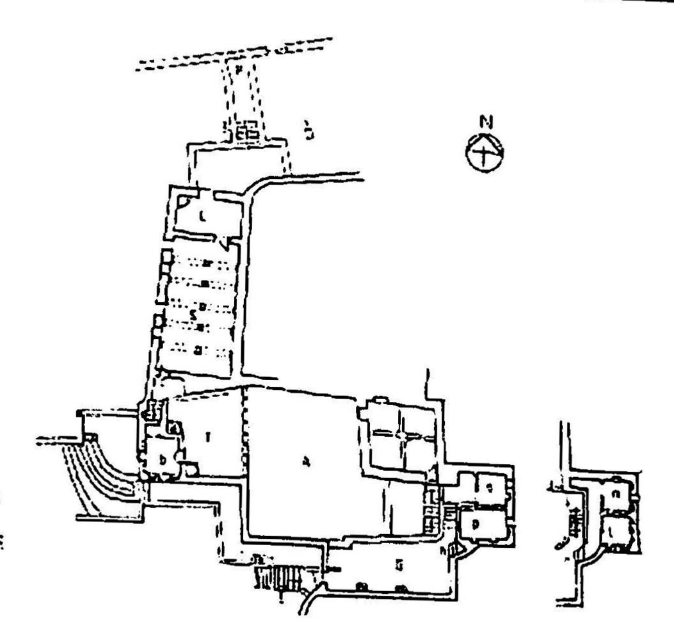
شكل (5) صعدة، جامع الإمام الهادي. مسقط أفقي الملحقات الشمالية الغربية، الطابق الأرضي، المدخل الغربي، خزانة الكتب.
(عن المطاع)



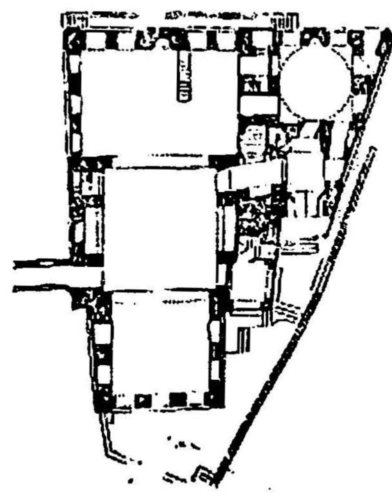
شكل (6) صعدة، مسجد الزاري. مسقط أفقي (عن المطاع)



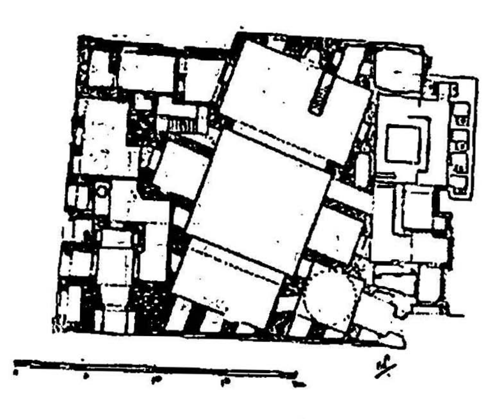
شكل (6 مكرر) أ- مسقط أفقي لمسجد قبة الهادي بمدينة ثلا (عن Golivn)



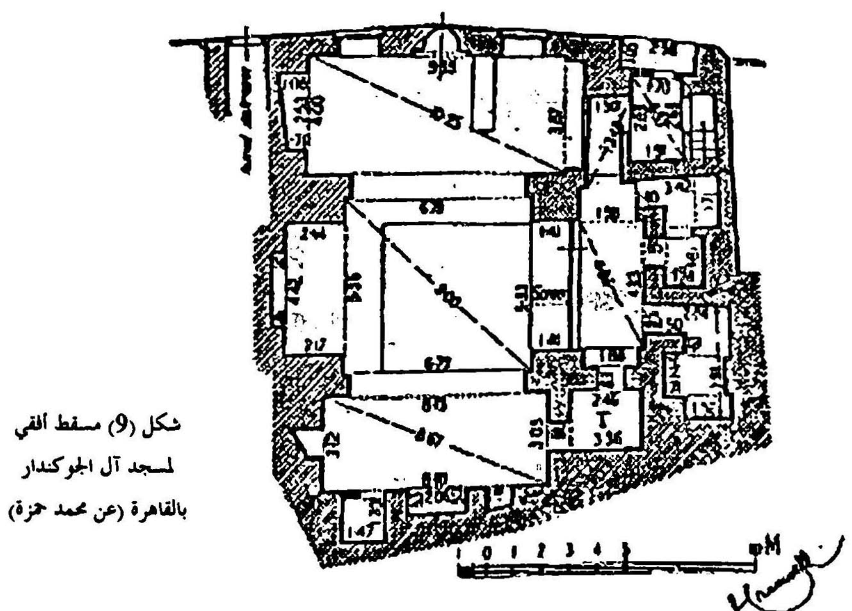
شكل (6 مكرر) ب- مسقط أفقي لحجرات السكن بمسجد قبة الهادي بمدينة ثلا (عن Golivn)



شكل (8) مسقط أفقي لجامع قجماس الاسحاقي بالقاهرة (عن محمد حمزة)

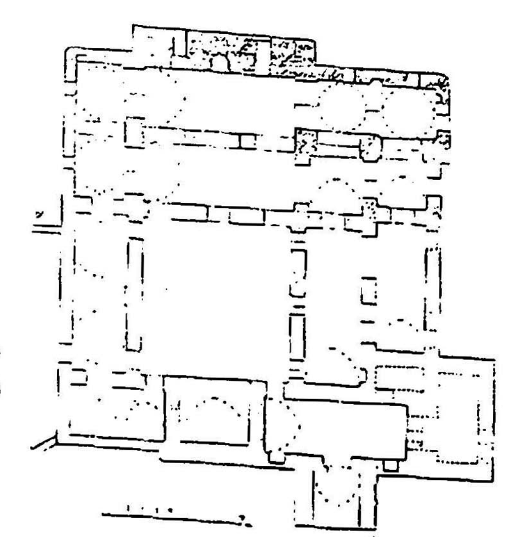


شكل (7) مسقط أفقي لجامع جاني بك بالقاهرة (عن محمد حمزة)

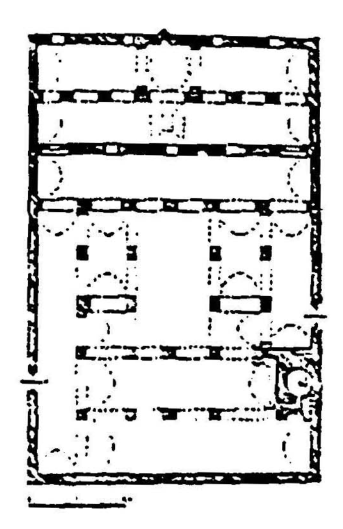


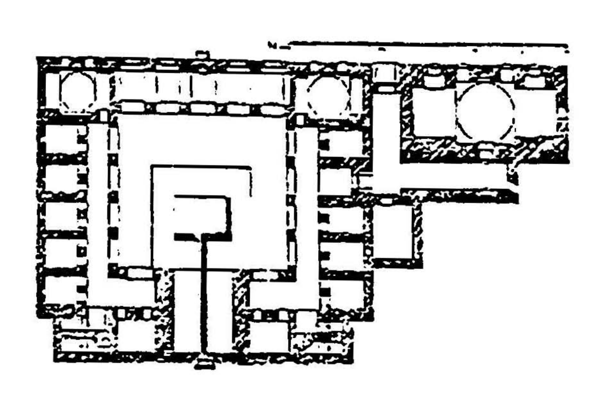
شكل (9) مسقط أفقي
لمسجد آل الجوكندار
بالقاهرة (عن محمد حمزة)

شكل (10) مسقط أفقي
لمسجد أحمد المهمندار
بالقاهرة (عن محمد حمزة)



شكل (10) حيس، الجامع الكبير، المسقط الأفقي كما وضعته بريارا فنستر



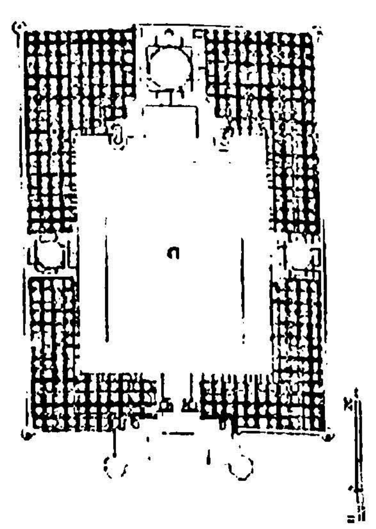


شكل (11) ماردين، المدرسة القاسمية، المسقط الأفقي

(عن بريارا فنستر)

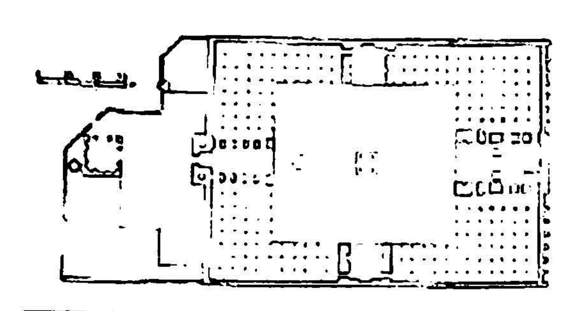
شكل (12) خربوط، الجامع الكبير، المسقط الأفقي

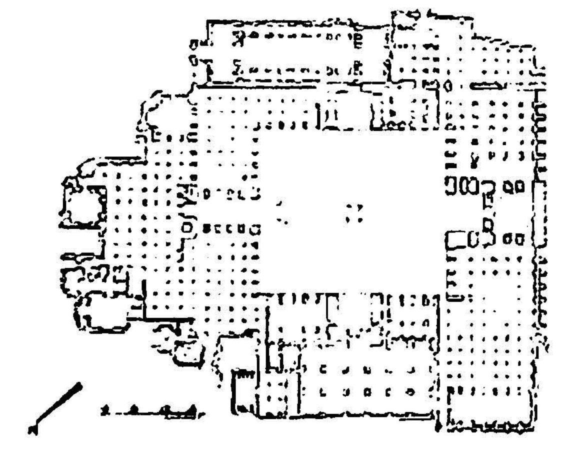
(عن بريارا فنستر)



شكل (13) مسجد بي خانوم في سمرقند

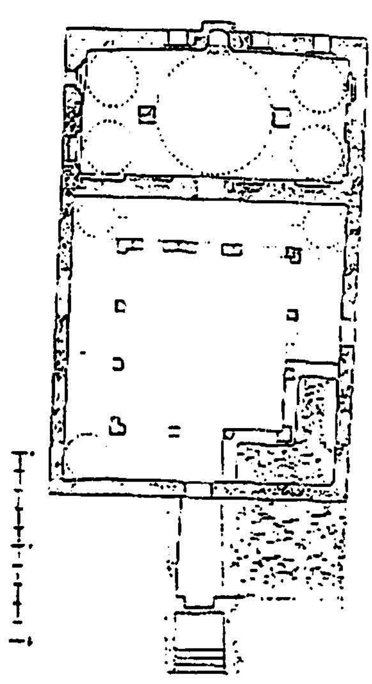
(عن Hoag)





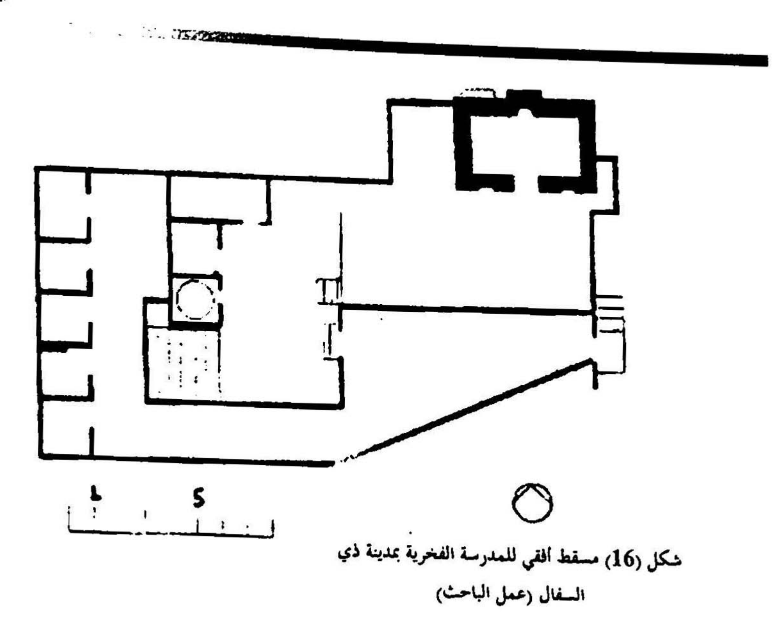
شكل (14) المسجد الجامع باصفهان

(عن Hoag)

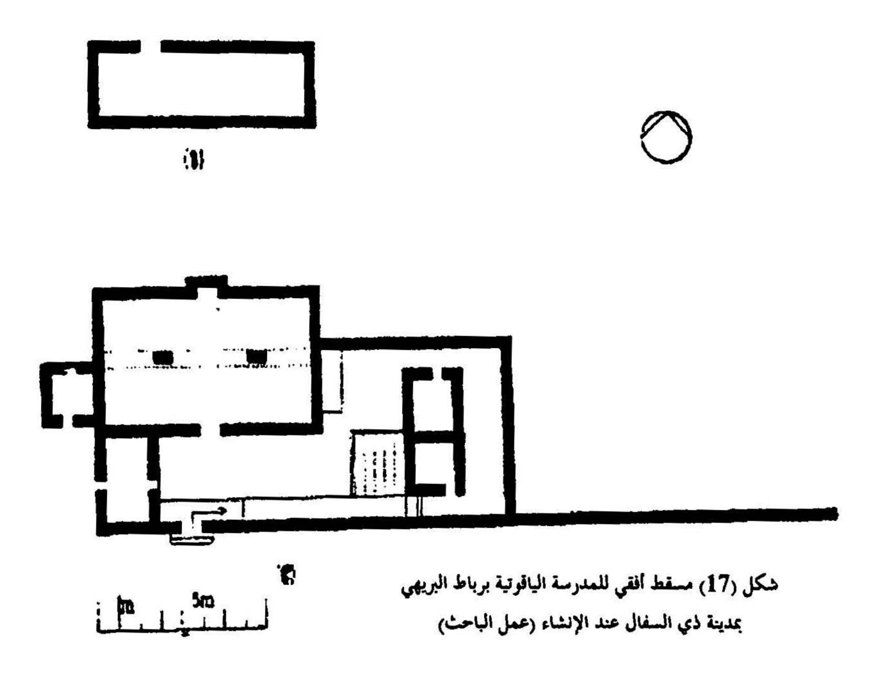


شكل (15) إب، المدرسة الأسدية، المسقط الأفقي

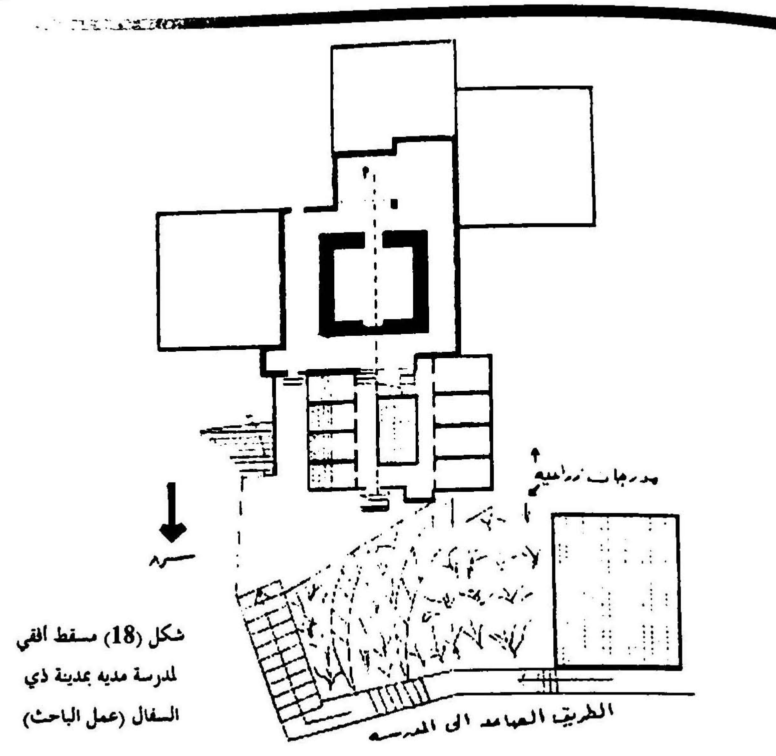
(عن بريارا فنستر)



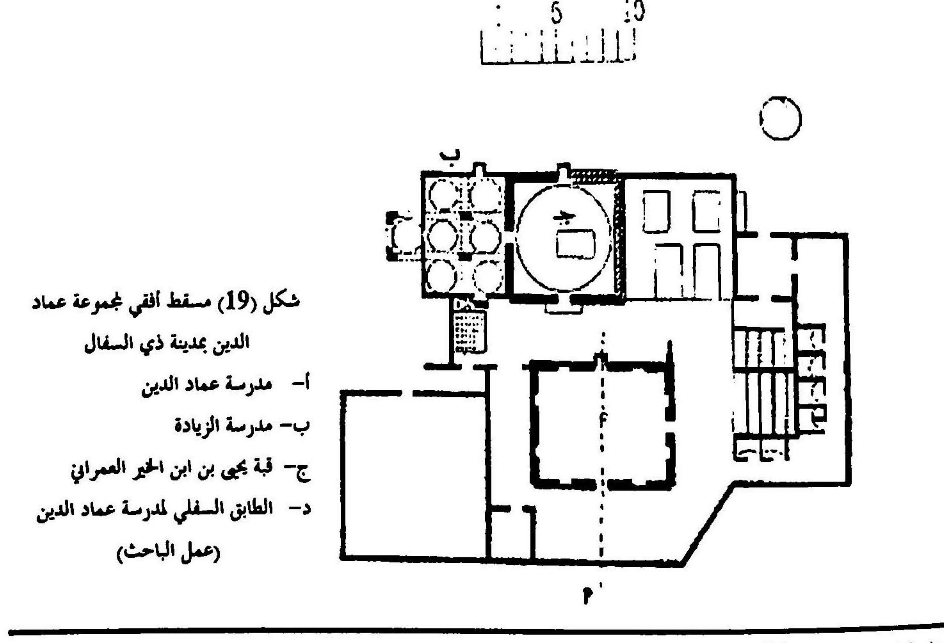
شكل (16) مسقط أفقي للمدرسة الفخرية بمدينة ذي السفال (عمل الباحث)



شكل (17) مسقط أفقي للمدرسة الياقوتية برباط البريهي بمدينة ذي السفال عند الإنشاء (عمل الباحث)



شكل (18) مسقط افقي لمدرسة مديه بمدينة ذي السفال (عمل الباحث)



شكل (19) مسقط أفقي لمجموعة عماد الدين بمدينة ذي السفال

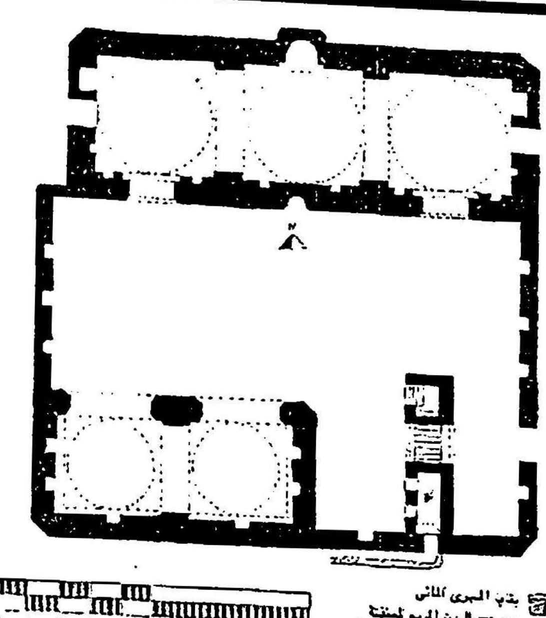
أ- مدرسة عماد الدين

ب- مدرسة الزيادة

ج- قبة يحيى بن ابن الخير العمراني

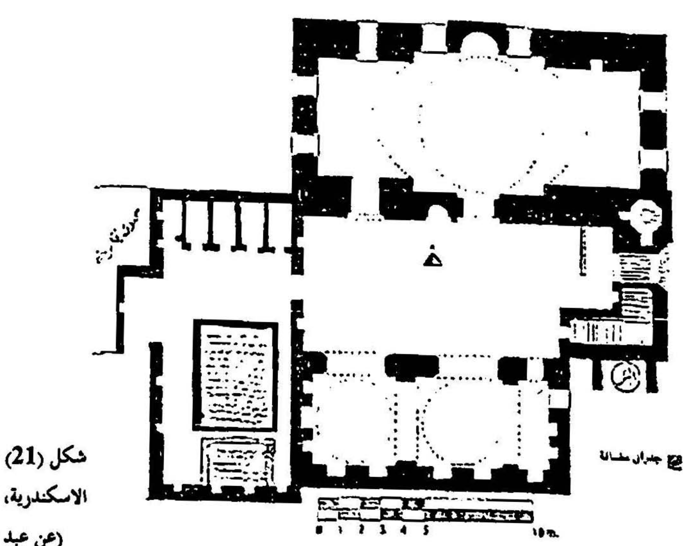
د- الطابق السفلي لمدرسة عماد الدين

(عمل الباحث)

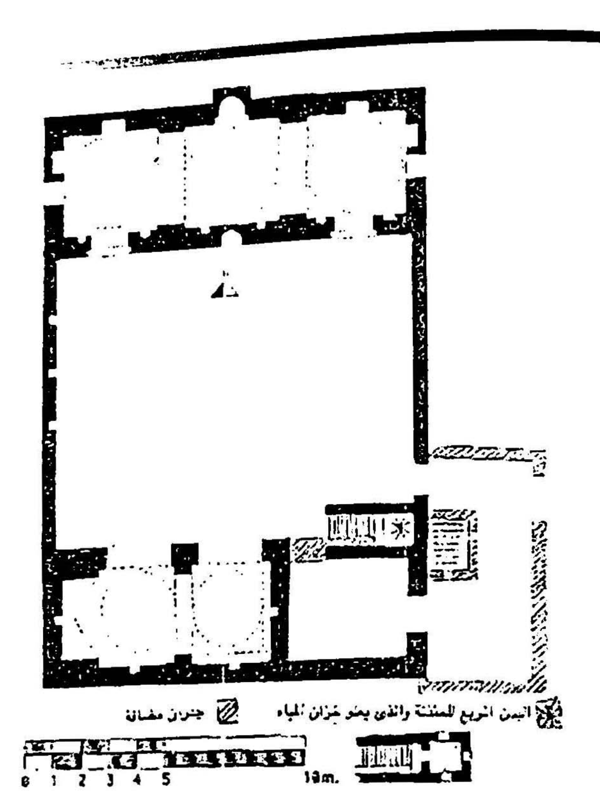




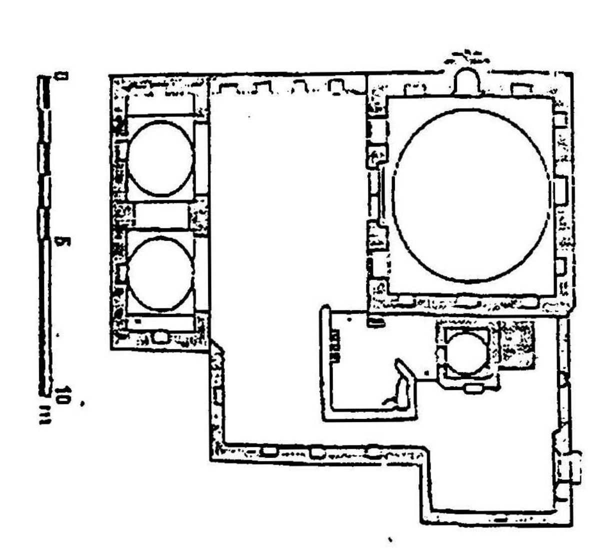
شكل (20) حيس، مدرسة المتاري، المسقط الأفقي (عن عبد الله الحداد)



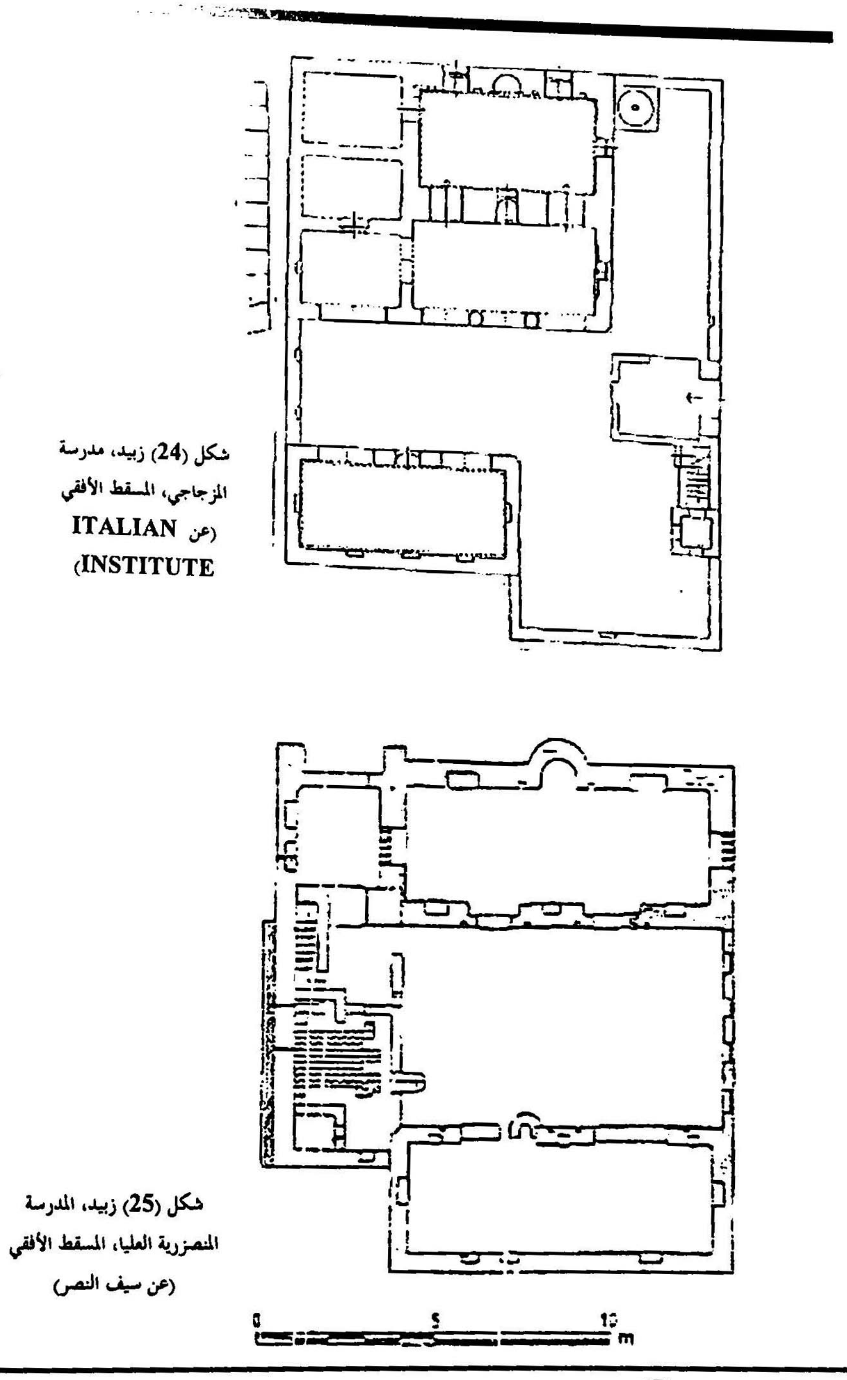
شكل (21) حيس، مدرسة الاسكندرية، المسقط الأفقي (عن عبد الله الحداد)



شكل (22) حيس، مدرسة المعجار، المسقط الأفقي (عن عبد الله الحداد)

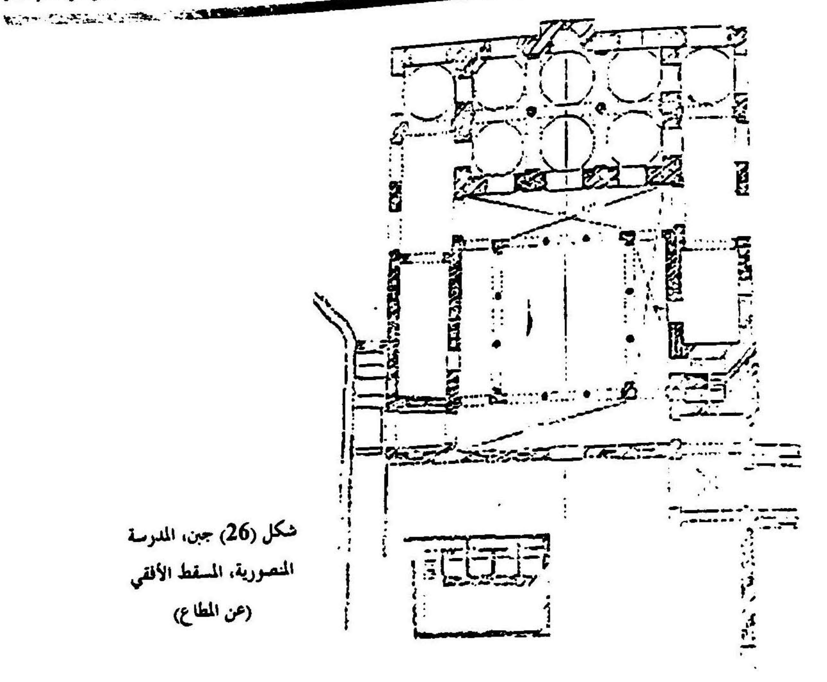


شكل (23) زبيد، المدرسة الدعاسية، المسقط الأفقي (عن نمى صادق)

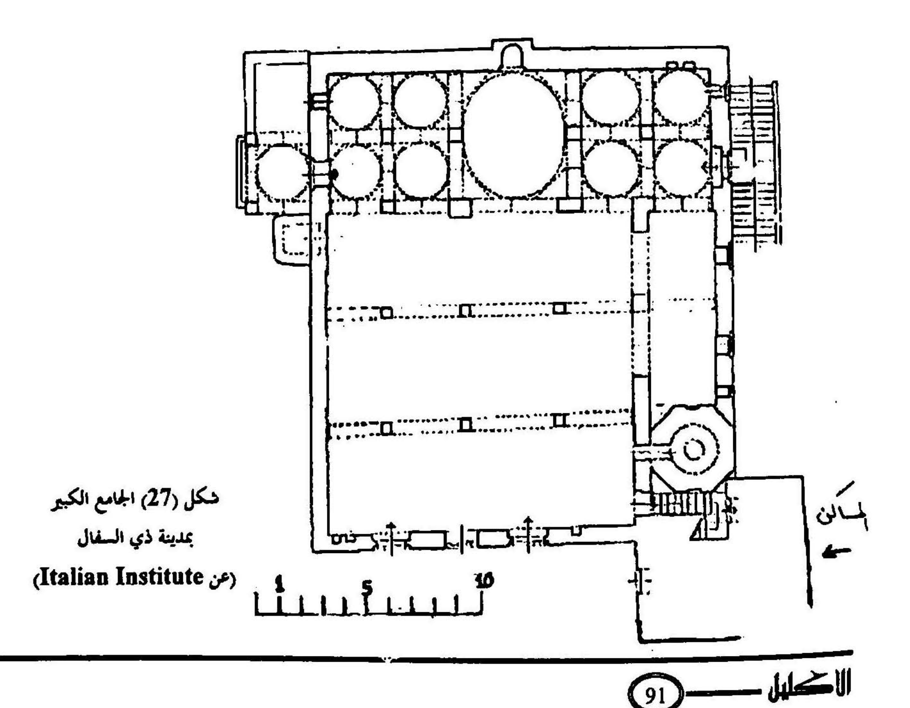


شكل (24) زبيد، مدرسة المزجاجي، المسقط الأفقي (عن ITALIAN INSTITUTE)

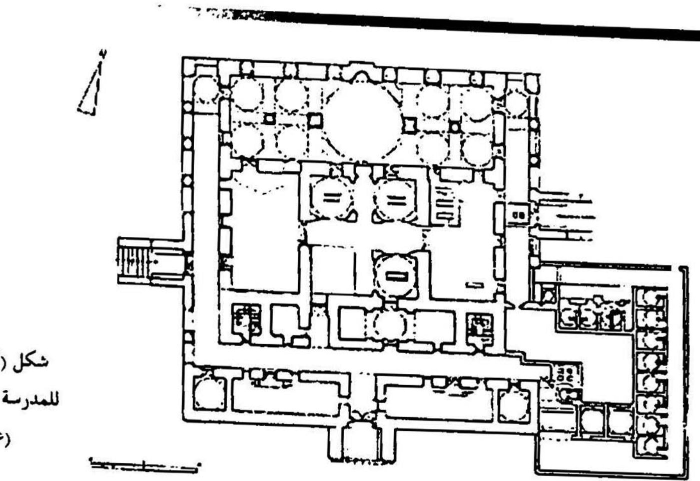
شكل (25) زبيد، المدرسة المنصورية العليا، المسقط الأفقي (عن سيف النصر)



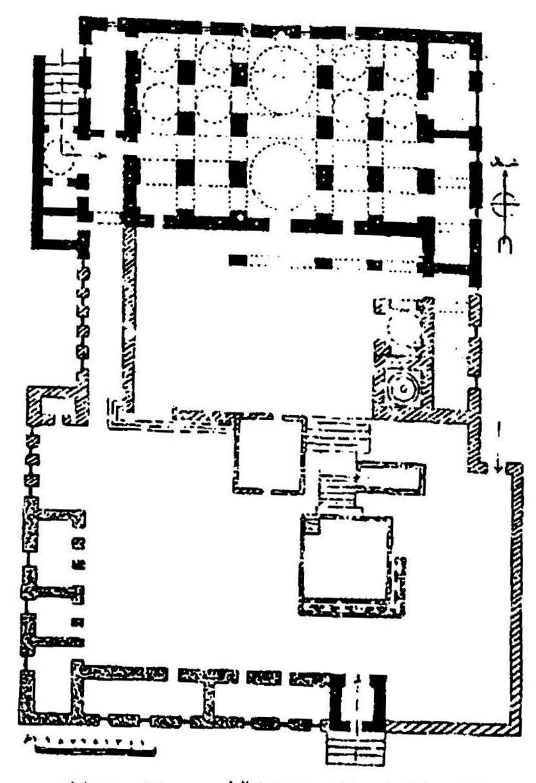
شكل (26) جبن، المدرسة المنصورية، المسقط الأفقي (عن المطاع)



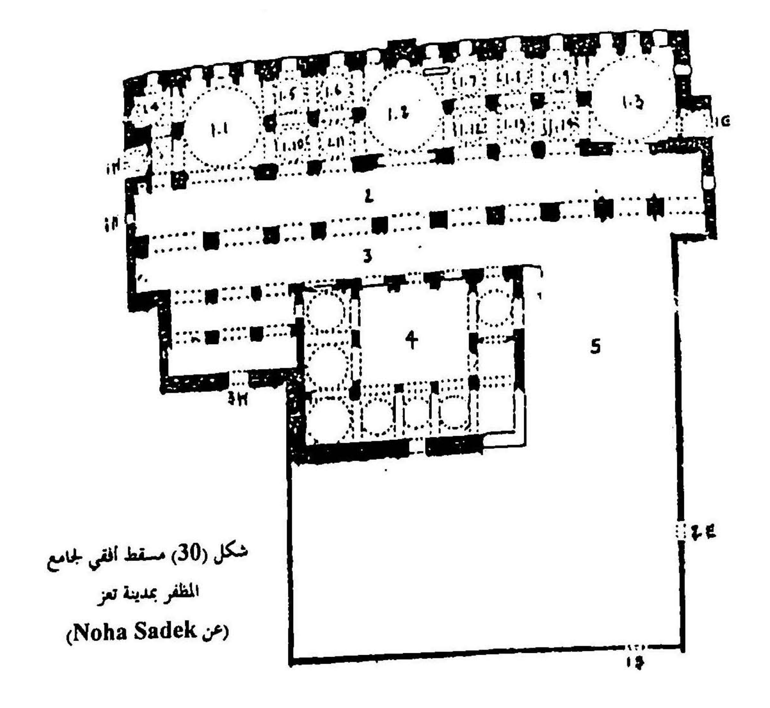
شكل (27) الجامع الكبير بمدينة ذي السفال (عن Italian Institute)



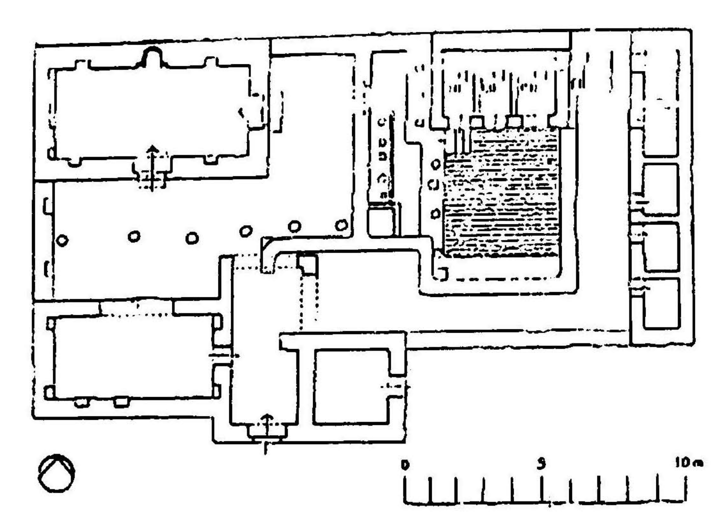
شكل (28) مسقط أفقي
للمدرسة الأشرفية بمدينة تعز
(عن الأكوع)



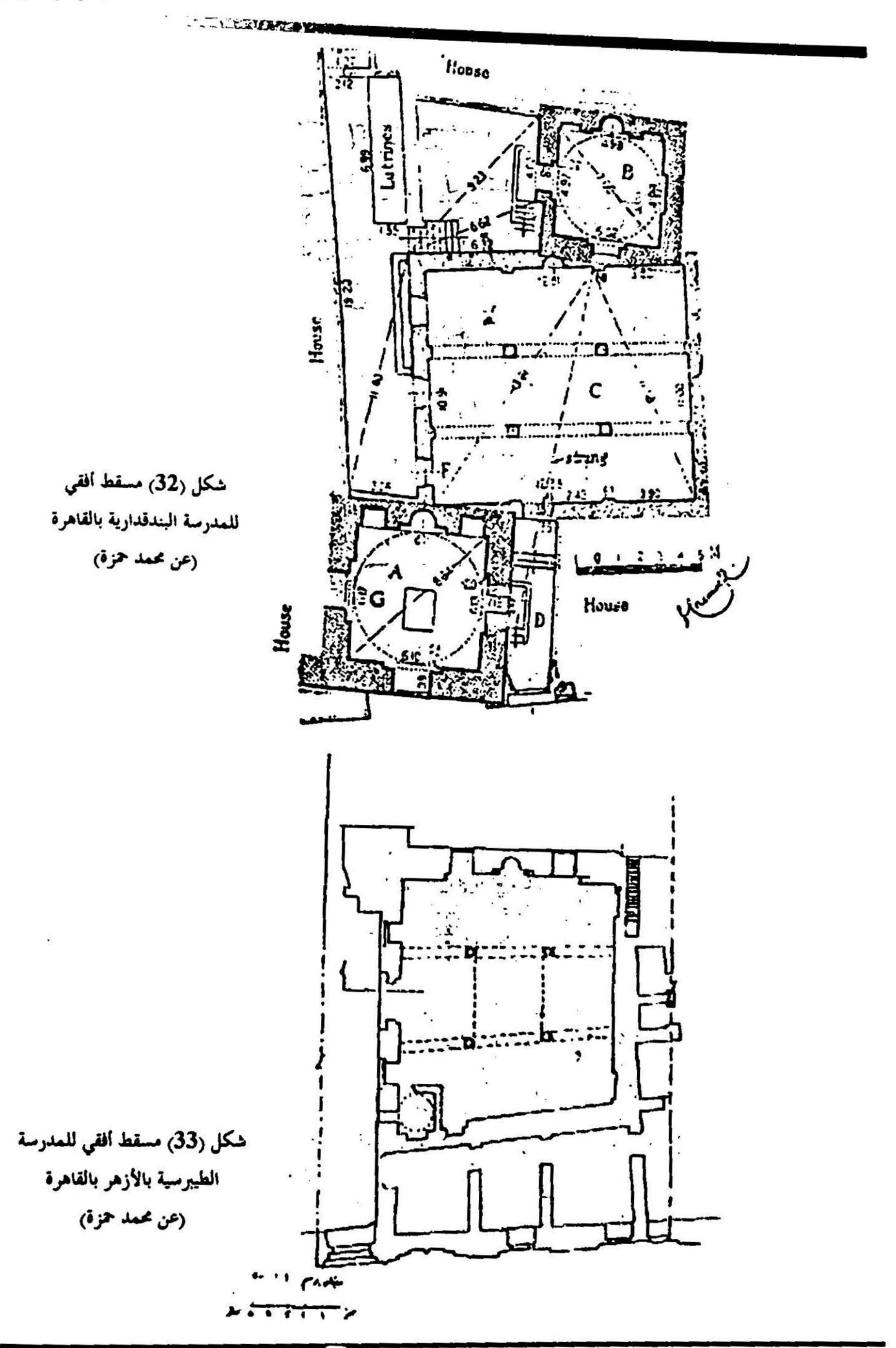
شكل (29) مسقط أفقي لجامع
أحمد بن علوان بيفرس
(عن د. ربيع خليفة)



شكل (30) مسقط أفقي لجامع
المظفر بمدينة تعز
(عن Noha Sadek)

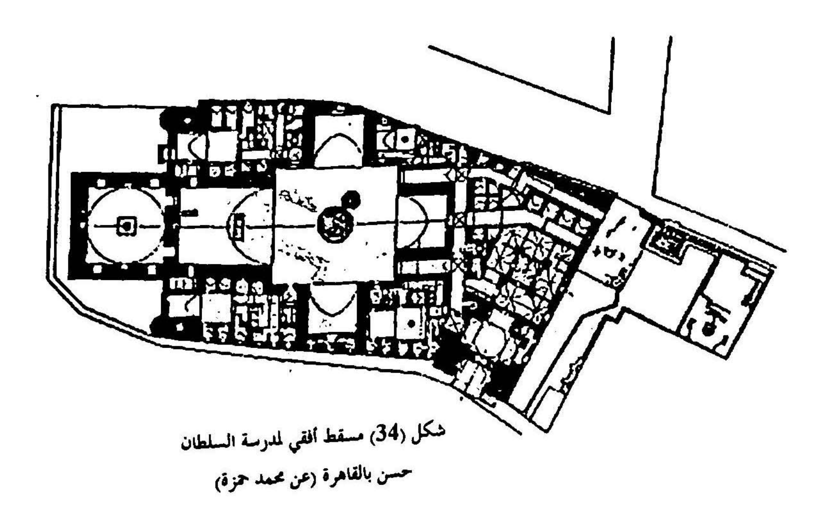


شكل (31) مسقط أفقي لمدرسة علقمه بمدينة
ذي السفال (عن Noha Sadek)

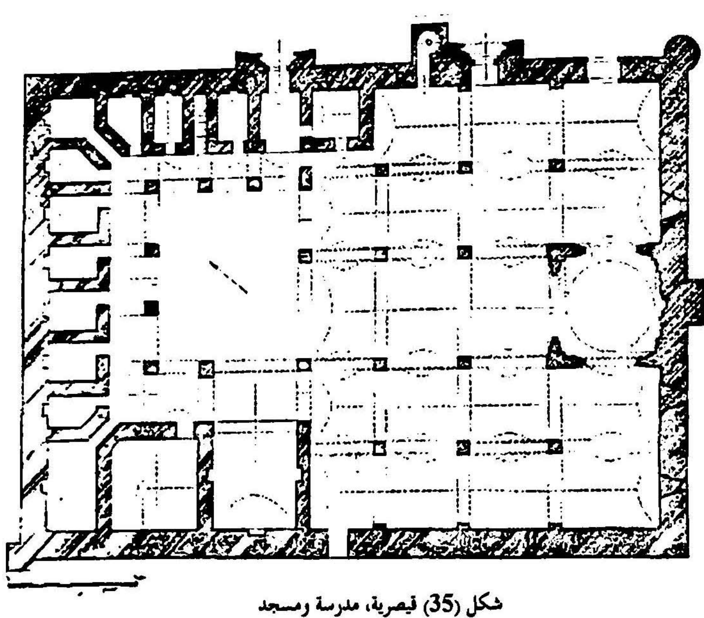


شكل (32) مسقط أفقي
للمدرسة البندقدارية بالقاهرة
(عن محمد حمزة)

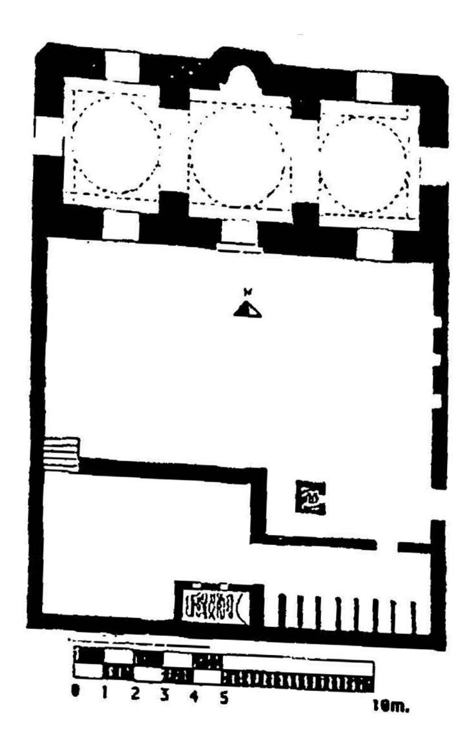
شكل (33) مسقط أفقي للمدرسة
الطيبرسية بالأزهر بالقاهرة
(عن محمد حمزة)



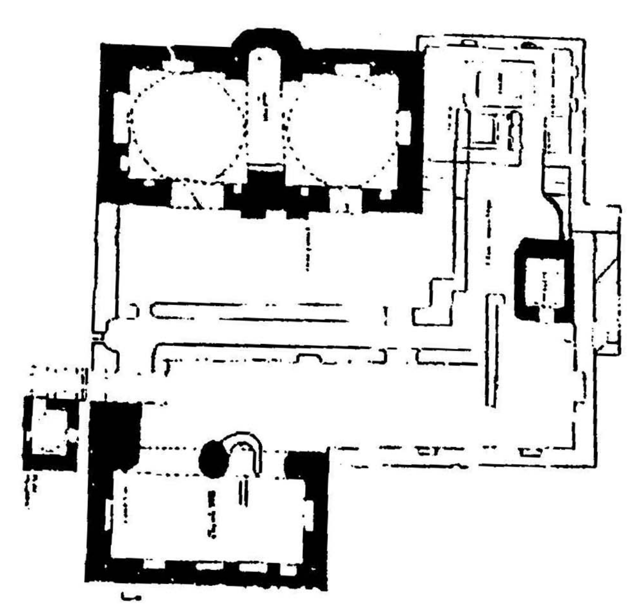
شكل (34) مسقط أفقي لمدرسة السلطان
حسن بالقاهرة (عن محمد حمزة)



شكل (35) قيصرية، مدرسة ومسجد
حاجي قليج (عن اصلان آبا)



شكل (36) مسقط للمدرسة الياقوتية بمدينة حيس (عن عبد الله الحداد)



شكل (37) زبيد، مسجد ومدرسة ابن الديبع، المسقط الأفقي (عن TEIMAMAH)

أثيوبيا وحمير

في القرنين الخامس والسادس الميلاديين

(الحلقة الثالثة والأخيرة)

بيجو ليفسكايا. ن. ف

ترجمة: قائد محمد طربوش *

إثيوبيا واليمن بعد الحرب الكوشية – الحميرية الثانية

إن استعادة أثيوبيا سيطرتها على الجهة الأخرى من مضيق باب المندب كان يجب أن يؤدي إلى تعزيز النفوذ البيزنطي في اليمن، والحقيقة أنه لم تخرج أثيوبيا وحمير عن حقل نظر بيزنطة على مدى عشرات السنين، حيث كانتا واحدة من نقاط ارتكاز سياستها في الشرق الأوسط.

لقد أرسل جستنيان في عام 531م بعثة دبلوماسية إلى اثيوبيا وحمير(1). وكان يجب على السفير يوليان أن يقنع الملك السميقع (سميقع، الفازر – الفارن في المصادر السريانية) بالاشتراك مع بيزنطة في الحرب ضد إيران، وكان بإمكان مشاركة العربية الجنوبية في الحرب إلى جانب بيزنطة أن يخلق بعض المرتكزات لبيزنطة في مقاومة الفرس، الذين هاجموا بفعالية مواقع الإمبراطورية فيما بين النهرين، وأحرزوا نصرا باهرا على ضفاف نهر الفرات(2).

وكان على الجيش الحميري، كما اختطت ذلك الدبلوماسية البيزنطية أن يعبر "الصحراء" من أجل إحداث ثغرة على "طول الطريق" الممتدة وبداية الهجوم على الفرس. وقد فهم بركوبي أن "هذه المهمة صعبة عليهم".. "مهاجمة الشعب الذي اشتهر بالحرب والقتال أكثر منهم "والطريق البري، الذي تحدث عنه – هو طريق قديم عبر اليمامة، الذي استخدم بمحاذاة طرق القوافل الممتدة على طول الساحل الغربي من شبه جزيرة العرب. لقد كان اقتراح بيزنطة فوق طاقة اليمن. حيث كان الحميريون من الضعف بشكل لا يقبل قياسه مع الفرس، كما لا يمكن أن يكونوا على مقدرة من القتال وشن الحرب بعد هذه المسيرة الطويلة الشاقة. وقد اتخذت بيزنطة إجراءات بهدف تقديم دعم للحميريين بجيش قوي من البدو – الرحل المحاربين. وكان يجب أن تقوم قبيلة معد بالهجوم. ذكرت معد في رسالة شمعون بطرس الأرشامي، وكان العرب الوثنيون، الذين تبادلوا

---

* دكتور علوم في فقه القانون– عميد كلية الحقوق– جامعة تعز.

دعم العلاقات مع دولة اللخميين[3]. وكان قيس من "عشيرة الفلارخان" حاكما لمعد، وإنسانا محاربا وشجاعا، وقد كان مضطرا في ذلك الوقت إلى أن يذكر عشيرته. وكما ذكرنا أعلاه، لأنه قد قام بقتل واحد من أقرباء الملك السميفع[4]. ومن أجل إنقاذه من ثأر الدم القبلي نفي إلى مكان "مقفر في الصحراء". طمحت بيزنطة إلى إرجاع قيس الطريد ومصالحته مع السميفع، وتنصيبه فلرخ على معد من جديد، ومن ثم إقناعه بالاشتراك مع الحملة الحميرية سويا ضد الفرس، وكان هذا أول تكليف كلف به السفير يوليان في القسطنطينية.

لقد كلف يوليان بمهمة دبلوماسية ثانية أيضا إلى أثيوبيا، التي ظهرت فيها المصالح البيزنطية بجلاء على وجه الخصوص. وقد أرادت حكومة جستنيان أن تشترك أثيوبيا اشتراكا فعالا في العلاقات التجارية مع الهند، بهدف أن يكتسب تجارها الحرير والديباج. وبهذه الطريقة اصبحوا "أصحاب ثروة ضخمة"، بسبب أن المبالغ الكبيرة التي كان الروم ينفقونها لشراء الحرير من "أعدائهم الفرس" سيحصلون عليها بأنفسهم[5]، بيد أنه قد ظهر أنه صعب التحقيق "لأنه لم يكن بمقدور الاثيوبيين أن يكتسبوا الحرير والديباج المستورد من الهنود". لأن الفرس بصفتهم أكثر الجيران قربا قد كانوا المشترين الأوائل لجميع البضائع التي يحملونها إلى مرافئهم من "الهنود"، بسبب أنهم يصلون إلى الهند قبل غيرهم. يمكن القول بشكل آخر، أن التجارة مع هندستان وسيلان قد وقعت في أيدي التجار الفرس، الذين سيطروا على الخليج الفارسي والمحيط الهندي، ولم يسمحوا للتجار الأثيوبيين بالاشتراك فيها، وعبر الأخيرين حصلت سوريا ومصر والقسطنطينية على كمية ضئيلة فقط مما يقتنونه من البضائع. وكان من بين هذه البضائع الحرير المنسوج الذي حاز على المكانة الأولى[6].

لم تستطع أثيوبيا الصمود في وجه المنافسة الإيرانية أيضا، ولهذا، فقد كان أسطولها التجاري، والحربي ضئيل إلى حد ما. وقد ذكرنا أعلاه، أنه لكي يقوم الأصبح (كالب) بالحملة ضد الحميريين طلب سفنا بيزنطية، تلك السفن التي كان بدونها لا يستطيع توجيه قواته. وكان قسم من الأسطول البحري الإثيوبي مشغولا بالتجارة مع قبائل الساحل الشرقي الافريقي جنوب أثيوبيا. وكانت السفن الإثيوبية بدائية في بنائها عموما وغير صالحة للإبحار بعيدا. لقد أثار استهجان الإغريق ودهشتهم أساليب التكنيك المتخلف في بناء السفن الأثيوبية، التي بنيت بدون استخدام المسامير الحديدية[7].

وعلى هذا الأساس لم يحالف النجاح خطة الدبلوماسية البيزنطية. وقد حاول جستنيان باستمرار إقناع الحميريين بالحملة ضد الفرس، لكن الحميريين لم يقوموا بهذه الحملة.

لقد حفظت المدونات التاريخية الإغريقية معلومات عن السفارات إلى أثيوبيا واليمن. وتعتبر تقارير تنوس ذات أهمية خاصة، حيث أن المقتطفات التي بقيت من هذه التقارير تشهد على أنه قد تحدث عن شخصه بالدرجة الأولى، وقد كانت مقتطفات تقاريره معروفة من مؤلفات الكتاب البيزنطيين المتاخرين وسجلات الوقائع. كما احتفظت أخبار أخرى بصدد سفارة يوليان، التي بعثه بها الإمبراطور جستنيان في عام 531م. وقد امتزجت هذه المعلومات مع بعضها البعض في مؤلف ملالا. وقد أورد مورد ثمن لصالح وجهة النظر هذه جميع التصورات، مثل استخدام اسمين مكتوبين (O.Ueqitaltkxioriv, Auepita) لمناديل الرأس وغير ذلك[8].

لقد استعدت السفارة المذكورة في عام 531م تقارير البطريرك روفين، التي أشار فيها لجستنيان "بالروح الحدباء القفاد ملك الفرس". لقد لاحت له ضرورة تعطيل أفعال قفاد "الماكر" ومواجهة إيران بقوة جديدة. وبما أن تاريخ وفاة قفاد هو عام 531م – فإنه معروف بدقة، بالتالي، ما ذكر في مدونة ملالا المرتبطة بهذه السفارة إلى الملك الإثيوبي كالب (الاصبح)، والسميفع ملك الحميريين الذي تولى العرش في ذلك العام.

تمثل الروايات عن كيف سلك السفير البيزنطي الطريق من الإسكندرية إلى الحبشة أهمية كبيرة. لقد مر "بالطيق عبر النيل، ثم عبر "البحر الهندي". من الواضح، إن هذه الطريق لا بد أن تكون فاصلا لحلقة اليابسة الإفريقية – وهي أحد مرافئ البحر الأحمر "البحر الهندي" وقد كانت الطريق من القبط على النيل إلى بيرنيك في البحر الأحمر هي واحدة من تلك الطرق المتبعة من قبل. لقد بنيت هذه الطريق في عهد البطالمة وكانت مجهزة بالآبار والصهاريج على طول امتداد الطريق[9]. وإذا أجرينا تعديلا هكذا، أي أن قسما من الطريق قد اعتمل في اليابسة، فإنه يمكن الأخذ بعين الاعتبار ما رواه ملالا عن الطريق من الإسكندرية في النيل والبحر "الهندي" إلى بلاد اثيوبيا.

وأثناء وصول سفير الروم، حضر الأخير حفل استقبال مهيب من لدى ملك الحبشة، الذي "تشرف منذ عهد قديم بصداقته مع إمبراطور الروم". لقد وصفت بالتفاصيل قواعد وعادات الاستقبال لدى "ملك الهند" أي اثيوبيا. وإضافة إلى الزينة الذهبية والأحجار الكريمة على جسم الملك العاري كان عليه الكتان مع خيوط الذهب. وكان رأسه مغطى بمنديل من كل جانب من جوانبه أربعة أشرطة[10] وكانت مركبته المذهبة مطرزة بالعاج. مسك الملك في يديه درعا ذهبيا ومزراقين مذهبين. وكانت حاشيته كلها مسلحة واقفة تغني الأغاني[11].

استمر ملالا ينقل الحكاية عن شخصه بالأول، وقد اقتبس من تقارير تنوس من دون ريب، الأمر الذي جعل فيل يعترض عليه بإلحاح ومثابرة، وإن لم يكن لاعتراضه أسس كافية، يرى فيل أن السفير ليان قد ترك مذكرات مكتوبة عن سفارته[12]. غير أن الأدلة التي أوردها مورد ثمن، الذي يعتبر أن هذا الموضوع مثل الحكاية السابقة لملالا قد اقتبسها من تقارير تنوس، مقنعة تماما[13].

عندما دخل السفير البيزنطي، انحنى أمام الملك وركع على ركبتيه، أمره الملك بالقيام، وأخذ منه أوراق اعتماد ملك الروم، وقبل ختمها. وأخذ الهدايا المرسلة إليه من الإمبراطور. ومن ترجمة أوراق الاعتماد عرف الملك،أن الإمبراطور البيزنطي يريد منه أن يقف ضد فارس وأن ينهي التبادل التجاري معه، وان يقوم بالتجارة مع الإسكندرية، مستخدما طريق النيل[14].

ورواية ملالا عن قيام أثيوبيا بهجوم ضد الفرس دون إبطاء يجب اعتبارها رواية كاذبة. ينبغي أن تعطى الأفضلية لرواية بركوبي كمعاصر ومؤرخ موثوق به، والذي يؤكد أنه بصرف النظر عن التطورات والتوجيهات المستمرة من القسطنطينية لاكسوم بالهجوم على الفرس والحرب ضدهم، فإن اكسوم لم تقم بالحرب[15]. ومع ذلك فإن الحميريين والعرب والبدو الذين وقعوا تحت سلطة الإثيوبيين قد خربوا المناطق الفارسية بإلحاح من الملك كالب من دون ريب. وانتمى إلى عداد هؤلاء الذين قاموا بالتخريب المعديون، الذين كانوا يعتبرون محاربين خاضعين "للملك الهنود"[16]. لقد ارتبط المعديون ارتباطا وثيقا بالحميريين كما كانت تربطهم علاقات بدولة اللخميين. وقد غارت القبائل العربية على دولة الساسانيين التي استنفرتها أكسوم، فتقدم الفرس بالمطالبة "برأس السفير الرومي" الذي أرسله الإمبراطور إلى الملك كالب مع هدايا أخرى[17].

ينبغي أن نرجع إلى عام 531م أو إلى عام بعده خلع أول صنيعة لملك الحبشة في حمير. لقد تمردت القوات الإثيوبية، التي بقيت للحفاظ على "اليمن السعيد" من أجل "الحفاظ على الملك"، ونالت على التأييد من السكان المحليين، وقد خلعت القوات الإثيوبية السميقع، واعتقلوه في قلعة، "ونصبوا ملكا آخر اسمه أبرهة"[18]. كان "أبرهة مسيحيا وعبدا لرجل رومي"، عاش في أدوليس، أينما كان يشتغل بالتجارة، وقد حاز على الملك بعد نضاله ضد سلفه (المصادر العربية)[19].

لقد كان وضع أبرهة راسخا إلى درجة جعلت القوات المرسلة من أثيوبيا "لإعادة النظام" والمكونة من

ثلاثة آلاف مقاتل تنضم إلى أبرهة، وتقتل قائدها العسكري، وتمتزج مع جيش أبرهة، ثم استطاعت قوات أبرهة أن تنزل الهزيمة بحملة أثيوبية تأديبية جديدة، الأمر الذي جعل الملك الأصبح لا يعاود الكرة من جديد. وقد حافظ أبرهة على استقلال حمير لبعض الوقت[20]. لقد زينت المصادر العربية هذه الرواية بقوة، وأضافت إليها كثيرا من الأساطير بالتفصيل عن ارياط، الاثيوبي الأصل، والقائد العسكري [21]، الذي قاد جيش النجاشي ضد أبرهة، ومع أنه يبقى موثوقا بالمصادر حول الحقيقة الأساسية التي تؤكد أن أبرهة ظل مستقلا عن أثيوبيا خلال وقت معلوم، وأن محاولات تدمير جيشه قد باءت بالفشل[22].

ومع ذلك، فإن الانقلاب الذي كان لصالح أبرهة، لم يؤد إلى إعادة التجمعات اليهودية الحميرية من جديد، ولا إلى غلبة التوجهات الوثنية الحميرية. لقد كان أبرهة مسيحيا، ويمكن الاختتام من عدد من المعطيات، التي تخلص إلى أنه قد استمر في الحفاظ على التوجه المؤيد لبيزنطة، بصرف النظر عن أنه قد شق عصا الطاعة عن اثيوبيا. لم يكن بمقدور استقلال حمير النسبي أن يستمر طويلا، لأنه لم يكن مرغوبا فيه، سواء لبيزنطة أو لإيران. لهذا شعرت بيزنطة بالارتياح، لأن أبرهة ظل مخلصا للتوجه المسيحي الرومي، وشعرت إيران بأن حمير لم تعد محمية تابعة لأثيوبيا، وكان وضع حمير هذا أقل خطورة بالنسبة لها.

وعن أهمية بيزنطة وتأثيرها على حمير، تحدثت عدد من المؤلفات الأدبية، هكذا بلغت عن الآثار الثقافية المادية، التي برزت بمساعدة الصناع البيزنطيين. لقد وجدت بيزنطة في اليمن سندا لطموحها منذ عهد بعيد للسيطرة على البحر الأحمر، وكان هذا مرغوب فيه بشكل كبير. وكانت العلاقة مع حمير واحدة من مشاهد السياسة الاقتصادية العالمية لبيزنطة، تشكلت تقاليدها من عهد الإمبراطورية الرومانية.

لقد ارتبط اسم أبرهة بالتشريع والآثار الدينية الكنيسية في الأدبيات الإغريقية، وكان الأسقف جرجنت مؤلف هذا الأثر التاريخي (قوانين الحميريين)، وإذا نحينا التفاصيل الأسطورية عن حياة جرجنت جانبا، فإن الحقائق الجافة تبقى لا تثير أي نوع من أنواع الشك في مصداقيتها التاريخية، وبالذات، أن الأسقف جرجنت قد أرسل إلى حمير من بيزنطة. وقد أقام صلات وثيقة بالملك الإثيوبي كالب (الاصبح)، وساعد في الإجراءات السياسية التي اتخذها ابرهة [23]. ترتبط باسم جرجنت "قوانين الحميريين" المذكورة و "مناظرة" جرجنت مع ارين اليهودي، وحتى إذا كان هذان الأثران منتحلين، إلا أنهما قد وضعا في كل الأحوال في القرن السادس الميلادي. نجد في افتتاحية (No.voitauv onroiwv) أنها قد وصفت جرجنت بأنه شخص مشارك في التنظيم الداخلي للدولة الحميرية بعد أن توج على عرشها أبرهة، وكان مؤلف بركوبي من المصادر الإغريقية التي حفظت تقاليد موثوق بها فقط، وقد اعتبر فيها أبرهة الملك الثاني لحمير، بعد أن انتصر كالب على الحميريين في عام 525م. ونجد أبرهة معينا من قبل كالب في "قوانين الحميريين" و"شهادة الرقي" ملكا أولا للحميرين وأنه قد كان صنيعة كالب في حمير[24].

كانت ظفار عاصمة أبرهة محل نشاط جرجنت، ومن المحتمل أن المعبد الكبير الذي بني في ظفار، والذي تحدثت عنه سيرة حياة جرجنت، وقد قبر الأخير فيها[25]، هو نفس مبنى المعبد الذي تحدث عنه الطبري[26]. لم يشتغل المبعوث البيزنطي ورجل الدين بالأعمال الروحية فقط، بل وربما اشترك بحيوية في القضايا الحكومية والاقتصادية، التي لعبت دورا من الدرجة الأولى.

تشهد الأخبار عن الصلات بين اليمن وبيزنطة حول بناء المعبد المسيحي، هذا المعبد الذي تميز بالجمال والفخامة على وجه الخصوص. لقد جاء مهندس البناء ومواد هذا المعبد من القسطنطينية، كما يشير الطبري،

الذي استخدم المصادر المسيحية. وفي كل الاحتمالات فإنه نفس المصدر الذي استقى منه المعلومات عن اعتناق أهل نجران للمسيحية. كما تؤكد ذلك الكلمات المسيحية التي وصف بها الطبري هذه الكنيسة[27]. وقد برزت صنعاء عاصمة الدولة الحميرية وليس ظفار لدى الطبري على طول أخباره عن حمير، بينما يرى عدد من المصادر أن عاصمة الحميريين هي ظفار.

إن حقيقة بناء الكنيسة أمر لا ريب فيه، وقد سميت الكنيسة في النص العربي باسمين القلـيس أو الكنيسة، والاسم الأول قليس تحريف للتسمية الإغريقية، والاسم الثاني كنيسة، تمثل في حد ذاتها معادلا للكلمة العبرية "كنيس " وتمثل من وجهة النظر هذه أهمية، لأنها تتحدث عن أن هذا المصطلح قد تغلغل في العربية عبر الديانة اليهودية. ويجب توضيح التصورات اللاحقة والتأثير الإسلامي بالكلمة الأسطورية لأبرهة في رسالة إلى النجاشي، في أنه لن يهدأ له بال ما لم يصرف حاج العرب إلى معبده (أحرف إليها حاج العرب)[28]. إن الباعث نفسه لهذه الكلمات فيه إيعاز وعزيمة أبرهة في التحرك إلى مكة، بقصد توحيد الاتجاهات العامة، التي كان يجب أن يعتنقها الجميع، وأن تأخذ بالحسبان العوامل الإيديولوجية.

لقد كان فن المعمار في اليمن بأشراف الصناع البيزنطيين، حيث بنيت الكنيسة من مواد متنوعة. هذه الحقيقة التي لا يمكن أن تثير عدم الثقة، ليس لأنها قد كانت تقاليد مأمولا بها فقط، بل ولأنها لا تخرج عما يشابهها من أفعال الحكومة البيزنطية.

لقد وقف التكتيك المعماري في العربية الجنوبية على مستوى رفيع، وتشهد على ذلك آثار الثقافة المادية ومعطيات النقوش، مثلا على ذلك نقش جلازر رقم 618. يحدثنا الأخير عن نقل مختلف أنواع الأحجار والمعادن لتوطيدها في ترميم السدود. كانت الأحجار تثقب ثم توطد بالمعدن السائل (الأسطر 58-61)[29]. إن إحضار المرمر ومواد بناء الكنيسة من أجل تنفيذ أعمال الفسيفساء، توضح مع ذلك لماذا كان يجب أن يشارك خبراء متمرسون في مثل هذا النوع من الفنون، الذين لم يوجدوا في عداد السكان المحليين[30].

اندرج في برنامج دبلوماسية بيزنطة جذب الشعوب البربرية إلى الديانة المسيحية – هناك، أينما تطلب هذا مصالحها الاقتصادية والسياسية. وكانت بيزنطة حين يعتنق شعب جديد الديانة المسيحية وينضم إلى الديانة السائدة تطوق هذا الحدث بالاحتفالات المتنوعة والأبهة وتقدم الهدايا والهبات. وتوفد رجال الدين، وتنقل الكتب واللوازم والملابس – ويمكن إيراد العديد من الأمثلة عن هذا، لهذا فإن ما رواه الطبري لا يمكن أن يثير الشك.

استطاع أبرهة أن يذود عن وضعه المستقل في الفترة الأولى من حكمه وأن يصد حملتين أثيوبيتين متكررتين وأن يثبت أقدامه على العرش. لقد استخدم دعم القسطنطينية من غير شك، حيث قد توجهت سفاراتها إلى اليمن أكثر من مرة. بيد أن سياسة أبرهة لم ترض ولم يكن بإمكانها أن ترضي جميع الوثنيين الحميريين والدوائر التي توجهت إلى الصلات مع التجارة اليهودية إلى إيران، قد كانت تميل إلى توجه آخر، وقد عبر الحميريون عن عدم ارتياحهم، ثم اتحدوا بعد ذلك من أجل الانتفاضة، التي تشهد عليها الآثار التاريخية الإيبوغرافية.

تنتمي النقوش الابيوغرافية إلى عداد الآثار الرائعة في العربية الجنوبية، المرتبطة بإعادة بناء سد مأرب[31]. كان أحد هذه النقوش نقش (جلازر 618)، الذي يتضمن أخبارا مهمة نسبيا عن عهد أبرهة والمؤرخ بعام 657 وعام 658 بالتقويم الحميري. ويفضل نقش دقم الغراب، المرتبط بعهد السميقع والمؤرخ بعام 640 بالتقويم الحميري الموافق 525 ميلادية، كما أشرنا أعلاه، فإن نقشا من مأرب يمكن أن يعود تاريخه إلى عامي 542 و 543 ميلادية.

شغل أبرهة وضع "ملك سبأ وريدان، حضرموت ويمنيت والأعراب في الجبال والتهايم" في ذلك الوقت. إلا أنه كان يخضع لملك أثيوبيا، وكان نصيرا له، ومن المحتمل أنه قدم له الجزية. يسمى النقش ابرهة عضلى "ملك البر والبحر"، أي الملك الإثيوبي رمحيز زيعان، يقرأ برتوريس (عضجي) مصطلح عضلى كما لو أنه عضجي ويترجم كما لو أنه (virfortis) أو (imperator)[32]. والصائب تماما ينبغي اعتبار، أن أبرهة قد كان خاضعا للملك المسمى "ملك البر والبحر"[33]. يتحدث النقش عن انتفاضة "الوالي الذي عيناه" (خلفتهموا – جذرها خلق و(plur.majestetis) الضمير الزائد، نص النقش، السطر 11 باسم يزيد[34]. إن حقيقة الانتفاضة ليست مدهشة عموما في اليمن في تلك الفترة القاسية والمضطربة.

لقد استولى أبرهة على السلطة في البداية، على الرغم من أنه لم يخضع للملك الإثيوبي كالب (الاصبح) إلا أنه اعترف بالولاء للمسيحية من الناحية الرسمية ودافع عنها. يتحدث هذا عن أن اتجاهه السياسي قد كان مرضيا لبيزنطة. ثم اضطر بعد ذلك إلى الاعتراف بسيادة أثيوبيا. وقد بقت في اليمن مجموعات لها شأنها كان توجهها السياسي نحو إيران التي مثلت مصالح كبيرة. النبلاء السبئيون، وممثلوا سبأ الذين عدهم النقش بالاسم بصفتهم ينتمون إلى هذه المجموعات التي وحدها يزيد. لقد حاصرت هذه المجموعات قلعة قدر واستولت عليها السطران 20 و21. كما توجه بقوة جديدة، انضمت إليه نحو حضرموت (حرب حضرموت) (السطر 22)[35].

وحين وصلت أخبار الاضطرابات إلى الملك أبرهة، تحرك الأخير من أجل أن يستعيد المناطق التابعة له (السطر 24)[36]. "جمع جيشه "المؤلف من الإثيوبيين والحميريين– وجمعوا جيشهمو حبشت وحميرم (في السطرين 25 و26، أن فعل جمع هنا في حالة الجمع، وإضافة الواو إلى الجيش يجب إرجاعه إلى أنه على حساب (pluralis majestatis). بدأت الحملة هذه في شهر ربيعي من عام 657 بالتقويم الحميري (السطران 26 و 27) وبالتالي ربيع عام 542 ميلادية[37]. لم يقم الجيش بالقتال، بسبب أنه قد بدأ انهيار السد في مأرب، وعلى إثره تغير وضع جيش يزيد بحدة ففضل الخضوع لأبرهة. لقد صورت الأحداث في النقش بنظام كهذا: " وصل يزيد إلى النبات وطلب الاتفاق مع الملك ومد له يد العهد من جديد" (وهعد هويد هو – السطر 39 والسطر 40). وفي غضون ذلك، وردت الأخبار عن تهدم السد في صيف عام 657 بالتقويم الحميري. وقد عفا أبرهة عن القبائل الأخرى (السطران 49 و 50). بيد أن بعض قادة جيش أبرهة واصلوا العمليات الحربية عند قلعة قدر، بسبب أن قسما من "الأمراء" (أقول) بدءوا المقاومة هناك (الأسطر 53–55)، رغم أن يزيد كان قد ترك صفوفهم.

والافتراض محتمل جدا بأن انهيار السد قد حدث بأمر الملك أبرهة[38]. وقد كان هذا الأمر إجراءا حاسما وقاسيا، إلا أنه قد كان الإجراء الذي أعطى نتائج مرجوة سريعة – هي إخضاع العصاة. وعلى إثر هذا الانهيار انتصبت مهمة جديدة هي إعادة بناء السد، وقد أعطى الملك أبرهة أمرا بإحضار المواد الضرورية – الرمل، الأحجار، الكتل الصخرية (الأسطر 57–60) من أجل إعادة بناء السد وسور مأرب. قدرت مدة هذا العمل بضعة أشهر[39]. لقد اتجه أبرهة نحو مأرب منتظرا نقل مواد البناء واستكمال العمليات الحربية، وهناك كرس العمل لبناء الكنائس في مأرب – تلك الحقيقة التي سنعود إليها من جديد.

وفي غضون ذلك، كان العمل الذي قاموا به شاقا، وقد أدى إلى أن يشترك فيه السكان العرب وجيش أبرهة في العمل حتى أصيب بالإعياء. وبالإضافة إلى ذلك قد كان من الضروري أن يسلموا المونة للجيش وأن يحملوا جميع أثقال الخدمة اللازمة للجنود وقد قاد هذا

إلى استياء السكان "وحين رأى (الملك) أن التعب قد أعيا القبائل" (وكل رايو ملكن على اشعبن إذ نـو لهمـولا جيشهموا احمر هموا –السطران 73و 75)، فإن أبرهة قد أعطى – للقبائل الاثيوبية والحميرية راحـة أو عطلـة (السطران 74و 75)) أطلق أبرهة "القبائل "تحت تـأثير استيائها، ويحتمل أنه قد سرح قسما من جيشه يقتـرح برتوريوس تفسير "ثقل" أو "شقاء"، التي صار ضـحاياها اعدادا ضخمة من جيش أبرهة من الوباء ولهذا فإنه قـد ترجم هذه الكلمة كما لو انها "الطاعون"[40]. ويحتمل أن أبرهة سرح قسما من الجيش قدمه "الأمراء" السـبئيون الذين تمردوا عليه، والذين قاموا قبل ذلك بمقاومة الملك في قلعة قدر (الأسطر 76–80) .

إن المصالحة والنصر الذي أحرزه أبرهـة بـشهادة النقوش، قد انعكس على العلاقات الدوليـة بالـشكل الملائم. حيث وصل إلى ملك حمـير في مـأرب المـلاك و"الأمراء " وأعلنوا عن إخلاصهم له كمـا وصـل إلى مأرب عدد من سفراء دول الشرق الأوسط. لقد سـرد النقش أسماء المدن والمناطق التي تعود إلى اليمن قبل كل شيء (الأسطر 83–87).

إن سرد السفارات التي وصلت إلى مأرب في نـص النقش قد فعل تمايزا في المصطلحات في ألقاب سـفراء بيزنطة وأثيوبيا من جهة، وإيران والإمارات الصغيرة من جهة أخرى، والممالك من جهة ثالثة.

هكذا سمي محشك ممثل سـفارتي بيزنطـة وأثيوبيـا الصديقتين –، وسمي تنلبت ممثل سفارة إيـران. وسمـي رسل – مبعوثو شخص مذكور من ممثلـي الإمـارات العربية (السطران 90–91)[41].

لقد وجد ممثل النجاشي (نقش) في مأرب عام 543م، وقد تحدث عن الدعم الذي قدمته اثيوبيا لملك اليمن. إن خضوع أبرهة لاثيوبيا لم يحدث في عهد الملـك كالـب (الاصبح)، وإنما حدث بعده، في عهد الملك الذي اعتلى على العرش بعد كالب[42]. وقد سمى النقش المأربي "ملك البر والبحر" رمجيز زيمان، الذي ينبغي التفكير في أنه هو الذي أرسل السفير إلى اليمن.

إن التفاوت في استخدام المصطلحات والنظام، الذي رتبت فيه الدول في النقش، يتحـدث عـن العلاقـات الموثوق بها أكثر بين مملكة حمير والد ولـتين الأولـتين: أثيوبيا وبيزنطة. في حين احتلت إيران وحـيرة النعمـان وضعا ثانويا. يؤكد اتجاه سياسة أبرهة هذا الوضع، طالما أن يشغل وضعا مستقلا عن أثيوبيا، وقد قام أبرهة بتوثيق عرى الصداقة السياسية مع بيزنطة، ومـن دون ريـب ذهب إلى الاتفاق مع أثيوبيا وحتى الخضوع لها، حين تبين له أن هذا ضروريا.

كانت مصالح اليمن الاقتصادية مرتبطة بحوض البحر الأحمر والدول المطلة عليه، وأكثر من ذلك كان للـيمن علاقات مع إيران ودولة الحيرة، لهذا فإنه على إثر ذكـر "ممثلية" ملك إيران "اتنبلت ملك الفرس سمى رسل المنذر ملك الحيرة، الذي أقام علاقات مع الملـوك الحميريـين السابقين. وتلاه بعد ذلك اسم حارث ابن جبلة وابـن كرب بن جبلة، اللذان أرسلا ممثليهما إلى أبرهة.

إن تاريخ حارث بارجبل "الرقي" معروف جيـدا في المصادر الإغريقية. لقد كان أحد الـمع ممثلـي أسـرة الغساسنة، وقد خدم بيزنطة بصفته فلرخ عرب سـوريا (مركز دمشق) وخضع لحمايتها[43].

أما ما يتعلق باب كرب ابن جبلة (السطران 91–92)، فإن الحديث يدور عن أبي اهرابس (ABOxapabos) فلرخ المناطق، التي تعود إلى دولة الأنبـاط في الماضـي وخضعت لروما. ووفقا لشهادة بركوبي "أهـدى" أبـو كرب فينيقون الواحة الكبيرة مـن أشـجار النخيـل للإمبراطور جستنيان تلك الواحة الـتي كـان يقطنـها الأعراب منذ عهد قديم. وبما أن هذه الواحة تقع في عمق اليابسة، فإنه من أجل الوصول إليها كان لابد من المشي في طريق جرداء، لا ماء فيها ولا بـشر[44]. لهـذاكانت فينيقون من أملاك جستنيان بالكلام فقط، وبالتالي فـإن

فينيقون ملك جستنيان اسميا فقط، وقد كانت هذه الواحة كما لو أنها تحت حماية بيزنطة. لقد ذكر تنوس محاربي فينيقون[45]. كما أن العبقرية العسكرية التي تمتع بها أبوكرب، جعلت منه مرعبا لأعدائه. وقد حافظ على أملاكه وصانها طوال مدة حياته. استخدمت القسطنطينية حقا أهميته العسكرية وعينته "فلارخ لمحاربي فلسطين"، وجعلت منه حليفا لها. وقد سمى بركوبي قبيلة معد، الخاضعة للحميريين والواقعة في الجنوب الشرقي. من أملاك أبي كرب، وكان يجب على الأخير ان يصون حدود معد المشهورة بالقدرة القتالية، والتي كان لها علاقة بالقبائل العربية في الحيرة، وكان بإمكانها أن تشكل خطرا على الممتلكات البيزنطية، لا بد من الإشارة إلى ان قيسا، الذي كان فلرخ عرب فلسطين لمدة من الوقت[46] – لم يكن على قيد الحياة في عام 543م، ولهذا لا يذكره نقش مارب[47]. لقد كان مصير قيس مرتبطا بتدخل بيزنطة في شئون الحميريين والقبائل العربية. إذ أنه في الفترة ما بين عام 525م حين انتصر الأصبح على اليمن وبين عام543 م حين كتب أبرهة نقش مارب أقامت بيزنطة علاقات وثيقة جدا مع الدول المنبسطة على "طريق الطيب" وسواحل البحر الأحمر. وكان هذا جزءا من سياستها في كل الشرق الأوسط وما وراء القوقاز والقرم، أينما تطلعت إلى تثبيت نفوذها.

كانت فينيقون مجاورة لحدود فلرخية فلسطين، وبعد فينيقون مناطق عرب معد، التي كانت خاضعة للحميريين[48]. وكان قيس خلال بعض الوقت فلرخ قبائل معد، بيد أنه كما هو معروف، أن قيسا قد قتل أحد أقارب السميقع وهرب إلى الصحراء إنقاذا لنفسه من الثأر. وقد كان مفيدا لجستنان، إن يعين الحميريون قيسا بصفته فلرخ لمعد من جديد [49].

كان لا بد من أن يقنع لوليان سفير جستنيان الاثيوبيين والحميريين بعمليات فعالة ضد الفرس، أعيد قيس من جديد كرئيس لعرب معد، لأنه ينتمي إلى "أسرة الفلرخات" وكان ذا موهبة عسكرية، ولا بد أن يأتي بفوائد كبيرة. ورأت القسطنطينية أنه من المرغوب فيه أن يكون العمل مشتركا بين القوات الحميرية وجيش معد في الهجوم على إيران. وكان يتوجب على سفارة يوليان الأولى أن يكون لها موضعا في الفترة ما بين 525م عام انتصار الاصبح وبين عام 531م عام موت الملك الفارسي قفاد. لقد توجهت بعثة يوليان إلى اثيوبيا إلى الأصبح، وإلى الحميريين – إلى السميقع. لأنه معروف بعد هذه البعثة ثلاث سفارات بيزنطية، أرسلت قبل عام 531م، والتي كانت لها علاقة بقيس، ويمكن إرجاع سفارة يوليان الأولى إلى عام 526م أو إلى عام 527م.

ينبغي ان نفهم أن إبرام أب تنوس المذكور في رسالة شمعون بطرس الارشامي قد توجه إلى قيس، حين كان الأخير قد نصب من جديد كفلرخ لعرب قبائل كندة ومعد، رغبة في ضمان هدوء المناطق البيزنطية من اعتداءاتهم الحربية الشجاعة، وقد كلف إبرام بأن يحمل معه معاوية ابن قيس كرهينة لدى بيزنطة، وقد قام إبرام بتنفيذ هذه المهمة[50]. وكلف تنوس ابن ابرام بالمهمة الدبلوماسية اللاحقة بإيصال قيس نفسه إلى بيزنطة. غير ان فلرخ العرب لم يوافق على تنفيذ رغبة الإمبراطور هذه[51].

وفي غضون ذلك، إذا أخذنا بالحسبان هيبة قيس، فإن بيزنطة قد كانت راغبة في أن يخدمها نفسها فجعلته فلرخا على فلسطين. وكان لا بد من أن يتخلى قيس عن فلرخية قبائل كندة ومعد إلى أخويه عمرو ويزيد، وأن يصبح هو نفسه فلرخا لفلسطين. لقد ذكر يزيد في نقش مارب كرئيس للقبائل المتمردة على أبرهة. ولا يوجد أي تعارض بين أن يزيد قد حل محل قيس من قبل الأخير، وبين أن أبرهة كان قد عينه – لا يوجد أي تعارض كما يعتقد جلازر عبثا[52]، فالقبائل العربية التي كان يدور الحديث عنها قد كانت خاضعة لسلطة الحميريين، وقد كان الفلرخات يعتمدون من قبل ملك حمير في نهاية

المطاف، ومن أجل الموافقة وصل السفراء البيزنطيون يترجون ملك حمير، وإن كان الفلرخات بالوراثة من عشيرة محدودة.

لقد صار قيس فلرخا لفلسطين مدة من الوقت، بيد انه لم يكن فلرخا عليها في عام 543م حين ذكر نقش مأرب أب كرب بارجبل، أخ حارث بارجبل. لقد كان الحديث أعلاه، عن أن أبا كرب نال لقب فلرخ فلسطين.

وبفضل المعطيات التي أوردها بركوبي، يمكن الإشارة إلى المحاولات البيزنطية المستمرة إلى دفع حمير وأثيوبيا إلى الحرب ضد إيران. وقبل أن يبدأ خسروف الأول العمليات الحربية ضد بيزنطة في ربيع عام 540م بحث الدافع عن سبب إلغاء اتفاقية السلام "الدائم" التي وقعت عام 532م.

لقد كان أحد الدوافع لهذا الإلغاء اختلاف القبائل العربية على "السراط". الطريق المعبدة التي تمر في الجنوب إلى حد ما من بلمير (تدمر)، التي كانت صالحة لحركة القوافل التجارية، وكذا الأهداف الاستراتيجية حيث اختلف ملك الحيرة مع فلرخ الغساسنة حول من له الحق عليها. وخوفا من الصدام أرسل إليه البطريق ستراتيخيا و "أرهنت رئيس الخزانة الملكية " وسوما شقيق السفير يوليا، الذي كان قد توجه ببعثة دبلوماسية إلى الإثيوبيين والحميريين قبل وقت قصر[53]. لأن الخلاف حول "السراط" قد حدث قبل ربيع عام 540م مباشرة، حين بدأ خسروف الحرب ضد بيزنطة وكان لا بد من أن تكون سفارة يوليان قبل هذا بقليل، وبالتالي، الثلاثينات من القرن السادس الميلادي. إن سفارة يوليان الثانية هذه لم يكن بمقدورها أن تعود إلى الوقت الذي كان فيه الأصبح والسميقع ملكين[54].من الواضح أنه قد كان معروفا لبركوبي سفارتين، اشترك فيهما يوليان. وكان لا بد من أن يكون هدف البعثة الثانية الطموح إلى العثور على حلفاء لبيزنطة ضد إيران، ودفع أثيوبيا وحمير إلى الهجوم على دولة الساسانيين.

يعود نقش مأرب إلى عام 543م، وهناك سفارة أيضا أرسلها إمبراطور بيزنطة إلى الحميريين، يشهد عليها هذا النقش. وعلىهذا الأساس، فإنه في الفترة ما بين 525م عام انتصار الجيش الأثيوبي على ذي نواس وبين عام547م عام تاريخ نقش أبرهة، معروفة بالتأكيد خمس سفارات بيزنطية إلى قبائل عربية منفردة (معد وكندة) وإلى دولة الحميريين والأثيوبيين، قام بها سفير واحد عادة. وكانت هذه هي القبائل العربية والدولة اليمنية ودولة أكسوم أيضا أي البلدان المرتبطة جغرافيا بمنافذ البحر الأحمر والطريق إلى الهند. ويمكن أن تكون السفارات أكثر بكثير مما ذكرناه إلا أن تاريخ أغلبيتها غير موثوق به.

لقد عرضنا قضية المسيحية باليمن أعلاه أكثر من مرة. وقد بقيت المسيحية في قوتها في عهد أبرهة، وبالإضافة إلى ذلك، تغلبت على المجموعات الروابط التي دعمتها أثيوبيا وبيزنطة.

وإذا كان الطبري قد تحدث عن بناء كنيسة في صنعاء، فإن نقش مأرب يتحدث عن بناء كنيسة أخرى في مأرب، يمكن الافتراض، أن الحديث يدور عن حقيقة واحدة، وأن الطبري قد بدل مأرب بصنعاء، إلا أن هذا ليس هكذا، لقد شيد المعبد في صنعاء منذ مدة طويلة، وجلب الفنيون لبنائه من بيزنطة يتحدث نقش مأرب عن أن المعبد كان مقدسا (وقد قسوبعت مرب) – أي انه قد شيد قبل، والأكثر من ذلك، أنه قد أنجز بناؤه قبل أن تجلب مواد البناء للسد المنهار[55]. وقد عين القسسة في كنيسة مأرب، من أجل أن يقوموا بخدمتها (كبهو قسم ذ بمستله)[56]. إن كلمة قسس (السريانية–تعني رجال الدين) وتقود إلى صلات مصطلحاتية عميقة، وتتحدث مرة أخرى عن التأثير السرياني على العلاقات التجارية والثقافية بين السوريين واليمن وتؤكد أن المسيحية قد وصلت إلى حمير من المناطق الوثنية السورية. رائع أن الآثار الإيبوغرافية الحميرية تؤكد الحقائق التي أوردها

"كتاب الحميريين" السرياني.

ويرجع إلى عهد أبرهة حدث آخر أيضا، التاريخ الذي لم يعرف بالضبط ، حملة الحميريين على مكة. لا بد من النظر لهذه الحملة كمحاولة لضم طرق القوافل الضخمة إلى اليمن، التي تقف على "طرق الطيب". إلا أنه هل يمكن الحديث عن عزم أبرهة أن يعبر الحجاز والصحراء وأن يبلغ إلى ما بين النهرين، بهدف التخلص من الساسانيين أعداء بيزنطة[57]. إن افتراضا كهذا عن هدف الحملة يمكن عمله على أساس ما أورده بركوبي فقط[58].

يمكن أن نقتنع من كل حكايات أساطير المصادر العربية عن الحملة على مكة في شيء واحد، أن هذه الحملة قد حدثت، أما أن أبرهة لم يحرز النصر. فقد أورد الطبري مختلف الروايات عن حملة أبرهة على مكة[59]. وتذكر السورة 105 من القرآن هذا الحدث كما لو أنه محاولة كيدية ودعوى باطلة لم تأت بنتيجة على وجه الخصوص[60]، إن هذه الحملة هي أبعد ما تكون، لأنها لم تملك أسبابا أسطورية، كما تحدث عنها التراث العربي، والتي يكررها عبثا بعض المؤرخين. لقد أصبح أبرهة حاكما قويا في الدولة الحميرية في عام 543م وقد نكل بالمتمردين عليه. وكان قد وقع اتفاقية مع أثيوبيا قبل هذا العام أيضا[61]. اعترفت اليمن بموجبها بالخضوع للحبشة، وكان ممثل النجاشي من ضمن السفراء الذين وصلوا إلى أبرهة في مأرب.

لقد تمتعت الدولة الحميرية في عهد أبرهة باستقلال معروف، وقد نصت الاتفاقية التي وقعت مع أثيوبيا بعد موت الأصبح، على أن يؤدي أبرهة جزية مقررة. إن الصداقة التي دعمتها بيزنطة مع اليمن قد كان هدفها دفع العمليات الحربية الفعالة ضد إيران، وتأمين الهدوء لطرق القوافل من سوريا إلى العربية الجنوبية. بيد أن أثيوبيا وحمير قد أعرضا عن الحرب ضد الساسانيين سواء في عهد أبرهة أو في عهد الحكام المتقدمين عليه. وتمتع الجميع بحرية معروفة في الحركة وقاموا بإعادة النظام على طول امتداد طرق القوافل. وكان من دون ريب لصالح ملك حمير، والتمسك بالحجاز تحت إشرافه من أجل تنفيذ مهمة أبرهة. ويمكن أنه لم يكن هدفه مكة فقط، بل والمدن والواحات حيثما توجد المستوطنات اليهودية أيضا. لقد كانت هذه المستوطنات على علاقة مع إيران، كما نظرت بيزنطة لها كأعداء. ويمكن استقصاء كل تعقيدات الوضع الدولي وتوتر الصراع الاقتصادي من تاريخ جزيرة تيران[62].

كانت الحركة إلى الحجاز مرتبطة بالوضع العام وأهمية التجارة في اقتصاد البلاد، التي شخصتها السورة 34 من القرآن بالمعطيات التي تتطابق مع الروايات التي أوردها المصادر الإغريقية والسريانية. لقد انبسطت سبأ حسب النص القرآني بين جنتين، تحمل الثمار من خيرات الأرض، إن سبأ تقع بين مناطق خصبة، وكانت الطريق التي جرى الحديث عنها "لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور" ضرورة ملحة[63]. وإذا أرجعنا هذه الكلمات المأثورة إلى عهد متأخر أكثر وانعكاس علاقة الأثر التاريخي، الذي تشكل بعد الهجرة، فإن الأهمية التاريخية لهذه الكلمات قد كشف عنها الباحثون بصدق منذ عهد قديم[64]. لقد كانت تجارة القوافل بمثابة نبض حياة اليمن، وقد اعتملت محاولة في عهد أبرهة في جر عرب مكة إلى اتفاقية معروفة وإلى الخضوع، وإلى وضع يد أبرهة على المستوطنات اليهودية القريبة منها أيضا. وبعد نصف قرن في عهد ظهور الإسلام احتل الحجاز وضعا آخر واصبح هو نفسه الطامع إلى حق الرقابة على طرق القوافل في كل شبه جزيرة العرب.

كان القسم الأساسي من جيش أبرهة يتألف من الأحباش الذين كان معهم قبيلة مسلحة، بدأ الطاعون والحصبة يدب بين جيشه، الذي ظهر في شبه جزيرة العرب لأول مرة، وفقا لشهادة ابن اسحق[65]. وأكثر

الاحتمالات، أن القوات الاثيوبية قد حملت المرض معها. وقد أدت العمليات الحربية الفاشلة وانتشار الوباء إلى تراجع بقية الجيش[66]. غير أنه قد بدأ جيش أبرهة بالهروب حتى قبل التراجع العام. ومع ذلك سحب أبرهة في طريق عودته الرهائن من الأسر، الذين أخذوا في الأسر من جيشه[67] وتراجع أبرهة عن الحملة[68]. لقد كان بركوبي شاهدا على هذه الأحداث، وحفظها، والتي أكدت على أن أبرهة قد قام بالحملة تحت إلحاح بيزنطة وإن كان قد قفل راجعا ولم يقم بحملة أخرى منذ ذلك الوقت[69].

ووفقا للسيرة العربية فإن العام الذي قام فيه أبرهة بالحملة على مكة يسمى "عام الفيل"، الذي يعتبر عام ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم، 570–571 ميلادية[70]. على أن بعض الباحثين يميلون إلى نقل تاريخ حملة أبرهة إلى الفترة ما بين أعوام 540–562م رغم تقاليد التراث العربي، أي فترة ذروة سخونة الحرب البيزنطية الفارسية[71] لا يمكن نفي تقاليد التراث العربي، عن ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم. من المحتمل أنه قد تمسك به بصلابة وقابله بـ"عام الفيل"، لأن عهد الملك أبرهة يمتد من الثلاثينات حتى عام 571م – يعني حقبة طويلة من الزمن غير عادية. إن الترتيب الزمني لمقارنة نشاط أبرهة في الحروب الفارسية – البيزنطية يقدم باعثا أكثر وضوحا لحملته.

وحين انتقل أبرهة إلى مثواه الأخير – انتقل كشخصية قوية مهابة، وانتقل عرشه إلى اثنين من أبنائه – هما: يكسوم ومسروق [72]. تتحدث هذه الطريقة في وراثة العرش عن الروابط العشائرية التي بقيت قوية في اليمن، وكان بمقدوره أن يكون قويا ثابتا إلى درجة جعلته يكفل لنفسه تأييد أثيوبيا وبيزنطة في نقل السلطة إلى أولاده بالوراثة. كان الأخوان منصبين من قبل أثيوبيا في نفس الوقت، وكان تواجد الجيش في عهد يكسوم شاقا على أهل اليمن خصوصا.

من غير الممكن عدم الإشارة إلى الصعوبات الاستثنائية، والمقاومة التي واجهتها محاولات توحيد القبائل، يكفي أن نذكر امتناع "الأمراء" (Kail) عن دعم ذي نواس، الذي قد قام بالانتفاضة على أكتافهم ضد أبرهة*، وإن لم يكن بمقدور وارثي أبرهة الحاكمين مواصلة سياسة أبيهما، لهذا فإن تصفية الجيوش الاثيوبية قد قدمت نفسها وشعرت أنها أقوى من التصفية. وتبين أن نظام الاحتلال لمدة طويلة قد خرب اليمن الغنية حتى الدرجة الأخيرة.

تعتبر التقاليد العربية مدة تواجد الأحباش في اليمن بـ 70 سنة[73]. في حين كان هذا التواجد في حقيقته أقل، لأنه امتد من عام 526م إلى عام 570–575م، الذي يبدأ فيه تاريخ الفتح الفارسي تقريبا[74].

لقد كان واضحا الوضع الحرج الذي كان فيه نبلاء حمير، وقد قرر قسم منهم البحث عمن يحميهم من أثيوبيا دون أن يوحدوا قوتهم، وإنما كان طلب الحماية من الدول الشرقية الجبارة. وبصرف النظر عن علاقات الإمبراطورية بأثيوبيا، فإنه قد أخذ بالحسبان عدم تبعية واستقلالية أفعال بيزنطة. لهذا اتجه أبو مرة ابن ذي يزن الحميري إلى القسطنطينية، حيث توجه برجاء إلى الإمبراطور يطلب منه تحرير حمير من الإثيوبيين، احتلال حمير وإرسال ممثليه إلى هناك، من أجل أن تقع اليمن تحت سلطة الإمبراطورية[75]. بيد أن هذا الاقتراح الذي قدمه ممثلو عشائر نبلاء حمير قد رفض في القسطنطينية. لقد كان أغسطين الثاني ذا ميل ضئيل إلى القيام بعمليات حربية في قطر بعيد. وكان هذا بالنسبة له خطرا غير محدد ومغامرة للغاية، وأنه من الأفضل له دعم العلاقات القديمة مع أثيوبيا.

حينئذ توجه النبيل الحميري إلى الفرس من أجل

---

* هنا خطأ في النص حيث إن ذو نواس قد كان ملكا قبل تولي أبرهة السلطة، وقد سبق للمؤلفة أن أوردت رواية مقتله في الحرب ضد الأحباش. (المترجم)

الخلاص من الأحباش. لقد أقنعته التجربة الفاشلة مع بيزنطة إلى الحذر الكبير، لهذا لم يتوجه إلى فقاد ملك إيران مباشرة، وإنما استخدم ملك الحيرة كوسيط، هذا الملك الذي كان معروفا بعلاقة صداقة مع التجمعات الوثنية واليهودية الحميرية. تحادث ابن ذي يزن مع عمرو ابن هند، المعروف بما فيه الكفاية من الأسفار التاريخية السريانية والأشعار العربية.[76]

لقد كان اللخميون مجبرين على الظهور سنويا في بلاط آل ساسان، ومن هنا، فإن الإبلاغ عن القضايا الحميرية سوف يتم في هذا اللقاء الخاص. وقد أبلغ عمرو خسروف عن أمر ابن ذي يزن، فحدد ملك الفرس مقابلته. استطاع ابن ذي يزن أن يحيط الملك الفارسي علما عن الوضع في اليمن. شكا له من الاضطهاد والتصفيات التي يعاني منها اليمنيون، وطلب تقديم مساعدة حربية من إيران. إلا أن خسروف لم يتسرع في الجواب – فبقي ابن ذي يزن في البلاط الفارسي، حتى أنه كتب قصيدة عصماء على شرف خسروف "باللغة الحميرية"، ترجمت للملك إلى الفارسية[77]. أعجبت القصيدة خسروف، وإن لم يرغب في إرسال جيش في حملة مخاطرة.

توفي أبو مرة ابن ذي يزن في البلاط الفارسي دون أن يتحقق طلبه في أن ينفذ الملك ما وعده به بمساعدة اليمن. وقد حاول ابنه معد كرب مواصلة المسألة التي بدأها أبوه. والحكاية القائلة بأنه قد اصطدم من امتناع بيزنطة من أن تنتزع سيادة أثيوبيا عن اليمن تكاد تكون صحيحة. وهذه في كل الاحتمالات نسخة ثانية من أخبار ابن ذي يزن، إذ قد لا يكون بمقدور معد كرب التوجه من جديد إلى بيزنطة لطلب المساعدة في الوقت الذي قوبل طلب أبيه بالرفض[78]. لكن معد كرب ذكر خسروف بالوعد الذي كان قد أعطاه لأبيه، غير أن القرار تأجل من جديد. لم يوافق خسروف على إرسال جيش نظامي، وباقتراح من موبيدان، أعطى خسروف معد كرب جيشا من المجرمين القابعين في السجون، حيث إذا فقدهم لن يخسر شيئا ولا تستطيع أية جهة أن تدفع به إلى الخطر[79]. عين خسروف هرز القائد الفارسي القديم والمجرب قائدا للجيش المرسل إلى اليمن: لقد أورد الطبري كل رواية هشام، التي كتبت بصيغة ملائمة للفرس وبلهجة مناوئة للأحباش نسبيا، وقد أزيح معد كرب من الأخبار اللاحقة تماما عن سير العمليات الحربية، التي قادها القائد وهرز، وانضمام قسم من السكان المحليين إلى الفرس، غير أن قوات مسروق ابن أبرهة قد كانت كمية كبيرة وتفوق على قوات الفرس بشكل غير عادي.

تقدم المصادر عددا من المعلومات عن عدد الجيش الفارسي. لقد جهزت ثمان سفن، تسع كل سفينة مائة محارب. غرقت سفينتان، ورست السفن الست الباقية في ساحل حضرموت، من الواضح أن عاصفة من الأعاصير قد حالت دون تحركها بعيدا[80]. لقد أبحرت السفن من إيران في الطريق المائي عبر الفرات والخليج الفارسي. وعزز الدعم الذي قدمه معد كرب ومواطنوه الجيش الفارسي. وإذا طرحنا التفاصيل الأسطورية جانبا، يمكن إبراز عدد من الحقائق.

لقد قتل مسروق ابن أبرهة ملك حمير في المعركة، وبعد ذلك لم يثبت جيشه في المعركة فتحطم. أخذ الفرس كمية ضخمة من أسرى الحرب، وكان يقود الفارس ما يقارب 50–60 شخصا، حسبما يؤكد ذلك هشام[81]. وإضافة إلى ذلك تم الاستيلاء على كمية لا تحصى من الغنائم. وقد واصل وهرز مسيرته حتى صنعاء، ومن هناك بعث لخسروف بالقسم الأكبر والغالي من الغنائم – النقود، وقد بلغه أن اليمن قد أخضع، وأن الاثيوبيين قد طردوا[82].

ونصب معد كرب على رئاسة اليمن بأمر من خسروف. لقد وقع الاختيار عليه لأنه قد كان المبادر بالحملة، وكان ممثل النبلاء والصديق للساسانين. ومما له

أهمية أنه قد كان من عشيرة مالكة. استقبل الملك الجديد، ممثل الأسرة الحميرية المالك من قبل القبائل، التي عبرت عن سرورها بصدد النجاة من بطش واضطهاد الأحباش، في صنعاء عاصمة اليمن القديمة، وفي قصر غمدان الشهير[83]. عاد القائد وهرز إلى إيران، وإن كان قد ترك قسما من جيشه الفارسي في اليمن، التي كان يجب عليها أن تؤدي جزية لملك فارس "فرض كسرى على سيف بن ذي يزن جزية وخراجا يؤديه إليه في كل عام معلوم يبعث إليه"[84].

لقد أخذ معد كرب على عاتقه كل هذه الالتزامات، ونكل بالأحباش بقسوة، وقضى عليهم عن أخرهم في نفس الوقت[85]. غير انه لم يكن حذرا، حيث أبقى حوله حراسا مسلحين من أولئك الإثيوبيين، الذين استغلوا هذا، فأحاطوا به ذات مرة وقتلوه. قرر خسروف القضاء على التمرد، فأرسل وهرز من جديد مع جيش فارسي إلى اليمن، ثم أصبح حاكما بأمر خسروف ودفع له الجزية[86].

وبعد ذلك عين القائد الفارسي مختلف الحكام من الفرس. لقد حفظت التقاليد لدى الطبري توارث حكم اليمن بعد وهرز من قبل ابنه وحفيده، غير أن هذا يكاد لا يكون صحيحا. يتبادر إلى الذهن أن وهرز واسم المرزبان، قد كان حاكما لليمن بشكل محافظة فارسية حدودية، ولما كان الأمر كذلك، فإن حاكم المحافظة يلقب مرزبان.

من المسلم به أن ترجع تاريخ تنصيب معد كرب إلى عام 575م، وترجع حملة وهرز الثانية إلى عام 597م[87]. وبناء على التاريخين المذكورين، فإنه موثوق به نسبيا. وقد قضى الفتح الإسلامي على الممتلكات الفارسية في اليمن.

ينبغي أن ينظر إلى استيلاء إيران على اليمن أنه قد ارتبط بكل حملاتها نحو الغرب. لقد اتجهت سياسة خسروف الأول الفعالة وسياسة حفيده خسروف الثاني إلى القوقاز وما بين النهرين، وسوريا ومصر، وأخيرا اليمن. وفي جميع الأحوال هذه وقفت بيزنطة وراء ظهر الدويلات الصغيرة والإمارات والشعوب وكانت مصالحها تمس بنفس القدر سواحل البحر الأسود ومدن القوقاز وثغور البحر الأحمر، في مدن القوافل في شبه جزيرة العرب. وكانت الطريق إلى الهند مهمة لمصالحها في المناطق الجنوبية، وكان انتصار إيران على إثيوبيا في اليمن القضاء على النفوذ البيزنطي هناك. لقد كان القضاء على الممتلكات الأثيوبية في اليمن بالنسبة لإيران ليس صعبا، بسبب أن قسما من النبلاء الحميريين قد أقاموا مواصلات مع إيران وساندوها، ولعبت المصالح الاقتصادية فيه دورا مسيطرا. وهنا فإن انتصار السلاح الإيراني قد أتى بالخراب وساعد على انتقال السلطة إلى يد العرب فيما بعد، وقد وجد هذا مكانا له فيما بين النهرين، وسوريا ومصر.

الهوامش:

1. Procopius Caesarensis. De bello persico, 1, 18, 1, 21, pp. 95 –100, 110.
2. Simeon Bethars., p. =.
3. Procopius. De bello persico, 1, 20, p. 109.
4. نفس المرجع 1 و 20 ص 108–109.
5. نفس المرجع 1 و 20 – صفحة 110.
6. نفس المرجع او 19 صفحة 108
7. Mordtmam. Die himjarisch. Morgl. yes., B. 35 (1881), p. 702.
8. خفوستوف. م: تاريخ التجارة الشرقية صفحة 301.
9. Malalas. Chronographia, p. 457.
10. Malalas, نفس المرجع صفحة 457 Mordtmam. Die Himjarisch- athiopische Kriye, p. 702. – Dieterich, 1, 76.
11. Malalas. Chronographia, p. 458.
12. Jell. Die Christenverfolgung in Sudara – lien. Ztschr. d. Deutsch. Mrge. Eyes., B. 35 (1881), pp. 35- 36.
13. Mordtmam. Die himjarisch – athiopsche Kriye, p. 702.
14. Malalas. Chronographia, p. 458.
15. Procopius. De bello persico, 1, 20, p. 109.
16. Malalas. Chronographia, p. 458.
17. نفس المرجع صفحة 459.
18. Procopius. De bello persico, 1, 20, p. 107. – Mordtmam. Die Himyarisch – athiopische Kriege, p. 708.
19. Tabari, textus arabicus, p. 931. – Tabari – Noldeke, p. 197.
20. Procopius. De bello persico, 1, 20, p. 108.
21. Tabari – Noldeke, pp. 200- 201 (4).
22. Tabari, textus arabicus , p. 930-9330 – Noldele – Tabari , pp. 195-197 197-199. – Jell. Die Christenverfolguy.., Ztschr. d. Deutsch. Morgl. Yes., B. 35 (1881), pp. 40-43.
23. أ. فاسيليف حياة الأسقف جرجنت صفحة 35–37
24. Martyrium Arethae, p. 753.
25. أ. فاسيليف حياة الاسقف جرجنت صفحة 63–36
26. يحتمل أن أبرهة لم يعتبر عاصمته ظفار وإنما صنعاء هذا ما هو غير واضح بالكامل من نقش جلازر (618)، لأن جلازر يشك في أي عاصمة كان يستخدمها أبرهة، لأنه لم يذكرها. على أن من التراث الذي ذكره هشام معروف أن المعبد المسيحي بناه أبرهة بعد أن تصالح مع النجاشي حين أصبح أبرهة والي الحبشة في اليمن (راجع الطبري صفحة 205). وهذا يؤكده نقش مأرب والأسطر الأولى منه، التي يتضح منها أن أبرهة كان خاضعا للنجاشي (نقش مأرب السطران 4–5 و c.Ls pars IV, t. II fasc 3 , 278, 293
27. Tabari , textus arabicus, p. 9340 – Tabari – Noldeke , p. 201-
ويرى حتى أن التأكيد صائب (History of the arabs. 4-th ed. , 1949, p. 62).
28. Tabari , textus arabicus, p. 934. – Tabari – Noldke, p. 201.
29. Yeaser. Zrvei Juschriften.. , pp. 405-406 .
30. Tabari, textus arabicus, p. 935. – Tabari- Noldeke , p. 205.
31. E. ylaser Zwei Juschriften ..., p. 391. Corpus inscriptionum semiticarem, pars IV. Jnscriptiones Jlimyariticas et sabaeas con tinens, t. II, fasc. 3. parisiis, 1920, pp. 262 – 277, 540 (yeaser 554). – Copus inscriptionum semiticarum, pars IV. Jnscriptiones himya- riticas et sabaeas continens, t. II. Fasc. 3. – A. yrohmam. Marib. encyclopedie de l'Iscam (1930), livr. 41, pp. 41, pp. 296-311.
32. Corp. inseript. Sem., pars IV, t. II, fasc. 3, p. 287 (C.L.g. بعد ذلك يقتبس) - Praetorius. Bemerkungen den Beiden grossen Juschriften ven Dammbruch Marib. Ztschr. d. Deutsch. Mrjl. Yes., B. 53 (1899) , p. 15.
33. C.I.S. , p. 287.
34. نفس المرجع
35. نفس المرجع
36. Yeaser. Zwuei Jnschriften ..., p. 415.
37. نفس المرجع صفحة 418 و427
38. نفس المرجع صفحة 420
39. نفس المرجع صفحة 418 – 419
40. نفس المرجع صفحة 420 C.I.S., p. 280 – Praetorius, Jtschr. d. Deutsch. Mrgl. Yes., B. 53 (1899), p. 22.
41. C.I.S., p. 281.
42. Procopius. De bello persico, 1, 20, p. 108.
43. Noldeke. Kie yassanidischen Jurste aus dem Jiause yafna's. Alh. d. Akad. d. w Berlin, 1887.
بيجو ليفسكايا.ن.ف. العرب في القرن السادس وكذلك في المصادر السريانية عام 941 صفحة 60
44. Procopius. De bello persico, 1, 19,. Pp. 101-102.
45. Nonnosius. Jragmenta historicomim groeco-rum, v. IV, p. 179.
46. Procopius. De bello persico, 1, 20, p. 109
47. Yeaser. Zwei Juschriften..., p. 440.
ولا يمكن اعتبار قيس وأبوكرب معا صرين لبعضهما البعض في الفلارخية حيث كان كل واحد منهما فلرخا على جزء من فلسطين حسب وجهة نظر جلازر الخاطئة.
48. Procopius. De bello persico, 1,19, p. 102.
49. نفس المرجع صفحة 109
50. Nomosius. Jragmenta historicorum graeco-rwm, t. IV, p. 179.
51. نفس المرجع صفحة 179
52. Yeaser. Zruei Juschriften... , p. 436.
53. Procopius. De bello persico, 11, 1, p. 149.
54.
55. Yeaser. Zwei Juschriften..., pp. 418-419 (نقش 618 صفحات 66 و 67............) - C.I.S. , p.284
56. نفس المرجع صفحة 67
57. Nallino. Raccolta di scrititi editi e inediti. Roma, 1944, p. 27.
58. Procopius. De bello persico, 1, 20, p.110
59. Tabari – noldeke, p.208 (1).
60. Corani textus arabicus, ed. Y. Jiuyel, Lipsiae, 1858, p. 334., القرآن الكريم السورة 105 ترجمة ج. سابلوكوف. كازن 1895 صفحة 530
61. Procopius. De bello persico, 1, 20, p. 108.
62. Abel. L'le de lotabe. Revue biblique, t. 47 (1938), pp. 570-538. aralecta bellandiana, t. 57 (1939), III- IV, p. 415.
63. Corani textus arabicus, ed. Y. Jeuyel, Lipsiae, 1858, p. 229; القرآن الكريم سورة 34
14–17 ترجمة ج. سابلوكوف – كازن1895 صفحة 366.
64. Jetty. Jlistory of the arabs, p. 64.
65. Tabari , textus arabicus, p. 945 – Tabari – Noldeke, p. 219.
66. القرآن الكريم السورة 105 ترجمة ج. سابلوكوف صفحة 350 .
67. Tablari – Noldeke, p. 218 (4).
68. Tbari , textus arabicus, p. 945. – Tabari – Noldeke, p. 220.
69. Procopius. De bello persico, 1, 20, p.110
70. Jlitly. Jlistory of the arabs, p. 64.
71. Ylaser. Zruei Juschriften... , pp. 475-476. –Kammerer Essai sur l' histoire d'Acyssinie. Paris, 1924, p. 115.
72. Tabari, textus arabicus, p. 946. – tabari- Noldeke, p. 220.

73. Tabari, textus arabicus, p. 946 (496). –Tabari – Noldeke, p. 220 (3).
74. Caussin de perseval. Essai ..., 1, pp. 146 – 148 – (Hitty. History, p.66)

حيث يعيد سقوط سلطة الأليوبيين في اليمن إلى عام 575م .

75. Tabari, textus arabicus, p. 946.- tabari- Noldeke, pp. 220-221.
76. Rothstein. Yeschichte der Lahmiden von al- Jlira. Berlin, 1899, pp. 23, 46.
77. Tabari, textus arabicus, p. 951. – Tabari- Noldeke, p. 228.
78. Tabari, textus arabicus, p. 953.- Tabari Noldeke, p. 229.
79. Tabari, textus arabicus, p. 706. –Tabari – Noldeke, p. 230 – Coussinde Perceval. Essai.. , Paris, 1847, 1, p. 149.
80. Tabari , textus arabicus, p. 603.- Tabari – Noldeke, p. 230 (2)
81. Tabari, textus arabicus, p. 900. – Tabari- Noldeke, p. 234.
82. Tabari, textus arabicus, pp. 949, 904 – Tabari – Noldeke, pp. 226, 234.
83. The Antiguities of South Arabia being a translation ... of the eight book of al Hamdani's al- Iklil, by Nabih Amin Faris. Princeton. 1938, p. 71

ف. أ. كرالشكو فكايا: الأهمية التاريخية لآثار الفن المعماري اليمني القديم. مجلة المستشرق السوفيتي الجزء 4 صفحة 114و 123

84. Tabari, textus arabicus, pp. 949 –90. – Noldeke, Tabari, p. 227.

وذكر سبق في النص خطأ، وذلك لأن مصادر أخرى مشهورة تشير إلى ان الطبري والمسعودي وغيرهما قد أشاروا إلى موت سيف Hمام قصر خسروف كان هذا الخطأ قد أشار إليه.

caussin de perceval. Essai, 1, p.153.

85. Tabari, textus arabicus, p. 957 – Tabari – Noldeke, p. 236.
86. Tabari, textus arabicus, p. 958. – Tabari – Noldeke, p. 238.
87. Caussin de perceval. Essai... , 1, pp. 134, 157.- Nollino. Raccolte dei scritti editi e inediti, 1941. v 3, p. 27. – Jlitty. Jlistory of the arabs, p. 66.

تابع هوامش العدد الماضي

124. وقد عبر ملاكب عن شكه صحة التقويم الحميري نفس المرجع ص75 لقد كانت مملكة الحميريين وتقويمهم وفقا لوجهة نظر حتى من 115 قبل الميلاد

- Hitti. Jlistory of the arabs. 4 ed., Lindon, 1949, p. 55.

125. The book of Himyarites, p. 54a, b.
126. Ylaser. Zwei Juschriften.., p. 391, Zeilen 14 , 17. – Corpus inscriptionum semiticarcem. Pars IV, t. II, fasc. 3, p. 288.
127. بروكوتسي. تاريخ الحروب الرومانية مع الفرس من بطرس برج 1876صفحات 275–278– الحاشية.

- Mordtmam. Die himjarisch – athiopische Kriye noch einmal. Ztschr. d. Deutsch. Morgl. Yes., B. 35 (1881), p. 708.

صنعاء
في أوائل القرن العشرين
تأليف: جون وايمان بيوري

تقديم وترجمة: د. سيد مصطفى سالم

تقديم الترجمة:

أقدم هنا صورة لمدينة صنعاء كما شاهدها أجنبي مرّ بها أوائل عام 1914م أي قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى بعدة أشهر فقط. وقد مكث بها فترة وجيزة يتعرف عليها ويتجول بها، واصفاً ومشيراً وملمّحاً إلى نواحي قد لا تلتقطها إلا "عين الغريب". والغريب هنا-أي المؤلف-ليس شخصاً عادياً، فهو ضابط مخابرات بريطاني، ومؤلف له عدة كتابات عن اليمن، لذلك كانت "عينه" غير عادية بل كانت عينا فاحصة ناقدة ذات رأي في ما تلتقطه وفي ما تكتبه. وهي أيضاً كانت "عينا خاصة" فهي لغربي ولأبن الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس حينذاك، وعمل على خدمتها في جهاز المخابرات بين عدن و"المكتب العربي" التابع للمندوب السامي البريطاني في القاهرة، وهو المكتب الذي كان مركزاً هاماً لتجميع المعلومات للإمبراطورية عن الشرق العربي، ولرسم سياستها به.

وصاحب هذه العين هو: "جون ويمان بيوري"، وقد تعرفت عليه أو بالأحرى على كتابه: "العربية غير السعيدة أو الأتراك في اليمن" في مكتبة جامعة القاهرة منذ 1958/57م عندما بدأت دراساتي العليا حول التاريخ اليمني الحديث والمعاصر، فقد كان هذا الكتاب ضمن مراجعي الأجنبية التي اعتمدت عليها لإعداد رسالة الماجستير. ولقد كانت أهمية هذا الكتاب بالنسبة لمراجعي توازي أهمية كتاب "ملوك العرب" لمؤلفه جيكوب، الذي ترجمه مؤخراً السفير أحمد المضواحي، مما أكسب هذا الكتاب شهرة في اليمن. وقد تسابق المؤلفان في خدمة إمبراطوريتهما في المجال اليمني، وجمعا الكثير من المعلومات والمشاهدات بحكم وظائفهما السياسية، ونشراها لقراء الإنجليزية في وقت مبكر من هذا القرن.

ولقد كان "جيكوب" يدعو أبناء جنسه البريطانيين

الذين يتخصصون للعمل في البلاد العربية أن يدرسوا اللغة العربية وأن يحفظوا بعض الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والأمثال الشعبية للاستشهاد بها، ولكن يبدو أن "بيوري" قد تجاوز هذا النداء، فقد أدعى أنهُ اعتنق الإسلام، وتسمى باسم "عبد الله منصور" الذي أشتهر به حينذاك، والذي وضعه على غلاف كتابه "بلاد العز" وعلى كتيب آخر بعنوان "اليمن السعيد" ضمنه معلومات كثيرة مركزة عن اليمن من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم يكن كتاباً للنشر، بل كان تقريراً قدمه "للمكتب العربي" ليكون ضمن وثائقه، لذلك طبع على غلافه عبارة "سري جداً"، وقد رأيته مؤخراً بمكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن منذ عدة سنوات.

وقد أكسبته رحلاته وجولاته في المناطق الجنوبية من اليمن شهرة بين الأوربيين المتخصصين في الدراسات اليمنية، فأشاروا إليه في كتاباتهم، فقد قيل: "وفي عام 1911م نشرج ويمان بيوري تقريراً مفصلاً عن رحلاته في جنوب اليمن في المناطق السهلية مع إشارات متفرقة لمنشآت يمنية قديمة-أنظر كتابه[1]:

The Land of UZ, London, 1911, P.335.

وقد سبق للأستاذ سلطان ناجي أن كتب عنهُ-ضمن مجموعة مقالة بعنوان:"ما ساهم به الكتّاب الغربيون في دراسة جنوب الجزيرة"، جاء فيها "كتب برى كتابين وعدة مقالات، واحدة منها عن "طيور اليمن" سمى الكتاب الأول "أرض عز" أما الثاني فسماه "العربية التعيسة"، وقد جعل هذان الكتابان من "برى" أكبر خبير غربي في أحوال المنطقة في بداية القرن العشرين". وواصل سلطان ناجي حديثه عن كتاب برى الأول فقال: "لجأ برى إلى استخدام النيلة لتغطية جسمه أثناء رحلته إلى أرض المشرق (بيحان والعوالق) بوجه خاص" وقد تزيي بزي أعرابي وتسمى عبدالله بن منصور، وقد اضطر أن يقضي أياماً عدة وهو ممتد عاري الجسم على الصخور تحت لهب الشمس المحرقة حتى يكتسب جسمه لون السمرة!! وقد سمى أرض العوالق وبيحان "أرض عز" إشارة بذلك إلى الأرض التي تقول عنها التوراة أنها كانت "بلاد عز" والتي عاش فيها النبي يعقوب. لقد كان برى أول من سافر من الإنكليز إلى هذه المناطق وكتب عنها وعمل لها خارطة قابلت الكثير من الاستحسان لدى من جاء بعده، أما ملاحظاته فقد أكتشف الضابط "هاملتون" أن كثيراً من المبالغات تشوبها، والضابط هاملتون سيكون له شان كما سنرى في هذه المناطق قبل الحرب العالمية الثانية .. أما كتابه الثاني عن "العربية التعيسة" ففيه وصف جيد لأحوال اليمن في أواخر عهد الأتراك. وقد ركز المؤلف على المنطقة الواقعة بين المخا وصنعاء .. ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الأولية لمن أراد دراسة الأحوال في اليمن. لقد أهلت معرفة "برى" بأحوال جنوب الجزيرة لأن يصبح ضابطاً للمخابرات الإنجليزية في القنال إبان الحرب العالمية الأولى، وقد وكل إليه القيام بالإعداد والاتصال بالشريف حسين من أجل القيام بالثورة العربية الكبرى..[2]

وقد تباعدت المسافة الزمنية بيني وبين "بيوري" ومؤلفاته بعد أن انتهيت من مناقشة رسالة الماجستير، لانشغالي في مراحل تاريخية أخرى من مراحل تاريخ اليمن بعيدة عن اهتماماته، ثم لانتقالي إلى جامعة صنعاء، وانصرافي إلى أبحاث تعتمد في أغلبها على مصادر أصلية بأقلام يمنية. ولا شك في أنهُ قد راودتني كثيراً فكرة دراسة تاريخ صنعاء وتطور أحيائها والتعرف على مجالات توسعها ونموها خلال القرنين الأخيرين على سبيل المثال، وذلك على غرار مشروع بحث سابق عن القاهرة أثناء الاحتفال بعيدها الألفي (69/1970م)، فقد شرعت في جمع مادة تاريخية عن نمو القاهرة منذ أوائل القرن التاسع عشر أي في عهد محمد علي إلى نشوب الحرب العالمية الأولى، لكن المشروع لم يتم لانشغالات عديدة منها الانتقال إلى صنعاء.

ومهما كان الأمر، فإن ما لا يدرك كله لا يترك جله كما يقال، فطالما لم يتحقق لي الكتابة عن مدينة صنعاء حتى الآن، فليس لي أن أتقاعس عن تقديم مادة علمية لغيري من الباحثين أو لأبنائي خريجي جامعة صنعاء من أصحاب التخصصات المختلفة، قد تفيد هؤلاء في الكتابة عن تاريخ مدينة صنعاء وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والسكانية وغير ذلك مما قد يساهم في تنمية المدينة ورسم مستقبلها على أسس علمية سليمة، فهي العاصمة التاريخية لليمن الموحد.

وقد تمهد الطريق أمام الباحثين الجدد ليكرسوا بعض جهودهم وبحوثهم حول مدينة صنعاء، فعلى الصعيد الرسمي ظهر اهتمام الحكومة بالمدينة عندما أصدرت قرارها بتأسيس أمانة العاصمة وتشكيل مجلس أمانة لها برئاسة رئيس مجلس الوزراء بنفسه، وإطلاق النداء العالمي للحفاظ على مدينة صنعاء القديمة، واشتراك اليونسكو في هذا النداء، وهذا جميعه مما يعين الباحثين ويفسح لهم الطريق للبحث والكتابة. ومن ناحية أخرى، توفرت بعض المادة العلمية عن صنعاء-من مختلف الجوانب - بعد أن نُشرت بعض الكتب والبحوث التي تدور جميعها حول مدينة صنعاء، وأصبحت في متناول القراء.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، نشر المرحوم القاضي محمد الحجري كتابه "مساجد صنعاء، عامرها وموفيها" منذ سنوات طويلة، ثم أعيد طبعه، كذلك حقق ونشر الدكتور حسين العمري مخطوطة الرازي وهي بعنوان "تاريخ مدينة صنعاء". وأصدر البروفسور سارجنت وآخرون مجلدهم الضخم عن مدينة صنعاء باللغة الإنجليزية، وهو في طريقه إلى الصدور باللغة العربية، وخصصت وزارة الإعلام والثقافة مجلداً خاصاً من مجلة الإكليل عن مدينة صنعاء ضم العددين الثاني والثالث من السنة الثانية 1403هـ-1983م. وفي المجلد الضخم الذي أصدرته ندوة آنماخان عن الحداثة والتراث المنعقدة بصنعاء في 25-30 مايو 1983م، بحث قيم عن صنعاء القديمة للمهندس الأثري الدكتور رولاند لوكوك. وأعد الزميل الدكتور ربيع حامد خليفة كتاباً بعنوان "مساجد صنعاء في العهد العثماني الأول" وهو تحت الطبع الآن، كما نشر مؤخراً في مجلة الإكليل-العدد الثاني في 1988م بحثاً بعنوان "مناسج الطراز الخاصة بمدينة صنعاء". وترجم الأستاذ خالد محمد علي فصلاً من كتاب أريك بيتمان الذي بعنوان "اليمن على مشارف البداية" والذي نشر في عام 1959م، ونشر هذه الترجمة في مجلة الحكمة العدد 112 الصادر في يوليو 1984م تحت عنوان "صنعاء قبل ثلاث وعشرين عاماً" فقدم في هذه الترجمة صورة مكملة للصورة التي قدمها مؤلفنا "بيوري" عن صنعاء في عام 1914م، خاصة أنهما من وجهة نظر أوربية.

هذه بعض الأمثلة فقط التي أسعفتني بها الذاكرة والتي تحملها هذه المقدمة العاجلة. وفي وسط هذا كله يعتبر وصف "بيوري" لصنعاء عام 1914م إنما هو نقطة على الطريق، أو علامة من علامات تاريخ صنعاء، سجلتها "عين غريب" أجنبية أوربية. ولا شك أن الصورة التي خلّفها لنا "بيوري" سوف تثير لدى القارئ العديد من الملاحظات، وهذا أمر طبيعي، فقد وضعت كما ذكرنا من وجهة نظر أوربية متخصصة، وهي نابعة من مصالح خاصة، فهو أبن الإمبراطورية التي تحكم "عدن ومحمياتها" كما كان الشطر الجنوبي من اليمن يعرف حينذاك.

واختلاف وجهات النظر مع هذه الصورة هو الذي يعطيها أهميتها، فالاختلاف الفكري دائماً هو الذي يثير التساؤلات والاستفسارات التي تؤدي بدورها إلى جدية البحوث وعمقها، وهذا ما يجب أن يكون موضع اعتبار الباحثين الجدد.

من هذا المنطلق، فإني أضع أمام هؤلاء الصورة التي رسمها "بيوري" لصنعاء كما هي، من باب الأمانة العلمية من ناحية ومن ناحية أخرى حتى ينظر إليها كل باحث بمنظاره هو دون أي تدخل أو وصاية. وإلى جانب النص الذي خلّفه "بيوري" لنا فقد سمحتُ لنفسي أن أضع

بعض ملاحظاتي هنا في هذه العجالة أو أضيف بعض التوضيحات في هوامش النص دون المساس به.

وهذه الملاحظات الخاصة تدور حول عدة نقاط هي:

أولاً: كما سبق أن ذكرنا، عبر المؤلف منذ البداية عن وجهة نظر غربية متخصصة في شئون اليمن، فكانت نظرته تتجاوز نظرة الغريب السائح، وتقارب نظرة الباحث المدقق الخاضع لدوافع معينة، لهذا نلمس في جوانب النص أنهُ أبرز تقسيمات المدينة بما يوحي أنها عدة مدن متجاورة أكثر من أنها أحياء لمدينة واحدة، وهذا يتعارض مع الحقيقة، ويحتاج إلى مناقشة وتدقيق.

ثانياً: انطلاقاً من نظرته ومصالحه الخاصة، أهتم المؤلف بتسجيل حالة الدفاع عن المدينة، فذكر القلعة والحصن الواقعين عند سفح جبل "نقم" وقمته، بل وحالة المدافع التي بها وأنها غير صالحة للدفاع عن المدينة، كذلك أشار إلى التجمعات العسكرية التركية جنوب صنعاء حول طريق تعز، وأهتم أيضاً بوصف حي "بير العزب" الذي تقيم فيه الجالية التركية في صنعاء وعلى راسها الوالي وكبار رجال الولاية، وربما كان الاهتمام بتسجيل هذه النواحي كلها هو هدف الزيارة للجزء الشمالي من اليمن الخاضع للحكم التركي حينذاك.

ثالثاً: طبقاً لمبدأ السياسة البريطانية المعروفة "فرق تسد" التي عملت بها على إثارة النعرات الطائفية والمذهبية في اليمن منذ احتلال بريطانيا لعدن في 1839م، والتي طبقته عملياً خلال حوادث 1928م العنيفة عندما ألقت طائراتها القنابل والمنشورات على المناطق الجنوبية من اليمن المتوكلية، فقد شحنت هذه المنشورات بالإثارة للشوافع ضد الزيود، وأن هؤلاء الأخيرين هم سبب تلك الحوادث الأليمة حينذاك. وقد ظهر هذا "المبدأ" عند مؤلفنا أيضاً وعبر عنهُ في أكثر من موضع. فقد نظر إلى صنعاء باعتبارها مدينة مذهبية متعصبة خاصة بالزيود وبالغ في ذلك، وليس باعتبارها عاصمة تاريخية لليمن، رغم أنهُ ذكر في حديثه أنها كانت من أهم مدن الجزيرة العربية ومن أهم محطاتها التجارية. وظهر هذا بجلاء عند الحديث عن مذهبية أهالي صنعاء وعن طابع آثارها الخاص، وعندما أشار إلى أن القبائل السنية (!؟) المحيطة بها تتحين الفرصة لنهبها، وتختلف مع أهلها مذهبياً حتى أنها تعتبرهم ملاحدة. وهذه العقيدة السياسية لمؤلفنا هي التي أوقعته في عدة أخطاء، فمن المعروف أن القبائل المحيطة بصنعاء ليست سنية، وأن صنعاء لم تنهب في التاريخ اليمني الحديث والمعاصر إلا مرتين متباعدتين فقط، وأنهُ لم يقع هذا النهب إلا تحت ضغط السلطتين القائمتين في البلاد عند حدوث كل حالة على حده. ففي النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) أغرى أزدمر باشا جنوده المحاصرين لصنعاء بإباحتها لهم ثلاثة أيام، وإن كان قد أوقف النهب فور فتحها، وبعد أربعة قرون، كرر الإمام أحمد حميد الدين إغراء القبائل بنهب صنعاء عندما فشلت ثورة 1948م.

رابعاً: كان "بيوري" شاهد عيان مسجلاً لواقع صنعاء حينذاك أكثر منهُ دقيقاً. وبرز هذا عندما ذكر أن الأتراك هم الذين بنوا السور حول "بير العزب" و "حي اليهود"، وأن الأئمة هم الذين بنوا السور حول صنعاء، فمن المعروف أن سور صنعاء أقدم من الأئمة والأتراك، وسوف نشير إلى بعض هذه الأمور في هوامش ترجمة النص.

خامساً: باعتبار أن بيوري كان شاهد عيان أكثر منهُ مؤرخاً فقد نجح إلى حد كبير في وصف الناحية المعمارية في كل من أقسام صنعاء الثلاثة، إذ جاء وصفه مشابهاً لما خلّفه لنا من وصف المدينة حوالي نفس الفترة. وإلى جانب هذا فقد رسم لنا حدود المدينة وذكر أسوارها وأبوابها، وما يحيط بها من حدائق وأراضي زراعية وأشجار "الأثل" وتلال وجبال، وما يخترقها من غيول ومجاري مائية، وجميع هذه المعالم قد اندثرت أو تغير شكلها، لكنها في نفس الوقت توضح أمام الباحثين الجدد صورة من صور تطور صنعاء عبر التاريخ، وهي صورة تحتاج إلى خبرة رسام خرائط، وإبداع فنان تشكيلي.

سادساً: لم يقف بيوري عند الناحية المعمارية والطبيعية بل تجاوزها إلى النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لكنهُ لم ينجح تماماً في تصويرها. ونعتقد أن هذا يرجع إلى قصر المدة التي قضاها في صنعاء من ناحية، وإلى عدم تخلصه من ناحية أخرى من نظرته الخاصة ومراعاة مصالح بلاده التي تحتل جزءاً من اليمن، أو بالأحرى لم يبتعد عن نافذته الخاصة التي ينظر منها على الأحداث الجارية أمامه كما يقول فلاسفة التاريخ.

حقيقة إنهُ قدم صوراً لا يستغني عنها باحثو هذه النواحي، وإن كانت صوراً سريعة لا تشبع من نَهم الباحث الجاد، فقد تحدث عن عدد السكان والمقاهي والكازينو وعادة صيد الطيور والأرانب البرية وميل اليهود إلى عصر النبيذ وموقف السلطة من شربه ولو كان شاربه أجنبياً، كذلك عن تزمت أهالي صنعاء ولهجتهم الخاصة واعتزازهم بمدينتهم وموقفهم من الغرباء. وأهتم أيضاً بأوضاع الأسواق داخل صنعاء وفي الحي اليهودي، وعبَّر عن كساد التجارة والصناعة في صنعاء بعد ازدهارهما من قبل وامتداد أسواقها إلى الهند ونواحي شرق آسيا.

وأبرز كذلك مراكز القوى حينذاك كما أدركها من نافذته الخاصة كما ذكرنا، وقسمها إلى أتراك وإمام وقبائل وأهالي، وأن كلا منها ينظر إلى الآخر نظرة عداء وتربص، فالقبائل السنية المحيطة (كذا) تريد الانقضاض على صنعاء لنهبها، والتجار الكبار يسلحون القبائل البعيدة لحماية تجارتهم، وأهالي صنعاء يشمخون بمدينتهم وأنفسهم ولكنهم يضعفون أمام العدو وأمام أصحاب السلطة بها، وأنهُ رغم دفاع الأتراك عن صنعاء فإن الأهالي يتملقون الإمام الذي نجح في عقد صلح "دعان" مع الأتراك عام 1911م.

وأخيراً، فهذه هي ملاحظاتي أضعها بين أيدي القارئ مشاركة مني في تحليل النص وتوضيح أبعاده وملابساته فقط، دون أن يفهم أني أرغب في التأثير عليه، فإني ممن يرغبون في تعدد "النوافذ" بقدر تعدد القراء.

ترجمة النص:

صنعاء[3]

تقع مدينة صنعاء بجهتيها الشرقية والغربية على سهل فسيح مفتوح يتجه نحو الشمال في انحدار ضئيل تحيط به تلال منخفضة. ولا تعتبر الجهة الغربية من المدينة، وهي التي تخص اليهود، الحي الراقي بل العكس تماماً. وخلف هذه الطرف باتجاه الشرق يقع الحي التركي في منطقة "بير العزب"، وهي منطقة رحبة بها المباني الرسمية، والحدائق المسورة، وإلى الشرق من هذا تقع المدينة العربية، وهي فقط التي يطلق عليها الأهالي المحليين اسم صنعاء.

وفي الزاوية الشرقية من صنعاء توجد القلعة[4] التي ترتفع قليلاً فوق المدينة، وتقع عند سفح جبل "نقم" وترتفع هذه الحافة النائية أكثر من ألف قدم فوق السهل الذي يرتفع بدوره 7600 قدم فوق سطح البحر.

وعلى قمة جبل "نقم" يوجد حصن تركي ونقطة مراقبة، كما هناك مدفعان كبيران، ليس من المؤكد أنهما صالحان للعمل، أو أنهُ يمكن إصلاحهما لاستخدامهما كما يجب، كذلك يؤدي طول المسافة بينهما وبين الساحل إلى إضعاف قوة طلقات الذخيرة الثقيلة التي تستخدم بهما. وربما ينفع هذا الحال للمدفعين في أنهُ يربك تقدما كثيفاً مكشوفاً للعدو في السهل، أو يقرع آذان عدو المدينة ويجعل الاستيلاء على القلعة مستحيلاً، لكن قد يتم الاستيلاء على القلعة من خلال خطة محكمة حيث يمكن الوصول إليها خلال عدة ساعات من أحد المسالك الجبلية الملتوية.

كذلك لا يمكن القول بأن القلعة نفسها يمكن أن

تحمي المدينة إلى حد كبير، فارتفاعها القليل لا يعطيها الفرصة للسيطرة الكافية، وعند الهجوم الأخيرة[5] (يقصد حصار صنعاء عام 1911م) وقع عبء الدفاع عن المدينة على مدافع الميدان التي تم جرها في سرعة إلى نقاط عند البوابات الشمالية. ولهذا تعد مدافع القلعة مجرد بطاريات تحية للمواكب، وأكثر من ذاك تستخدم للإعلان عند عيد الفطر بعد رمضان عندما يطلقون نيرانها على فترات لمدة يومين.

وخارج هذه المواقع، توجد القمم الجبلية مطوقة المدينة التي تقع عند سفوحها، وهي تساعد على حماية المدينة من المفاجآت، ولكن هذه القمم منعزلة إلى حد كبير، ومن المحتمل أن تسقط بصورة أو بأخرى أمام هجوم عام قد تتعرض لهُ المدينة.

ومن جهة الشمال حيث تعرضت المدينة فعلاً لهجوم من قبل[6]، توجد أشجار "الأثل" التي ترتفع بارتفاع أسوار صنعاء، وهناك حزام بعرض ميل من الخضرة المتناثرة على ضفتي غيل (جدول صغير) "آلاف"[5]، وينبع هذا الغيل من عين في المدينة[76]، ويتدفق من تحت السور الشمالي، ثم يتجه إلى الشمال الشرقي حول كتلة جبل"نقم" الرئيسية حتى يلتقي بوادي"الخارد"العريض[8]، حيث تصارعت فيالق الرومان مع رجال قبيلة "همدان" ذو الأسلحة الخفيفة في فترة ما قبل الميلاد[9].

ويتحول هذا الغيل إلى عدة قنوات للري، ويوجد على طول المجرى أجود المحاصيل المحلية، التي تحرسها "مقاليع" ذات جوانب صغيرة تصدر أصواتاً حادة ذات أزيز، وترمي بقذائف طينية لتطرد الطيور أو تصطادها طوال ساعات النهار.

وتحتل مدينة صنعاء موقع مدينة أزال القديمة، وهي مدينة كانت ذات أهمية في العهد السبئي. ويتصف المعمار في صنعاء بأنهُ يحمل طابع العصور الوسطى العربي، فمنازلها طويلة، عبارة عن أبراج من الحجارة ذات أربع أو ست طوابق، ولها نوافذ ضيقة مصفحة تفتح مثل الأبواب يزينها زجاج ملون. وأحد الصفات المميزة لهذه المنازل هي "المزراب" العمودي الإسمنتي الذي يمتد من حمام المنزل إلى أسفله، حيث ــ في الحمام ــ تستطيع أن تقف على منضدة ذات أرجل قصيرة وترش نفسك بالماء بواسطة مغرفة تملأها من برميل ضخم منتفخ من الفخار الأحمر. وجميع هذه المنازل ذات أبواب ضخمة مصممة من خشب الطنب ومزينة بنقوش بارزة، وفي الباب الكبير باب صغير[10] مثبت به مزلاج من الخشب الناعم يمكن أن يسحب بواسطة حبل[11] طويل من أي مكان مرتفع في المنزل بعد التعرف على شخصية الزائر. وهذه المنازل المقامة في صنعاء العربية هي مباني ضخمة وغير منتظمة، وبها ممرات محيرة، وحجرات في أماكن غير متوقعة، وسلالم مظلمة على شكل لولب، وكوات[12] ضيقة في الطوابق السفلية لإطلاق نيران البنادق[13]. ويعطي المنزل بكامله انطباعاً بأنهُ حصن أو سجن، ومن المؤكد أن كثيراً من هذه المنازل قد لعب الدورين معاً في الوقت المناسب.

هذا هو الطابع العربي الطبيعي للمعمار، فالمباني مصممة في أحجام ضخمة أنيقة مزخرفة، ومقامة في كل مراكز الطبقة العليا، وفي القرى المحصنة بين التلال في المنطقة الخلفية لعدن. وفي صنعاء خاصة تتسم مكاتب الحكومة، والبريد، والبرق، بأنها مباني ذات طابقين من الحجارة الأنيقة، حيث يتم فيها تدبير شئون الولاية.

ولا تعد مدينة صنعاء شيئاً بدون ما بها من مظاهر التدين، فبها كثير من المساجد التي تنتشر مآذنها عالية في طرز مختلفة من فن العمارة فوق المنازل الطويلة التي تشبه الأبراج، وكلها تشير في صمت إلى تاريخ صنعاء السابق، عندما استطاع الإنسان أن يبني بعقيدة راسخة وبعناء لا حدود لهُ حتى يخلد الإيمان الذي يملأ أعماقه والأفكار التي تسيطر عليه. وقد سادت أعمدة المساجد الزيّدية[14] الأسطوانية المزخرفة على جميع ما عداها، وترتفع القباب البيضاء لأضرحة الأولياء الزيدية مثل الفُطر (المشروم) الدائرية في كل مكان في المدينة الرمادية القديمة.

وفي وسط صنعاء تماماً هناك مجرى مائي[15] ينحدر من الجنوب إلى الشمال، وهو رافد من روافد وادي "الخارد" ويسمونهُ في صنعاء باسم "شعوب".[16] وعلى طول هذا المجرى وإلى الشمال من المدينة طريق السوق المعتاد كثيراً إلى مدينة "الروضة" (وهي مدينة عربية كبيرة على بعد ثمانية أميال من صنعاء)[17] حيث توجد مزارع الكروم التي تظل تمد المدينة بالعنب الأبيض والأرجواني من يونيو إلى أكتوبر. وفي وقت الجفاف يكون هذا المجرى المائي طريقاً مناسباً داخل المدينة، لكنهُ يكون ثائراً عنيفاً في وقت الفيضان، ثم يتحول إلى مستنقع لبعض الوقت بعد ذلك. ويعتبر هذا المجرى هو طريق العربات الوحيد الذي يمر بشكل دائري حول أحياء المدينة حيث إن منازل صنعاء العربية متلاصقة بعضها بالبعض بشكل كثيف بحيث لا تسمح بمرور العربات بينها.

أما العربات، فهي عربات (حنطور) خفيفة مغطاة متهالكة، تسير فوق أربع عجلات غير مثبتة تماماً. وقد صنعت هذه العربات في الأيام الزاهية أثناء قوة الترك، ومن المدهش أنها ما زالت متماسكة في كتلة واحدة، ولكنها فعلاً كذلك، وهي تسافر إلى مسافات بعيدة في بعض الأوقات، حاملة الركاب من الموسرين إلى قمة الطريق عند جسر "البونية"[18] Boan. أو تأخذ هؤلاء في نزهة إلى "الروضة".

وتحاط صنعاء القديمة بسور[19] ارتفاعه أربعون قدماً من الطين والحجارة، ويرجع تاريخه إلى أيام سيطرة الأئمة قبل الغزو التركي بفترة طويلة[20]. وتنتشر على هذا السور أبراج قديمةعلى مسافات متعددة، وقد قام الأتراك ببعض الجهود لتعزيز النواحي الدفاعية لبوابات[21] السور. وهناك أولاً باب خاص بأعلى القلعة يؤدي إلى أماكن الدفاع، وهو منفذ متعرج شديد التحصين، ولا يسمح بدخوله إلا في أوقات العمل والدفاع. ويقطع "باب شعوب" السور الشمالي لصنعاء، وهو باب ذو أهمية كبيرة، إذ يتدفق منهُ كل صباح سيل من بضائع السوق، فهناك الجمال البطينة التي تحمل البضائع من أماكن بعيدة، وهناك قطعان الحمير الصغيرة ذات الذيول التي تشبه ذيول الفئران، وهي تعدو بسرعة حاملة الأعلاف وحطب الوقود وصفائح الكيروسين [التنك] المملوءة عنباً. وفي الوسط على طول السور الجنوبي، ومقابل "باب شعوب" يوجد "باب السيمن"[22] الذي تتدفق منهُ القوافل تجاه "ذمار" و"يريم" و"إب". ولا يستخدم هذا الطريق بكثرة الآن منذ أن تجمعت حوله أغلب فرق الجند العثمانية في عام 1913م[23].

ومن الناحية الاستراتيجية، يعتبر "باب السبح"[24] الثلاثي هو أهم أبواب المدينة كلها، وقد أطلق هذا الاسم على الأبواب الثلاثة المتجاورة، التي يتجه منها اثنان إلى الشمال والجنوب على كل من جهتي العنق الضيق الذي يربط المدينة الرئيسية بحي "بير العزب" الذي يقع خارجها بحوالي خمسمائة ياردة، أما الباب الثالث فهو مركزي كبير يعلوه قوس، ويحيط به دار قوية للحراسة، وأماكن لإقامة الجند والشرطة. وتحت هذا القوس الذي يشبه النفق غالباً-يمر الطريق الذي يربط بين المدينة الوطنية وبين حي العثمانيين في بير العزب، وهذه الناحية من القوس، مازالت تحمل علامة طلقة مدفع، وهي التي تذكر بفترة حرب الشوارع. وقريباً من مدخل المدينة في هذه البوابة المركزية تقع الصيدلية المحلية، التي ربما يمكنك الحصول منها على "روشتة" أو وصفة طبية مكتوبة قريبة إلى الدقة إلى حد ما إذا كنت تكتب بالفرنسية، وإذا انتبهت جيداً إلى الصيدلي. وفي نفس الاتجاه [أي داخل المدينة]، ناحية البوابة الشمالية "باب شعوب"، توجد المستشفى العسكري،[25] وهي بناء جيد، وتحت إشراف ونظام سليمين.

وعند المرور من البوابة الوسطى يجد المرء نفسه خارجاً إلى "ميدان شرارة"[26] الواسع الفسيح حيث تتدرب فرق الجند.

ويقع محل إقامة الوالي[27] إلى اليمين من هذا الميدان، وسط حديقة فسيحة مسّورة، وإلى الشمال من الميدان توجد المدرسة الحكومية، وهي مبنى حجري كبير لسكني الطلبة به. والتعليم الحكومي مجاني في كافة أنحاء اليمن حيث يكون متوفراً.

ووراء المدرسة يوجد مكتب الأركان أو ديوان أركان حرب، وهو مبنى من طابقين ذو طابع معماري غير محدد، ويقع في وسط أرض مسورة خاصة بهُ، وله حارس عند الباب. هنا في هذا المبنى تقام حفلات الاستقبال في المناسبات الخاصة بالدولة، حيث يمكن لغير الرسميين أن يحضروا بزي داكن وطربوش أحمر ليعبر عن احترامه وولائه لأولي الشأن.

وعلى طول الشوارع الرئيسية في هذا الحي-بالرغم من أنها مجرد ممرات متربة- تتجمع قليل من المنازل والمحلات، لكن السمة التي تغلب على مساكن الحي هي طابع مساكن الأتراك، فهي تتوسط حدائق زاهرة، ومحاطة بأسوار عالية من الطين.

ويفصل "بير العزب" مدينة صنعاء عن حيها اليهودي، الذي كان حتماً منعزلاً تماماً في وقت من الأوقات[28]. وقد بنى الأتراك امتدادا لسور صنعاء الكبير حول هذين الحيين، ولكنهُ امتداد لا يليق بعظمة السور.

ويستطيع الإنسان الحصيف أن يلحظ ذلك بدون مساعدة في عدة مواقع. وهذا الامتداد يكون أقوى وأكثر ارتفاعاً قرب الأبواب التي توجد ثلاثة منها "لبير العزب" وحي اليهود المعروف "بالقاع". ويخص اثنان من هذه الأبواب "بير العزب" ويفتح أحدهما إلى الجنوب على السهل المنبسط ويسمى "باب البلقا"[29]، والآخر يسمى "باب الروم"[30] ويفتح إلى الشمال على منطقة الحدائق، ويخترق الباب الأخير طريق مطروق للعربات إلى "الروضة"، ويفضل السير فيه في الأوقات الهادئة.

ولحي اليهود باب واحد فقط، تقوم بحراسته حراسة جيدة. قوة من الجند وأخرى من الشرطة الذين يتحرون المارة أثناء مرورهم، ويعرف باسم "باب القاع" أو "باب اليهود"[31]،وعبر هذا الباب يمر الطريق إلى "الحديدة" وإلى الساحل. وبيوت اليهود منخفضة ونادراً ما يرتفع إحداها عن طابقين، وهي مبنية من (اللَّبن) الطوب المجفف في الشمس، ومغطاة بالطين، ولم يسبق لي مطلقاً أن رأيت منزلاً حجرياً في هذا الحي.

وبيوت الأتراك في "بير العزب" لا تستحق إلا قليلاً من التقدير فهي أيضاً مطلية بالطين، وعاطلة من الزخرفة، فكل منها عبارة عن مبنى رخيص غير متين، وهياكلها تشبه الصناديق في معظم الأنحاء، ونوافذها غير مثبتة بدقة إلى حد كبير، وتسمح بتسرب الكثير جدا من الضوء والحرارة وتدفق منها مياه الأمطار بكثرة عند هبوب العواصف، أما حماماتها ومراحيضها فهي مصممة تصميماً بدائياً ولها تجويف رأسي إسمنتي في جدار المنزل الخارجي لتصريف المياه، وهي تشبه الطابع العربي، لكن تم بناؤها بطريقة أسوأ.

هذه كلها إنما هي عيوب صغيرة، لأنهُ رغم كل شيء فكل منزل تحيطه حديقة جميلة وربما معلقة، ولها شجيرات الرمان الضاربة إلى الحمرة، وشجيرات الورد الطويلة التي تحمل زهوراً ذات ألوان قرنفلية أو بيضاء أو مائلة إلى الصفرة. وربما كان الحماس المصلحي الذي يظهره البستاني الذي يشرف على الحديقة ويُسَوِّق منتجاتها حماساً مبالغاً فيه، فإنهُ من الصعب التجول بين مزروعاته من الكرنب والطماطم، فإنهُ يعتبر الممرات بين المزروعات أمراً غير ضروري، وأهم من ذلك أنك لا تستطيع التجول في الحديقة بنفسك، لذلك لا يمكنك التمتع بمنتجاتها أو الاقتراب منها.

وتروى كل حديقة من بئر في الأرض، وهو ذو نظام شائع في اليمن منذ قرون عديدة. وهذا النظام يقضي بوجود قائمين (عمودين) من الطوب أو من الحجارة، وهما يحملان قضيباً عبر البئر. ويحمل القضيب بكرة

خشبية كبيرة، يجري (يلف) عليها حبل البئر، الذي يعلق الدلو في أحد طرفيه-عادة يكون الدلو من جلد عجل أو ثور بعد التخلص من الرأس والذيل والأطراف- والطرف الآخر من الحبل يربط بجمل هادئ أو بقرة ذات سنم عند الرقبة. وفي أسفل الدلو الجلدي المدبوغ[32] يربط حبل لإعطاء إشارة تنبيه وهذا الحبل يجري فوق قضيب خشبي دوّار عند فتحة البئر، ثم يمد الحبل إلى سرج الدابة أو إلى ما يوضع فوق كتفيها، وهي التي تقضي معظم وقتها في الصعود والهبوط على أرض منحدرة يتناسب طولها مع المسافة بين وجود المياه في البئر وبين سطح الأرض[33]. ويميل الانحدار من فتحة البئر إلى أسفل حتى يساعد الدابة على سحب الدلو المملوء إلى أعلا[34]. ويقف العامل عند حاجز البئر إلى جانب دابته الصبورة، ويده مرفوعة إلى أعلا حاملة عصا، وهو يغني مقاطع قليلة من أغنية قديمة ذات دلالة حتى يمتلئ الدلو في أسفل البئر، عندئذ تدوي العصا بصوت عال إذا لم تكن الدابة الذكية قد بدأت تنزل المنحدر عند نهاية مقطع الأغنية كما تفعل دائماً. وعندما يصل الاثنان معاً إلى أسفل المنحدر، يكون الدلو قد وصل أعلا البئر محدثاً صوتاً عالياً، عندئذ يفك العامل الحبل الذي بأسفل الدلو، ويندفع الماء إلى مجرى حجري، يملأ صهريجاً بجانبه، وتروى الحديقة من هذا الصهريج عن طريق قنوات الري المتفرعة منهُ طبقاً للحاجة[21]. وفي بعض الأحيان يستخدم دلوان ودابتان في بئر واحد وربما يرى المرء في الغالب جملاً وثوراً يعملان جنباً إلى جنب. وتوحي "أغنية البئر" الحزينة بالكدح الذي طال أمده، وبالتحمل الصابر على تقلبات الطبيعة، هذه الأغنية مصحوبة بالحشرجة الموسيقية التي تنبعث من صرير عجلة البكرة، فإن هذا كله يكون لهُ سحره الخاص الذي ينسجم مع أيام مشمسة وليالي قارسة البرد في مدينة قد أغفلها العالم وتعد نصف منسية.

وبيوت الأتراك في بير العزب فسيحة وذات هواء طلق، أما البيوت القديمة فهي غالباً تسكنها الأوبئة القاتلة، التي قد لا يمكن أن تتجاهلها فلسفة، أو يزينها شاعر، فهي مبتلاة بالحشرات الوفيرة التي تعيش في الحيطان وفي الأماكن المصنوعة من الخشب، والتي تخرج من شقوقها ومخابئها لتزعج الإنسان حتى في وضح النهار. والملاذ الآمن الوحيد هو سطح المنزل المنبسط حيث حرارة الشمس الحارقة نهاراً، والبرد القارس ليلاً، فهذا هو المأوى من هذه الحشرات.

ويمكن من سطح منزل عالٍ في الجهة الشمالية من "بير العزب" مشاهدة منظر جميل حسن لصنعاء وما يحيط بها.

خلف السور خارج "باب الروم"، يمتد شريط أخضر من أشجار الأثل الرفيعة الأغصان ومن أراضي البساتين، التي تندمج في سهل مفتوح يميل إلى جهة الشمال بين صفين عريضين من التلال المنخفضة. وعلى طول هذا السهل المتدرج توجد على مسافات متباعدة أبراج مستديرة[35] مبنية من طوب قديم (اللَّبن) تم تجفيفه في الشمس، كانت تستخدم كأبراج للمراقبة، ولحراسة الطريق إلى صنعاء. ولا تتحمل هذه الأبراج الصمود أمام المدفعية الحديثة كما يبدو بوضوح من مظهرها البالي، فهي تشبه قطع الجبن العفنة. وخلف هذه الأبراج يوجد نتوء طويل منخفض من الحجر الجيري تجاه "الروضة"، التي تُشاهد رغم الضباب مشاهدة غير واضحة مثل شمعدان مسطح ترتفع في وسطه مئذنة. وشمال "الروضة" يغيب السهل عن النظر في رقة بالغة، ويمكن للرائي أن يشاهد الميل الشمالي الشرقي لوادي "الخادر" منساباً إلى "الجوف".

وبالنظر تجاه الشرق عبر منطقة البساتين والمدينة يستطيع المرء أن يحصي مآذن صنعاء المذهبية[36] أمام النتوءات الداكنة لجبل "نقم".

وفي اتجاه الجنوب، عبر منازل بير العزب، يوجد سهل مستوٍ عارٍ يمتد إلى التلال المنخفضة التي تكاد تسد الأفق الجنوبي والتي تبعد حوالي ثمانية أميال[37]. ومن خلال فتحة بين هذه التلال وبين حافات جبل نقم

الخارجية يمتد الطريق (من صنعاء) إلى الجنوب.

وباتجاه الغرب، توجد منازل حي اليهود المبنية من الطين والتي لا ملامح لها، وخلفها، توجد الحافة المنخفضة السوداء لجبل "أسود"[38] التي تطوقها جبال أطول منها، والتي عبرها يمتد طريق الحديدة- صنعاء.

والمنطقة المحيطة (بصنعاء) تفتقد عظمة مرتفعات اليمن الحقيقية، لكنها تمتلك إغراء خاصا بها لمن يبحثون عنهُ.

ويعتبر السهل العريض[39] المفتوح الذي يتجول فيه الفارس كما يشاء في جو منعش، يعتبر ميزة في حد ذاته، إذ يندر أن يجد المرء في المرتفعات الحقيقية قطعة أرض مستوية فسيحة نسبياً بالقدر الذي يكفي أن يكون ملعباً للتنس.

وحتى في أيام الصيف الحارة، يكون الصباح بارداً منعشاً وذلك قبل أن تعتلي الشمس قمة "جبل نقم". حينئذ يكون الوقت المناسب الذي يشعر المرء فيه بالانتعاش. فيخرج من "باب الروم"، حاملاً بندقية في يده، متجاوزاً الحارس النائم، وبعيداً خلال أميال عدة بين أشجار الأثل ذات الغصون الرفيعة التي يبللها الندى، يمكن اصطياد أرنب أو اثنين وربما طائر الشُنْقُب ذي المنقار الطويل وذلك على طول غدير "آلاف".

ويمكنك أن تجلس على بعض الحشائش على حافة الغدير وتنظر إلى السماء الزرقاء الصافية من خلال أغصان الأثل الرقيقة، وتنتظر هجوم الحمام باحثاً عن ضالته المنشودة من الطعام. وقد تحييك إحدى هذه الحمامات بتحية حميمة فتقذفك بقوة بشيء ما من مكانها العالي فوق الأغصان، وعندما تكون فريستك في القبضة، عندئذ يمكن أن تشاهد فئران الحقول تهرب بعيداً على طول ضفاف مساقي المياه المغطاة بالحشائش، وتغطس في جحورها، وهي كائنات لامعة العينين، مذعورة دائماً، تسرع بالاختفاء إذا أتيت بحركة من أحد أطرافك وكأنها طيف وَهْم أو خيال.

وسوف يثرثر معك مرافقك بلطف وبصوت منخفض حول الأسعار في السوق وقيمة ما دفعوه مؤخراً، أو عن الشئون الداخلية للدولة من وجهة نظر الأهالي، بينما أنت تراقب الفراشات ذات الأجنحة المائلة إلى الصفرة وهي ترتعش طائرة بين الأغصان ذات الأزهار البنفسجية، حتى تعيدك إلى نفسك الأصوات العالية للحَمَامَات الرمادية الضاربة إلى الزرقة وهي تنتقل كالعاصفة فوق الأغصان الرقيقة لشجرة الأثل.

والشخص الغريب الذي لهُ علم بحياة الريف سيجد ترحيباً خارج أسوار صنعاء أفضل من داخلها، فبها يكون الغرباء غير مرغوب فيهم، وحتى الأتراك قد تناقص وجودهم منذ صدور الفرمان[40] الذي يقضي بأن يحكم الإمام طبقاً للشريعة الإسلامية.

لقد كانت صنعاء في يوم من الأيام مشهوداً لها بصناعاتها الحرفية، ومع أن الأشغال الصنعانية في مجال الصناعات والأواني النحاسية، لا بل وصناعة المداعة (النرجيلة) الصنعانية، مازالت تتمتع بشهرة مؤكدة في الشرق، إلا أن الصناعة بها في حالة متدنية الآن.

وتوجد جميع الأسواق في الجهة الشرقية من المدينة العربية، إلى الداخل من باب اليمن حيث يوجد سوق اللحم.

وهذه الأسواق كانت في يوم من الأيام مفخرة الجزيرة العربية، ولكن الآن قد تتجول فيها من أولها إلى آخرها فترى أن المحلات الكبيرة وكذلك الأكشاك الشعبية على السواء مملوءة بقماش الشيت والأقمشة المطبوعة والأحذية الرخيصة، والبضائع الخادعة من أوربا، تلك التي تشير إلى حضارة مزيفة[41].

وعمال الصناعات والأواني النحاسية، الذين جذبوا أنظار المغول[42] إلى منتجاتهم في يوم من الأيام، قد حل محلهم رجال حصروا جهودهم في صناعة الأدوات التي تستعمل يومياً، وذلك على حد قولهم للكساد التجاري الذي قتل سوق العمل الفني. وربما نجد حتى الآن تحت المناضد التي يعملون عليها أكواماً من المحابر النحاسية القديمة، والأباريق، وأواني عليها نقوش محفورة، مما كان يزين في يوم من الأيام قصر أحد الأئمة، وهي

الآن تنتظر دورها لتصهر ويعاد تشكيلها أواني نحاسية أو مطلية بالنحاس غير دقيقة الصقل يمكن بيعها بشكل سريع. وليس هناك محلات للبيع تستحق الذكر في حي "بير العزب" رغم أنهُ يمكن الحصول على الفواكه والخضروات الطازجة بصفة دائمة من حدائق هذا الحي، وأغلب هذه المنتجات يسوقها مزارعو البساتين تلك التي تعتبر دائماً أسواقاً مفتوحة للتعامل.

وفي الحي اليهودي، توجد أسواق طويلة متعرجة، حيث يمكن أن تشتري منها المطبوعات والأقمشة الأوربية، وكثير منها ذات تصميمات شرقية مما لا نشاهده مطلقاً في أوربا. وتباع بكثرة المنسوجات الصوفية ذات الألوان المختلفة في هذه الأسواق وفي صنعاء نفسها، لأن اختلاف درجات الحرارة الواضح خلال الأربع والعشرين ساعة جعل هذه الأقمشة شيئاً مرغوباً فيه. وربما في صنعاء يشتري الإنسان "جِرَم" (كرك) وهو جاكيت طويل بدون أكمام من جلد الخراف، وهو مدبوغ وناعم، ومصبوغ بنقوش هندسية، وتكون فراء الصوف منهُ إلى الداخل.

ويدير اليهود معظم المحلات الكبيرة في صنعاء نفسها، ولكن عليهم أن يغادروا المدينة قبل حلول الليل ويعودوا إلى حيهم، لأنهُ غير مسموح لأي يهودي أن يعيش في صنعاء المقدسة،ويستثنى من ذلك خدم المنازل إذا كانوا في خدمة فعلية. وأي شخص لا يستطيع أن يعمل بدون شراب قوي فإنهُ سوف يقضي وقتاً سيئاً في صنعاء. ويقوم اليهود بصناعة النبيذ من العنب الوفير الذي يسهل الحصول عليه في موسمه، وأيضاً يستخرجون العرق من البلح المخمر، غير أن ذلك لا يتم إلا في سرية تامة، لأنهُ يتعارض مع قواعد الشريعة الإسلامية الصارمة، التي تقضي بتوقيع عقوبات قاسية على كل من البائع والمشتري، ويكون موقف الشخص الأجنبي خطراً للغاية في صنعاء إذا لم يمتنع عن هذه المخالفة. وهناك شارع به محلات تزعم بأنها مقاهي، وهي ملتصقة بالسوق العربي، وكثير ما يرتادها الأتراك وهي معروفة عند العرب بوجه عام باسم "الكازينو". وفي هذه المقاهي يستطيع الشخص الذي تعوّد ارتيادها أن يحصل على شراب أقوى من القهوة بالرغم من الشريعة الإسلامية. ويقضي أهالي مدينة صنعاء جزءاً من وقتهم في تقليب وجهات النظر في قواعد الشريعة لانتهاكها، وذلك على أمل التخلص من ديونهم القديمة. وفي نفس الوقت يتضاءل حجم التجارة بسرعة، مما قد ثبط همة التجار الأجانب، وحتى التجار اليهود قد بدءوا في التخلي عنها لأنهم غير قادرين على وقف الكساد التجاري العام، ويزيد إنهاكهم باستمرار تلك العبارات البالية التي يرددها البعض باسم الشريعة.

وقد قدر المستكشف "هاريس" سكان صنعا في عام 1891م بأنهم حوالي 50.000 نسمة، وذكر آخر قنصل [في عدن] في عام 1905م بأنهم حوالي 20.000 نسمة. وليس هناك إحصاء رسمي للسكان، كما أني لا أملك وسيلة لاختبار صحة تلك الأرقام، لكن عدد المنازل الخالية من سكانها، كذلك الكساد التجاري المتواصل تشير جميعها إلى نقص عدد السكان.

ورغم سقوط صنعاء من منزلتها العالية السابقة بين مدن الجزيرة العربية، فإنها مازالت موضع فخر سكانها، كما أنها موضع إعجاب القبائل المحيطة بها. ويوجد في التلال المجاورة العقيق والعقيق الأحمر وغيرهما من الأحجار الكريمة، التي تشير ألوانها على حسب التقارير الأولية عن وجود أحجار كريمة أخرى لم تكتشف وقد اهملت الحدائق المحلية إلى درجة كبيرة، ولكنها ما زالت جميلة بدرجة كافية بالمقارنة بالتلال المجدبة المحيطة بالسهل. وتحكي المعتقدات المتوارثة أن أحد أهالي صنعاء الأثرياء قد قرر مغادرتها في رحلة طويلة. وكان قد بدأ رحلته فعلاً حين أتاه صوت من السماء يبلغه بجهله ويذكره بمزايا المدينة التي كان يغادرها فعاد أدراجه وألغى كل تفكير في رحلته نهائياً[43].

إن موقع صنعاء المنعزل، وهي مدينة مسورة في سهل تحيطه تلال جرداء، قد ساعد على خلق لهجة بها وعلى الاحتفاظ بهذه اللهجة، وبالتأكيد قد أوجد شعوراً بالتعالي بين أهلها.

وحتى الآن لم تستطع صنعاء أبداً أن تحدد سياسة، أو تتخذ موقفاً حازماً إلى جانب مثلها العليا، لكنها بالأحرى قد استسلمت للقوى الخارجية بدون مقاومة، وهي مستعدة أبدا للتودد لصاحب السلطة العليا لتنقذ نفسها.

والآن قد بدأت تشعر بالقبضة القوية للشريعة التي استخدمها الإمام للسيطرة عليها. وقد رحبت صنعاء بالاتفاقية دعان[44] وأكدت تسلط الإمام عليها بإيقاد المشاعل فوق المنازل[45] وبالحشود ذات الهتافات العالية. أما الضباط الأتراك الذين قدموا مع عزت باشا لفك حصارها منذ ثلاث سنوات مضت فهم الآن يُسبون ويُلعنون من قبل التجار الكبار الذين يتقربون إلى الإمام الآن ويفهمونهُ بأن موقفهم من الأتراك إنما كان من الأمور السياسية فقط، رغم أن التاريخ قد علمهم ما هي الكوارث التي جرها عليهم الإمام.

إنهم يجدون الآن أنهُ من المناسب أن ينسوا كيف كانوا يبكون ويفركون أيديهم ألماً عندما كشف الفجر الرمادي عن أتباع الإمام يندفعون في حشد كبير بين أشجار الأثل في سهل صنعاء، بينما تدوي مدافع الأتراك من فوق أسوارهم لحماية المدينة.

والآن تسخر صنعاء من حكم الأتراك، وتضع الإمام على قمة الوطنية التي لم تكن من صفاته أبداً.

وهي في زهوها هذا، فإنها تعتقد أنها محرمة لا تنتهك[46] [هجرة] فهي دائماً تتضاءل في قبضة عدوها، لذلك تضمن لنفسها علاقات طيبة. وحتى الآن مع وسائل دفاعها غير المناسبة، فإنها لم تكن أبداً أكثر تعرضاً للهجوم مثل هذه الأيام، حيث قامت المؤسسة التجارية الجديدة بتسليح رجال القبائل البعيدة بالأسلحة الحديثة. لقد تذمرت صنعاء من الترك، وفشلت في أن تفهم بوضوح أن فرق الترك العسكرية هم حماتها الوحيدون لأن الإمام بدون المساندة العثمانية سوف يكون مثل العود المكسور يوم تقوم الاضطرابات القبلية.

وأهالي صنعاء لا يميلون إلى الحرب، وأيضاً يتسمون بالحقد، وهم مستعدون دائماً للفتنة والعصيان، ومع ذلك فهم ينكمشون أمام عواقبها الدموية.

هناك تقف المدينة في عزلتها وتكبرها مثل بقرة سمينة وسط الذئاب، ترقبها بحدة من بعيد القبائل السنية المولعة بالحرب من أجل سلبها ونهبها، بينما تنظر إلى عظمة صنعاء القديمة وكأنه مجرد زهو أجوف، وإلى سكانها بأنهم ليسوا أحسن حالاً من الملاحدة.

الهوامش

1. gro hmann adolf : ararhen , munchen ,1963 ,p.99
(ترجم إلى الدكتور يوسف عبد الله العبارة المقتبسة (من لغتها الالمانيه)

2. سلطان ناجي: ما ساهم به الكتاب الغربيون في دراسة جنوب الجزيرة، عدن،دراسات، مؤتمر الخريجين،العدد الثاني،تموز (يوليو) 1965،ص 29 — 30.

3. هذا هو عنوان الفصل الذي ترجمناه وهو الفصل الرابع من كتاب:
G : wyman bury : arabha hnfelhx the turks hn yames, macmhllam and co . limited ,
St martin,s street , London , 1915 ,p.p 69 - 82

4. صعب تحديد تاريخ بناء هذه القلعة ولكن الأرجح أنها بنيت عقب هدم قصر غمدان الشهير، وكانت القلاع دائماً من معالم مدينة العصور الوسطى لحمايتها ولتكون مقراً لحكامها ، ويعتقد أنها قد بنيت خلال القرن الأول الهجري ثم أضيفت إليها إضافات عبر القرون، لذلك فهي تحتاج إلى دراسة أثريه خاصة. ويقول د. يوسف عبد الله " اعتاد حكام صنعاء علي بناء قصر في اعلي مكان من صنعاء من جهة الشرق، وكانوا يسمونه قصر غمدان وقد يعرف بقصر صنعاء أو القصر فقط، وكان ذلك القصر مقراً للحاكم وقلعه حصينه بأبراجها و مرافقها خاصة في فترات حكم

آل مهدي والأيوبيين والعثمانيين والأئمة، علي أن بدر الدين حسن بن علي الرسول قد بنى هو أيضا قصراً كبيراً عام 618هـ في المكان نفسة. وفي العهد الحديث سمي قصر غمدان (أي القلعه) بقصر السلاح تمييزاً له عن القصر الجمهوري ومازال قائماً إلى اليوم (الإكليل: العددان 2؛3 السنه الثانية، 1983، ص 288)

5. يشير إلى حصار الإمام يحي لصنعاء عام 1911م.
6. المقصود هو حصار صنعاء عامي 1905م، 1911م.
7. الحقيقة أن هذا الغيل كان لا ينبع " من عين في المدينة " ولكنه ينبع من خلف الأكمتين أو الحدين، وهما تلان صغيران إلى الجنوب من صنعاء ويعرفان حالياً باسم النهدين. ولهذا السبب وهو انه ينبع في مكان ويسقي في مكان أخر، لقد ضرب به المثل فكان يقال: " مثل غيل الاف يسقي لغير أهلة ".
8. خلط المؤلف بين "غيل الاف " وبين " السائلة " الرئيسية بصنعاء فمياه غيل الاف تنتهي إلى قنوات صغيرة لري أراضي " شعوب " شمال صنعاء، أما مياه" السائلة " فتصل إلى "الخارد " وتغذية.
9. ربما يشير المؤلف إلى حملة آليوس جاليوس عام 24 قبل الميلاد والتي وصلت إلى نجران وعادت فاشلة إلى مصر.
10. يعرف باسم الطنب.
11. يسمي في صنعاء" الفرخ ".
12. يعرف باسم " الجر ".
13. تسمى " مواشق ".
14. لم يفهم المؤلف تماماً اهمية هذه الكوات الصغيرة بالنسبة لمنازل صنعاء، وقد لا نختلف معه تماماً في أنها كانت تستعمل للدفاع عن المنزل عند الضرورة القصوى، ولكن من المعروف عن الدور الأرضي بالمنازل الكبيرة انه كان بمثابة مخازن أو لمبيت البهائم أو " القراش "، لذلك ففتحاته ضيقة، وتتسع فتحات المنزل كلما صعدنا إلى الأدوار العليا به.
15. ليس هناك ما يعرف بالطابع الزيدي في المعمار اليمني، وربما قصد المؤلف تأكيد مذهبية صنعاء تعبيراً عن وجهة نظرة الخاصة كما سبق أن ذكرنا. ومن المعروف أن الآثار الإسلامية بالمدينة ترجع إلى عدة دول وعهود مختلفة، فالي جانب مسجد الزمر (بنسب الي ازدمرباشا) ومسجد البكيرية (ويشتهر باسم البكيلية) يوجد مسجد قبة المهدي عباس، وحتى جامع صنعاء الكبير لا يتسم بنائه أو أعمدته الأسطوانية بسمة معمارية واحدة نظراً لتعدد مراحل بنائه وتوسعاته.
16. من المرجح أن المؤلف قصد السائلة (السايلة، السيلة) الرئيسية بصنعاء كما يفهم من سياق الحديث، وهي التي تصل إليها مياه الأمطار التي تسقط علي جبل اللوز بمنطقة خولان إلى الجنوب من صنعاء، وهي تفيض بالمياه في موسم الأمطار.
17. لا ادري هل اشتهرت السايلة باسم " شعوب " في زمن المؤلف أم انه اسماها هكذا لأنها تتجه إلى شعوب شمال صنعاء.
18. وضع المؤلف نفسة هذه العبارة بين قوسين، ويبدو انه أكد علي عروبتها لتمييزها عن الحي التركي (بير العزب)، والحي اليهودي.
19. البونية هي الجزاء الشرقي من حي بير العزب، ويليها الحي اليهودي وكتابتها في النص الإنجليزي تعبرعن دقة المؤلف في كتابة الأسماء، وربما كان يكتبها كما يسمعها.
20. لاشك أن سور صنعاء قديم قدم المدينة نفسها فمن المعروف إن سور العصور القديمة والوسطي كانت تهتم بحماية نفسها ببناء سور حولها، لذلك فان تحديد تاريخ بناء سور صنعاء أمر صعب يحتاج إلى بحث اثري خاص. وقد حاول الدكتور يوسف عبد الله في مقالته سالفة الذكر التوفيق بين ما جاء في روايات المؤرخين القدامي وبين ما جاء في نقش قديم اكتشف حديثاً فانتهي إلى " أن ملك سبأ (شعرم أوتر) هو الذي أوصل بنيان القصور وأحاط صنعاء بحائط (الإكليل: ص 283 –285) ، ومن البديهي أن يتعرض السور للهدم والتخريب من حين إلى آخر بفعل عوامل الزمن أو الحصار أو التخريب من قبل بعض الحكومات عند انسحابها من صنعاء حتى لا يستفاد منة المنتصر كما حدث علي يد السلطان علي بن حاتم الهمداني لدي سماعة قدوم توران شاة الأيوبي، ومن البديهي أيضا أن تهتم بعض الدول التي حكمت صنعاء بتجديد السور وإصلاح ما خرب منة، وقد تكرر هذا علي مر التاريخ وخاصة عندما تحكم صنعاء حكومات غير يمنية تخاف أن يباغتها هجوم مفاجئ، فقد اهتم طغتكين الأيوبي بإصلاحه وتقويته، كذلك فعل بعض الولاة أثناء الحكم العثماني الأول والثاني في اليمن. وقد استمر الاهتمام بالسور حتى قيام ثورة سبتمبر 1962م فازيلت معظم أجزائه ولم يبقي منه إلا القليل.
21. تؤكد هذه العبارة عدم دقة المؤلف في النواحي التاريخية كما سبق أن أشرنا فقد بني سور صنعاء قبل وجود الأئمة والأتراك معاً.
22. لمزيد من التفاصيل عن هذه البوابات يرجع إلى مقالة القاضي محمد الأكوع بمجلة الإكليل ففيها تعداد لها ونبذة عنها، وقد هدم معظمها بعد ثورة سبتمبر 1962م لضروريات العصر مثل تسهيل حركة السيارات. (الإكليل: العدد الثاني والثالث، السنة الثانية، 1403 هـ – 1983م، ص: 24)
23. يكاد يكون باب اليمن هو الباب الوحيد الباقي إلى الآن، ويقع جنوب صنعاء القديمة، ويفتح إلى الطريق المؤدي إلى جنوب البلاد أي إلى اليمين أو اليمن كما هو شائع للتعبير عن ناحية الجنوب. ويقال إن الوالي التركي احمد فيضي باشا ادخل عليه اصطلاحات في بداية القرن الحالي، وهو لذلك مازال يحمل مسحه معمارية تركية، وقد سمي بعد الثورة باسم " باب الحرية ".
24. لم تشر المراجع المعاصرة إلى فتور الحركة علي هذا الطريق كما ذهب المؤلف، لكن يبدو أن المؤلف قد يعني وجود ثكنات عسكرية بناها الأتراك أثناء حكمهم الثاني لليمن (1872–1918م) وما زالت قائمة إلى الآن واشتهرت باسم " العرضي ". وربما أيضاً

أن المؤلف قصد الإشارة إلى الحشود التي اشتركت مع علي سعيد باشا في الهجوم علي لحج وعدن بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى.

25. كان باب السبح (السبحة) يقع من ناحية ميدان التحرير عند أول الشارع المعروف باسمه الممتد من الميدان إلى السيلة (السايلة) وكان يفصل بموقعه هذا بين المدينة الأصلية وبين امتدادها إلى بير العزب والحي اليهودي، وكانت مديرية آمن صنعاء حالياً تقـع إلى يمـين الخارج منه.

26. كانت الصيدلية والمستشفي العسكري تحتلان المحلات التي تقـع فيها حالياً جزء من مبني التوجيه المعنوي للقوات المسلحة ومـبني وزارة المواصلات الجديدة.

27. يعتبر ميدان التحرير الحالي جزاء من ميدان شرارة، وكانت تحفة قصاب خانه (المجزرة) ثم المستشفي العسكري ومدرسـة الوحـدة (حاليا) ودار الصنايع (المتحف الحربي حاليـاً) وجـامع الزيلـي والسور إلى باب خزيمة (المقبرة).

28. وهي التي أصبحت المدرسة العلمية فيما بعد، ومازال المبني قائمـاً بجوار مبني الشورى الحالي.

29. كما ذكرنا من قبل أن المؤلف كان لا يدقق كـثيراً في النـواحي التاريخية، ومن المرجح أن حي بير العزب قد أنشي في فترة الحكم العثماني الأول لليمن (538ام- 635ام) خارج مدينـه صـنعاء القديمة حتى لا يضطروا إلى البقاء في صـنعاء المكتظـة بجانبهـا وسكانها.

30. تهدم بعد الثورة، وكانت بقاياه قائمة إلى السـبعينات ثم أزيلـت وكان يقع شرق المستشفي الجمهوري بقليل، ومازالـت المنطقـة تعرف باسمه.

31. كان يقع محل وزارة الثقافة والإعلام ومبنى الإذاعة حالياً وقد أزيل عقب الثورة.

32. ظل جدار هذا الباب ونوبته (برجه) قائماً إلى السبعينات ولكـن بدون الباب الخشبي ثم أزيلت هذه البقايـا لمقتـضيات المـرور حينذاك، وكان يواجه مبني الكهرباء وسور الجامعة.

33. يعرف هذا الدلو في المناطق الجبلية من اليمن باسم " المسني " وقد يطلق هذا اللفظ علي الدلو والبئر، كما كان الفعل " يسني" يعبر عن خطوات رفع المياه من البئر لري الأراضي، فيقـال إن فـلان ذهب يسني للتعبير عن جميع الخطوات التي سجلها المؤلف.

34. يطلق علي هذا الانحدار لفظ " المرنع".

35. مازال قليل من هذه الأبراج قائماً علي طول الطريق من صنعاء إلى المطار، وتعرف بالنوب ومفردها "نوبة". وقد أزيل معظمها أمـام امتداد المباني الحديثة وزحف العمران الذي التهم الأراضي الزراعية التي يشير إليها المؤلف.

36. تأكيد آخر لوجهة نظر المؤلف في أن صنعاء مدينه زيدية فقط كما سبق أن علقنا.

37. يشير المؤلف هنا إلى التلال التي تقع عند سفوحها قري حدة وسنع وزبطان وحمل وغيرها، كذلك إلى التلين المعروفين باسم الحدين أو النهدين.

38. هذه إشارة أخرى إلى عدم دقه المؤلف في كتابه أسماء الأمـاكن، فمن المرجح إن المقصود هنا هو جبل "عصر" ولكنه كتبة aswad ولعل هناك خطأ مطبعي في نهاية الكلمة.

39. المقصود هو قاع صنعاء الذي كان يمتد من أسوار المدينة إلى جبل عصر وعيبان ومن الروضة إلى حده وقد غطيت هذه المساحة حالياً بالمباني.

40. يشير المؤلف إلى اتفاقية أو صلح دعان 1911م (1329هـــ) بـين الإمام يحي واحمد عزت باشا.

41. إشارة إلى الحضارة لأنها حضارة صناعية آلية أما صناعة صـنعاء فكانت – كما يري – تعتمد علي المهارة اليدوية ودقتها.

42. من المعتقد انه كان يقتصر حكام الهند، أو حكـام شـرق آسـيا عموماً.

43. ذكر الرازي في كتابة: تاريخ مدينه صنعاء (تحقيق الدكتور حسين العمري) إشارات عدة إلى مثل هذه القصة.

44. اتفاقية دعان 1911م.

45. يطلق علي هذه العادة لفظ " التصير".

46. كانت صنعاء دار هجرة فيحرم فيها القتل أو النهب.

الدور الاجتماعي للمرأة في اليمن القديم

دراسة من واقع النقوش اليمنية القديمة[1]

د. عميدة محمد شعلان*



جـاءت معارفـنا عن المرأة في اليمن القديم من خلال الآثار والنقوش اليمنـية القديمـة[2] التي بينت لنا الدور الذي تقلدته المرأة في عهدها سواء الاجـتماعي أو الديني أو السياسي. حيث تشير النقوش التي قدمت من قبل النسـاء أنفسهن، وهي نقوش تتعلق بأمور دينية أو دنيوية، كنقوش النذور ونقوش الخطيئة والتكفير ونقوش البناء ونقوش الصيد، هذا وإلى جانب ذلك فقـد دونـت أسماؤهن على التماثيل واللوحات الجنائزية وشواهد القبور. كذلك ذكرت المرأة في نصوص المراسلات الشخصية أو التجارية (النصوص الـتي كتبـت بخـط الـزبور)[3] وربمـا أيضاً في العملات اليمنية القديمة (Sholan 1999: 7). هذا وإلى جانب ذلك فقد شاركت المرأة الرجل في الـنقوش التي كتبت من قبل كليهما أو من قبل الرجل فقط وذكرت المرأة فيها، وهي نقوش تتعلق بأمور الحرب والنذور والبناء....إلخ.

مـن كل هذه النقوش أستقينا بعض المعلومات عن النظام الأسري في اليمن القديم، حيث ذكرت المرأة بأنها هـي: *أخـت وبنـت وإمرأة وأم وزوجة وقرينة ورفيقة وأرملـة ووريثة*. كذلك أفصحت لنا النقوش عن بعض أوضـاع المرأة الإجتماعية والدينية والسياسية في اليمن القـديم، حيـث ذكرت المرأة بأنها هي: *جارية وخادمة وراعـية وسـيدة وكاهـنة وملكة ونائبة الملك في أمور إدارية وعسـكرية أو مدبرة أمور قصر الملك أو بيت الملك*.

وما من شك بأن هؤلاء النساء التي جاء ذكرهن في

* أستاذ آثار ولغات الجزيرة العربية المساعد، في قسم الآثار-كلية الآداب-جامعة صنعاء.

النقوش اليمنية القديمة كان لهن شأن في مجتمعهن، بل إن صاحبات هذه المناصب ومن وصفن بها ذوات دور اجتماعي مرموق وبارز في مجتمعهن.

وفي هذا البحث سنتناول الكلمات التالية حسب الترتيب الأبجدي: *أمت، بعلت، خدمتن، سهم، قرشت، مقتويت، ملكت* مع دراسة مدلولها اللغوي ومقارنتها باللغات السامية [4].

أمت: "خادمة، جارية". (بيستون وآخرون 1982: 5; Arbach 1993: 5; Ricks 1989: 11). كلمة عرفت في اللغات السامية بمعنى "خادمة، جارية"؛ ففي اللغة العربية أمة (ابن منظور ج 14: 45)، بالإثيوبية أمَتْ (Leslau 1991: 26)، بالعبرية أمآه، بالسريانية أمتا، بالفينقية والأجاريتية أمت والأكادية أمتو. (Cohen 1970: 22). وجاءت هذه الكلمة في حالة المفرد والجمع في النقوش التي ذكرت أسماء النساء منها النقوش السبئية المنشورة حتى الآن أكثر من 28 مرة، وفي القتبانية وردت مرتين، وفي الحضرمية وردت مرة واحدة.

بعلت: "سيدة، كاهنة". (بيستون وآخرون 1982: 25؛ Arbach 1993: 19; Ricks 1989: 31) أشتقت الكلمة من الاسم بعل، وهي معروفة في اللغات السامية بمعنى "سيدة، كاهنة، مالكة") ابن منظور ج 11: 59؛ (Leslau 1991: 84. وجاءت في النقوش السبئية التي ورد ذكر أسماء النساء فيها بصيغة المفرد بعلت والمثنى بعلتي.



خدمتن: "الخادمة". من الجذر خدم، والتاء للتانيث، والنون أداة تعريف في اللغة اليمنية القديمة التي تقابل أل التعريف باللغة العربية. وردت هذه الكلمة حتى الآن مرة واحدة في نقش سبئي، وتعني "الخادمة أو الجارية"، ففي السبئية خدمت (بيستون وآخرون 1982: 59)، وفي المهرية خَدميت (Johnstone 1987: 438)، وبالعربية خادمة (ابن منظور ج 12: 166).

سهم: "جارية، خادمة". ترجم المعجم القتباني هذه الكلمة بـ "جارية، خادمة" (Ricks 1989: 158)، كذلك فقد ترجمتها ماريا هوفنر بمعنى "خادمة أو عبدة" (Höfner 1987: 43)، أما محمد بافقيه ففسرها بمعنى "جارية"، وقد وردت في النقوش بمعنى ما يغنمه المحاربون خاصة في النقوش القتبانية، ومن الجزء الذي يقتسم من الغنائم بين المقاتلة. ويرى بافقيه بأن هذه الكلمة ما هي إلا لهجة بمعنى "أمت" في النقوش الأخرى (بافقيه 1994: 22).



قتبيتن: جاءت بهذه الصيغة مرة واحدة في نقش قتباني (YM 14645, Sholan 1999: 62)؛ وفي الحضرمية وردت صيغة المثنى لمرة واحدة وترجمت بمعنى "خادمان" (Arbach 1993: 72).

قرشت: "راعية". يفسر المعجم السبئي قرش بمعنى "راعٍ" (بيستون وآخرون 1982: 107)، (Bāfaqī-Robin 1979: 39)، والتاء هنا للتانيث. فمن المعروف أن هذه الكلمة ما زالت حتى الآن حية بلهجة أهل اليمن؛ قارشة وجمعها قُراش بمعنى "البهيمة من الأنعام وخاصة (الحصان، الحمار). (Behnstedt 1993: 169; Piamenta 1990-1991: 392). جاءت في النقوش السبئية لمرة واحدة بصيغة المثنى قرشتي، وفي الحضرمية أيضاً جاءت لمرة واحدة ولكن

بصيغة الجمع وهي قرشهتن.



مقتويت: *"نائبة الملك في أمور إدارية وعسكرية أو ربما مدبرة أمور قصر الملك أو بيت الملك"*. اسم لمنصب إداري تقلدته إمرأة يمنية في اليمن القديم. صيغة المذكر مقتوي والجمع مقتت، ومقتويي. مشتق من الجذر قتو، في اللغة السبئية بمعنى "لقب خادم أو نائب ـ و مدبر عند ملك أو قيل أو قبيلة) (بيستون وآخرون 1982: 109). وفي اللغة العربية القَتْوُ والَقتا "حسن خدمة الملوك، كالَمقْتي، والَمقْـتَوونَ والَمقاتوة والَمقاتيةُ: الخُدّامُ، الواحد مقْتَوي ومَقْـتَي أو مَقْـتَوِين، وتفتح الواو غير مصروفين، وهي للواحد والجمع والمؤنث سواء، والميم فيه أصلية، من مَقَـتَ بمعنى "خدم" (الفيروز آبادي ج 4: 378)، أما في اللغة الأثيوبية أقْتَوَ بمعنى "حمل عل عاتق فلان، فرض على أو ألزم" (Leslau 1991: 452).

واضح من صيغ النقوش اليمنية أن كل من كان يحمل هذا المنصب له دور إجتماعي مرموق وبارز في المجتمع، ويتقلد هذا المنصب من أبناء القبائل اللذين لهم شأن ومكانة اجتماعية مرموقة.

ولم يستخدم هذا المصطلح كثيراً، حيث وردت كلمة مقتويت في خمسة نقوش سبئية منشورة حتى اليوم جاء ذكر أسماء النساء فيها. ويظهر من وظيفتهن هذه أنهن خدماً للملك، ويشاركون عادة قادة في المشاريع الحربية، وهي وظيفة محددة ذات أبعاد سياسية-عسكرية في المملكة السبئية منذ نهاية القرن الثاني ق.م إلى بداية القرن الثالث الميلادي. ويرى الشيبة أن هذه الفئة من الناس لم تمارس أي نشاط اقتصادي وكذلك لم يرد ذكرها في نقوش البناء، ولكن كانت تقوم بالسفارات السلمية وتشترك في الحملات الحربية (الشيبة 2000: 249).

ملكت: "ملكة". لم تكشف لنا النقوش اليمنية القديمة المنشورة حتى الآن عن ملكة حكمت أو تولت سلطة الحكم كملكة. وقد تناولت بعض المصادر موضوع ملكة حكمت اليمن منها التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، ثم المصادر العربية[5]. ولربما تكشف لنا الآثار المطمورة تحت الرمال مستقبلاً عن قصة هذه الملكة.

اللقب ملكت ورد في نقش سبئي واحد وهو (إرياني 13 السطر السابع) تدعى هذه السيدة (ملك حلك)، وقد ذكرت في هذا النقش على أنها ملكة حضرمية ويعتقد بأنها زوجة الملك الحضرمي إل عز يلط، ويبدو أن هذه السيدة تقلدت هذا اللقب بعد زواجها من الملك الحضرمي إل عز يلط. وفي نفس النقش السطر 11 ذكرت بأنها أخت الملك السبئي شاعرم أوتر.

الكلمة ملكت عرفت في نطاق واسع في اللغات السامية بمعنى "ملكة"، ففي اللغة اليمنية القديمة ملكت)بيستون وآخرون (1982: 25؛ Arbach 1993: 19; Ricks 1989: 3)، بالعربية مِلكة (إبن منظور ج 10: 492)، بالتجرية مِلكة (Leslau 1991: 343)، بالأرامية والسريانية مَلكا (Hoftijzer-Jongeling 1995 : 633)، وبالأكادية مَلكَتو (Soden: 595).

الهوامش:

1. نشـــرت الباحثة كتاباً بعنوان "أسماء النسـاء في النقوش اليمنية القديمة" باللغة الألمانية.
(Amida Sholan, 1999. Frauennamen in den altsüdarabischen Inschriften. Hildesheim).
2. عن مكانة المرأة في اليمن القديم أنظر (الشيبة 1998: 1–28؛ صالح 1985: 35–45؛ Breton 1998: 125; Frantsouzoff (im Druck) (Warburton 1995: 23;
3. أنظر نقوش خشبية قديمة من اليمن (ريكمنـــز وآخرون 1994).
4. تضـــم اللغات السامية أو كما يسميها البعض اللغات "الجزرية" (اللغة الأكدية بفرعـــيها البابلي والأشوري؛ والآرامية والكنعانية (الفينقية، العـــبرانية، المؤابية، الأوجاريتية)؛ العربية الشمالية (الصفوية، الثمودية واللحيانية)، والعربية الفصحى؛ العربية الجنوبيةالقديمة (السبئية، المعينية، القتبانية، الحضرمية والهرمية)، واللغات العربية الجنوبية الحديثة (المهرية، الســـقطرية، الشـــحرية، الحرسوســـية، الجبالية والهوبيوت)؛ والحبشية (الجعزية، التيجرية، التيجرينية، والأمهرية الهررية والجفنية).
5. للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع أنظر (مرسي 1988).

قائمة المراجع العربية:

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم، 1955–1966م. لسان العرب 15 جزءاً، بيروت.
- بيســـتون، ألفريد ف.ل.؛ محمود الغول؛ والتر مولر؛ جاك ريكمانـــز، 1982م. المعجم السبئي، بيروت، لوفان الجديدة، مكتبة لبنان، ودار نشريات بيترز.
- ريكمنـــز،جاك؛ والتر مولر؛ يوسف محمد عبد الله، 1994م. نقوش خشبية قديمة من اليمن، لوفان الجديدة.
- الشيبة، عبدالله حسن، مكانة المرأة في اليمن القديم، 1998م مجلـــة بحوث جامعة تعز. سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الأول، 1–28.
- الشـــيبة، عبد الله حسن، 2000م. دراسات في تاريخ اليمن القديم، تعز، مكتبة الوعي الثوري.
- صـــالح، عـــبد العزيـــز، 1985م. المرأة في النصوص والآثار العربية القديمة، مجلة دراسات الخليج والجزيرة 14، الكويت.
- عـــبد الله، يوســـف محمد، 1990م. أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، بحوث ومقالات، بيروت، دار الفكر المعاصر.
- الفـــيروز آبـــادي، مجـــد الديـــن محمد بن يعقوب 1952م. القاموس المحيط، بيروت، المؤسسة العربية للطباعة والنشر.
- مرســـي، محمـــد إبراهيم، 1988م. أضواء على ملكة سبأ، حولـــيات كلـــية الآداب جامعـــة الكويت الحولية التاسعة، الرسالة التاسعة والأربعون.

قائمة المراجع غير العربية:

- Arbach, Mounir, 1993. Lexique madhābien. Comparé aux lexiques sabéen, qatabanite et h adramawtique. Dissertation Aix-en-Provence.
- Bāfaqīh, Muḥammad, -Robin, Christian, 1979. Inscriptions inédites de Yanbuq (Yémen
- démoncratique), Raydān 2: 15-76.
- Beeston, Alfred F.L., 1984. Sabaic Grammar, Manchester, Journal of Semitic Studies,
- Monograph No. 6.
- Behnstedt, Peter,1993.Glossar der jementischen Dialektwörter in Eduard Glasers
- Tagebüchern, (Veröffentlichungen der arabischen Kommission 6), Wien.
- Breton, Jean-François, 1998. L'Arabie heureuse au temps de la reine de Saba', VIII e -I er Siècle av. J.-C., Paris.
- Cohen, David (Hrsg.) 1970-1999. [ab Fasc. 3: avec la collaboration de F. Bron et A.
- Lonnet]: Dictionnaire des racines sémitiques ou attestées dans les langues sémitiques. C
- Comprenantun fichier comparatif de Jean Cantineau. 8 Fasc.:'-z. Paris.
- Frantsouzoff, Serguei A., im Druck. Le femmeen Arabic du Sud antique.
- Höfner, Maria, 1987. Neuinterpretation zweier altsüdarabischer Inschriften In: Sayhadica Recherches sur les inscriptions de l'Arabie préislamique offertes par ses collègues au
- professeur A.F.L. Beeston. Ed. par Chr. Robin et M. Bāfaqīh, Paris, . 37-46.
- Hoftijzer, J.-Jongeling, K., 1995. Dictionary of the North-West Semitic Inscriptions I-II
- (with Appendices by R. C. Steiner, A.Mosak Moshavi and B. Porten), Leiden, Handbuch der Orientalistik, 1. Abteilung, der Nahe und Mittlere Osten 21.
- Johnstone, Thomas M., 1987. Mehri Lexicon and English-Mehri Word-List, London.
- Leslau, Wolf, 1991. Comparartive Dictionary of Ge'ez, Classical Ethiopic, Wiesbaden.
- Müller, Walter W., 1962. Die Wurzeln Mediae und Tertiae y/w im Altsüdarabischen.
- Eine etymologische und lexikographische Studie, Dissertation, Tübingen.
- Piamenta, Moshe, 1990-1991. Dictionary of Post-Classical Yemeni Arabic, 2 Bde., Leiden.
- Ricks, Stephen, 1989. Lexicon of Inscriptional Qatabanian, Rom, Studia Pohl 14. .
- Sholan, Amida, 1999. Frauennamen in den altsüdarabischen Inschriften, Hildesheim,
- Texte undStudien zur Orientalistik 11.
- Soden, W.von. 1965-1981. Akkadisches Handwörterbuch, Unter Benutzung des
- lexikalischen Nachlasses von B. Meissner, 3 Bde., Wiesbaden.
- Warburton, David A., 1995. Women in Ancient Yemen, Yemen Update 36: 23

جزيرة سقطرى عبر التاريخ

أمل عبد المعز الحميري*

المقدمة:

عندما كلفنا الأستاذ المشرف** باختيار موضوع للبحث فيه استوقفتني عناوين كثيرة، إلا إنني كلما كنت أتصفح تلك العناوين يعود تفكيري للنظر في تاريخ الموانئ والجزر اليمنية لما لها من أهمية قصوى في تحديد أطر التاريخ اليمني من جميع جوانبه وبالتحديد جزيرة سقطرى، والتي ظللت لفترة وأنا أفكر في موضوع البحث في تاريخها: إلا أن موضوع المصادر والمراجع سبب عقبة كأداء أمام اتخاذ القرار النهائي؛ وبتشجيع من الأستاذ المشرف، ونظراً لغموض تاريخ هذه الجزيرة وقلة الدراسات العلمية عنها، فقد شدني كل هذا للتصدي لموضوع البحث. فسقطرى لم تعرف إلا من خلال كتب الرحالة ومن الخرائط كقطعة منفردة في المحيط الواسع

وكما نعلم فإن للجزر قيمة فريدة خاصة عندما تكون منعزلة في إحدى المحيطات، باعتبارها نقاط ارتكاز، وهي ذات قيمة اقتصادية أيضاً لأنها محطة توقف على الطريق البحري فقد حاول الغرب الأوربي في فترة التاريخ الحديث وخلال فترة الاكتشافات الجغرافية والصراع حول بلدان الشرق. احتلال الجزيرة تارة بالمفاوضة وتارة عنوة وبدأت تتنامى هذه الأهمية إلى مسامع الغرب لتمتعها بموقع استراتيجي مهم، على ملتقى الطريق الملاحي الدولي، ووجد أنه من الأهمية بمكان عمل تصور كامل لتاريخ الجزيرة عبر العصور وعنوان البحث كالتالي (سقطرى عبر التاريخ) ليتسنى لنا معرفة الأبعاد الإستراتيجية قديماً وحديثاً.

كما أن الكتب والدراسات القديمة التي تناولت تاريخ الجزيرة كانت تهتم بوصف الجانب الشكلي من الجزيرة وتنوعها البيئي والحيوي أو وصفها على أصح تقدير، جغرافياً.

---

* الدراسات العليا قسم التاريخ- شعبة التاريخ الحديث والمعاصر- كلية الآداب.

** أشرف على البحث الأستاذ الدكتور سيد مصطفى سالم.

ولم تمدنا بمعلومات تاريخية سوى شذرات من هنا وهناك وكان لزاماً عليّ أن أحاول لم هذه المواضيع وربطها في تسلسل زمني لتتناسق وعنوان البحث. ومع اننا لم نحصل على المصادر الإغريقية والرومانية الأصلية إلا اننا رجعنا إلى المراجع التي اخذت عنها مباشرة، كالمفصل لجواد علي وغيره من كتب الإخباريين التي أمدتنا بمعلومات قيمة عن الجزيرة أمثال كتاب "الإكليل للهمداني" و "معجم البلدان" لياقوت الحموي. إضافة إلى كتب الرحلات أمثال" مروج الذهب للمسعودي والروض المعطار للحميري، ورحلات ماركوبولو الإيطالي. إلى جانب ذلك برز الرحالة المتاخرون من الأجانب وعلماء الآثار كثيودور بينت، والفرنسي جان دي لاروك، ايريك ماركو ولم تقل المعلومات التي اوردوها اهمية عن غيرهم، فقد تطرقوا إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

وكانت المعاجم والموسوعات ذات اهمية بالغة حيث اهدتنا بمعلومات عن الخصائص اللغوية والعرقية والدينية لدى سكان الجزيرة كدائرة المعارف الإسلامية، والموسوعة البريطانية إلا أن المراجع الحديثة كانت ذات اهمية عظيمة بالنسبة لبحثي خاصة في القسم الثالث منه كونها تناولت التاريخ السياسي للجزيرة في العصر الحديث وصراع القوى حولها، وكانت أغلب تلك المراجع باللغة الإنجليزية وبعضها معرباً والبعض الآخر غير معرب وقد تناولت هذه الكتب إلى جانب التاريخ السياسي العادات والتقاليد والفلكلور السقطري، مما أعطى فكرة عن السقطرية. وأخيراً فقد استعنت بالمراجع الجغرافية كونها ذات صلة وثيقة بموضوع الدراسة وأهمها جغرافية شبه الجزيرة العربية لطه أبو العلا إضافة إلى الكتب الصادرة عن الندوات والمؤتمرات العالمية حول الجزيرة.

وقد قمنا بتقسيم البحث على النحو التالي:

- وتسمية سقطرى والموقع والطبيعة الجغرافية للجزيرة.
- دراسة لأصل السقاطرة وقبائلهم ولغة وديانة أهل الجزيرة ونبذة عن النشاط الاقتصادي والاجتماعي لسكان الجزيرة.
- الأهمية الإستراتيجية للجزيرة والمحاولات الخارجية للسيطرة عليها، وحاولنا في هذا البحث أبراز التاريخ السياسي للجزيرة من تاريخها القديم حتى الفترة المعاصرة وصراع القوى البرتغالية والهولندية والإنجليزية وغيرها على الجزيرة، وذلك من خلال المصادر والمراجع التي توفرت بين أيدينا.

أ- التسمية،الموقع والطبيعة الجغرافية

1-1- التسمية:

عرفت جزيرة سقطرى في مصادر التاريخ القديم، بعدد من الأسماء التي اضفت عليها من الغموض والتساؤل.

وكون الجزيرة تقع منفردة في المحيط الهندي وتتميز بتنوع حيوي وبيئي فريد؛ فقد جذبت إليها العديد من الرحالة والمغامرين والمكتشفين على مدى عصور التاريخ، فكانت المصادر الإغريقية والرومانية هي أول من تناول موضوع هذه الجزيرة وأطلقت عليها اسم (ديوسكريدس Diosocorids)[1]

وقد رجع الباحثون أن هذا الاسم مشتق من الكلمة السنسكريتية (Dvipa-Sakhadara دفيبا سكرهادارا)[2] ويقصد بها أرض الهناء والسعادة، وهذه هي التسمية الهندية التي أطلقها الهنود على الجزيرة أو القراصنة الهنود الذين كان لهم صلة قديمة بها[3]، وقد اعتقد الكثير من المؤرخين ان سقطرى هي "أرض Panchaia أي أرض الله الطيبة (بلادبونت)[4] التي ذكرها قدماء المصريين في كتاباتهم وقد أيد هذه النظرية العديد من المؤرخين المحدثين، بينما دحضها البعض الآخر - نظراً لوجود أكثر من منطقة في جنوب الجزيرة العربية تنتج البخور والطيوب، إلا أن احمد فخري في كتاب: اليمن ماضيها وحاضرها، قدم عدداً من الدلائل التي قد

تقربنا إلى ان تكون سقطرى هي بلادبونت التي دونت تفاصيل الرحلة إليها في عهد الملكة حتشبسوت من الأسرة الثانية عشرة (1490 ق.م)، إضافة إلى "رحلة أقدم منها قام بها الملك ساحورع من الأسرة الخامسة"[5].

ومما يؤكد صحة هذه الفرضية ان بنشية وردت بهذا الاسم في قصيدة فرجيل (انيادة فرجيل) 70 ق. م وبنشيه اسم لاتيني قديم يطلق على احد الأقاليم في شبه الجزيرة العربية وكان مشهوراً بالبخور واللبان في عهد اليونان والرومان[6].

كما أن معنى Panchaia يرد معناها في اللغة المصرية القديمة بـ" جزيرة الأرواح "، وبما أن سقطرى اشتهرت بالسحر منذ القدم فإن مؤيدي النظرية التي تقول أن بانشيه هي بلادبونت التي هي جزيرة سقطرى – قد تكون آراءهم صحيحة إلى حد ما.

ولعل التنوع الحيوي والنباتي الفريد واحتواء الجزيرة على أنواع نادرة من الطيب والبخور والمرقد يؤيد تلك الفرضيات، كما أن الرحلة التي قام بها قدماء المصريين لا يمكن ان تمر في المحيط الهندي دون المرور بالجزيرة كونها تقع على مفترق الطرق.

ونظراً لتعدد الروايات وغموض بعضها فقد امتزجت الحقيقة بالأسطورة وألصق الاخباريون والكتاب العديد من الأساطير ؛ كان أشهرها الأسطورة التي تقول ان سقطرى كانت موطن الطائر الخرافي (العنقاء) الذي (كان يبني عشه من عيدان القرفة ويفرشه بالهيل والقرنفل والزعفران)[7] كما يأتي على ذكر هذا ديدورس الصقلي وبليني الأكبر الذي يقول :" إن ذلك الطائر المقدس عند قدماء الفينيقيين phoenix كان مرتبطاً ببنشية Panchais ومقترناً بها، لأنه كان مكرساً لعبادة الشمس)[8]، وقد يؤيد هذه النظريات أو ينفيها وجود أدلة مادية مستمدة من مصادر موثوقة كالنقوش وقد دلل والتر مولر على وجود كلمة (سكرد) وهي جذر الكلمة الأصل (ديو سكرد) دلل على وجوده في نقش (كربوس 621) سطر 6 على انه اسم لموضع، ( )ورجح علماء اللغة اليمنية القديمة ان يكون هذا اسم سقطرى بلغة النقوش حيث إن حرفي (دو) في اول كلمة (ديو سكريدو) قد تكون أداة النسبة[9] في لغة النقوش اليمنية، وتكون بذلك (ديوسكريدو) تعني (أهل سقطرى أو أرض سقطرى).

أما المصادر العربية والإسلامية، فقد اتفقت على تسميتها "سقطرى بضم السين والقاف وسكون الطاء، وفتح الراء بعدها الف مقصورة"[10] ويعتقد ايضاً ان سقطرى جاءت كلمة "سوق القطرة، أي قطرة شجرة دم الأخوين"[11] ويضيف ابن المجاور أن الروم اسموها "الجزيرة المحروسة بأرض العرب"[12]، وكل هذه الأسماء توحي بالأهمية الدينية والحضارية التي تمتعت بها الجزيرة منذ القدم.

1.2- الموقع والطبيعة الجغرافية:

اسهم موقع الجزيرة بشكل كبير في إكسابها تلك الأهمية فسقطرى تعد من أكبر الجزر الواقعة في المحيط الهندي وبحر العرب وعلى مدخل البحر الأحمر "على امتداد شمال رأس جاردفوى Gaard fui الأفريقي، ويبلغ طولها 70 ميلاً من الشرق إلى الغرب، ويبلغ أقصى اتساع لها في الوسط 20 ميلاً"[13] اما طرفيها الشرقي والغربي، فيدق كثيراً، وتبلغ مساحتها 3600كم^2 و "تقع بين خطي طول '54–63 ق، وخطي عرض '12– 35 ق، شمال خط الاستواء"[14].

تشغل المرتفعات قلب جزيرة سقطرى[15]، وتمتد السهول الساحلية الضيقة في الشمال والمتسعة في الجنوب حول تلك المرتفعات وترجع اهمية الساحل الشمالي كونه قريبا ويطل على السواحل الجنوبية لشبه جزيرة العرب[16] حيث تبعد نحو 300 ميل عن الساحل العربي، 533 ميلاً عن مدينة عدن وتبدو الجزيرة على الخارطة بثلاثة رؤوس، كما وصفها الملاح سليمان

المهري، حين قال "أولها من الشمال والغرب رأس الشعب ومن الغرب والجنوب رأس شرعين،ثم رأس جنوبي في السوق"[17].

وتضم الجزيرة عدداً من الجزر التابعة لها وهي: جزيرة (عبد الكوري)، تقع على بعد حوالي 96كم غربي الجزيرة[18] وجزيرة الأختين (سمحة، درسة) وهما غير ماهولتين بالسكان، و "جزيرة فرعون تقع على بعد حوالي 20كم إلى الغرب من عبد الكوري وهي مخروطية الشكل ولها رأسان صلبان يرتفعان حوالي 90م فوق سطح البحر[19] وهي غنية بالأسماك" لذا قيل عنها إنها منطقة رئيسية لغذاء أحوات العنبر".[20]

ويسود الجزيرة مناخ بحري حار، وتتعرض الجزيرة خلال الأشهر من مايو إلى اغسطس إلى رياح شديدة جنوبية[21] غربية يضطر السكان أثناءها إلى الصعود إلى المناطق الجبلية وإخلاء المناطق الساحلية، كما تحذر السفن من ممارسة نشاطها في تلك الأشهر لأن البحر يصبح هائجاً.

وتتمتع الجزيرة بتنوع بيئي وحيوي فريد مما جعلها محط أنظار العالم منذ القدم ؛ فقد نبت على أرضها العديد من النباتات الطبية النادرة والتي تشكل مصدراً اساسياً لعلاج بعض الأمراض، ومن النباتات التي نالت شهرة عالمية، شجرة دم الأخوين "dragon's blood"[22] التي تسمى بالسقطرية عرحيب،ونظراً لهذه الشهرة القديمة فقد حيكت حولها العديد من الأساطير والقصص التي تمثل نوعاً من الثقافة الشعبية لدى السقطريين[23] إضافة لذلك فقد نبت على أرض الجزيرة البخور والمر واللبان بأنواعه والذي كان عماد الثروة السقطرية القديمة،وقد قال الرحالة الإيطالي "ماركو بولو" واصفاً الجزيرة "بأنها تزخر بلوازم الحياة ولها الكثير من العنبر الذي يفرغ من احشاء الحيتان"[24].

وحسب الإحصائيات التي توردها المصادر الرسمية فإن الجزيرة تحتوي على ما يقارب 850 نوعا من النباتات منها 270 نادرة لا توجد في أي بقعة من العالم[25].

كما تذكر المراجع الحديثة أن في الجزيرة مستوطنة نادرة للطيور "وتصل أنواعها إلى 120 نوعا"[26]، وهذا التنوع الكامل منح الجزيرة اهمية عالمية.

2ـ قبائل سقطرى ونشاط السكان

2ـ1ـ أصل السقاطرة:

عندما تصدينا لدراسة تاريخ الجزيرة، وجدنا أنه من الأهمية بمكان تناول أصل السقاطرة، والتاريخ السلالي لقاطني الجزيرة، وقد استقى المؤرخون مادتهم التاريخية من المصادر الإغريقية والرومانية، وكتابات الإخباريين وبنوا على أساسها نظرياتهم في أصل السقاطرة،وتعد هذه النظريات نسبية في صحتها وحقيقتها، نظراً لقلة المادة الآثارية والحفريات، إلا أن الرحالة ثيودوربينت Theodorebent الذي زار الجزيرة عام 1897م، قال: "أنه وجد نقشاً من العصر الحميري الأخير أو الأثيوبي، وإن كثيراً من علامات التملك التي يضعولها على الجمال لها رموز وخطوط من المسند"[27].

وهذه العلامات قد تكون الخيط الأول الذي قد يقودنا للكشف عن حضارة طمرها الزمن وتنتظر من يبعثها من جديد، ويذكر المسعودي " أن الاسكندر صير إلى هذه الجزيرة خلقاً كثيراً من اليونان"[28] وأنه قبل انهيار دولة البطالمة وصل نفر من ملاحي إغريق الإسكندرية وصلوا إلى الجزيرة واختلطوا بسكانها[29] ويضيف الهمداني: أن في جزيرة سقطرى من جميع قبائل مهرة"[30].

وقبائل المهرة لهم صلات قوية بالجزيرة وسنتناول هذه العلاقة بالتفصيل في موضع آخر، ويذكر الهمداني أيضاً: أن في الجزيرة من أولاد الروم[31]، وربما قصد بأولاد الروم اليونان اللذين ذكرتهم المصادر الأخرى، وعلاوة على ذلك فإن الهمداني قد حاول أيضاً في كتاب الإكليل أن يضع نسباً للسقاطرة كما هو حال بقية

القبائل، فينسبهم إلى بني تميم[32] ويصفهم بأنهم أشد العرب. وفي أقدم ذكر للسقاطرة، يذكر صاحب كتاب الطواف حول البحر الأرتيري: أن سكان الجزيرة خليط من الهنود[33] واليونان والعرب الذين يرتادون الجزيرة للتجارة. وربما كان هذا التقسيم هو الأقرب إلى الصحة.

وقسم المؤرخون المحدثون سكان الجزيرة إلى ثلاثة أجناس وهم:

- السقطريون الأصليون المعروفون بالبدو.
- العرب النازحون إليها من شرق حضرموت ومن أفريقيا الشرقية.
- الإفريقيون"[34].

ويدعي السقطريون الأصليون أنهم من نسل حمير ويرى لقمان: أنهم قد يكونون من عرب جنوب الجزيرة العربية، وشده لقول ذلك بعض النقوش والكتابات ورسوم الوعل وطريقة الدفن التي كانت متبعة عند الحميريين القدماء. إلا أن هناك أدلة بيلوجية وطبيعية تؤكد الشبه القوي بين السقاطرة والعمانيين عرب جنوب الجزيرة من حيث التغذية ومزاولة بعض الأنشطة الاجتماعية والعادات والتقاليد.

وقد كان للكاتب الروسي فيتالي نازومكين رأي آخر في أصل السقاطرة فهو يرى: أنهم ينقسمون إلى ثلاث فئات: فئة الزنوج المهجنين ذوي السمات الأفريقية ويعدهم أحفاد سكان شرق أفريقيا، والفئة الثانية سكان السهول وتشبه ملامحهم اليمنيين والحضارمة. أما الجبليون المنعزلون فهم طوال القامة أشداء وبشرتهم فاتحة ويشابهون الأوربيين في هيئتهم الخارجية.[35]

إن الآراء التي قدمها المؤرخون في أصل السقاطرة تكاد تتشابه ولا مندوحة، من الرأي القائل أن سكان الجزيرة خليط من الهنود والعرب واليونان والأفارقة، وربما تكشف لنا الحفريات القادمة عن أسرار جديدة، مازالت مطمورة.

والسقطريون الأصل هم من البدو ويعملون رعاة ماشية ومزارعين ويسكنون الأكواخ "والكهوف ويتحدثون اللهجة المهرية، وهم في الأصل سكان هذه المنطقة"[36] وقد يسكنون بيوتاً مبنية باللبن على أحسن الأحوال، ويلجأ البعض إلى الهجرة المؤقتة أثناء الجفاف وينتمي أهالي سقطرى إلى قبائل عدة وهي "دكيشن، مومي، قعريهي، بن مالك المالكي، قبائل قمر، وعاصمة الجزيرة تسمى بـ(حديبو) واسمها القديم تماريدو، ويوحي هذا الاسم إلى كثرة وجود التمر في المنطقة.[37]

2-2- اللغة السقطرية:

تنفرد جزيرة سقطرى بلغة تختلف تماماً عن اللغة العربية "وتشكل مع المهرية مجموعة اللغات العربية الجنوبية"[38].

ويرى العالم اللغوي هومل أن هناك "صلة بين اللغة السقطرية والأثيوبية[39]".

وقد ظلت اللغة السقطرية تتمتع بهذا التفرد لأنها أقل عرضة من غيرها للتأثير الخارجي وبشكل خاص تأثير اللغة العربية وذلك لظروفها وموقعها الجغرافي، ونظراً لهذا التميز فقد نوه الكثير من العلماء إلى أهمية دراسة هذه اللغة والحفاظ عليها من الانقراض، لأنها تعد من المعالم الحضارية والتاريخية الباقية في المنطقة.

واللغة السقطرية لغة غير مكتوبة وهي قريبة من المهرية "وعلى صلة بالشحرية والبطحرية والهوبية والحرسوسية[40]".

وقد عرض مسلّم قاسم في كتابه (قواعد اللغة السقطرية وكتاباتها ومقابلتها بالعربية) وهذه تعد من المحاولات التي تشق طريقها لدراسة اللغة والحفاظ على تراثها، كما حاول بعض ممن زاروا الجزيرة في القرون الماضية واختلطوا بسكانها -حاولوا معرفتها عن قرب، فيقول ثيودوربنت "أنهُ من ناحية التعقيد الداخلي للأصوات فهي ثرية جداً وقد واجهنا صعوبة عظمى في

نقل الأصوات من خلال الكلمات"[41] ويقصد بثرية جداً، احتوائها على مصطلحات كثيرة لكل ما في الجزيرة إلا أنهُ "لا يوجد مرادفات لكلمتي كلب وحصان إذ لا وجود لهما في الجزيرة"[42] ويحاول العلماء معرفة أصول هذه اللغة وإن كانت بقايا للغات قديمة نالت شهرتها وبقيت مجالا لدراسات واسعة فمنهم من قال: أن سكانها خليط من اليونان وهم يتحدثون الأغريقية، أما نجيب الريس فقد أدرج أهالي سقطرى ضمن المهرة " وقال بأن لهجتهم مختلفة عن لهجة أهالي الساحل المهري"[43] ويذكر العالم اللغوي سارجنت Serjean أنها لغة سريانية وأنها من القبائل التي نزحت من أفريقيا الشرقية وأن لغتهم قريبة من الامهرية والحبشية، والرأي الأكثر شيوعاً أنها لغة أهل حمير القديمة[44].

وقد أجرى فيتالي ناؤومكين لقاءً مع أحدهم وطلب منهُ أن يغني بلهجته فرد قائلاً: "نحن لا نحب أن نغني للأجانب لأن لغتنا إنما هي كل ما نملك ولا نريد أن يعرف الغرباء لغتنا"[45].

وهكذا فإن السقطري يعي تماماً أهمية لغته وقيمتها، ولكنهم حالياً وفي الفترة المعاصرة، ونظراً لعدم الاهتمام بهذه اللغة وتدريسها، فإننا نجد أن السقطريين المتعلمين يخجلون من التحدث بها ويفخرون بتحدثهم بالعربية.

إن تنوّع سكان الجزيرة من هنود وعرب ويونان وأفارقة قد أكسب الجزيرة أهمية بالغة وزاد من تنوعها وثرائها اللغوي ونرجح هنا الرأي الغالب الذي يقول "إن لغة أهل الجزيرة تعد امتداداً اللغات الجنوبية السامية واللغة العربية الجنوبية، ونظرا لانعزالها في العصور الحديثة فقد ظلت محتفظة بذلك التراث اللغوي، حيث لم يصبه أي تحريف أو دخول لغة أخرى غير العربية.

3ـ2 الحياة الدينية في سقطرى :

يكتنف الحياة الدينية في جزيرة سقطرى الكثير من الغموض ولم تعد بعد دراسات جادة حولها، إلا أن بعض المهتمين بتاريخ سقطرى كثيراً ما كانوا يعتمدون كتابات الإغريق أو الإخباريين والتي تشابهت إلى حد كبير، حتى في وصف السقاطرة أنفسهم، وما يمكننا الاعتماد عليه كلية هو وجود آثار تدحض كل المقولات التي قد تنسب إلى ديانة أهل الجزيرة. وقد اختلفت آراء الباحثين في ماهية ديانة أهل الجزيرة، فالعرب قد عدوا ديانة السقاطرة مسلمين منذ دخول الإسلام سقطرى، ويبحث كتّاب آخرون عن آثار تدلهم على وجود المسيحية منذ زمن واستمرارها حتى بعد الإسلام، بينما تكشف لنا بعض الدراسات عن اعتقادات قديمة ظلت باقية في نفوس السقطريين. أما كتابات الاخباريين فتذكر أن أهلها قوم نصارى ويقول ياقوت الحموي "أكثر أهلها نصارى عرب"[46] وهكذا بقية الاخباريين، ولا يستبعد هذا القول أو أن يظل بعض السكان على دين المسيحية نظراً لبقاء الجزيرة قروناً عدة محرومة من الاتصال بالعالم الخارجي وظلت محتفظة بثقافتها القديمة. وقد زار عدن في القرن الخامس الميلادي القديس توما وحاول الإبحار إلى الهند إلا أن سفينته تحطمت عند سقطرى "فهبط فيها ونشر المسيحية بين أهلها"[47].

وإن كانت حركة التبشير هذه غير مقصودة فبعض الحركات جاءت مقصودة "فيذكر مؤلف التوجيهات أنهُ أمضى ما يربو على 24 عاماً متنقلاً في ربوع الشرق وكان هدف هذه الإقامة التبشير بالمسيحية وكان من ضمن الشعوب التي بشر بروكار فيها بالمسيحية جزيرة سقطرى"[48] وعندما زار الجزيرة كوزموس أنديكا من الحبشة سنة 450م، وجد الناس يتبعون المذهب النسطوري الكاثولوكي البابلي وتذكر المراجع أن "الرسول الكلدان آدي وماري قد سار إلى بلاد العرب وسكان الخيام وإلى نجران وجيزان وجزائر بحر اليمن"[49].

ومما يؤكد وجود المسيحية منذ زمن وحتى ظهور الإسلام وجود كتابات تثبت ذلك، ومنها السير العمانية التي سجلت حملة إمام عمان مالك ابن أبي الصلت على

سقطرى والتي استعرضها أحمد العبيدلي في شكل بحث قدمه للندوة الدولية حول جزيرة سقطرى عام 1996م.

وقد أشارت فقرة في رسالة أحد خواص الإمام الصلت حاكم عمان إلى وجود جماعتين مسيحيتين بالجزيرة أحدهما يقرأ اتباعها الإنجيل والآخر لا يقرءونه[50].

وقد دخل الإسلام الجزيرة منذ ظهر وكان للمهريين الفضل الأكبر في دخول الإسلام إلى سقطرى بعد الوفد الذي ذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بزعامة مهرة ابن الأبيض لاعتناق الإسلام، وقد حدث أثناء حرب الردة وفتنة الخوارج، أن رحل الكثير من الشيعة إلى جنوب الجزيرة العربية، وامتلأت عمان والمهرة بفرقة الخوارج الأباضية إلا أنهُ وفي فترات التاريخ الحديث "أصبح كل السقطريين سنة وينتمون للمذهب الشافعي"[51] وإن ظلت بعض الفئات التي تدين بالمسيحية اسما كما لاحظ ذلك القديس فرنسيس أكزفيرا "أنهم يفخرون باتخاذ أسماء مسيحية، لكنهم لا يمارسون الطقوس الدينية كما ينبغي ولا يعرفون لا القراءة ولا الكتابة"[52] وعندما زار الرحالة ثيودوربينيت الجزيرة "قال بأنهُ وجد مساحة مسطحة مرسومة بالصلبان في أروس"[53] ومهما يكن من أمر المسيحية في الجزيرة، فإنها قد اندثرت الآن إلى حد ما وانتشر الإسلام وصار الدين الرسمي للجزيرة.

4ـ 2ـ النشاط الاقتصادي لأهالي الجزيرة:

يمارس سكان الجزيرة أنشطة مختلفة من الزراعة والرعي والصناعة وصيد الأسماك وينقسم سكان الجزيرة من حيث التمركز في الأراضي إلى سهليين وجبليين وكل حسب الرقعة الجغرافية فيمارس الجبليون الرعي والزراعة ويقومون باستخراج الزبدة من البقر ويقومون بإحراقها بالفحم لتصديرها إلى زنجبار ومسقط "وقد أصبحت الزبدة إنتاجاً رئيسياً وتتمتع الزبدة السقطرية بسمعة طيبة في الأسواق"[54].

أما أهالي الساحل فيقومون بصيد الأسماك والأصداف وقد عرفت الجزيرة منذ القدم بإنتاجها لأهم المحاصيل الزراعية في تلك الفترة وهي "اللبان-البخور-ودم الأخوين" ويتحدث ديدروس الصقلي عن أهمية اللبان في تلك الفترة فيقول "إنها جزيرة تنتج من اللبان ما يكفي العالم"[55] وقد فقدت هذه السلعة أهميتها في الوقت الحاضر ولم يعد يلهث وراءها للتحنيط أو لتبخير المعابد والكنائس.

وظهرت في سقطرى صناعة أخرى،وهي صناعة الفخار والتي يرى المؤرخون أنها بداية للصناعات اليدوية في الجزيرة، أما الشملة السقطرية فتعد من أجود الأبسطة التي تصدرإلى عدن والمكلا وتسمى أيضاً الحنابل ويتم استخراج خاماتها من الصوف ومن الحيوانات الأليفة فيتم دقه ثم يضرب بقوس مشدود ويغزل حتى يستوي خيوطاً رفيعة"[56] ونتيجة لهذه الحركة الصناعية فقد ظهر في القرن التاسع عشر فئة جديدة وهي فئة التجار للبيع والشراء"[57] والتي ظهرت أيضاً لاختلاط التجار العرب بالوافدين الأجانب لأغراض التجارة.

5ـ 2ـ الوضع الاجتماعي لسكان الجزيرة :

جمعت سقطرى منذ القدم بشراً من مختلف الجنسيات وكان للحركة التجارية دور كبير في تجمع الناس أرض الجزيرة،ونظراً لاختلاط الثقافات بين الناس فقد ظهرت العديد من العادات والتقاليد التي تميز الجزيرة عن غيرها ومن الظواهر التي تلفت النظر ظاهرة ممارسة وشيوع السحر ولا يزال الأهالي إلى الآن يعتقدون بوجود السحر والساحرات ويولون هذه الظاهرة اهتماماً خاصاً،وقد كتب الرحالة الإيطالي ماركوبولو عندما زار الجزيرة في القرن الثالث عشر الميلادي "يشتغل أهل سقطرى بالسحر والشعوذة أكثر من أي شعب آخر وإن حرم عليهم كبير الأساقفة ذلك، حيث يصدر قرار

الحرمان"[58] واللعن من أجل هذه الخطيئة، ويتحدث أهالي الجزيرة عن القدرات الخارقة التي يقوم بها السحرة من مسخ الإنسان إلى حمير،وطيور الرخم،وقط الزباد"[59] بل أن ماركوبولو يذكر أن الاعتقاد في التحكم في الرياح كان شائعاً في تلك الأيام " لا تزال التعاويذ السحرية التي تمنعهم من مواصلة الطريق وإثارة العواصف"[60] التي تحطم السفن غير المرغوب بها وإن كانت هذه الظاهرة منتشرة في سقطرى إلا أنه بالمقابل تجري معاقبة شديدة لمرتكبي هذه الأعمال فيقال " أنهم كانوا يقيدون الشخص المتهم بالسحر ويتركونه لمدة ثلاثة أيام بلياليها على تل مرتفع وإذا هطل المطر خلال هذه الفترة على ذلك الموضع فإنهم يقذفونه بالحجارة"[61]،ونلاحظ هنا ارتباط مختلف الممارسات السحرية بالمطر الذي يشكل أهمية كبيرة بالنسبة لحياة السقطريين، وقد وجدت في عصور ما قبل الإسلام والمسيحية طقوس سحرية لاستسقاء المطر.

وللسقطريين عادات خاصة بشأن ختان الأطفال وتتشابه نوعاً ما مع العادات الإسلامية في جنوب شبه الجزيرة العربية إلا أنها حافظت على بعض خصائص الطقوس الوثنية " فيعد يوم الختان عند الجبليين يوم عيد"[62] ويقومون بعمل احتفال كبير من أجل هذا اليوم.

وللمرأة وضع خاص في الجزيرة فهي تمارس حياتها بشكل طبيعي إلا أنها تخصص لها مكانة مميزة في الاعتقادات التقليدية والأسطورية وهي كثيراً ما تكون ذات قدرة خارقة وذات صلة بالجن والأرواح المخيفة حتى المهن مارسن السحر بصورة أوسع من الرجل وإلى جانب قيامها برعاية الأطفال فهي تشارك الرجل في الأعمال الخارجية كالزراعة والرعي والصناعة.

ويلاحظ على المجتمع السقطري وجود صفة التعاون بين أفراد المجتمع، فيساعد الأغنياء الفقراء من البدو " وأهالي حديبو والقرى الميسورة يخزنون في جلود الأغنام كميات من التمر مع حبوب المهيندي لسد احتياجاتهم الغذائية أيام الرياح، أما البدو ساكنو الجبال فيتصدق عليهم الموسرون"[63].

3ـ الأهمية الاستراتيجية للجزيرة والمحاولات الخارجية للسيطرة عليها

تمتعت جزيرة سقطرى منذ القدم بسمعة طيبة من حيث أهمية موقعها المتحكم في طرق الملاحة الدولية وبلغت سمعتها بلاد الإغريق والرومان.

وكانت الجزيرة وعلى مدى قرون عدة قبل الميلاد وحتى الوقت الحاضر تحظى، باهتمام كبير من قبل الدول التي كانت لها أطماع في منطقة الجزيرة العربية ومياه خليج عدن وبحر العرب وطرق الملاحة إلى المحيط الهندي.

وقد وردت في العديد من المؤلفات التاريخية والجغرافية كواحدة من أهم المناطق التي كان يجري عليها الصراع قديماً وحديثاً وذلك لتحكمها في طرق الملاحة البحرية، كما أعطاها موقعها المتوسط أهمية إستراتيجية بالعلاقة مع القضايا الدولية ذات الصلة بموقعها وبالعلاقة مع التجارة الدولية ومصادر الثروة الاقتصادية في المنطقة، وترجع الأهمية الاستراتيجية للموقع أيضاً كونه " يتحكم بالطريق التجاري البحري المهم الذي يربط المحيط الهندي والخليج العربي مع أفريقيا وأوربا ومضيق باب المندب في البحر الأحمر،الطريق الملاحي لساحل أفريقيا الشرقي حتى رأس الرجاء الصالح"[64].

وتعد الجزيرة من أهم الجزر اليمنية " كونها تقع في محيط المياه الإقليمية"[65] وتؤكد هذه الحقيقة الدراسات الجغرافية وحتى كتابات الإخباريون،لقد ذكر صاحب الروض المعطار "أنها من جهة الشمال والغرب تتصل ببلاد اليمن، بل هي محسوبة منه ومنسوبة إليه وبها جميع قبائل مهرة"[66].

1ـ 3ـ لمحة عن أوضاع الجزيرة في التاريخ القديم والإسلامي

وفي السباق المحموم الذي شهده العالم الحديث نحو المستعمرات جرى كذلك في العالم القديم بظروف ومسميات خاصة،وإن صار العالم اليوم يمضي مسرعاً بحثاً وراء البترول فقد كان البخور واللبان هما السلعة التي تتسابق عليها الإمبراطوريات العظيمة.

وقد منّ الله على سقطرى بتنوع نباتي فريد وموقع مهم فوعى أهل الإمبراطوريات القديمة أهميتها التجارية وكانت من ضمن الموانئ التي بناها التجار على امتداد السواحل العربية والمحيط الهندي "وعمرت يومئذ جزيرة سقطرى لتوسطها في طريق تلك التجارة"[67] ويقصد بالطريق التجاري الطريق إلى الهند وشرق آسيا بل تعدت إلى أصقاع واسعة من العالم وبلغت سمعتها بلاد الإغريق والرومان حتى أن الإسكندر سمع بما لها من سمعة الصبر السقطري "وسكّن جماعة من اليونان في سقطرى"[68] ويؤيد ذلك ما جاء في المفصل لجواد علي حين ذكر "أن الجزيرة أنشئت فيها جملة مستعمرات يونانية"[69] ولا يوجد بين أيدينا مصادر تتحدث عن وضع اليونان في سقطرى بعد استعمارها إلا أن بعض المصادر تحدثت عن علاقات سياسية وأحداث التقت بها مع العالم الخارجي.

فالجزيرة قديماً كانت تتبع بلاد العربية الجنوبية في أيام حاكمها"Eleazus ملك شباتا أي شبوه"[70] ولا نستطيع الجزم بصحة ما ورد إلا أن المصادر قد أجمعت على أنها كانت تتبع ملك بلاد اللبان المعروف في النقوش اليمنية بـ (العزيلط) الحضرمي، وليس بإمكاننا تتبع التاريخ السياسي إلا على ضوء العلاقات التجارية القائمة آنذاك،وقد حظيت الجزيرة بعلاقات تجارية مع المصريين أيام البطالمة ؛ وكون مصر كانت تسلك في طريقها التجاري ثلاث طرق، فقد كان "طريق الجنوب البحري من الهند إلى موانئ اليمن وهو أهم طريق إلى جزيرة سقطرى"[71]. وكانت تلك التجارة دليل العالم القديم إلى سقطرى وليس بين أيدينا من المصادر ما يقودنا لمعرفة حكام سقطرى في تلك الفترة،إلا أنه وكما ذكرت المصادر فقد كانت تتبع ملك حضرموت وحتى ظهور الإسلام في الجزيرة العربية.

ومن ثم فقد دخلت سقطرى في تبعية حاكم عمان وذلك مع ظهور أول إمامة فيها وهي "إمامة الجلندي بن مسعود"[72] وكما هو معلوم فإن عمان كانت في تلك الفترة هي القوة البحرية الأساسية في المحيط الهندي، لذلك فقد أولت جزيرة سقطرى اهتماما كبيراً وذلك لأهميتها الاستراتيجية، وقد توصل حكام سقطرى مع إمامة عمان إلى اتفاقية معاهدة "ويذكر المصدر المقتبس أن الاتفاق كان بين طرفين أحدهما مسلم والآخر مسيحي وكان الاتفاق لمدة مائة عام إلا أنه حصل اضطراب في عهد الإمام الصلت بن مالك الخروضي اليحمدي"[73] حين قام النصارى بنقض العهد وقتل والي الإمام في سقطرى. وقد استقى العبيدلي هذه المعلومات من كتاب تحفة الأسماع للسالمي، وتذكر هذه الحملة أيضاً في كتاب دليل أعلام عمان، لمحمد بن الزبير في مادة "الإمام الصلت" حيث يذكر ما يلي "في عهد الإمام الصلت نقض الأحباش عهدهم وهاجموا جزيرة سقطرى وقتلوا واليها فسيّر إليهم الإمام جيشاً في مائة مركب"[74] ونلاحظ أن الاختلاف بين الروايتين هو ذكر الأحباش في الرواية الثانية مقابل المسيحيين في الرواية الأولى، وربما قصد من الأحباش هم أنفسهم المسيحيون كون نصارى سقطرى هم صلة بنصارى الحبشة وإن أغلب المتنصرين في الجزيرة من الأفارقة والزنوج.

وقد دلت هذه الأحداث على خضوع الجزيرة في فترة من تاريخها لإمامة عمان.

2ـ 3ـ علاقة المهرة بسقطرى :

تمتد العلاقة بين المهرة وسقطرى إلى القرن الأول الميلادي حيث كانت كلتاهما تخضعان لملك بلاد اللبان في حضرموت (العزيلط) إضافة إلى "وجود صلات عرقية

ولغوية قديمة ربطت بين المهرة والسقاطرة الأصليين"[75] وقد كانت المهرة أقوى وأكثر القبائل في سقطرى، و"عرف أجداد المهرى قديماً بـ (حبشت) وهي كلمة مهرية الأصل وتعني حاصد اي جامع أشجار دم الأخوين[76].

وتتجلى تلك العلاقة أكثر مع ظهور الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية، فقد نشر المهرة الإسلام في أنحاء الجزيرة بعد الوفود التي أرسلت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بزعامة (مهرة بن الأبيض) فدخل أغلب أهل الجزيرة في الإسلام مع وجود من بقى على دين المسيحية، ويذكر الملاح ابن ماجد أنه "قد ملكها في زمن العباسية رجل من العجم"[77] ولا يعرف على وجه التحديد ما المقصود بالعجم أكان من النصارى أم انه واحد من الروم البيزنطيين الذين كانت لهم أطماع في بلاد العرب وجزر المحيط الهندي ومداخل التجارة الدولية في حكم العباسيين، ولم ترد حادثة أخرى في المراجع عن تاريخ سقطرى الاسلامي، إلا أن ابن المجاور في تاريخ المستبصر ذكر أن "سيف الدين سنقر مولى إسماعيل طغتكين"[78] أخذ خمس شواني (سفن) ليأخذوا الجزيرة، فلما قرب القوم من الجزيرة انطمست من أعين القوم"[79]، وربما دلت هذه الرواية على أهمية الجزيرة في تلك الفترة، علاوة على الإشارة إلى وجود السحر في سقطرى وقد تكون هذه الحملة تمت فعلاً على الجزيرة في زمن الأيوبيين، كون الصراع بين المسلمين والصليبيين كان في أوجه في تلك الفترة.

ورغم الأحداث التي مرت بها سقطرى إلا أن المهرة صنعت معها تاريخا مشتركا، فقد ذكر الملاح ابن ماجد المهري "أنهُ ملكها في أيامنا محمد بن علي بن عمر بن عفرار بن عبدالنبي السليماني الحميري وكلاهما من مشائخ مهرة"[80] كما يذكر "أن سقطرى وقعت تحت حكم امرأة لها مشورة"[81] وربما كان للمرأة بروز وحضور في تلك الفترة وما قبلها ونلاحظ ذلك من خلال قراءة رسالة الإمام الصلت بن مالك التي أرسلتها امرأة كانت تستغيث بالإمام "وتسمى الزهراء وهي من أهل الجزيرة حيث كتبت لهُ قصيدة تعلمه فيها بما وقع وتذكرهُ بواليه في الجزيرة القاسم"[82].

وحكم الجزيرة آل عفرار من المهرة وهو سلطان قشن، كما ارتبطت المهرة لأول مرة بالسلطة العفرارية وحولوا مركز إمارتهم من حيريج إلى قشن عاصمة السلطنة[83].

ولعل أهم مرجع يرجع إليه المؤرخون لاستعراض تاريخ سقطرى الحديث وعلاقتهم بالمهريين- هو المخطوط الذي وجد عند أحد المواطنين السقطريين وتصف المخطوطة تاريخ استيلاء سلاطين آل عفرار على جزيرة سقطرى والحروب والصراعات التي دارت بين آل الكثيري وآل عفرار حتى تمكنهم من السيطرة التامة، وتذكر المخطوطة أن وزارة آل عفرار[84] كانت من بيت محامدو "وهي قبائل من المهرة"[85] وتبدأ سلسلة حكام آل عفرار بـ سعيد بن عيسى، الذي اختلفت حوله الروايات وبدت ممزوجة بالخرافة وخلاصتها "ان السلطان بدر الطويرق غزابلاد المهرى، وقتل جميع شيوخها وأطفالها ونسائها وتمكنت امرأة من الهرب إلى بادية بني زياد ووضعت طفلاً (سمته سعد وحينما بلغ أبى أن يحلق شاربه ولحيته حتى يثأر لأهله"[86] وقد انتهى به المطاف إلى جزيرة سقطرى وتذكر المخطوطة أنهُ كان يحكمها في تلك الأيام ابن ماجد وهو الذي صنف التصانيف في الفلك"[87] وذكر أنهُ تحالف معهُ كونهُ حاكماً لسقطرى واستطاع بعدد من الجيوش مطاردة بدر الطويرق والاستيلاء على قشن "عند ذلك حلق شواربه وأحضر زوجته ابنة ابن ماجد وأنجب منها ولدا أسماه طوعري".

وهذا ملخص ما ورد في المخطوطة، وقد علق سرجنت على هذه الرواية بأنهُ جانبها الكثير من الصواب، لأنهُ لا يمكن أن يكون الملاح ابن ماجد حاكماً

لسقطرى، أما الابن طوعري فيعد بداية لسلسلة حكام آل طوعري في سقطرى التاريخ المعاصر ويرتبط تاريخ هذه الأسرة بتاريخ وصول البرتغاليين إلى الجزيرة أي بداية القرن السادس عشر.

3ـ 3. المحاولات البرتغالية لاحتلال الجزيرة، وصراع القوى الخارجية:

بعد أن تم للعالم الغربي أسباب النهضة والتقدم وزاد الجشع وحب التوسع على حساب الآخر بدأ التنافس الاستعماري واضحاً بين بلدان أوربا وكان الهدف خلال هذه السنوات، محاولة السيطرة على موارد البلدان ومقدراتها الاقتصادية من التستر بالغطاء الديني، فقد كانت دوافع البرتغاليين في انطلاقهم نحو الشرق "مزيجاً من الدوافع الدينية والتجارية وحب الانتقام من العرب والمسلمين"[88].

كان اكتشاف رأس الرجاء الصالح والطريق إلى الهند يمثل بحق انتصاراً كبيراً للقوى الأوربية والبرتغالية وشكل انقلاباً في وجه خارطة العالم، فبعد أن كانت الكفة بيد العالم الشرقي أمسى الغرب هو المتحكم في طريق الملاحة والتجارة الدولية، واحتكرت الأسواق العديد من الشركات المتعددة الجنسية، وكان البرتغاليون إلى جانب الأسبان القوى البحرية العظمى في العالم وقد نشط البرتغاليون في سواحل بلاد العرب في أوائل القرن السادس عشر وكان أول اكتشاف لهم في سواحل سقطرى في العام 1503م على يد القبطان فرنانديش بيرو"[89].

أما الكيفية التي دخل بها البرتغاليون جزيرة سقطرى، فقد كان لأسرة آل عفرار التي تحدثنا عنها آنفاً علاقة بتواجد البرتغال على أرض الجزيرة، فمن ولد طوعري ابن عيسى جاء ابنان هما عامر بن طوعري وسعد بن طوعري، وقد سافر سعد إلى أخواله في سقطرى ونصبوه سلطاناً وبقي عامر في قشن سلطاناً[90] بعد أبيه أما علاقة آل عفرار بتواجد البرتغال في الجزيرة فإنهُ يرجع إلى "أنهُ أثناء احتلال قشن والولايات التابعة لها من قبل قوات بدر الكثيري، ذهب شقيق سعد بن عيسى إلى هرمز يطلب العون من البرتغاليين لاسترجاع بلاده وجاء بالبرتغاليين عن طريق سقطرى عام 955هـ واستولى على الحصن"[91].

كما ذكر هذه الحادثة المؤرخ الحضرمي محمد بن عمر الطيب بالفقيه باعلوي الشحري 1507/913 "أخذ الإفرنج جزيرة سقطرى وجزيرة هرمز وأعطوا الأمان للتجار هناك وبنوا حصناً وفرضوا معلوم-أي ضريبة، كل سنة على العشرات وعلى مغاصات اللؤلؤ وغيرها"[92] والمقصود بالإفرنج البرتغال، كما ورد ذكر هذه الحادثة على لسان ابن الديبع حين قال "إنهُ في شهر رجب 936هـ وصل العلم بوجود مراكب العمري السلطاني، المفقود وأنهُ انكسر بقرب جزيرة سقطرى، وان الإفرنج البرتغاليين أخذوا ما سمح فيه من الجزيرة"[93].

ويورد الباحث ناؤومكين تفاصيل الحملة البرتغالية على سقطرى من خلال كتاب الفونسو البوكيرك، والذي يعده المؤرخون أول مؤسس للاستعمار الأوربي في الشرق"[94] فقد ذكر أن البرتغال أرسوا سفنهم في (سوق) وهي الميناء الرئيسي للجزيرة وحيوها بالمدافع وحتى تظل مهمة الاستعمار تحمل عباءة الدين فقد حاولوا أن تبدو مهمتهم دينية أكثر منها استعمارية فذكر "أن الملك أمر بنشر اسم الرب في كل الأرض التي سيطروا عليها"[95].

كان الحاكم المطلق على كل السواحل اليمنية هو عامر بن عبد الوهاب أهم ملوك الدولة العامرية في اليمن، إلا انهُ لم يستطع صد التغلغل البرتغالي في المنطقة، فاستولوا على الجزيرة ولم يكن ذلك الاستيلاء بدافع الاكتشاف أو للحادثة التي ذكرناها سابقاً، بل إنهم قد وعوا أبعاد الأهمية الاستراتيجية للجزيرة "وأن لها أهمية

استراتيجية لمن يريد التحكم في مدخل البحر الأحمر"[96].

وعندما دخل البرتغاليون الجزيرة وجدوا قلعة عربية وحاولوا التفاهم مع الشيخ لمغادرة القلعة إلا أنهُ رفض ومعه العرب الذين كانوا معهُ في الجزيرة، فجهز البرتغاليون قواتهم الحربية لاقتحام القلعة بقيادة (كريستيان دي كوها، والفونصو البوكيرك ودارت بينهم المعركة وأبدى السقطريون شجاعة نادرة في صد جحافل البرتغاليين رغم أسلحتهم البدائية وشحة إمكانياهم الاقتصادية، وفي تلك المعركة فقد كثير من العرب حياهم ومنهم الزعيم، وبالرغم من ذلك قاتلوا حتى آخر رمق. ومكث البرتغاليون في الجزيرة وزودوا السكان بالغذاء كما حاولوا إدخال تعاليم الديانة المسيحية ورمموا القلعة وأسموها "حصن القديس ميخائيل"[97] ولم تمض عليهم سبعة أشهر حتى بدأ المرض يسري في أجسادهم "وقد تمكن العرب الذين لاذوا بالجبال من اقناع السكان المحليين بأن الإفرنج ما جاءوا إلا لاستعبادهم فانتفض سكان الجزيرة ولهبوا القلعة ومنعوا عنهم المواد الغذائية فأرسل البوكيرك حملة تأديبية ثم أبحر إلى الهند ليصبح نائباً لملك الهند.

وقد أشار ناؤومكين من خلال تاريخ شنبل العلوي إلى أنهُ في ذلك العام شن خميس وعامر أبناء سعد بن الزويدي غارة على سقطرى حينما كانت في أيدي البرتغال وتغلبوا عليهم وسيطروا على جزء من ممتلكاهم.

ولم تمكث سيطرة البرتغاليين على الجزيرة طويلاً فسرعان ما الهزمت هذه السيطرة وتداعت الإمبراطورية قصيرة المدى واضطر البرتغاليون لمغادرة سقطرة في العام 1511م.

ومنذ ذلك العام "عادت السيطرة المهرية على الجزيرة وانتقلت السلطة بالتناوب بين أفراد قبيلة بني زياد"[98] وعاش السلطان بصورة مستمرة في الجزيرة. وقد تجمعت عدة عوامل ساهمت في خروج البرتغاليين من الجزيرة كان أهمها أوضاع الجزيرة السيئة وقلة المواد الغذائية علاوةً على ذلك فقد مثلت مقاومة الفرنكيين المهرة حائلاً كبيراً بين البرتغال ودخولهم واستقرارهم في أرض الجزيرة بينما ظلت الشركات الأوربية الاستعمارية في تسابق محموم نحو المستعمرات طيلة القرون اللاحقة.

ففي أوائل القرن السابع عشر قدمت شركة الهند الشرقية إلى جنوب الجزيرة العربية عام 1614 وكان قائد الأسطول (فن دون بروكه).

وكانت مهمته تأسيس أول محطة هولندية تجارية في جنوب الجزيرة العربية والاستيلاء على سفن البرتغاليين وبضائعهم"[99].

وقد تناول براوور تاريخ جزيرة سقطرى من خلال الوثائق الهولندية المتعلقة بالتاريخ الاقتصادي لجنوب الجزيرة العربية ونستطيع من خلال هذه المقتطفات معرفة حكام الجزيرة ووضعها بعد خروج البرتغاليين منها، فقد زار فان بروكه سقطرى وعرف بنفسه حاكمها آنذاك وهو عمر ابن السلطان سعيد بن سعيد الذي كان يحكم الشحر وقد علق على هذه التبعية قائلاً "يبدو أن سقطرى كانت تابعة للشحر التي رفضت الخضوع للسلطان العثماني"[100]. ودفع الإتاوة "وفي نهاية الأمر أجبر على قبول هدنة مدها 12 عاماً"، ونلاحظ أن الدولة العثمانية لم تول الجزيرة اهتماما يذكر رغم أهميتها الاستراتيجية وتحكمها بطرق الملاحة الدولية.

وقد وصف بروكه استقرار حاكمها في العاصمة تماريدو، الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه في عام 1620م، ويعد هذا السلطان من سلسلة آل عفرار التي حكمت الجزيرة ما يقارب خمسة قرون وخلال القرن الثامن عشر لا تذكر أحداث مهمة جرت على أرض الجزيرة سوى مقتطفات من كتب بعض الرحالة والتي قد نجد فيها بعض الشذرات عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية في الجزيرة، ففي القرن الثامن عشر زار الجزيرة الرحالة جان دي لاروك جزيرة سقطرى وتحدث عن حركة التجارة هناك قائلاً "إن بيت الحاكم كان مكتظاً بالتجار الذين اشترى

بعضهم البخور وآخرون دم الأخوين والصبّار"[101] الذي كان الأفضل في أنحاء الجزيرة العربية.

وفي العام 1801م اجتاح الجزيرة جماعة من المتطرفين الوهابيين "الذين اندفعوا بتطرفهم الديني وضربوا بيوت العبادة، وتشهد المقابر والقباب المخربة حتى الآن على ذلك"[102] وينتسب الوهابيون إلى الداعية والمفكر الديني الذي ظهر في القرن الثامن عشر محمد ابن عبد الوهاب في منطقة نجد بالمملكة العربية السعودية.

4ـ 3ـ الاحتلال الإنجليزي لجزيرة سقطرى :

شهدت منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندي في القرن التاسع عشر صراعات دولية حول منافذ التجارة وطرق الملاحة الدولية فاتجهت بأنظارها إلى جزيرة سقطرى، ولم يكن هذا أول معرفة بالجزيرة، فقد منحت الملكة اليزابيث الأولى امتيازا لشركة الهند الشرقية بإقامة مشروعات تجارية في بلدان الجزيرة العربية، فأرسلت سفينة تجارية تابعة لها إلى جزيرة سقطرى[103]. وفي القرن التاسع عشر فكر الإنجليز جدياً بالجزيرة "ولكون استعمال السفن البخارية للاتصالات المباشرة هدفاً من أهداف حكومة الهند فقد اتجهت تلك الحكومة لإيجاد مخزن للفحم للسفن البخارية في جزيرة سقطرى"[104].

كان أول عمل تقوم به الشركة في هذه الجزيرة هو عمل مسح لها وجرى ذلك في عهد السلطان عامر بن سعد الطوعري وقام الكابتن روس بالاتصالات بين حكومة الهند وزعماء الجزيرة وأخذ الموافقة على إقامة مخزن للفحم في قشن، وحاول إقناع رؤساء القبائل الذين كانوا ينتمون إلى آل طوعري.

ولعل البداية الأولى لاحتلال الجزيرة رسمياً وقعت أثناء إجراء المسوحات والموافقة من القبائل، فقد حدث أن اشتكى مسئول محطة الفحم من ابن أخ السلطان عامر الطوعري، والذي كان أحد التجار الرئيسيين في بلاد المهرة وأنهُ تطاول عليه وأخذ منهُ خمسة عشر دولاراً" فما كان من الكابتن حينئذ إلا أن انتهز هذه الفرصة وأطلق النار في الهواء لإرهاب الناس والبحث عن سبب لاحتلال الجزيرة"[105] ونظراً للأهمية الاستراتيجية التي تمتعت بها الجزيرة فقد أدرك الإنجليز في تلك الفترة هذه الأهمية، فقد قال الخبراء الجغرافيون عن موقع الجزيرة "أنها تطل على أعظم طريق ملاحي لنقل النفط من مناطق إنتاجه من الخليج العربي إلى أوربا وأمريكا عبر البحر الأحمر وقناة السويس والبحر المتوسط"[106] وقد أفصحت تقارير الكابتن روس والكابتن هينز عن تلك الأهمية وجاء فيها ما يلي "إنها تتلاءم بدرجة ممتازة لهدف الملاحة البخارية عن طريق البحر الأحمر وكذلك من أجل امتلاك مزايا طبيعية قد تسهل احتلالها ويمكن أن يجعل شراءها بشروط أكثر فائدة لنا في الوقت الحاضر منهُ في وقت لاحق وهناك أسباب أخرى تقوم عند حكومة الهند حيث إن موقعها يجعل احتلالها أمرا مرغوبا جداً خلافاً عن موضوع الملاحة البخارية"[107].

ورأت الحكومة أن تستأجر الجزيرة أو تشتريها في كل الأحوال وأن تدفع "عشرة آلاف ريال نمساوي ثمناً للجزيرة"[108] وقد تولى الكابتن هينز موضوع المفاوضات حول شراء الجزيرة، بموافقة الحكومة البريطانية ولم يبق سوى موافقة حكومة الهند أيضاً، ورأت حكومة الهند أن ترسل سرية من فرقة البحرية لتحتل الجزيرة في حال وقوع معارضة"[109] وكانت تلك السرية بزعامة الكابتن بيلي من الكتيبة الخامسة في مشاة بومبي وعين بيلي حاكماً لسقطرى باسم شركة الهند الشرقية وجرت مباحثات ومفاوضات عدة حول شراء الجزيرة وأعطى الكابتن صلاحيات واسعة في الجزيرة، وقد نقلت القوات على سفن شركة الهند الشرقية (تيغريس) Tigris بقيادة كابتن لو، ورحلت الحملة في 23 ديسمبر1834م متجهة إلى سقطرى لاحتلالها[110].

وقد دارت مباحثات حول شراء الجزيرة بين المبعوث

الليفتانت ويلستد وبين السلطان عامر الطوعري وابن أخيه سعيد إلا أنها كانت المفاجأة عندما صرخ الشيخ الكبير قائلاً "حقاً أن بلادي فقيرة خالية لا فائدة مادية كبيرة منها وبامكانكم أن تأخذوها منا قهراً ومع ذلك إنني أرفض بيعها أو تسليمها لكم"[111]. وهكذا فقد كان حكام سقطرى كانوا أكثر صلابة وحرصاً على بلادهم واستمرت المراسلات فيما بينهم بينما كان الإنجليز يجهزون الاستعدادات للدخول إلى الجزيرة في حالة عدم الموافقة وقد بعث سلاطين سقطرى برسالة أخيرة شرحوا لهم الملابسات التي حدثت وموقفهم الأخير من هذه المفاوضات "إننا لن نبيع أو نعطي الجزيرة لكن سنبقى على المعاهدة السابقة مع كابتن روس ومؤداها، إنكم ستدفعون مقابل البيت والقوارب والعمال"[112].

وقد تطرق السلطان عامر في الرسالة إلى وجود قوة أكبر وهي القوة العثمانية-وربما قصد من ذلك ترهيب الإنجليز وتحذيرهم من التدخل قائلاً "إننا جميعاً مسلمون، هناك سلاطين آخرون أعلى منا -السلطان الخليفة المنصور محمد الثاني، ابن عبدالحميد بن عثمان"[113] بالرغم من أن الدولة العثمانية لم تول الجزيرة اهتماما يذكر كما يتضح لنا من خلال المراجع التي توفرت بين أيدينا، ولم يأت ذكر للأتراك في سقطرى، سوى شذرات بسيطة مثلاً "إنزال فرقة تدريب تركية في العام 1847م إلى الجزيرة"[114].

وكان رد فعل الإنجليز متوقعاً إزاء هذا، وكابتن (لو) رغم وصوله متأخراً فقد كان لديه أوامر باحتلال الجزيرة سواء كان قد تم شراؤها أم لم يتم.

في الخامس عشر من يناير عام 1835م تم إنزال جميع المعدات والمؤن على أرض الجزيرة وعين (الكابتن بيلي) مسئولاً على جزيرة سقطرى، وقد حاولت الحكومة البريطانية إظهار سلامة نيتها من هذا الاحتلال وأن هدفه لم يكن إلا الحصول على مكان أمين ليكون محطة مناسبة للملاحة البخارية"[115] وأن على الزعماء العرب أن يتأكدوا أن البريطانيين لم يكن لديهم نية الاحتلال للجزيرة بصورة دائمة، وأن إنزال الجنود لم يكن إلا لأنهُ من الصعب إعادتهم إلى بومبي في ذلك الموسم من السنة"[116].

وقد تنامت إلى مسامع القوات الإنجليزية قيام السلطان بإنزال قوات ومهاجمة القوات البريطانية وقد نزل بالجنود الذين نزلوا الجزيرة مرض مروع وحمى شديدة. وقد أبدى حاكم الهند شكوكاً كبيرة حول سياسة المحافظة على التفاوض من أجل الاحتلال المؤقت أو الدائم للسلطة سواءً على كل أو جزء من الجزيرة، وأوصاهم بالجلاء عنها والرجوع إلى بومبي لحين إصدار أوامر أخرى، وقد عادت بريطانيا مرة أخرى للمفاوضة في شأن تأجير الجزيرة، إلا أن الردود الرافضة والمتوالية للسلطان جعلت الحكومة البريطانية تصرف النظر عنها وفي السادس عشر من شهر أكتوبر عام "1835م وصل كابتن روس إلى حديبو ليجد السفينة (جون آدمز) راسية فاستلم التوجيهات للجلاء من الجزيرة"[117] عندها اتجهت أنظارهم نحو ميناء عدن.

ولم يتوقف الصراع عند البريطانيين ففي عام 1857م "حاولت الحكومة النمساوية إيجاد موضع قدم لها في سقطرى، وتطلعت لإنشاء أسواق تجارية جديدة وقد اتصل إمبراطور النمسا بسلطان المهرة بشأن التفاوض في استئجار الجزيرة"[118] بل إن إيطاليا بعد اكتمال وحدتها، كانت تسعى لتوسع استعماري محدود كجيرانها، ففي عام "1871م طلبت إيطاليا الإذن من بريطانيا بشأن شراء جزيرة سقطرى ورغم أن هذا الطلب رفض رفضاً تاما إلا أنهم قاموا بمحاولات سرية لاحتلالها"[119].

إن موقع الجزيرة الفريد منحها الكثير من الأهمية وإن كانت الاتصالات التي يقوم بها الغرب الأوروبي من أجل احتلال الجزيرة أو الرحلات الشخصية التي يقوم بها الأفراد أو المؤسسات العلمية، جاءت عن طريق التحضير والتجهيز، فقد صادف دخول الجزيرة أناس بالصدفة

وذلك من خلال اصطدام البواخر برأس مؤمن الخطير[120]، فقد صادف ان اصطدمت الكثير من البواخر البريطانية والألمانية على هذا الرأس مما جلب لها شهرة أيضاً في البلاد الأجنبية، ونظراً لأن إنجلترا قد بسطت الحماية على مناطق شتى من جنوب اليمن، فقد حاولت إدخال سقطرى أيضاً ضمن مناطق الحماية، ففي عام 1886م فوضت حكومة الهند والي عدن بتعليمات من سكرتير حكومة صاحبة الجلالة لشؤون الهند إبرام معاهدة مع سلطان قشن وسقطرى، بحيث تصبح سقطرى بمقتضى هذه المعاهدة تحت الحماية البريطانية، وقد عقدت هذه المعاهدة في 23 إبريل 1886م بين الجنرال هوغ وعلي بن عبد الله بن سالم بن سعد بن عفرار حاكم سقطرى[121] ونصت على ما يلي:

1) "إن الحكومة البريطانية نزولاً عند الرغبة التي أبداها السلطان الموقع أسمه أدناه علي بن عبدالله بن سعد بن عفرار تتعهد بوضع جزيرة سقطرى وملحقاتها الكائنة تحت سلطة السلطان داخل حدود حماية جلالة الملك.

2) المادة الثانية أن يوافق السلطان ابن عفرار وأقاربه وورثته بالامتناع عن الدخول في أي مراسلة أو اتفاقية أو معاهدة مع دولة أجنبية إلا بعد اطلاع الحكومة البريطانية.

3) يسري مفعول هذه المعاهدة من هذا التاريخ إشعاراً بذلك، وقد وقع عليها أدناه الأشخاص المختصون بذلك في قشن.

وقد وقع على هذه المعاهدة الجنرال هوغ والي عدن ومساعده وحاكم سقطرى، ويبدو أن بريطانيا لم ترغب في التخلي نهائياً عن الجزيرة، حتى أنها كانت في صراع مع الفرنسيين شريكهم في المستعمرات، حاولت بريطانيا عقد المعاهدات مع القبائل الصومالية في الساحل والجزر الصومالية خوفاً من تقدم منافستها فرنسا، وبعد هذه الاتفاقية "توصلت الحكومتان الفرنسية والبريطانية إلى اتفاق بالنسبة لمطالبهما على الساحل الصومالي على أن تمتد المحمية البريطانية على خط طول 49 شرقاً"[122].

وهكذا فقد حاولت بريطانيا حصر الوجود الفرنسي بالبحر الأحمر في نطاق الساحل الصومالي وعلى مسافة بعيدة عن عدن واليمن ولأن الاستعمار البريطاني كان ينظر في كل الأحوال إلى الاستراتيجية العسكرية العدوانية أثناء سيطرته على الجزيرة فقد ظل محتفظاً بهذا النهم الاستعماري دون النظر إلى إنسانية الشعوب وهويتها وخصوصيتها، ففي أوائل القرن العشرين فكرت بريطانيا بتلك العقلية الاستعمارية بالاستفادة من هذه الجزيرة لتحقيق أحلامها ومطامعها في العالم وذلك بتوطين وتجهيز جماعة من اليهود إلى الجزيرة قبل أن تفكر في جعل فلسطين وطن قومي لليهود، وقد أقترح ذلك السر أرنست بينت، وأرسلت هذا الاقتراح إلى السرجون سكيرغ وزير المستعمرات في لندن[123] المخطط الصهيوني البريطاني الكبير في استعمار جميع الأراضي العربية وترمي إلى احتلال أراضي بالغة الأهمية من حيث الموقع الاستراتيجي الذي يخدم مصالحها الاستعمارية، وبما أن سقطرى اعتبرت إحدى محافظات عدن فقد ظلت تحت الحماية البريطانية حتى نالت استقلالها مع بقية محافظات الجنوب اليمني عام 1967م.

الخاتمة

من خلال الدراسة وجدنا أنفسنا أمام حقائق لابد من ذكرها وهي :

أولاً: إن تاريخ الجزر اليمنية لم يدرس بعد دراسة جادة لذا وجدنا صعوبات جمة في جمع هذه المادة، فقد لاحظنا مزج الأساطير والحكايات المروية بتاريخ سقطرى، أما الحقائق التاريخية فكانت شحيحة جداً، ومازال الكثير من المراجع المتعلقة بتاريخ سقطرى الحديث مدونة بلغة أجنبية ويحتاج إلى الكثير من الجهد.

ثانياً: أن الجزيرة تحوي كمًا هائلاً من الثقافات المتباينة والتي تنم عن شعب ذي موروث حضاري، فاللغة السقطرية المتميزة، تعد واحدة من أهم المعالم الحضارية الباقية في الجزيرة، إضافة إلى أن تنوع طقوس حياة المجتمع

السقطري وتشابهها إلى حد كبير مع بعض العادات والتقاليد في جنوب الجزيرة العربية تدعو علماء الآثار إلى الاتجاه نحو المزيد من الحفريات التي تقطع الشك باليقين.

ثالثاً: تمتلك الجزيرة موقعا استراتيجيا مهما كونها تقع في نهاية خليج عدن وغرب المحيط الهندي وتستطيع التحكم في الطريق الملاحي الدولي بين أفريقيا والمحيط الهندي ودول آسيا والهند، وما تلك الصراعات التي شهدتها منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندي في القرون الثلاثة الماضية إلا دليل يؤكد لنا أهميتها دولياً وإقليمياً بالنسبة لليمن، كما أن قربها من الساحل قد يؤهلها لأن تصبح عرضة لتغلغل اقتصادي وسياسي ضد سيادة الدولة، ولذا فقد أولت الحكومة اليمنية الجزيرة في الآونة الأخيرة اهتماماً خاصا وأعلنت لتكون محمية طبيعية وشجعت السياحة والاستثمار في الجزيرة وسيؤهلها ذلك لأن تصبح منطقة سياحية وميناء مهما على المحيط الهندي، تواجه به الأطماع الاستعمارية التي قد تظهر بين وقت وآخر، ولن يتأتى للجزيرة كل ذلك، إلا بإجراء وتكثيف الدراسات العلمية والتاريخية المتنوعة حول الجزيرة.

وثائق بريطانية

استيطان اليهود سقطرى

٢٩/١/٢٠٣١

٢٢ مارس ١٩٢٩م

سري

عزيزي رابلي،

يتعلق هذا بمذكرتنا الدورية بتاريخ ١ ديسمبر والتي لفتنا فيه النظر الى محنة أعداد كبيرة من اليهود والأشخاص الآخرين الذين يجري اخراجهم من ألمانيا لأسباب سياسية.

- كما أشرنا في المذكرة فإن حكومة صاحب الجلالة تواقة جدا لفعل أي شيء تستطيعه للتخفيف من حال هؤلاء الأشخاص السيء الحظ - بتشجيعهم على الاستيطان في الامبراطورية وبخاصة أولئك الذين يبدو محتملا انهم سيكونون مواطنين طيبين ومفيدين بشرط ان يكون ممكنا فعل ذلك بدون الاضرار بمصالح السكان الموجودين. ان الغالبية الكبرى من اللاجئين الالمان هم اما متخصصين أو تجار وحرفيين والذين بطبيعة الحال سيكون صعبا جدا وضعهم في أغلبية البلدان التابعة المستعمرة. ولكن هناك ايضا عددا وافرا من صغار الفلاحين والمزارعين وقد وضعت ايضا الترتيبات لتوفير التدريب الزراعي في هذا البلد لسكان المدن الذين يدركون انه سيكون عليهم العمل في الأرض اذا ما ارادوا لانفسهم وطنا في بلدان أخرى. لدى الكثير من اللاجئين رأسمال من بضع مئات من الجنيهات وعلى منظمات اللاجئين على استعداد لمساعدة توطينهم فيما وراء البحار بالقدر الذي تسمح به الأموال المتوفرة لديها.

لقد وصلتنا الآن طلبات من اللاجئين الافراد، وبطلبات الوسائل من المتعاطفين معهم تقترح مختلف البلدان في الامبراطورية البريطانية، اتوقع انكم تعرفون ان التحقيق في امكانات التوطين على نطاق كبير أو بمستوطنات صغيرة في بلدان مثل غيانا البريطانية وروديسيا الشمالية وبلدان شرق افريقيا معينة أخرى اما جارية أو يجري التفكير فيها. ولكن بخلاف هذه المشاريع يمكن تقديم بعض الاسهام للمشكلة من خلال التغلغل، ونحن يهمنا ان تنظر كل حكومة مستعمرة بالتعاطف بقدر الامكان للطلبات من الافراد الذين يبدو محتملا انهم سيكونون مستوطنين مفيدين والذين هم قادرين على الوفاء بمتطلبات قوانين الهجرة والنظمها في البلد الذي يرغبون الهجرة اليه.

من بين المقترحات الكثيرة التي استلمناها مقترح من المستر آيرد بشأن جزيرة سقطرى، على ما يبدو واثر اهتمام المستر آيرد بوصف للجزيرة، كتبه المستر ارنست بينيت [illegible] مقالة نشرت في عدد ١٨ يونيو ١٨٢٨م من "النشرة الاخبارية" وارفق نسخة منها. وقد اقترح انه قد يكون ممكنا الترتيب للاستيطان اليهودي على نطاق كبير هناك. كما كتب المستر [illegible] لنا بشأن الموضوع. اما الخط الذي اتخذناه في الرد فقد كان انه الصعب جدا التصديق ان المناخ سيناسب اناس اعتادوا الاحوال الاوروبية أو ان اليهود من المانيا والنمسا

٢٧٣

مجلة اليمن ... العدد الثاني عشر، نوفمبر ٢٠٠٠ ...

(٢)

سقطرى بالتوجه الى هناك. زيادة على ذلك فان الجزيرة يحكمها سلطان عربي والذي قد حظي بمعاهدة للرعاية [illegible] أن [illegible] ادخال اللاجئين اليهود باعداد كبيرة الى أراضيه سوف يتعرض الى [illegible] ان بلدا عربيا آخر [illegible] لليهود.

ومع ذلك اصبح الوضع بمثل ذلك اليأس الذي يجعل حتى ادخال بضع المئات أو أسر محددة للاقامة على أساس الاحالة فقط أمرا مرغوبا [illegible] هذه الرسالة هي الطلب [illegible] هذا الاستيطان [illegible] سيكون [illegible] في سقطرى [illegible] كما قد سهل لي أن [illegible] المحتمل [illegible] الاحوال من قبل [illegible] المستوطنين الى ان [illegible] من جانب آخر لا بد من [illegible] في حالة اللاجئين الالمان [illegible] اللاجئين من بلدان أوربية أخرى [illegible] الى بلدان [illegible] في اماكن أخرى [illegible] في بلد للاستيطان الاول.

- اذا كنت [illegible] ان سقطرى [illegible] أي امكانية [illegible] من اللاجئة الافراد أو الأسر الذي سيكون [illegible] الجزيرة [illegible] والاعمال التي [illegible] أو بدلا من ذلك [illegible] سيكون [illegible] أساس الاحالة فقط [illegible] سيكون [illegible] والشروط التي سيكون [illegible] من أجل النزول الى الجزيرة.

- [illegible] ان [illegible] هذا المقترح [illegible] ولكن الاحوال [illegible] حتى [illegible] الاجابة [illegible]. اذا كانت سقطرى [illegible] على استيعاب حتى [illegible] من المهاجرين فان ذلك سيشكل [illegible] المساعدة [illegible].

المخلص لكم

السر جون شكبرج

وزارة المستعمرات، لندن

الى :

الحاكم السير برنارد رايلي.

[illegible]

١٢ ابريل ١٩٣٩م

عزيزي رايلي ،

في ١٢ مارس كتبت لكم خطابا [illegible] بآرائكم حول ما اذا كانت سقطرى توفر أي امكانيات لاستيطان بعض اللاجئين اليهود هناك.

- في اثناء ذلك جاءنا من سكرتير اللجنة الفرعية المشتركة للهجرة (الاستيطان) والتابعة للجنة [illegible] اللاجئين مذكرة حول الموضوع والتي قد أعدت من قبل مراسل، وأرفق لكم نسخة منها.

[illegible] اللاجئين [illegible] شاكرا لكم لو [illegible] ردا على رسالتي بتاريخ ٢٢ مارس بأسرع ما يمكنكم.

المخلص لكم

السر جون شكبرج

وزارة المستعمرات، لندن

الى

الحاكم السير برنارد رايلي

الهوامش

1 – دائرة المعارف الإسلامية الجزء12 صـ471.

2- W,H,is,ix: EXCYCLOPAEDIA Britannica. Inc.V.20. p818

كما ورد اسم الجزيرة في بعض المراجع بـ"الجزيرة المقدسة" (أحمد عزت عبد الكريم) البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، صـ.

3 – جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، صـ62.

4 – هارولد جيكوب: ملوك شبه الجزيرة العربية، ترجمة أحمد المضواحي صـ338.

5 – أحمد فخري: اليمن ماضيها وحاضرها، صـ176.

6 – جيكوب: ملوك شبه الجزيرة العربية، صـ338.

7 – محمد عبد القادر بامطرق: لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى، صـ21.

8 – جيكوب: ملوك شبه الجزيرة العربية، صـ388.

9 – يوسف محمد عبد الله: سقطرى، الموسوعة اليمنية ج2، صـ519.

10 – أبو الحسن المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، صـ22.

11 – جيكوب: ملوك شبه الجزيرة العربية، صـ387.

12 – ابن المجاور: تاريخ المستبصر، صـ267.

13 – محمد طه أبو العلا: جغرافية شبه الجزيرة العربية، ج3، صـ158.

14 – بامطرف: لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى، صـ13.

15 – تبلغ أعلى قمة جبل فيها 5000 قدم فوق مستوى سطح البحر وهي قمة جبل هجير (يوسف محمد عبد الله: الموسوعة اليمنية، ج2، صـ519.

16 – أبو العلا: جغرافية شبه الجزيرة العربية، صـ186.

17 – سليمان المهري: العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية، ج1، صـ48.

18 – بامطرف: لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى، صـ14.

19 – بامطرف: لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى، صـ15.

20 – بامطرف: لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى، صـ14.

21 – فلاح شاكر أسود: جزيرة سقطرى–دراسة جغرافية، الندوة الدولية العلمية الأولى حول جزيرة سقطرى–عدن 1996م، صـ92.

22 – فيتالي ناؤومكين: سقطرى: هناك حيث بعث العنقاء، صـ14.

23 – نتيجة للصلات التجارية القديمة بين العرب والهنود، فقد أقتبس العرب اسم هذه الشجرة من أسطورة هندية مفادها أن التنانين ناصت الفيلة العداء وشعرت بشغف لدم الفيلة وسعت لكي تعضه وتمتص دمه.. فخر الفيل صريعاً ودهس بجسمه الثقيل التين فامتزج دم التين بدم الفيل وسقت دماءهما الأرض وقد سمي هذا المزيج (زئبق سولفيد) أو دم الأخوين (فيتالي ناؤومكين): سقطرى هناك حيث بعث العنقاء، صـ14.

24 – ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، صـ327.

25 – عيد الحاج: سقطرى عذراء اليمن، صحيفة 26 سبتمبر، العدد 967، صـ6.

26 – عيد الحاج: سقطرى عذراء اليمن، صحيفة 26 سبتمبر، العدد 967، صـ6.

27- T.Bent: southeren Arabia. , london. , 1900. P.365.

28 - المسعودي: مروج الذهب، صـ22.

29 - مصطفى كمال عبد العظيم: (دور البحر الأحمر في تاريخ مصر على عهد البطالمة)، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، صـ22.

30 - الحسن الهمداني: الإكليل، جـ1، صـ196.

31 - الحسن الهمداني: الإكليل، صـ197.

32 - الحسن الهمداني: الإكليل، صـ197.

33 - با مطرف: لمحات من تاريخ سقطرى، صـ22.

34 - حمزة على لقمان: تاريخ الجزر اليمنية، صـ38.

35- نازرمكين، سقطرى حيث بعثت العنقاء، صـ27. 35

36- J. Epeter Cesor: the islan dsofpralia; theiecart iurorony, Blarstud-nes-nic. Ediredly. R. Bserjear and Bidwell. London. 1985. P.33.

37 حمزة على لقمان: تاريخ الجزر اليمنية، صـ34.

38 - أنطوان لونيت: اللغة السقطرية الماضي -الحاضر -المستقبل، الندوة الدولية، صـ217.

39 -دائرة المعارف الإسلامية، مادة سقطرى، صـ.

40 - عبد الله مسلم قاسم: كتاب السقطرية، صـ11.

41- T. Bent: Southern Arabia. P.357.

42- I bid. .P.358.

43 - جيكوب: ملوك شبه الجزيرة العربية، صـ386.

44 - جيكوب: ملوك شبه الجزيرة العربية، صـ386.

45 - نازومكين: سقطرى حيث بعثت العنقاء، صـ46.

46 - ياقوت الحموي: معجم البلدان، صـ227.

47 - حمزة علي لقمان: تاريخ الجزر اليمنية، صـ70.

48 - محمد الشيخي: مشروعات دعاة الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، صـ165.

49 - بامطرف: لمحات من تاريخ سقطرى، صـ54.

50 - العبيدلي: حملة الإمام ابن الصلت على سقطرى، صـ174.

51 - نازومكين: سقطرى حيث بعثت العنقاء، صـ38.

52 - نازومكين: سقطرى حيث بعثت العنقاء، صـ55.

53- T. Bent: Southern Arabia. P355.

54- T. Bent: Southern Arabia. P371.

55 - بامطرف: لمحات من تاريخ سقطرى، صـ34.

56 - لقمان: تاريخ الجزر اليمنية، صـ42

57 - سعيد حسن خليفة: الحياة الاجتماعية في جزيرة سقطرى، صـ44

58 - ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، هـ: صـ 328

59 - بامطرف: لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى، صـ 109

60 - ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، صـ328

61 - نفسه، صـ328

62 - نازومكين: سقطري هناك حيث بعثت العنقاء، صـ58

63 - بامطرف: لمحات من تاريخ سقطرى، صـ19

64 - صباح محمد محمود: الأهمية الجيوبولتيكية لجزيرة سقطرى،الندوة الدولية العلمية الأولى حول جزيرة سقطرى - الحاضر والمستقبل، صـ67

65 - المياه الإقليمية: هي امتداد لسيادة الدولة الساحلية خارج إقليمها البري ومياهها الداخلية ومياهها الأرخبيلية،وتمتد السيادة إلى الحيز فوق البحر الإقليمي وكذلك قاعه وباطن أرضه وهو حزام بحري ملاصق يعرف بالبحر الإقليمي (فلاح أسود: جزيرة سقطرى، دراسة جغرافية، الندوة الدولية، صـ89).

66 -محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، صـ328

67 - جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام، صـ212

68 - المسعودي: مروج الذهب، صـ22

69 - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج2، صـ24

70 - نفسه، صـ24

71 - إبراهيم نصحي: تاريخ الحضارة المصرية، صـ45

72 - أحمد العبيدلي: حملة الإمام الصلت بن مالك على سقطرى، صـ176

73 - أحمد العبيدلي: حملة الإمام الصلت بن مالك على سقطرى، صـ176

74 - محمد بن الزبير: دليل أعلام عمان، صـ96

75 - بامطرف: لمحات من تاريخ سقطرى، صـ57

76 - لقمان: تاريخ الجزر اليمنية، صـ 38

77 - نازومكين: سقطرى حيث بعثت العنقاء، صـ62.

78 - إسماعيل طفتكين: أحد نواب الدولة الأيوبية في اليمن،وكذلك سيف الدين سنقر في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي.

79 - ابن المجاور: تاريخ المستبصر، صـ 267.

80 - نازومكين: سقطرى حيث بعثت العنقاء، صـ61.

81 - نازومكين: سقطرى حيث بعثت العنقاء، صـ62.

82 - العبيدلي: حملة الإمام الصلت، صـ170.

83 - محمد سعيد باكريت: المهرة الأرض والسكان، صـ21.

84 - لقمان: معارك حاسمة من تاريخ اليمن، صـ15.

85 - لقمان: معارك حاسمة من تاريخ اليمن، صـ52.

86 - حسن صالح شهاب: البحار اليمني سليمان المهري، صـ8.

87 - حمزة علي لقمان: معارك حاسمة من تاريخ اليمن، صـ151.

88 - محمد مراد عدنان: صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي، صـ156.

89 - فيتالي: سقطرى، صـ67.

90 - لقمان: الجزر اليمنية، صـ79.

91 - باكريت: المهرة الأرض والسكان، صـ21.

92 - محمد عمر الطيب بالفقيه: تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، صـ82.

93 - محمد عبد العال: البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى في السيطرة عليه، صـ111.

94 - سيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول في اليمن، صـ80.

95 - فيتالي: سقطرى، صـ68.

96 - جمال زكريا قاسم: أهمية ثغر جده في النصف الأول من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، صـ245.

97 - فيتالي: سقطرى، صـ71.

98 - نازومكين: سقطرى حيث بعثت العنقاء، صـ75

99 - ك-خ براوروآكيلان: اليمن أوائل القرن السابع عشر، صـ24.

100 - ك-خ براوروآكيلان: اليمن أوائل القرن السابع عشر، صـ24.

101 - جان دي لاروك: رحلة إلى بلاد العرب السعيدة، صـ31.

102- T. Bent: Southern Arabia. P382.

103 – فاروق عثمان أباظة: عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، صـ114.

104 – سلطان القاسمي: الاحتلال البريطاني في عدن 1839، صـ114.

105 – القاسمي: احتلال عدن 1839، صـ116.

106 – صباح محمود محمد: الأهمية الجيوبولتيكية لجزيرة سقطرى، الندوة الدولية العلمية الأولى حول جزيرة سقطرى، ج الأول، مارس 1996م، صـ63.

107 – القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن، صـ118.

108 – لقمان: تاريخ الجزر اليمنية، صـ80.

109 – القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن، صـ120.

110 – القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن، صـ121.

111 – لقمان: تاريخ الجزر اليمنية، صـ80.

112 – القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن، صـ127.

113 – القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن، صـ127.

114 – بامطرف: لمحات من تاريخ سقطرى، صـ80.

115 – القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن، صـ132.

116 – القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن، صـ132.

117 – القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن، صـ81.

118- Waltor Dostral: The political and 6conomic sruarionin socotora in the 19th. P.149

119 – إيريك ماركو: اليمن والغروب، تعريب حسين العمري، صـ131.

120 – بامطرف: لمحات من تاريخ سقطرى، صـ79.

121 – محمد كمال عبد الحميد: الاستعمار البريطاني في جنوب اليمن، ص102.

122 – أحمد عزت: بريطانيا والصومال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أبحاث الأسبوع العلمي الثالث (البحر الحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة)، صـ477.

123 – مجلة اليمن: وثائق بريطانية بعنوان (استيطان اليهود سقطرى) العدد 12، نوفمبر 2000، صـ273. لمزيد من الإيضاح أنظر الملحق رقم 1.

قائمة المصادر والمراجع

– ابن المجاور محمد بن مسعود علي بن أحمد البغدادي، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (المسمى تاريخ المستبصر)، تحقيق/ أوسكر لوفغرين. طبع ليدن. مطبعة بريل سنة 1951م.

– أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، كتاب الإكليل، في مبدأ الخليقة وأصول الأنساب، ونسب مالك ابن حمير، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ج أ، ط3، دار التنوير، بيروت 1407هـ/1986م.

– أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرحه/ عبد الأمير مهنا، ج1، ط1،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 2000م.

– جان دي لاروك رحلة إلى العربية السعيدة عبر المحيط الشرقي، ومضايق البحر الأحمر، ترجمة: صالح محمد، مراجعة: كامل يوسف،ط1، أبو ظبي المجمع الثقافي 1999م.

– جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قل الإسلام،ط1،ج2، دار العلم للملايين، بيروت–مكتبة النهضة بغداد،بيروت 1969م.

– دائرة المعارف الإسلامية ج الثاني عشر، انتشارات جرهان– تيران– بوذر جمدي 1352–1933م.

– شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي معجم البلدان، ج3، د. ط، دار صادر للطباعة بيروت 1376هـ/1957م.

– سليمان بن أحمد المهري، العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية، ج1، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1970م.

– ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ترجمها إلى العربية: عبد العزيز جاويد، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب 1977م.

– محمد بن عبد المنعم الحميري،الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي مع سرد عام، تحقيق/ إحسان عباس، مؤسسة ناصر الثقافية ط2، 1975م.

– محمد بن عمر الطيب با فقيه، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق/ عبد الله محمد الحبشي، ط1، مكتبة الإرشاد، صنعاء 1419هـ–1999م.

– يوسف محمد عبد الله، الموسوعة اليمنية، ج2، ط1، مؤسسة العفيف الثقافية، دار الفكر المعاصر، لبنان 1992م.

ثانياً المراجع:

– إبراهيم نصحي،تاريخ الحضارة المصرية، (العصر اليوناني–الروماني والعصر الإسلامي)،ج2، بإشراف محمد شفيق غربال، المؤسسة المصرية للطباعة والتأليف والترجمة، د. ط، د. ت.

– أحمد فخري اليمن ماضيها وحاضرها، منشورات المدينة، بيروت، 1988م.

– أحمد العبيدلي، حملة الإمام الصلت بن مالك الخروصي على جزيرة سقطرى– الندوة الدولية العلمية حول جزيرة سقطرى 24–28 مارس 1996م، عدن.

– أحمد عزت عبد الكريم،البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، أبحاث الأسبوع العلمي الثالث 10–15 مارس 1979م، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديثة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم–القاهرة 1980م.

– أنطوان لونيت،اللغة السقطرية الماضي–المستقبل، الندوة الدولية العلمية الأولى حول جزيرة سقطرى–الحاضر والمستقبل، عدن 24–28 مارس 1996م. الجزء الأول بحوث اقتصادية واجتماعية.

– إيريك ماركرو، اليمن والغرب (1571–1962م)، تعريب/ حسين العمري، صنعاء Hurot and Company London.

- جمال زكريا قاسم، أهمية ثغر جده في النصف الأول من القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، أبحاث الأسبوع الثالث "البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة"، القاهرة 1980م.

- جورجي زيدان، العرب قبل الإسلام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت د.ت

- جورج فضلو حواني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة/السيد يعقوب بكر، مراجعة يحيى الخشاب، مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر-القاهرة، نيويورك.

- حسن صالح شهاب، البحار اليمني: سليمان بن أحمد المهري، مرشد الملاحة العربية في المحيط الهندي، الشرعبي للطباعة والنشر، صنعاء 1412هـ-2000م.

- حمزة علي لقمان:

1- تاريخ الجزر اليمنية، مطبعة يوسف وفيليب الجميل، بيروت 1972م

2- معارك حاسمة من تاريخ اليمن،مطبعة دار العودة، بيروت 1978م.

3- تاريخ القبائل اليمنية، ط1، دار الكلمة، صنعاء 1406هـ-1985م.

- فاروق عثمان أباظة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839م، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979م.

- فلاح شاكر أسود جزيرة سقطرى - دراسة جغرافية، الندوة الدولية العلمية الأولى حول جزيرة سقطرى، عدن 1996م.

- ك-خ براور-آكبلانيان، اليمن أوائل القرن السابع عشر، مقتطفات من الوثائق الهولندية المتعلقة بالتاريخ الاقتصادي لجنوب الجزيرة العربية (1614-1630) سلسلة منشورات المعهد الهولندي للآثار المصرية والبحوث العربية،ليدن شركة آ بي بريل للنشر 1988م.

- محمد بن الزبير، دليل أعلام عُمان، ط1، 1412هـ/1991م، سلطنة عمان.

- محمد طه أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة العربية، جغرافية اليمن الشمالي والجنوبي ج4/3 ط11، جامعة الكويت، مؤسسة سجل العرب 1972م.

- محمد كمال عبد الحميد، الاستعمار البريطاني في جنوب الجزيرة العربية، ط2، مطبعة السنة المحمدية، د.ت

- مصطفى كمال عبد العظيم، "دور البحر الأحمر في تاريخ مصر على عهد البطالمة"، أبحاث الأسبوع العلمي الثالث، إشراف أحمد عزت عبد الكريم.

- محمد عدنان مراد، صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي، دار دمشق للطباعة والنشر.

- محمد عبد العال أحمد، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، نصوص مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني بامخرمة، دراسة وتحقيق جامعة القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة 1980م.

- محمد عبد القادر بامطرف، لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى ط1، دار حضرموت للدراسات والنشر، حضرموت 2001م.

- محمد علي الشيخي، مشروعات دعاة الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف أ.د فائز نجيب اسكندر، آداب صنعاء 1424هـ/2002م.

- سلطان بن محمد القاسمي، الاحتلال البريطاني لعدن 1839م، ط1 1991م.

- سعيد حسن خليفة، الحياة الاجتماعية في جزيرة سقطرى، الندوة الدولية العلمية الأولى حول جزيرة سقطرى 1996م.

- سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، (1538-1635) د.دار، ط ع القاهرة 1992م.

- صباح محمد محمود، الأهمية الجيوبولتيكية لجزيرة سقطرى، الندوة الدولية العلمية الأولى حول جزيرة سقطرى، عدن 1996م"

- علي سعيد باكريت، المهرة الأرض والسكان، دار جامعة عدن للطباعة والنشر 1999م.

- عبد الله مسلم قاسم، كتابة السقطرية، مركز الدراسات والبحوث، ج1، ط، صنعاء، 1994م.

فيتالي ناؤومكين، سقطرى..هناك حيث بعثت العنقاء، ترجمة: د.علي صالح الخلاقي، معرض الحياة الدائم للكتاب.

- هارولدف-يعقوب. ك.سي.بي، ملوك شبه الجزيرة العربية، ترجمة أحمد المضواحي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة. بيروت، د.ت.

الدوريات والمقالات العلمية:

- عبيد الحاج، "سقطرى عذراء اليمن" صحيفة 26سبتمبر، العدد 967، يوليو 2001م

- مجلة اليمن، العدد الثاني عشر، نوفمبر 2000م، إصدار مركز الدراسات والبحوث، عدن ص273-275.

المراجع الأجنبية:

1- ENCYCLOPAEDIA -INC. BRITABBICA VOLUME20. FIST PUBLISHED IN 1288. BY ASOCIETY OF GENTLE MEN IN SCOTLAND.
2- R.B SERJEANT AND RL BIDWILL ARABIAN STUDIES VII. SCORPION PUBLISHING LONDON UNIVERSITY FOR THE MIDDLE EST LENTRE
3- THEODORE BENT F.R.G.S, F.S.A AND MRS THEODORE BENT. SOUTHERN ARABIA LONDON 1900.
4- WALTER DOSRAL. THE POLITICAL AND ECONOMIC SITUATION INSOCOTRAIN THE 19th CENTURY FROM THEREPORTS OF THE AUSTRIAN MARINE VIENNA CPROCEEDING OF: FIRST INTER NATIONAL SYMPOSIUMON SOCOTRA ISLAND – PRES ENTANDFUTURE ADEN, 24-28 MARCH-1996.

الزبيدي وكتابه التاج*
1145-1205هـ/1732-1790م

أ.د. حسين محمد نصار**

الزبيــدي:

السيد محمد المرتضى بن محمد الحسيني بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي الحنفي: هكذا هو عن نفسه ونسبه في إحدى إجازاته... وزاد تلميذه علي بن عبد الله بن أحمد الحسيني محمداً رابعاً في أبائه. واقتصر المعري على محمدين اثنين.

وفي يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان 1182هـ/ السابع والعشرين من ديسمبر 1768م/ زار الزبيدي أبا الأنوار بن وفاء شيخ السادات الوفائية الذي اعتاد أن يكني من يعجب بهم (الجبرتي2/348) فكناه أبا الفيض، فكانت الكنية التي شاركت في حياة صاحبها وبعد وفاته.

وكناه عبد الحي الكتاني أبا الوقت أيضا. وذهب عبد الستار أحمد فراج إلى أنه كني أيضاً أبا الجود إستدلالاً من قول تلميذه الحسيني: "قال شيخنا... أبو الجود والفيض، (التاجوي) وأخشى أن يكون هذا القول مجرد وصف لا يراد به التكنية.

وكان سليل أسرة عراقية الأصل، من مدينة واسط، تنتسب إلى السيد أبي الفرج الواسطي الذي هاجر إلى الهند بعد غزوة هولاكو للعراق. وينتهي نسب أسرته إلى الحسين بن علي بن أبي طالب.

ذكر القنوجي ومن تبعه إن الزبيدي ولد في قصبة بلكرام (بلجرام) بالهند، وحدد موقعها علي بعد خمسة فراسخ من قنوج وراء نهر كنكة (جنج). وأبانت دائرة المعارف الإسلامية وأنها على خط عرض 30 40 24 شمالاً وخط طول 30 40 80 شرقاً وأنها كانت (من مراكز الثقافة الإسلامية من أيام اكبر (963-1014/1556-1605) إلى القرن التاسع عشر".

ووقع عبد الستار فراج في خطأين. فظن أن وصف

---

* بحث قدم إلى الندوة التي عقدها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت بمناسبة الانتهاء من تحقيق تاج العروس من جواهر القاموس في الفترة 9-10 فبراير 2002م.

** كلية الآداب، جامعة القاهرة.

الزبيدي بالواسطي نسبة إلى واسط أو الواسطية من الأماكن التابعة لبلكرام وشك في قول القنوجي أصلاً لأن الزبيدي لم يصرح بأنه من مواليد الهند ولا ذكر في التاج – نهر جنج ولا واسط.

وإذا كان الزبيدي فعل ذلك فإنه أيضاً لم يصرح بمولده في زبيد باليمن.

ومع ذلك اضطر عبد الستار إلى القول: إن الزبيدي زار الهند- بعد أن تعلم في زبيد – لأن الزبيدي نفسه قال عن ولي الله الدهلوي (1114-1176/1702-1762): حضرت بمنزله في دهلي (دلهي الآن)".

وأعلن الجبرتي انه ولد سنة خمس وأربعين ومائة وألف، وانه سمع ذلك من لفظ الزبيدي ورآه بخطة.

وإذا تتبعنا مجرى حياة الزبيدي، وجدنا انه بقي في الهند إلى سن التلقي، ثم رحل إلى اليمن قبل أن يصل إلى سن العشرين، وأقام في زبيد مدة لا نعرف مداها، غير أنها كافية لان يلقب في مصر بالزبيدي. وفي الثانية والعشرين من عمره انتقل إلى مصر، فدخلها في 9صفر 6/1167 ديسمبر 1753. وسكن بخان الصاغة، ثم تزوج زبيدة ذو الفقار الدمياطي وسكن في عطفة الغسال، مع احتفاظه بسكنه بوكالة (خان)الصاغة، لقربه من حي الأزهر.

وفي أوائل سنة1775/1189 أحس أن عطفة الغسال لا تليق بالمكانة التي وصل إليها، فانتقل إلى حي جديد عامر بالأكابر والأعيان، هو سويقة اللا لا، بالقرب من مسجد شمس الدين الحنفي.

وعاش حياة هانئة مع زوجته ينعمان بالمودة إلى أن وافاها الأجل في 1182/1196فدفنها عند مشهد السيدة رقية، وعمل على قبرها مقاما ومقصورة وستورا وفرشا وقناديل. واشترى مكانا بجوار مقبرها، وأقام فيه بيتا صغيرا وفرشه وأسكن به أمها. وحزن عليها حزنا شديدا، جعل الناس والقراء والمنشدين يجتمعون عندها، فيقدم لهم الزبد والكسكسي والأطعمة والأشربة والقهوة، ودفع الشعراء إلى أن يقصدوها بالمراثي، إضافة الى المراثي المتعددة التي نظمها هو.

وساقه الحزن إلى أن يلزم داره ويغلق بابه عليه، ويترك الدروس ويحتجب عن أصحابه، ويرد ما يصل إليه من الهدايا، وعكف على شرح إحياء علوم الدين للغزالي.

وبعد مدة تزوج بثانية، غير أنه لم يجد عندها ما وجده عند زوجته الأولى.

وكان الزبيدي دمث الخلق مرضي الطباع، يوده من يلتقي به عليه الدنيا في كل مكان حل به. وصف الجبرتي احتفاء المصريين به، وإكرامهم له، منذ راج أمره وترونق حاله، واشتهر ذكره عند الخاص والعام، ولبس الملابس الفاخرة وركب الخيول المسومة.

وسافر إلى الصعيد... وأجتمع بأكابره وأعيانه وعلمائه وأكرمه شيخ العرب همام وإسماعيل أبو عبد الله وأبو علي وأولاد نصير وأولاد وافي، وهادوه وبروه (304/2).

وفصل في مواضع أخرى فقال: ولما ارتحل لزيارة (شيخ العرب همام).. أكرمه إكراما كثيرا وأنعم عليه بغلال وسكر وجوار وعبيد (539/1).

وعندما ألقى أماليه بجامع الحنفي "ودعاه كثير من الأعيان إلى بيوتهم وعملوا من أجله ولائم فاخرة" (308/2).

وانجذب إليه بعض الأمراء الكبار مثل مصطفى بيك الاسكندراني، وأيوب بيك الدفتردار، فسعوا إلى منزله، وترددوا لحضور مجالس دروسه، وواصلوه بالهدايا الجزيلة والغلال. واشترى الجواري، وعمل الأطعمة للضيوف، وأكرم الواردين والضيوف من الآفاق البعيدة" (308/2-9).

ولما حضر محمد باشا عزت الكبير رفع شانة عنده، وأصعده إليه، وخلع عليه فروة سمور، ورتب له تعيينا من كلاره لكفا يته من لحم وسمن وأرز وحب وخبز. ورتب له علوفة جزيلة بدفتر الحرمين والسائرة وغلال من الأنبار. وأنهى إلى الدولة شانه، فاتاه مرسوم بمرتب جزيل

بالضربخانة وقدره مائة وخمسون نصفا فضة من كل يوم ، وذلك في سنة 1777/1191 (309/2). وهكذا أقبلت الدنيا على الزبيدي ، وتجاوزت شهرته الأوساط العلمية إلى أوساط الأمراء والحكام في مصر ثم تعداهم إلى خارجها فكاتبه حاكم الترك، والحجاز والهند واليمن والشام والعراق والسودان وفزان والجزائر والمغرب الأقصى والبلاد البعيدة. وكثرت علية الوفود من كل ناحية، وترادفت عليه الهدايا منهم والصلات والأشياء الغريبة.

ولكنه كانت له منزلة خاصة عند المغاربة ذكر الجبرتي تفاصيلها، وذكر أنهم اعتقدوا فيه الولاية، وأن من يرد منهم إلى مصر حاجا ولم يزره ولا وصله بشيء لا يكون حجه كاملا. وعاب الكتاني الجبرتي بسبب هذه الأقوال، وذهب إلى أنها نتيجة حسده له. ولكن عبد الستار فراج أنكر ذلك ورأى أنه ما أساء إلى شيخه الزبيدي وما حسده، ومقدمته في ترجمته حافلة بالمدح والتقدير، وفي كل مناسبة يذكره ويثني عليه ويصفه بشيخنا. وإنما هو مؤرخ ويقتضيه واجب الإنصاف أن يذكر ما للإنسان وما عليه (التاج1- /جك).

وأعطانا الجبرتي صورة شاملة له. فذكر من صفاته البدنية أنه كان ربعة، نحيف البدن ذهبي اللون متناسق الأعضاء.

ومن صفات هيئته وزيه أنه كان معتدل اللحية، قد وخطه الشيب في أكثرها مترفها في ملبسه، يعتم - مثل أهل مكة- عمامة منحرفة، بشاش أبيض، ولها عذبة مرخية على قفاه، ولها حبكة وشراشيب حرير طولها قريب من فتر، وطرفها الآخر داخل طي العمامة وبعض أطرافه ظاهر.

وكان- في صفاته السلوكية- لطيف الذات، حسن الصفات، بشوشا، بسوما، وقورا، محتشما، مستحضرا للنوادر والمناسبات.

وكان - في صفاته العقلية - ذكيا لوذعيا، فطنا، ألمعيا، روض فضله، نضير، وماله في سعة الحفظ نظير. وفي سنة 1205 انتشر الطاعون بالقاهرة. وفي يوم الجمعة من شهر شعبان من هذه السنة صلى الزبيدي في مسجد الكردي المواجه لداره فأصابه المرض بعد ما فرغ، ودخل إلى البيت واعتقل لسانه تلك الليلة. وتوفي يوم الأحد دون أن يترك ابنا أو بنتا، فأخفت زوجته وأقاربها موته حتى نقلوا الأشياء النفيسة. وأعلنوا موته يوم الاثنين. ودفن بقبر كان أعده لنفسه بجانب زوجته الأولى دون أن يشيعه أحد من العلماء لاشتغال الناس بالوباء. أعتقد أنه يمكن إجمال أحداث حياة الزبيدي في عبارة واحدة "السعي وراء العلم".

سعى وراءه في الأقطار المختلفة. فعل ذلك في صباه الأول في الهند، واليمن، وشبه الجزيرة العربية (مكة والمدينة والطائف) في صباه الثاني.

ورحل إلي مصر في 1754/1167 عندما "شوقه شيخه عبد الرحمن العيدروس إلي دخولها بما وصفه له من علمائها وأمرائها وأدبائها، وما فيها من المشاهد الكرام..." (الجبرتي 303/2).

وفي مصر سافر الى الصعيد ثلاث مرات، والوجه البحري مرارا، وإلى فلسطين والأردن. قال يصف رحلاته: رحلت إلى بيت المقدس... وفي الرملة، وثغرها يافا، ودمياط، ورشيد، والمحلة، وسمنود، والمنصورة، وأبو صير، ودمنهور، وعدة قرى من مصر، سمعت بها الحديث... ورحلت الى أسيوط، وجرجا، وفرشوط، وسمعت في كل منها"(القنوجي717). كل ذلك إضافة إلى من التقى بهم في القاهرة من المصريين، والنازلين بمصر، والمارين بها، ومن طلب إجازاتهم من الأقطار المختلفة.

ولذلك أعلن مير غلام علي أزاد البلجرامي في" مآثر الكرام تاريخ بلجرام" أنه ذكر في برنامجه الذي كتبه للسيد باسط علي بن علي محمد قادري بمصر نحوا من ثلثمائة شيخ أخذ عنهم (القنوجي741).

من أجل ذلك أرى أنه من العبث ذكر أسمائهم،

وخاصة أنه تكفل هو نفسه بذلك في معجميه الصغير والكبير وألفية السند.

ولكن يمكن أن أشير – في تردد– إلى من أعلن أ.د جمال الدين الشيال أن الزبيدي إذا كان قد تلقى العلم عن عدد كبير من العلماء إلا انه لم يتأثر في تكوينه العلمي إلا بعدد قليل منهم، يرجع الفضل إليهم في توجيهه إلى الدراسات التي فرغ لها. وذكر منهم عبد الخالق ابن أبي بكر المزجاجي (1100–1181/1689–1767) وعبد الرحمن بن مصطفي العيدروس(1135–1192/1723–1778) وعبد الله بن إبراهيم المحجوب الميرغني (1207/1792) ومحمد بن محمد المعروف بابن الطيب الفاسي (1164/1751).

عدد الزبيدي العلوم التي حصلها ويجوز له أن يعطيها غيره في إحدى إجازاته، وكشف عن طرق هذا التحصيل، فقال: "أجزته أن يروي عني جميع ما تجوز لي وعني روايته، من مقروء ومسموع ومجاز ومناولة ووجادة وكتابة ووصية ومراسلة، وفروع وأصول، ومعقول ومنقول، ومنثور ومنظوم، وتأليف، وتخريج وكلام، وتصوف، ولغة، ونحو، وتصريف، وبيان، وبديع، وتاريخ، ودواوين؛ وما ألفته وخرجته ونظمته ونثرته بشرطه". (القنوجي 711).

ونجد مصداق هذا القول عند الجبرتي الذي وصفه بـ"النسابة"، الفقيه، المحدث اللغوي، النحوي، الأصولي" (303/2). ولا يقف الأمر عند هذا الوصف بل نجد القنوجي يقول: "برع في جميع العلوم (لا) سيما علمي الحديث واللغة" (709)، وفي ثبت الكتب التي ألفها.

ولكن يجدر بنا أن نعطي ثلاثة من هذه العلوم وقفة خاصة.

ونبدأ بالحديث. فقد كان الرجل يصف نفسه في إجازته بـ"خادم علم الحديث" (القنوجي 715) وأثنى عليه الحافظ محمد بن عبد السلام (1239/1823) فوصفه بالحافظ الجامع البارع المانع وقال: "ألفيته عديم النظير في كمال الاطلاع على الأحاديث النبوية وتراجم الرجال، وله– مع ذلك– كمال الاطلاع والحفظ للغة والأنساب. قد طار صيته في هذه البلاد المشرقية حتى بالعراق والشام واليمن والحرمين،وإفريقية: المغرب، وتونس، وطرابلس، وغيرها. تأتي إليه الأسئلة الحديثية وغيرها من أقطار الأرض" (الكتاني 529).

وقال عنه حمدون بن عبد الرحمن المعروف بابن الحاج (1174–1232/1760–1817) "خاتمة الحفاظ بالديار المصرية" (الكتاني 526) والكتاني: "هذا الرجل كان نادرة الدنيا في عصره. ولم يأت بعد الحافظ ابن حجر (احمد بن علي 773–852/1372/1449) وتلاميذه أعظم منه اطلاعا، ولا أوسع رواية وتلاميذ، ولا أعظم شهرة، ولا أكثر منه علما بهذه الصناعة الحديثية وما إليها. (528).

ونثني بعلم الأنساب الذي مر بنا إشادة كثير من العلماء به فيه .. وأضيف إليها قول الكتاني: "كان الناس يرحلون إليه ويكاتبونه بتحرير أنسابهم وتصحيحها من المشرق والمغرب" (528). وشاهد ذلك في ثبت مؤلفاته.

أما اللغة فاعتقد أن الحديث عن التاج يغني عن كل حديث عنها. ولكنني أود الإشارة إلى قول للجبرتي يصرح فيه بأن الرجل كان يعرف اللغة التركية والفارسية وبعض لسان الكرد (307/2).

وزاول الزبيدي في مصر التدريس. فألقى دروسا في الحديث في جامع شيخون يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، ثم في الشمائل للترمذي بعد عصر بقية الأيام في مسجد الحنفي.

وعقد دروساً أخرى في منزله القديم بخان الصاغة ودور بعض أصدقائه كالجبرتي. وتسابق الأعيان على دعوته إلى منازلهم ليأخذوا عنه الحديث هم وأفراد أسرهم. وكانوا يحتفلون بزيارته، فيولمون الولائم الكبيرة. وكان هو يصحب معه خواص الطلبة والمقرئ والمستملي والكاتب وكاتب الأسماء. ووصف الجبرتي المجلس فذكر أن صاحب المنزل كان يجلس ومعه أصحابه وأولاده،

ومن خلف الستائر بناته و نساؤه. وقد تناثرت في المكان مجامر البخور والعود. ثم يبدأ الشيخ فيقرأ للمجتمعين شيئا من الأجزاء الحديثيه كثلاثيات البخاري أو الدارمي او بعض المسلسلات. ويختمون جميعا الدرس بالصلاة على النبي. ويكتب الكاتب أسماء الحاضرين والحاضرات، ويثبت اليوم والتاريخ، ويكتب الشيخ في ختام هذا السجل أو الإجازة "صحيح ذلك" ويوقع باسمه.

وكان في بعض الأحيان يخرج مع نفر من تلاميذه المقربين إلى المتنزهات والأماكن الخلوية مثل غيط المعدية أو الأزبكية، حيث يعقد لهم دروسا في الهواء الطلق يقرأ عليهم فيها بعض الأجزاء الحديثية.

وكان مدرسا ناجحا، لفت إليه الأنظار، وجذب الأعيان بل شيوخ الأزهر أيضا، لأنه أحيا طريقة السلف في تدريس الحديث. فلم يكتف بإملاء نصوص الأحاديث كما كان يفعل معاصروه بل ذكر الأسانيد المختلفة أيضا، ولم يملِ من كتاب بيده بل كان يلقيها من حفظه. ولما طلب المستمعون إليه إضافة شرح الأحاديث، استجاب لهم.

وصف الجبرتي الزبيدي بالناظم الناثر (303/2)، وقال: نظمه كثير، ونثره بحر غزير، وفضله شهير وذكره مستطير (320/2).

وإذا أمعنا النظر في شعره وجدنا أكثره في مدح الحكام والكبراء والإخوانيات ورثاء زوجته والمنظومات والإجازات العلمية التي يبلغ فيها حداً واضحا من الطول. ولكنه لا يتميز في فنه عن شعراء عصره، وخاصة العلماء، إلا بسعة ثروته اللغوية.

كذلك تعطينا الرسالة التي أوردها القنوجي من إنشائه مثالا واضحا لما غلب على نثر ذلك العصر من مبالغة وصَنْعَة متكلفة (715).

وصفوة القول إن الزبيدي ارتقى إلى مكانة عالية، ساقت كل من تكلم عنه سواء من معاصريه أو من بعدهم وإلى يومنا هذا، ساقته إلى أن يشيد به. قال الجبرتي: "شيخنا علم الأعلام، والساحر اللاعب بالأفهام، المذلل له سبل الكلام، الشاهد له الورق والأقلام، ذو المعرفة والمعروف، وهو القلم الموصوف، العمدة الفهامة، والرحالة النسابة..." (303/2).

وقال شاعر عصره إسماعيل الوهبي المعروف بالخشاب:

صدر الشريعة مصباح البرية من
يضيق عن وصفه التفصيل والجمل
أحيا معالم علم كنت أنشدها
إنا مُحيوك، فاسلم أيها الطلل
وقام في الله للإسلام منتصرا
وكاد- لولاه- يُصمي الحادث الجلل
أعيا أكف الكرام الحافظين له
في قول صالح قول إثره عمل
ضرائب من معالٍ لم يخص بها
إلا ومنها سواه، حظه العطل

(الجبرتي317/2).

وقال الدكتور جمال الدين الشيال: "خير نموذج يمثل ثقافة العالم الإسلامي في عصره تلك الثقافة التي كان قوامها الدراسات اللغوية والدينية بجميع فروعها.. ولكنه امتاز عن علماء عصره بميزات كثيرة، فكان متوقد الذهن، شديد الذكاء، غزير العلم، متعدد الثقافة، دؤوباً على العمل، وافر الإنتاج. وقد حاول أن يخرج بدرسه ومؤلفاته عن منطقة الجمود الفكري التي سادت العصر، وأن يجدد فيما يقول وفيما يكتب. ولكنه كان في تجديده سلفياً. وما كان يستطيع أن يكون غير ذلك".

التـــاج

هدفــه:

كشف الزبيدي – في مقدمته – العوامل التي دفعته إلى التاج، ويمكن أن نجمل ما قاله فيما يلي:

1. إن الأصل الأعظم للعلوم التي يعنى بها هـو اللغـة العربية.
2. إن القاموس المحيط للشيرازي أجل ما ألـف فيهـا: لاشتماله وإيجازه واشتهاره.
3. فاقة الأفاضل إلى استكشاف غوامضه والغوص على مشكلاته، على الرغم من كثرة ما ألف من أجل ذلك.

وصرح بهدفه الذي يسعى إليه في قوله:

1. وضع شرح عليه ممزوج العبارة.
2. جامع لـمـواده (بالتـصريح في بعـض وفي بعـض بالإشارة).
3. واف ببيان ما اختلف من نسخه: والتصويب لما صح منها صحيح الأصول.
4. حاول ذكر نكته ونوادره، والكشف عن معانيـه، والإنباء عن مضاربه ومآخذه.
5. التقاط أبيات الشواهد له.

أي أنه كان يرمي إلى إيراد جميع ما فيـه، وتحقيقـه تحقيقا علميا، وشرحه، والتنبيه على مصادره والاستشهاد عليه.

مصادره:

استمد الزبيدي مادته العلمية الواسعة من عدد كبير من المصادر: ذكر منها في مقدمته 120 كتاباً، يمكن أن نصنفها فيما يلي:

1. معاجم لغوية مثل صحاح الجوهري.
2. كتب ورسائل لغوية مثل الأفعال لابن القطاع.
3. كتب أمثال مثل مستقصى الزمخشري.
4. كتب نحو وصرف ولغة مثل خصائص ابن جني.
5. كتب تاريخ وطبقات وأنساب مثل أنساب العـرب لأبي عبيدة.
6. كتب أدب مثل شرح ديوان الهذليين للسكري.
7. كتب علوم قرآن وقراءات مثل إتقان السيوطي.
8. كتب جغرافية وبلدان مثل معجم البلدان لياقوت.
9. كتب حيوان مثل الحيوان للدميري.
10. كتب نبات وطب مثل تذكرة داود الأنطاكي.
11. كتب سياسة ونُظُم مثل قوانين الدواوين لأبي مماتي.

وقد عانى كثيرا في سبيل الحصول علـى هـذه المصادر. فلم يكن يوجد من بعضها إلا نسخ في خـزائن بعض الكبراء، فكان يتـردد علـيهم للإفـادة منـها. واستهدى من الأقطار البعيدة واستعارها. واعتمد- فيما يوجد في مصر- على الشراء أو النسخ بالأجرة.

منهجــه:

اتخذ الزبيدي من القاموس المحيط هيكلاً عظمياً لتاجه ثم حشاه بما شاء واستطاع من لحم. فقد اتبـع ترتيبـه لمداخله اللغوية، أي البدء بالحرف الأخـير مـن جـذر المدخل اللغوي، ثم الحـرف الأول منـه ثم الحـروف المتوسطة. وحافظ على كل مداخلـه ونـص عبارتـه ورموزه، وفصلها عما جاء هو به، فاتحدا في طرق الضبط والترميز والتفسير.

وفي زياداته: نسب ما أتى به القاموس من أقوال إلى أصحابها: ونقد بعض تفسيراته، ونبه على ما أهمله كبـار اللغويين من مداخل، واستدرك صيغاً وشـروحاً وضـع بعضها في أثناء التفسير، وأخر أكثرها إلى آخر المـداخل حيث جعل لها عنواناً خاصاً بها.

ومن أجل التمييز بين مادته ومادة القاموس، كـان يضع فوق عبارة القاموس خطا. فلما نـسخ تلاميـذه الكتاب، جعلوا مادة القاموس باللون الأحمـر، ومـادة الزبيدي باللون الأسود. وحينما طبع وضـعت مـادة القاموس بين أقواس ووضعت مادة الزبيدي خارجها.

وأخذ عليّ د.شوقي المعري انني صـرحت بعـدم

اطلاع الزبيدي على العباب للصغاني (ص). والغريب أنه في الصفحة نفسها يورد قولا لي يثبت هذا الإطلاع. ومن يطلع على الفصل الذي كتبته عن التاج في المعجم العربي يجد أنني صرحت بذلك وأثبته في أكثر صفحاته. واعتقد أنه وهم فخلط بين ما كتبته عن التاج وما كتبتهُ عن لسان العرب (536).

المقدمة:

افتتح الزبيدي كتابه بمقدمة طويلة، شغلت 124 صفحة من مطبوعة الكويت. وتنقسم إلى ثلاثة أجزاء: تصدير، وجزء أساسي، وخاتمة.

وتحدث في التصدير عن أسباب تأليفه التاج وهدفه ومراجعه وخصائصه، وخصائص القاموس المحيط وما دار حوله من مؤلفات.

وقسم الجزء الأساسي إلى عشر مقالات سماها مقاصد، وأخذ ثمانية منها برمتها من مزهر السيوطي، وهذا بيان مقاصده:

1. بيان لوقفية اللغة أو اصطلاحيتها.
2. سعة لغة العرب.
3. عدة أبنية الكلام.
4. المتواتر من اللغة والآحاد.
5. افصح الناس
6. المطرد من الألفاظ والشاذ، والحقيقة والمجاز، والمشترك والأضداد، والمترادف والمعرب، والمولد.
7. آداب اللغوي.
8. اللغويون ومصنفاهم.
9. ترجمة مؤلف القاموس المحيط
10. أسانيد الزبيدي إلى الفيروز آبادي.

وشرح في الخاتمة مقدمة الفيروز آبادي للقاموس المحيط.

مدة تأليفه:

ذكر الزبيدي أنه قضى في تأليف التاج أربعة عشر عاماً وشهرين، وأخرجه في عشرة أسفار كبار (القنوجي 713، 717) من حوالي سنة 1174 إلى 1761/1188 إلى 1774.

ولما فرغ من تأليف الجزء الأول منه، سُرَّ سروراً عظيماً، جعله يولم وليمة حافلة، جمع فيها طلاب العلم وأشياخ الوقت بغيط المعدية. فاغتبطوا به، وشهدوا بفضله، وسعة اطلاعه، ورسوخه في عالم اللغة، وكتبوا عليه تقاريظهم نثراً ونظماً (الجبرتي 304/2 فراج دي).

واشتهر أمر الكتاب في مصر وخارجها فسعى الأمراء والكبراء والعلماء إلى الحصول على نسخ منه. وقد ذكر الزبيدي أسماء بعض من طلبوه مثل ملك الروم (تركيا) وسلطان دار فور، وملك المغرب، ومحمد بيك أبي الذهب، والسيد عبد القادر الكوكباني وغيرهم (القنوجي717- 8).

مزاياه:

يمتاز التاج بما يلي:

1. تنوع المحتوى فإننا عندما نصفه بالمعجم اللغوي نظلمه ظلماً بيناً، لأن الحقيقة أنه موسوعة أو دائرة معارف عربية، تحتوي على اللغة وغير اللغة مما سبقت الإشارة إليه، وجعلت منه أضخم معجم عربي.
2. استقصاء المادة اللغوية التي كانت بين أيدي العلماء العرب، مما جعله مرجعاً ضرورياً لدارسي الدراسات اللغوية بل والأدبية، إضافةً إلى انه يقال يحتوي على 20000 مدخل لغوي.
3. إبانة أصول المداخل أو ما سماه احمد بن فارس بالمقاييس اعتمادا علىعباب الصغاني.
4. إبانة المدلولات الحقيقية والمجازية، والإتيان بالتعبيرات البليغة اعتمادا على أساس البلاغة للزمخشري.
5. إيراد أبرز أعلام علوم القرآن والحديث والشعر، وأسماء الأماكن.

6. إيراد بعض الألفاظ العامية، وخاصة المصرية (واليمنية).

ولذلك لم يبالغ صاحبه عندما سماه التاج.

مآخذ: يؤخذ على الزبيدي ما يلي:

1. احتفاظه بنص الفيروز آبادي وتمييزه عن عبارته الخاصة. فانتقلت كل المآخذ التي وجهت إلى القاموس، من تصحيف وخطأ وتكرار واضطراب وخلط في وضع بعض المداخل والتصرف في المقتبسات. وربما يقلل من قيمة هذه المآخذ تنبيه الزبيدي نفسه على أكثرها.
2. عدم الترابط بين عبارتي القاموس وشروح التاج أحياناً.
3. اتساع المعارف داخل المدخل أدى إلى إرباك القارئ.
4. اتساع المادة اللغوية وعدم ترتيبها في داخل المداخل أجبر القارئ على إضاعة الوقت الطويل كي يصل إلى طلبته، وربما زاغت عن عينه في هذا الخضم المتدفق.
5. تفريق مستدركاته بين تضاعيف المادة وآخرها. ولعل ذلك هو الذي دفعه إلى أن يخصص لها مؤلفا مستقبلا.

طبعاته:

في سنة 1286-1870/17-1 طبعت المطبعة الوهبية بمصر خمسة أجزاء منه دون أدنى عناية أو تحقيق. وفي 1890/1307 فرغت المطبعة نفسها من إصدار طبعة جيدة (في اعتبار ذلك العصر) في عشرة أجزاء. والطبعتان خاليتان من التنسيق والضبط، حافلتان بأخطاء الطباعة والمصادر والمؤلف. وأخطر من كل ذلك انهما غير محققتين تحقيقا علميا.

ولهذا عزمت وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت على إصداره إصدارا سليما فاجتمع وكيل الوزارة مع ثمانية من مشهوري المحققين في القاهرة هم:

- إبراهيم الترزي
- حسين نصار
- عبد الستار أحمد فراج
- عبد السلام محمد هارون
- عبد العليم الطحاوي
- عبد الكريم الغرباوي
- علي هلالي
- مصطفي حجازي

فركوا النية ووضعوا المنهج المذكور في صفحة(ح) من الجزء الأول من مطبوعة الكويت. وصدر هذا الجزء في سنة 1965/1385.

وقد رحب العلماء والمثقفون بالإصدارة الجديدة التي أصدرتها الكويت، ويمكن أن تقتطف قول د.احمد محمد المعتوق شاهدا على هذا الترحيب، قال: "محققاً من قبل العلماء العرب المختصين، في حلة أنيقة، وطباعة عصرية فنية جيلة، بعد أن كانت طبعاته القديمة المتداولة سقيمة ترهق بصر القارئ وفكره وتزيده نفوراً من المعجم". واستطرد فأخذ على هذه الطبعة مآخذ يتفق بعض القراء معه فيها: سماكة الصفحات، وكبر الصفحات، وثقله، ويختلفون معه في بقيتها: كثرة هوامش المحققين وملاحظاتهم وإشاراتهم وتفرق مفردات اللغة بين المجلدات.

مؤلفاته:

أصدر الزبيدي مؤلفات كثيرة، في علوم مختلفة. ذكر القنوجي أن المذكور منها في برنامجه يزيد على مائة كتاب. وهذا ثبت بالعناوين التي جمعتها من الإجازة التي كتبها الزبيدي (ليلة الاثنين 9شهر شوال سنة 1195هـ/28سبتمبر 1780م) وأرسلها إلى" صفي الإسلام أبي الأمداد محمد بن إسماعيل بن أحمد "(القنوجي 715/710).

ومن المصادر المختلفة، بغض النظر عن حجمها وأهميتها:

1. إباحة السماع والغناء – تقتني دار الكتب نسخة منه تحت رقم 304 فقه تيمور.
2. الابتهاج بختم صحيح مسلم ابن الحجاج، انظر غاية الابتهاج (رقم 95).
3. الابتهاج بذكر أمر الحاج. وجعله عبد الستار فراج: بذكر أمر الحجاج.
4. إتحاف الإخوان في حكم الدخان،انظر (هدية الإخوان رقم 129).
5. إتحاف الأصفياء في سلاسل الأولياء.
6. إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للغزالي. وجعله فراج: (شرح أسرار إحياء...) واقتصر بعضهم على شرح (إحياء علوم الدين)، طبع فاس 1302/ في 13 جزء،وفي المطبعة الميمنية في مصر عشرة مجلدات.
7. إتحاف بني الزمن في حكم قهوة اليمن.
8. إتحاف سيد الحي بسلاسل بني طي.
9. أحاديث يوم عاشوراء (رسالة) تقتني دار الكتب نسخة منه تحت رقم 160 مجاميع.
10. الاحتفال بصوم الست من شوال.
11. اختصار مشيخة أبي عبد الله البياني.
12. أربعون حديثاً في الرحمة.
13. الأربعون المنتقى من العلل للدار قطني والكلام معه بمقتضى الصناعة – انظر رفع الكلل عن العلل (رقم69).
14. أرجوزة في الفقه- نظمها باسم الشيخ حسن بن عبد اللطيف الحسني المقدسي.
15. إرشاد الإخوان إلى الأخلاق الحسان (مئة وعشرين بيتاً).
16. الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة- اختصره الأمير محمد صديق حسن خان 1248- 1307/ 1832-1890)، طبع المختصر في الهند، انظر عقد الآلي المتناثرة (رقم91).
17. أسانيد الكتب الستة: تقتني دار الكتب المصرية نسخة منه تحت رقم 24 (مصطلح).
18. إسعاف الأشراف (مقامة).
19. الإشغاف بالحديث المسلسل بالأشراف- انظر الكتاب السابق. رقم (18).
20. أصول الحديث (رسالة).
21. أصول المعمى (رسالة).
22. إعلام الأعلام لمناسك حج بيت الله الحرام- انظر الابتهاج (رقم3).
23. إقرار العين بذكر من نسب إلى الحسن والحسين.
24. إكليل الجواهر الغالية في روايات الأحاديث العالية.
25. الفية السند- زاد بعضهم في العنوان(ومناقب أصحاب الحديث)، وهي أرجوزة من 1500 بيت وشرحها المؤلف في عشرة كراريس.
26. الأمالي الحنفية (في مجلد).
27. الأمالي الشيخونية، مجلدان حويا مجالسه في مسجد شيخون، وحويا إلى 1195 –1781 أربعمائة مجلس.
28. إنالة المنى في سر الكنى.
29. الانتصار لوالدي النبي المختار، انظر حديقة الصفا(رقم 60).
30. إنجاز وعد السائل في شرح حديث أم زرع في الشمائل، وأحيانا... إلى شرح حديث أم زرع، أنجز في أحد عشر مجلسا في ثمانية...
31. إيضاح المدارك عن نسب العواتك. وسماه بعضهم (إيضاح المدارك بالإفصاح عن العواتك) (رسالة)، وصفه الكتاني بالرسالة اللطيفة، وتقتني دار الكتب نسخة منه تحت رقم 2018 تاريخ.
32. بذل المجهود في تخريج حديث (شيبتني سورة هود)، واقتصر بعضهم على تسميته (تخريج..) جزء، وتقتني دار الكتب نسخة منه برقم 145 حديث تيمور.

33. بلغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب، وطبع في مطبعة السعادة بمصر 1236 تحت اسم" بلغة الغريب".
34. تاج العروس.
35. التحذير في الحديث المسلسل بالتكبير وجعله عبد الستار: بالتفكير.
36. تحفة إخوان الزمن في حكم قهوة اليمن: توجد نسخة منه في دار الكتب تحت رقم 552 فقه تيمور.
37. تحفة العيد (في كراس)، انظر التفريد(رقم 50).
38. تحفة القماعيل في مدح شيخ العرب إسماعيل، تقتني دار الكتب نسخة منه برقم 616 أدب تيمور، و422 أدب.
39. تحفة الودود في سنن أبي داود.
40. تحقيق الصلاة الوسطى (جزء).
41. تحقيق قول أبي الحسن الشاذلي: " وليس من الكرام... الخ (رسالة)، انظر تنسيق المتن (رقم 57).
42. تحقيق لفظ الإجازة (رسالة).
43. تحقيق الوسائل لمعرفة المكاتبات والرسائل. انفرد بذكره الزركلي.
44. تخريج أحاديث الأربعين النووية.
45. تخريج حديث" اسمح يسمح لك"، وسماه الكتاني: طرق حديث...
46. تخريج حديث " نعم الإدام الخل" (جزء).
47. ترويح القلوب بذكر ملوك بني أيوب.
48. التعريف بضروري علم التصريف، تقتني دار الكتب نسخة منه برقم 8 صرف تيمور.
49. التعليقة الجليلة على مسلسلات ابن عقيلة وسماه في التاج: الفوائد الجليلة على..، تقتني دار الكتب نسخة منه تحت رقم 576 حديث تيمور.
50. التفريد في الحديث المسلسل بيوم العيد، والصلة واضحة بينه وبين تحفة العيد (رقم 37).
51. التفتيش في معنى لفظ درويش، ألفه لعلي بن عبد الله الرومي المعروف بعلي أفندي درويش (ت 1199-1785).
52. تفسير سورة يونس على لسان القوم، وذكره الجبرتي تحت عنوان "تفسير سورة يونس مستقبل على لسان القوم"، وذكر أنه بدأ تأليفه باسم أحمد بن عيسى بن عبد الصمد الحسيني (ت 1200-1786) أيام سياحته معه، ثم أكمله بعد ذلك.
53. تكملة على شرح حزب البكري للفاكهي من أوله، فكمله الشيخ أحمد البكري.
54. تكملة القاموس عما فاته من اللغة، لم يكمل.
55. التكملة والصلة والذيل للقاموس ، في مجلدين ضخمين، انفرد به الزركلي. وأخشى أن يكون مخطئا.
56. تنبيه العارف البصير على أسرار الحزب الكبير للشاذلي، وسماه الجبرتي شرح حزب البر، طبع في القاهرة 1323، وتقتني دار الكتب نسخة منه.
57. تنسيق المتن في تحقيق كلام الشاذلي أبي الحسن، انظر الكتاب السابق (رقم 56).
58. جذوة الاقتباس في نسب بني العباس، يوجد نسخة منه في دار الكتب تحت رقم 2128 تاريخ.
59. الجواهر المنيفة في أصول أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة، مما وافق فيه الأئمة الستة، قرضه الجبرتي فقال: كتاب نفيس حافل رتبه ترتيب كتب الحديث من تقديم ما روي عنه في الاعتقاد ثم في العمليات على ترتيب كتب الفقه.
60. حديقة الصفا في: والدي المصطفى وجعله الشبلنجي: في ولد المصطفى، انظر الانتصار.
61. حسن المحاضرة في آداب البحث والمناظرة.
62. حكمة الإشراق إلى كتاب الآفاق، ألفه من أجل الأمير حسن الندي بن عبد الله الرشيدي الرومي الأصل (ت 1205- 1791) الخطاط المشهور في ذلك العصر ، في تاريخ الخط والخطاطين، وقد نشره عبد السلام هارون في المجموعة الخامسة من " نوادر

المخطوطات" القاهرة 1954.

63. حلاوة الفانيد في إرسال حلاوة الأسانيد.
64. الدرة المضية في الوصية المرضية، مئتان وعشرون بيتاً.
65. دلائل القرب للسيد مصطفى البكري (1099-1162-1688-1749).
66. رشف سلف الرحيق في نسب حضرة الصديق.
67. رشفة المدام المختوم البكري من صفوة زلال القطب البكري، وجعله عبد الستار: زلال صيغ القطب.
68. رفع الشكوى لعالم السر والنجوى.
69. رفع الكلل عن العلل، ذكر الكتاني أنه اربعون حديثا انتقاها من الدار قطني ، وذكرهما القنوجي كتابين منفصلين.
70. رفع نقاب الخفا عمن انتمى إلى وفاء وأبي الوفاء، انظر "\مزيل نقاب..." رقم 108 وتقتني دار الكتب نسخة منه تحت رقم 17 تاريخ حليم.
71. الروض المؤتلف في تخريج حديث " يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُوله"، جزء.
72. الروض المعطار في نسبة السادة آل جعفر الطيار، تقتني دار الكتب نسخة منه تحت رقم 159 تاريخ تيمور.
73. زهر الأكمام المنشق عن جيوب الإلهام، بشرح صيغة سيدي عبد السلام، وجعله عبد الستار: زهرة...
74. سفينة النجاة المحتوية على بضاعة مزجاة من الفوائد المنتقاة. انفرد به الزركلي.
75. شرح ثلاث صيغ لأبي الحسن البكري.
76. شرح الصدر في شرح أسماء أهل بدر، واسقط الكتاني (شرح) الثانية، الفه لعلي أفندي درويش، وذكر الجبرتي انه كان في عشرين كراساً، والكتاني أربعين.
77. شرح صيغة ابن مشيش.
78. شرح صيغة السيد البدوي.
79. شرح على خطبة الشيخ محمد البحري البرهاني على تفسير سورة يونس ، ذكر الجبرتي أنه الفه لأحمد بن عيسى بن عبد الصمد، ولولا أن الجبرتي فصله عن تفسيره السابق لسورة يونس لجعلتهما كتاباً واحداً (رقم 52).
80. شرح فرائض واجبات الإسلام لعامة المسلمين، (للسيد عبد الله بن إبراهيم المرغني المحجوب 1207-1792)، وصفه الجبرتي بأنه شرح نفيس.
81. طبقات الحفاظ (رسالة).
82. العرائس المجلوّة في ذكر أولياء فوّة، ذكر الزركلي أن في الرباط نسخة منه تحت رقم 2371 ك.
83. العروس المجلية في طرق حديث الأولية.
84. العقد الثمين في حديث "اطلبوا العلم ولو في الصين".
85. العقد الثمين في رجال الخرقة والذكر والتلقين.
86. عقد الجمان في أحاديث الجان.
87. عقد الجمان في بيان شعب الإيمان، (رسالة)، انفرد به الزركلي.
88. عقد الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة، طبع في الإسكندرية في 1292هـ، في جزءين، وأسطمبول في 1309 تحت اسم " عقود". ويبدو أنه مختصر من "الجواهر المنيفة". طبعة في الإسكندرية 1292 (رقم 59).
89. عقد الجوهر الثمين في الحديث المسلسل بالمحمدين.
90. عقد الجوهر الثمين في الذكر وطرق الإلباس والتلقين، وتقتني دار الكتب نسخة منه تحت رقم 4073 تصوف، (انظر رقم 85).
91. عقد اللآلي المتناثرة في حفظ الأحاديث المتواترة، تقتني دار الكتب نسخة منه برقم 1582 حديث. (انظر رقم 16).
92. العقد المكلل بالجوهر الثمين في طرق الإلباس و

الذكر والتلقين، سماه الجبرتي والقنوجي ومن تابعهما "العقد الثمين في طرق الإلباس والتلقين"، ولعله ما سماه القنوجي "العقد الثمين في رجال... " على رغم من أنه فصل بينهما.

93. العقد المنظم في أمهات النبي صلى الله عليه وسلم.
94. عقيلة الأتراب في سند الطريقة والأحزاب، صنفه للشيخ عبد الوهاب الشربيني.
95. غاية الإبتهاج لمقتفي أسانيد مسلم ابن الحجاج، تقتني دار الكتب نسختين منه تحت رقم 11 مصطلح حديث م، و141 مصطلح حديث تيمور. (انظر الابتهاج رقم 2).
96. الفجر البابلي في ترجمة البابلي.(رقم 109).
97. الفوائد الجليلة على مسلسلات ابن عقيلة، ذكر القنوجي أنه في عشر كراريس.
98. الفيوضات العلية في سورة الرحمن من أسرار الصيغة الإلاهية، انظر منح الفيوضات. رقم (123)
99. قلنسوة التاج في بعض أحاديث صاحب الإسراء والمعراج (رسالة).
100. قلنسوة التاج، رسالة كتبها إلى الشيخ محمد بن بدير المقدسي ليطلع عليها شيخه عطية الأجهوري، كتب فيها أسانيده العالية في كراسة، لما قرظة الأجهوري التاج واستجازه.
101. القول الصحيح في مراتب التعديل والتجريح.
102. القول المبتوت في تحقيق لفظ التابوت، وعند الجبرتي ومن تابعه "القول المثبوت"، تقتني دار الكتب نسختين منه تحت رقم 83 لغة و204 لغة تيمور.
103. كشف الغطاء عن الصلاة الوسطى.
104. كشف اللثام عن آداب الإيمان والإسلام.
105. كوثري النبع لفتى جوهري الطبع، ذكره التاج في مادتي (وضأ)و (هندب).
106. لقط اللآلي من الجوهر الغالي ، هي أسانيد شيخه الحنفي، كتب له إجازته عليها سنة قدومه إلى مصر في 1067.
107. لقطة العجلان في (ليس في الإمكان أبدع مما كان).
108. مختصر العين، انفرد به الزركلي، وأعتقد أنه خلط بين زبيدينا والزبيدي الأندلسي.
109. المربي الكابلي في من روى عن الشمس البابلي.
110. المرقاة العلية في شرح الحديث المسلسل بالأولية، قال: وضعتها على ترتيب "منتهى الآمال في حديث (إنما الأعمال)" للحافظ السيوطي.
111. مزيل نقاب الخفا عن كني سادتنا بني الوفاء، تقتني دار الكتب المصرية نسخة منه برقم 621 تاريخ تيمور. (انظر رقم 70).
112. معارف الأبرار فيما للكني والألقاب من الأسرار.
113. المعجم الأكبر، ترجم فيه لنحو 300 من شيوخه والآخذين عنه، وأظنه ما سماه القنوجي المعجم الكبير".
114. معجم شيوخ السجادة الوفائية.
115. معجم شيوخ العلامة عبد الرحمن الأجهوري شيخ القراء بمصر.
116. معجم شيوخ محمد بن أحمد الحسيني البخاري، تقتني دار الكتب نسخة منه تحت رقم 400 مصطلح.
117. المعجم الصغير.
118. المعجم المختص، عثر الجبرتي في تركة الزبيدي على مسودته التي قال في مقدمته: "وقد أذكر فيه من احبني في الله وأحببته، أو استفدت منه شيئاً، أو أنشدني شيئاً، أو كاتبني، أو كاتبته، أو بلوت منه معروفاً وكرما..." وذكر الجبرتي أنه يقع في نحو عشر كراريس ورتبه على حروف المعجم، غير أنه لم يتمه وغالب ما فيه آفاقيون من أهل المغرب والروم والشام والحجاز والسودان، والذي ليس له شهرة ولا كثير بضاعة، وأهمل من يستحق أن يترجم من كبار العلماء والأعاظم ونحوهم.
119. المقاعد العندية في المشاهد النقشبندية 150 بيتا.

120. المناشي والصفين، رسالة ألفها باسم أحمد بن عيسى بن عبد الصمد.

121. مناقب أصحاب الحديث، منظومة في 250 بيتا.

122. المنح العلية في الطريقة النقشبندية.

123. منح الفيوضات الوفية فيما في سورة الرحمن من أسرار الصفة الإلهية.

124. المواهب الجلية فيما يتعلق بحديث الأولية. وجعلها الشيال: المواهب الحلبية.

125. نشق الغوالي من تخريج العوالي، عوالي شيخه علي بن صالح الشاروي.

126. نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقداح، طبع في ليدن 1303.

127. النفحة القدسية بواسطة البضعة العيدروسية، وجعلها الكتاني: النفحة القدوسية، جمع فيها أسانيد العيدروس في نحو عشر كراريس في سنة 1171-1758 ونقل منها نسخ كثيرة عَمَّ النفع بها.

128. النوافح المكية على الفوائح الكنكية، والشبلنجي: النوافح المسكية، والشيال: الفوائح الكشكية.

129. هدية الإخوان في شجرة الدخان، تقتني دار الكتب عدة نسخ منه تحت رقم 34، 35، 46 فضائل ورذائل تيمور، و 167 طبيعيات

130. الهدية المرتضية في المسلسل بالأولية.

131. الوافي، تقتني دار الكتب نسخة منه تحت رقم 358 فقه تيمور.

المراجع:

- الجبرتي عبد الرحيم بن حسن عجائب الآثار في التراجم والأخبار- تحقيق: ا.د عبد الرحيم عبد الرحمن - مطبعة دار الكتب المصرية 1998 الزبيدي- محمد بن محمد:تاج العروس- طبعة الكويت.
- د.الشيال- جمال الدين:الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي (السلسلة الثانية) - مصر - المطبعة الكمالية 1958م .
- د. قاسم- رياض زكي:المعجم العربي: بحث في المادة والمنهج والتطبيق - لبنان- دار المعرفة- 1987م.
- القنوجي- صديق بن حسن: أبجد العلوم - الهند- بهوبال- المطبعة الصديقية 1295هـ.
- الكتاني- عبد الحي بن عبد الكبير: فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات - تحقيق د. إحسان عباس- لبنان- بيروت- ط2-1402-1982م.
- مبارك - علي باشا: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1983م، مصورة عن الطبعة الثانية في 1970م.
- المعتوق- أحمد محمد المعاجم اللغوية العربية - الإمارات العربية المتحدة أبو ظبي- منشورات المجمع الثقافي- 1999م.
- د.المعري - شوقي: معجم مسائل النحو والصرف في تاج العروس - بيروت - مكتبة لبنان - 1996م.
- د. نصار- حسين: المعجم العربي: نشأته وتطوره -مكتبة مصر 1988-1408هـ.

رائيّة الأفوَه الأوديّ
المُستلّة من جَفن مخطوطةٍ هاجِعة

أ. مقبل التام الأحمدي

هو أبو ربيعة، صَلاءة بن عمرو بن معاوية بن عوف بن الحارث بن عوف بن مُنبِّه بن أوْد بن صَعْب بن سعد العَشيرة بن مالك، وهو مَذْحج[1].

لُقب بالأفكَل[2] لرِعْدَة كانت فيه، ولقبه السائر بين النّاس الأفوه، لقّب بذلك لأنّه كان مفوّهًا فصيحًا[3]، وذهب العيني[4]، وتابعه العبّاسي[5]، وعنهما الميمني[6]، فيما وقفت عليه من مصادر ترجمة الرّجل، إلى أنّه لُقّب بذلك لأنه كان غليظ الشّفتين ظاهر الأسنان.

وأظنّ هذا التعليل اجتهادًا لا يستند إلى دليل، إلا دلالة اللّغة على ذلك، والّذين ترجموا للأفوَه من القُدماء لم يذكروا هذا التّعليل، فهذا ابن الكلبي (ت 204هـ) في نسب معدّ واليمن الكبير لم يعللّ التسمية، وهو المُولَع بتَعَقُّب معاني الأسماء، ومثله ابن حبيب (ت 245هـ) أفرد كتابًا لكُنى الشعراء وألقابهم، ولم يذكرْ هذا التّعليل العجيب حين ذكر أفوَه أوْد، وكذلك أبو الفرج (ت 356هـ) حذا حذو صاحبيه.

ومن خلال استنطَاق صَمْت هذه الجلّة من العلماء بدا لي أن هذا التعليل من صَنيع العيني أوقعه في ذلك دلالة الجذر اللُّغويّ للكلمة، وله جُرأة، وسابقة غير حسنة في عَزْو الشّعر المَسْكوت عنه، وتعليل الألقاب، فلا يُعتَدّ بما قال، وأظنّه سُمّي الأفوه لفصاحته وحكمته، كما ذكر ابن جنيّ، وما بين أيدينا من أفذاذ شعره ونتف نثره يؤيّد ذلك.

كان يقال لأبيه فارس الشّوهاء، وفي ذلك يقول:

أبي فارسُ الشّوهاءِ عَمْرُو بنُ مالكٍ ... غَداةَ الوَغَى إذْ مالَ بالجَدِّ عاثِرُ

ومن ذهب إلى أنّ اسم أبيه عمرو بن مالك فقد وَهَم، والّذي أغْراه في هذا الوَهْم أنّ الشّاعر ذكره في شعره كما سلف، والصّحيح أنّ ما ذكر كان اختصارًا لنسب أبيه، أمّا مالكٌ المذكورُ في الشعر فليس بجَدّ الشاعر، وإنّما هو مَذْحِج

الجدّ الأكبر، ومثل هذا الاختصار شائعٌ مشهور، وما أثبتناه قاله ابن الكلبي[7]؛ وقوله الفصْل، وهو مـع ذلـك مَظْلُـومٌ وبالقَوَارِصِ مَكْلُومٌ.

وروى الأصبهانيّ عن ابن الكلبيّ عن أبيه قال: كان الأفـوه من كبار الشعراء في الجاهليّة، وكان سيّد قومه وقائدهم في حروبهم، وكانوا يصدرون عن رأيه. والعرب تعدّه من حكمائها، وتعدّ داليته:

مَعاشِـرُ مـا بَنَـوا مَجْـدًا لِقَـومِهِمُ ... وإنْ بَنَـى غَيرُهُـمْ مـا أفْسَدُوا عـادُوا

من حكمة العرب وآدابها[8]. كما تعد رائيته:

إنْ تَـرَيْ رأسِـيَ فِيـهِ قَـزَعٌ ... وشَـوَاتِي خَلَّـةٌ فِيهـا دُوارُ
فـصُرُوفُ الـدَّهْرِ فِي أَطْباقِـه ... خِلْفَـةٌ فِيهـا ارْتِفـاعٌ وانْحِـدارُ
إنَّمـا نِعْمَـةُ قَـومٍ مُتْعَـةٌ ... وحَيَـاةُ المَـرْءِ ثَـوبٌ مُـسْتَعارُ

من جيّد شعر العرب [9]، ونهى النبي، صلّى الله عليه وسلّم، عن إنشادها لما فيها من ذكر إسماعيل عليه السلام:

رَيَّـشَتْ جُـرْهُمُ نَـبْلاً فرَمَـى ... جُرْهُمًـا مِـنهُنَّ فُـوقٌ وغِـرارُ

ومن رائق شعره في الحكمة قوله:

بَلَـوتُ النَّـاسَ قَرْنًـا بَعْـدَ قَـرْنٍ ... فَلَـمْ أرَ غَـيرَ ذِي قِيـلٍ وقـالِ
ولَـمْ أرَ فـي الخُطُـوبِ أشَـدَّ هَـوْلاً ... وأصْـعَبَ مِـنْ مُعَـاداةِ الرِّجـالِ
وَذُقْـتُ مَـرارَةَ الأشْـياءِ طُـرًّا ... فمـا شَـيْءٌ أمَـرُّ مِـنَ الـسُّؤالِ

وهذه الأبيات الثلاثة جامعةٌ لما قالتِ العَرَب؛ قاله عبد الله بن الزُّبَير[10].

ويصعب على المرء أن يَميِّز الصّحيح من السّقيم في شعر الأفوَه، اللّهم ما كانت الحكمة فاقعة فيه، فللأفـوه سَنَنٌ خاصّ في نَثْل الحكمة، وشِيَةٌ مازتْهُ من غيره، أما لَظَى العصبيّة فقد تبوّأ شعرُ الأفـوه أُوارها، شأنه في ذلك شأن المنطقات من القصائد على ألْسنة الرّواة.

وقد أفصح الجاحظ (ت 255هـ) عن شكّه في رائيّة الأفوه فقال: «أمّا ما رويتم من شعر الأفوَه الأوْديّ فلَعَمْرِي إنّه لجاهليّ. وما وجدنا أحدًا من الرّواة يشكّ في أن القصيدة مصنوعة. وبعد فمن أيْنَ علم الأفوَه أن الشُّهُب الّتي يراها إنّما هي قَذْفٌ ورَجْم، وهو جاهليّ ؟ ولم يدّع هذا أحدٌ إلا المسلمون !! فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة»[11].

يشير الجاحظ إلى قول الأفـوه:

كَـشِهابِ القَـذْفِ يَـرميكُمْ بِـهِ ... فـارسٌ فِـي كَفِّـهِ للحَـرْبِ نـارُ

وعلّق الميمني على كلام الجاحظ بقوله: «كأنّه خرَق الإجماع»[12].

وثمّة شاعرٌ آخر يدعى الأفوه؛ وهو إسلاميّ مُتأخّر اسمه: علي بن محمد الأفـوه، قاله النويري[13]، وياقوت[14]، وهو علي بن محمد بن الأفوه عند العسكري، الذي أتى على ذكره ثمّ ساق له ثلاثة أبيات في المديح، صَدّرها بقولـه: «ومـن المديح القليل النظير قول علي بن محمد بن الأفوه[15]:

أوفَـوا مـن المجد والعَليـاء في قُلَلٍ ... شُـمٌّ قواعـدهنّ البـأس والجُـودُ
سُـبْطُ اللّقـاء إذا شـيْمت مخائلـهم ... بُـسْلُ اللّقـاء إذا صِـيْد الـصّناديدُ
محـسّدون ومَـنْ يَعْلَـق بحَـبْلهم ... مِـنَ البريّـة يـصبح وهـو محـسودُ».

وللأفوه حِكَمٌ ووصايا منثورة حفظ السِّجستانيّ لنا قطعة منها لا تقلّ عن مستوى الحكمة في شعره، منها قوله: «إن التجربة علم، والأدب عَوْنٌ، والكَفُّ عن ذلك مضرّة، وليكن جُلساؤكم أهل المُروءة والطّلب لها، وإيّاكم ومجالسةَ الأشرار، فإنّها تُعقِبُ الضّغائن، والرّفض لهم من أسباب الخير، والحِلْم مَحْجَزَةٌ عن الغَيْظ، والفُحْشُ من العِيّ، والغيّ مَهْدَمَةٌ للبناء، ومن خير ما ظَفِرتْ به الرجال اللّسان الحَسَن، وفي تَرْك المِراء راحةٌ للبَدن، فلينظر كلّ رجل منكم إلى جِهَته، فإنّ العُجْبَ كِبْرٌ، والكِبْرُ قائدٌ إلى البُغض، واشنَؤوا البَغْي، فإنّه المَرْعى الوَخِيم، واستَصْلحوا الخَلَل، وتَحامُوا الذّل»[16].

وقد ظلّ شعر الأفوه نُتَفًا وأفذاذًا متفرّقة أيْدِيَ، حتّى قيّض الله له الشّيخ الميمني فطلبه في مظانّه، ومثل الميمني يُدرك طِلْبته، بما له من فضل اطّلاع على أشعار العرب ومظانّها، وإن احتجبت عنه رائية الأفوه دهرًا، فقد أسْفرت له بعد لأيٍ، ولم يُرِبْهُ سُفُورها، يقول في ذلك: وقد غَبَرْنا دهرًا ننقّب عن رائيّته الحكيمة، فلم نعثر منها بعد الفحص الطّويل إلا على أفذاذ أبيات لم تكن تروي من الغليل شيئًا. فكاد يستولي علينا اليأس. إذ برز جبين الصباح، وبدا بشير الفلاح والنّجاح، فبشّرنا بوجود تسع قطع في خمسة[17] أوراق ترتيبها: «عادوا، مَؤوسٌ، غَرَرٌ، عائرُ، عُطُفُ، خُذُولُها، يستمتِع، مَعَهْ، آذ» في مجموعة (12 ش أدب بالدار) بخط الشّنقيطي ولم يخل من أغلاط فأصلحت أكثرها، ويقول في ختامها: «تم ما وجدته متفرّقًا في نسخة عجمية سقيمة جدًا»[18].

ثم أصلح الميمني من شأن المخطوطة فرتبها وزاد فيها ما وقف عليه، حتى جمع ما رآه معظم شعر الأفوه، يقول في ذلك: «جاءت والحمد لله 30 كلمة[19] يوجد فيها معظم شعر الرجل مما أختَت عليه يد الدهر الأثيمة فذهب أيْدِي سبَا».

وقد أوقفنا البحث على رائيّة الأفوه الأوْديّ مشروحةً في مخطوطين:

1 – كتاب يحتوي عشر قصائد مشهورة، لابن المسافر، وهذا المخطوط واضح الخطّ، قليل الخَطَل، والكلمة فيه في ستّة وأربعين بيتًا (الأوراق 58، 59، 60).

2 – الفاصل بين الحق والباطل، لمجهول، وهو مخطوط عارٍ عن الضّبط، كثير السّقط، والكلمة فيه في ثمانية وأربعين بيتًا (الأوراق 151، 152، 153).

ثمّ عزّزنا ذين المخطوطين بآخَرَين يشتملان على بعض الكلمة، هما:

3 – مجموع مَخروم مبْثور لشعر الرّجل، نِساخَة الشّنْقيطي في خمس أوراق، عن نُسخة عَجَمِيَّة سَقِيْمة، والكلمة فيه في اثنين وعشرين بيتًا (الورقة 5، هي عينها في الحماسة البصريّة.

4 – الإسعاف في شرح شواهد الكشّاف، والكلمة فيه في ستّة عشر بيتًا (الورقتان 91، 92).

وعن المخطوطين الأخيرين أخرج الشّيخ الميمني الرّائية في طرائفه، ثمّ زاد عليها ذلك ثمانية أبيات، ساقها مجتلبة من مصادر ومظانّ متفرّقة.

وعلى مخطوط ابن المسافر كان المعوّل في إخراج هذه الكلمة العالية، ثمّ تمّ العِراض مع غيره، وقُيِّدت فروق النُّسخ في الهامش، وشُفع ذلك بشرح مخطوط الفاصل بين الحقّ والباطل.

قال الأفْوَه الأوْديّ[20]

1 إنْ تَرَي رَأسِيَ فِيهِ قَزَعٌ، وشَواتِي خَلّةٌ فِيها دُوارُ[21]

«الشّواة»: جِلدة الرّأس. «خَلّة»: قد خَلّ به الشّعر، يقال: جسمٌ خَلٌّ ومخلول ؛ أي: نحيف. «دَوار»: منَ الدّوران ؛ أي: من دوران الشّعْر. وقالوا «خَلّة»: لا شيء فيها. و«الشّوَى»: جلدة اليافوخ، عنِ الأصمعيّ.

2 أَصْبَحَتْ، مِنْ بَعْدِ لَونٍ واحِدٍ، وَهْيَ لَوْنانِ، وفي ذاكَ اعْتِبارُ[22]

3 فَصُرُوفُ الدّهْرِ في أَطْباقِهِ، خِلْفَةٌ فيها ارْتِفاعٌ وانْحِدارُ[23]

«أطباقه»: حالاته وصروفه. «خِلفَة»: مختلفة ذات ألوان. «فيها القِلاع والحِدار»: من الكِبَر. «والحِدار»: فَرْحَة وتَرْحَة. ويروى: ((ارتفاع)).

4 بَيْنَما المَرْءُ عَلَى عَلْيائها إذْ هَوَوا في هُوَّة فيها فَغارُوا[24]

5 إنّما مُتْعَةُ قَومٍ مُتْعَةٌ وحَياةُ المَرْءِ شَيْءٌ مُسْتَعارُ[25]

6 ولَيالِيهِ إلالٌ للقُوَى مِنْ مُدًى قَدْ يَخْتَلِيها وشِفارُ[26]

يقول: اللّيالي مُدًى وشِفار، و«المُدْيَة»: السّكّين. و«الإلال»: حِراب، و«الأَلّة»: الحَرْبة. «والقُوَى»: الطّاقات. «يَخْتَلِيها»: يقطعها، و«الخلا»: الرّطب، و«المُخْتَلِي»: القاطع. يقال: شَفْرة وشِفار.

7 تَقْطَعُ اللّيْلَةُ مِنْهُ قُوّةً كُلّما كَرّتْ عَلَيْها لا تُغارُ[27]

قوله: «تقطع» ؛ أي: تقطع قُواه ؛ تُضعفهُ. «لا تُغار»: لا يُشدّ فَتْلها، يقال: أغَرْتُ الحبلَ: إذا فَتَلْته وأحكمتَ فَتْلَه. ويروى: ((تقطع اللّيلة منها قوّة كلّما كَرّت عليها)).

8 حَتَمَ الدّهْرُ عَلَيْنا أنّهُ ظَلَفٌ ما نالَ مِنّا وجُبارُ[28]

«حَتَم»: أَقْسم. و«جُبار»: باطل، يقال: ذهب دمُه.

9 فَلَهُ في كُلِّ يَومٍ عَدْوَةٌ لَيْسَ عَنْها لامْرِئٍ طارَ مَطارُ

«فله» ؛ أي: للدّهر. «عَدْوَة»: حَمْلة. «طار»: ذهب ؛ يقول: ليس عنها تعلق محيد.

10 رَيَّشَتْ جُرْهُمُ نَبْلاً فَرَمَى جُرْهُمًا مِنْهُنّ فُوقٌ وغِرارُ[29]

«الفُوق»: مدخل السّهم في الوَتَر. و«غِرار كلّ شيء»: حَدّه. يريد: أنّهم زوّجوا إسماعيل، عليه السّلام، وعَلّموا أولاده الرّمي، وإنّما هذا مثل قوله:

11 عَلّمُوا الطّعْنَ مَعَدًّا في الكُلَى وادِّراعَ اللّامِ، والطّرْفُ يَحارُ[30]

«اللأمَة»: الدّرع. «تحار فيه العين»: لا تذهب ولا تجيء، يقال: لامَةٌ ولامٌ. وقوله: «في الكُلَى»: يريد الحذق بالطّعن.

12 ورُكُوبَ الخَيْلِ تَعْدُو المَرَطَى قَدْ عَلاها نَجَدٌ فيهِ احْمِرارُ[31]

13 بَعْدَما كانَتْ مَطايا قَومِهِمْ عانَةً يَكْرُفُ فيهِنّ الحِمارُ

«العانة»: الجماعة منَ الحمير. «يَكْرُف»: يشمّ أبوالها، وهو رفع جَحافلها إلى فوق.

14 يا بَنِي هاجَرَ ساءَتْ خُطّةً أنْ تَرُومُوا النّصْفَ مِنّا ومَحارُ[32]

ويروى: ((النّصف منّا وتحار [كذا])). و«المَحار»: المرجع ؛ أي: مرجعٌ منّا ؛ أي: إدبار، ويروى: ((تحاوَروا)) ؛ أي: إنّه يكون لكم مَنْ يخفركم منّا. و«النّصَف»: الانتصاف.

15 ولَقَدْ كُنْتُمْ حَدِيثًا زَمَعًا وذُنابَى حَيْثُ يَحْتَلُّ الصّفارُ[33]

«الزَّمَع»: الشَّعَرات التي تكون في مُؤخَّر رِجْل الكلب والحافر، وقيل: هو ما يكون في أيدي البَقَر. و«الصُّفار»: نبت يتعلّق بجحافل الخيل وفي آذانها، وقيل: هو شَوْك البُهْمَى، وهو القُراد أيضًا، وقيل: هو دُ[و]يبّة تكون في ذَنَب الدّابّة.

16 في مَحَـلٍّ مِـنْ بَنِـي قَحطـانَ مـا لَكُـمُ فيـهِ مَـعَ القَـومِ ائتِمـارُ

17 فَتَقَـدَّمْتُمْ عَلَـى سِيسـائِكُمْ رِحْلَـةً فِيهـا اغتِـرارٌ وانْهِيـارُ[34]

«السِّيساء [مِنَ] الحمار»: مَنسِجُهُ، وليس بموضع ركوب، [مَنْ] ركبه على ذلك المكان سقط عنه، وقيل: هو عَظْم صُلبه، وقيل: هو الخطّة التي في ظهره ؛ وأنشد[35]:

لَقَدْ حَمَلَتْ قَـيْسَ بـنَ عَـيْلانَ حَرْبُنـا على يابِسِ السِّيسـاء، مُحْـدَوْدِبِ الظَّهْـرِ

وقالوا: «السِّيساء»: الطريق، شبّهه بسِيساء الحمار. «اغترار»: مِنَ الغِرّة. و«انهيار»: انصيابٌ وانخساف، ويقال مِنَ الضَّعف.

18 إنْ يَجُـلْ مُهْـرِيَ عَـنكُمْ جَوْلَـةً فَعَلَيْـهِ الكَـرُّ فِـيكُمْ والغِـوارُ[36]

19 كَـشِهابِ القَـذْفِ يَـرْمِيكُمْ بِـهِ فـارِسٌ في كَفِّـهِ لِلْحَـرْبِ نـارُ[37]

20 سَـنَنٌ في وادٍ عَلَـيكُمْ سُـنَّةٌ إنَّـهُ يَحْمِـي حِمـاهُمْ ويَغـارُ[38]

21 فـارِسٌ صَـعْدَتُهُ مَـسْمُومَةٌ يَخْـضِبُ الـرُّمْحَ إذا طـارَ الغُبـارُ[39]

22 مُـسْتَطِيرٌ لَـيْسَ مِـنْ جَهْـلٍ ولا لأخِـي الحَـرْبِ عَلَـى الحَـرْبِ وَقـارُ[40]

ويروى: ((وهل لأخي الحلْم على الحرب)). «مُسْتَطِير»: خفيف سريع.

يقول: صاحب الحلم يخفُّ عند الحرب ويذهب عنه الوَقار.

23 يَحْلُـمُ الجَاهِـلُ لِلـسِّلْمِ ولا يَقِرُ الحِلْـمُ إذا مـا القَـوْمُ غـارُوا[41]

«السِّلم»: الصّلح. و«يَقِرُ»: مِنَ الوَقار، يقول: لا يتوقّر عند الغارة. «غاروا»: من الغَيْرة. يقول: يحلم الجاهل للسِّلم ولا يحلم هذا عند النّساء، ولكنّه يَغار.

24 نَحْـنُ أَوْدٌ، ولأَوْدٍ سُـنَّةٌ، شَـرَفٌ لَـيْسَ لَهـا عَنْـهُ قَـصارُ[42]

ويروى: ((لهم عنه قَصار))، مِنَ التّقصير.

25 كَـرَمُ الفِعْـلِ إذا مـا فَعَلُـوا ونِجَـارٌ في اليَمـانِينَ نُـضارُ[43]

«النِّجار»: الأصل. و«النُّضار»: الذّهب، وكذلك «النَّضر» و«النَّضير».

26 واحْتِمـالُ العِـبْءِ لا يَحْمِلُـهُ مَعْـشَرٌ عَـنْ قَـومِهِمْ إلا اسْـتَنارُوا[44]

«العِبْء»: الثِّقل. و«استناروا»: أظهروا وسادوا ...[45].

27 سُـنَّةٌ أَوْرَثَناهـا مَـذْحِجٌ قَبْـلَ أنْ يُنْـسَبَ للنّـاسِ نِـزارُ[46]

28 [كُنْـتُمُ إذْ لَم يَكُـنْ في الأرْضِ مَـنْ يَعْـرِفُ الخَيْـرَ ولا فِيـهِ اخْتِيـارُ[47]

29 في زَمـانِ الجَهْـلِ كُنْـتُمْ بُرْهَـةً ثُـمَّ وَلَّـى اللَّيْـلُ إذْ جـاءَ النَّهـارُ]

30 مُلْكُنـا مُلْـكٌ لَقـاحٌ أوَّلٌ وأبُونـا، مِـنْ أبٍ، أوْدٌ خِيـارُ[48]

«اللَّقاح»: الذي لم يُطِعْ[49] مَلِكًا، ويقال: إنّ العرب كانت تُسمّي هوازن لَقاح الإبل. و«أبونا مِنْ أبٍ»: وهو أَوْد، وهو خِيار النّاس.

31 ومَتى ما أدْعُ سَعْدًا تأتِني مِثْلَ ما جالَتْ مَعَ اللَّيْلِ الحِرارُ[50]

«الحِرار»: العطاش مِنَ الإبل. «مع اللّيل»: إنها شَفَى [كذا] العطشِ. قال: يريد أنّه تأتيني كتيبةٌ جَمّة. وقيل: إنّه أراد بـ«الحِرار»: جمعَ حَرَّة، وهي الأرض المُلْبَسة حجارةً سوداء.

يقول: تأتي في سَواد الحديد كسَواد اللّيل في سَواد الحَرّة.

و«سعد»: يريد به [سعدَ] العَشيرة، من مَذْحِج.

32 في حَفيفِ الغابِ هاجَتْ رِيحُهُ فَخمَةً، فيها مِنَ الآسادِ زارُ[51]

«الغابة»: الأَجَمة ؛ يعني الرِّماح شبّهتها[52] بالأَجَمة. و«الآساد»: جمع أسَد. يقول خطّت[53] الأسْد هذه الغابة دارًا لهم. ويقال: «زار زئيرًا». ويروى: ((فَخمَة)).

33 نَحنُ قُدْنا الخَيلَ حَتّى القَطَعَتْ شُدُنُ الأفلاءِ عَنها والمِهارُ[54]

ويروى: ((شُدّن))، وهو جمع شادن، وهو المتحرّك الذي قد قَويَ عَصَبُهُ من أولاد الخيل. و«الأفلاء»: أولاد الخيل، وهي الصِّغار، الواحد فَلُوٌّ ؛ مثل عَدُوّ[55]. و«مِهار»: جمع مُهر، ويقال: مُهر ومِهار وأمْهار.

34 كُلُّ قَوْداءَ كَمِرْداةِ الغِلا وطِمِرٌّ سابِحٍ فيهِ اقْوِرارُ

«اقْوِرار»: ضُمور. و«القَوَد»: طُولُ العُنُق. و«المِرْداة»: الحَجَر الذي يُرمى، يقال: رَداه يَرْديه: إذا رماه بالحجر. «الغِلاء»: الرّمي، ممدود، فقصَرَهُ لَمّا احتاج إليه. قال أبو عُبيدة: و«الطِّمِرّ»: الوَثّاب، يقال: طَمَر: إذا وَثَب، ومنه سُمّي البُرغُوث طامِر بن طامِر. و«السّابح منَ الخيل»: الذي يَمُدُّ ضَبْعَيْه حتى لا يجد مَزيدًا.

35 كُلّما سِرْنا تَرَكْنا مَنزِلاً فيهِ شَتّى مِنْ سِباعِ الأرضِ غارُ

يقول: نترك مِنْ سباع الأرض على مَنْ نُخلِّفُهُ مِنَ القَتلى.

و«الغار»: الجماعة مِنَ السِّباع، وقيل: «الغار»: الجيش الكثير.

36 وتَرَى الطَّيرَ عَلى آثارِنا رَأيَ عَينٍ ثِقَةً أنْ يُستَمارُ[56]

«رأي عَين»، يقول: مقدار رَأي العَين.

يقول: سِباع الطّير واثقة أنّا سنُميرها مِنْ لحوم مَنْ نقتله.

37 جَحفَلٌ أوْرَقَ، فيهِ هَبْوَةٌ ونُجُومٌ تَتَلَظّى وشَرارُ[57]

و«جَحفَل»: جيش كبير. «أوْرَق»: اسْوَدّ من صَدَأ الحديد. و«الهَبْوة»: الغُبرة. و«تتلظّى»: تشتعل وتبرق.

38 زَجِلُ الأصْواتِ حَتّى ما بِهِ لَيسَ شَيْءٌ، خِرَقُ القَومِ شِعارُ

«الزَّجَل»: الصوت الشّديد. و«الخِرَق»: الرّايات. و«شعارهم»: دُعاؤهم.

39 نَقْرَعُ الأعْداءَ عَنْ أسْلابِهِمْ قُرْعَةً فيها اسْتِباءٌ وإسارُ

أي: نظهر عليهم في القُرْعة.

«استباء»: مِنَ السَّبْي. و«إسار»: من أسَر يَأسِر[58].

40 ثُمّ لا يَدْفَعُنا عَنْ حُكْمِنا دافِعٌ إلاّ وعُقْباهُ الدَّمارُ[59]

41 نَحنُ أصْحابُ شَبًا يَوْمَ شَبًا بِصِفاحِ البِيضِ فيهِنّ اخْوِرارُ[60]

ويروى: ((فيهنّ اظّفار)) من الظُّفَر، افتعال: فأدْغَم أحد الحرفين في الآخر ؛ لأنّه استثقله. و«يوم شبًا» كان باليمن

على بكر. و«شَبا»: أرض باليمن. ويروى: ((شَبَا يومَ شَبا)) بلا تنوين.

42 تَــرَكَ النّــاسُ لَنــا أكْنافَهــا ... وتَوَلّــوا لاتَ لَــمْ يُغْــنِ الفِــرارُ(61)

«أكْنافها»: نواحيها وجوانبها. ويروى: ((أكتافهم)). «لات»: يريد لا فِرار، والتّاء فيه زائدة، وتروى التّـاء فيهـا. يعني: أنّهم انهزموا.

43 هَرَبًــا والخَيْــلُ في آثــارِهِمْ ... خَلْفَهــا مِــنْ ثابِــتِ النَّقْــعِ خِطــارُ(62)

44 عَــنْكُمُ في الأرْضِ! إنّــا مَــذْحِجٌ ... ورُوَيْــدًا يَفْــضَحِ اللَّيْــلَ النَّهــارُ

45 وتَــرَوا مَوقِفَنــا فــي حَــرَّةٍ ... لِعَوالِيهــا الْتِمــاعٌ وابْتِــدارُ(63)

46 مَوقِــفٌ يَعْــرِفُ مَــنْ أبْــصَرَهُ ... أنّــهُ لَــيْسَ لَكُــمْ فيــهِ الخِيــارُ

47 فَــأَبِيْنوا يــا بَنِــي هــاجَرَ قَــدْ ... كَشَفَتْ عَــنْ ســاقِها الحَــرْبُ الـنَّوارُ(64)

«أبِيْنوا» ارْجِعُوا وارضَوا بالذُّلّ. ويروى: ((يا بني عَمْرَةَ))، وعَمْرَةُ هي بنت عامر بن الظَّرِب العَدْوانيّ، وهـي [أمّ] عامر بن صعصعة، وكانت الكَثْرة والحِدَّة في أوّل الزّمان فيهم.

48 واقْنَعُــوا مِنّــا بِحُكْــمٍ أوّلٍ ... مــا لَكُــمْ إنْ حُــرْتُمُ عَنْــهُ مَحــارُ(65)

ويروى: ((واقنوا)) ؛ أي: ارضَوا وأقِرّوا. ويروى: ((حِدْتم عنها محار))(66).

تمّت قصيدة الأفْوَه الأوْديّ

تخريج الكلمة:

22 بيتًا في مجموع الشّنْقيْطي (الورقة 5) هي:1–12، 14، 18، 19، 21–23، 33، 35–37، وهي كذلك في الحماسة البصريّة 165/1–166، وجاء في بعض نسخ الحماسة مكان البيت 22 البيت 40، وعنهما في الطّرائف الأدبيّة 12–13 بزيادة ثمانية أبيات هي: 15، 20، 24، 27، 30، 41، 42، 44 = و16 بيتًا في مخطوطة الإسعاف ورقة 91–92 هي: 1–5، 8، 9، 11، 12، 18–22، 24، 27، والأبيات 1 ـــ 3 في لُباب الآداب 374، والبيت 1 في معاهد التّنصيص 145/2، ونظام الغريْب 4، والأمالي العمانيّة 16، والشّريْشي 281/2، والأبيات 5، 3، 4 في نِهاية الأرَب 64/3، والأبيات 5، 6، 3، 4 في مخطوطة الدُّر الفريد 365/2، والبيتان 3، 4 في الخِزانة 178/3، والبيت 3 في الأساس (ط ب ق)، والبيت 4 في نِظام الغريْب 205، ولباب الآداب 374، والأبيات 3–6 في حماسة البحتري (طبعة شيخو 151–152)، وطبعة كمال مصطفى 234–235)، والبيتان 5، 8 في الشّعر والشعراء 223/1، والبيت 8 في الصحاح، واللسان (ط ل ف)، واللسان (ج ب ر)، والمقاييس 420/3، ونِظام الغريْب 132، والبيتان 8، 9 في تهذيب الألفاظ 275، والبيت 11 في نِظام الغريْب 111، والبيت 14 في الإكليل 220/1، والبيت 15 في اللسان (ص ف ر)، والبيت 18 في حماسة البحتري (طبعة شيخو43، وطبعة كمال مصطفى 54)، والبيت 19 في رسالة الغفران 79، والحيوان 88/6، و24 في شمس العلوم، وعنه في المنتخبات 4، والبيت 25 في الأساس (ن ض ر) والبيت 27 في الإكليل 243/1، والبيت 30 في الصحاح (أ و د) والبديع لابن المعتز 9، والبيت 36 في الصناعتين 225، والوساطة 274، والموازنة 66/1، وأمالي ابن الشّجري 352/2، والبيت 37 في الخزانة 196/2، ومعاهد التنصيص 145/2، زهر الآداب 136/4، والبيت 41 في معجم ما استَعْجَم (شبا)، والبيت 42 في الخزانة 174/4، والصاحبي 264، والبيت 44 في الصّاحبي 34.

الهوامش:

انظر: كنى الشعراء 42، والمعمّرون والوصايا 130-131، والشعر والشعراء 223/1، والأغاني 4335/12، وشرح حماسة أبي تمام للأعلم 111/1، وشرح الدّامغة 550، وقد انفرد فيه الهَمْدانيّ بذكر (نوفل) في نسب الأفوه، فقال: صلاءة بن نوفل، وهو الأفوه الأوديّ. والسّمط 365، 844، وشمس العلوم 111/1، وعنه في منتخبات في أخبار اليمن 4، ونشوة الطّرَب 242/1، والمقاصد النّحويّة 421/1، والمزهر164/1، ومعاهد التنصيص 107/4، وشعراء العربيّة لشيخو 70، والطّرائف الأدبيّة (مقدّمة الشعر)، والأفوه الأودي: دراسة موضوعية وصفية؛ رسالة ماجستير أعدّها هاشم أرزوقي، بغداد، 1988، عن معجم الشعراء الجاهليين (د. عزيزة بابتي) 31. وانظر بحثنا (الأفوه الأوديّ المُفترى على شعره، قراءة نقديّة في ديوانه المنسول عن الطّرائــف الأدبيّــة) في مجلــة التراث العربي، بدمشق، العدد المزدوج (81-82)/2001، ولا تطلب ترجمته في ديواله المنشور 25، نشره د. التونجي، دار صادر 1998).

(1) نسب معد واليمن: (طبعة العَظْم 333/1، وطبعة ناجي حسن 323/1).

(2) اللسان والقاموس والتاج: (ف ك ل).

(3) سرّ صناعة الإعراب: 415/1.

(4) المقاصد النّحوية: 421/1.

(5) معاهد التنصيص: 107/4.

(6) الطّرائف الأدبيّة: مقدّمة الشّعر.

(7) نسب معد واليمن (طبعة العَظْم 333/1، وطبعة ناجي حسن 323/1).

(8) الأغاني 12/ 4335.

(9) الشعر والشعراء 223/1.

(10) معاهد التّنصيص 109/4.

(11) الحيوان 280/6.

(12) الطّرائف الأدبيّة: مقدمة الشعر.

(13) نماية الأرَب 188/3.

(14) معجم الأدباء 286/6، وقد وَهَم الميمني حين ظنّه من بني أود، وإنّما هو من ولد الحسن، قال ياقوت في ثنايا ترجمة ابن طباطبا العلوي: «وليس من ولد الحسن من يشبهه بل يقاربه علي بن محمّد الأفوه».

(15) ديوان المعاني49/1، والأبيات ثلاثتها بلفظها في نماية الأرب 188/3.

(16) المعمّرون والوصايا 130-131.

(17) كذا وقع، والصواب خمس.

(18) الطّرائف الأدبيّة 4.

(19) هذا وهم، والصّواب 29 كلمة، كما وَهَم أيضًا في قوله: «إنّ مجموع شعر الأفوه 208 بيتًا، والصّواب 206 ».

(20) جاء في مخطوط الفاصل بين الحقّ والباطل: «قال الأفوَه الأوْديّ، ... يذكرُ ابْتداء الولادة النّزاريّة، وكيف كانوا في قَحطان قبل أن ينشروا ــ وقد قدّم اليمنَ عليهم ــ ويُعَنِّف جُرْهُمًا بتَعَلُّمهم آلةَ الحرب، وكان قوله هذا الشّعر في حرب خَزَاز، فأجابه عليها ثمانون شاعرًا من شعراء ربيعة ومُضَر، فما انتصفوا منه، وهو قوله شعرًا ...».

(21) في مخطوط الفاصل:« إمّا تري ... »، وفيه: « القَزَع: قِطَع الغَيْم، واحدها قَزَعة، فشبّه الشّيب بقطع الغَيْم. والشّواة: جلدة الرأس. والــقتوار: هَرْش الرأس من شدّة الكِبَر. وتروى فيه صَلَع، وهو الأصح وحده في نظام الغريب ». وفي المعاهد: « ... نزع »، ونظام الغريب والأمالي العمانيّة، وهي رواية أخرى في المخطوط:«صَلَع »، وكلها متّجهة.

القَزَعُ: بقايا الشعر المُنتَتف، الواحدة قَزَعَةٌ، وكذلك كلّ شيء يكون قِطَعًا متفرّقة، فهو قَزَعٌ؛ ومنه قيل لقطع السّحاب في السماء: قَزَعٌ. ورجل مُقَزَّعٌ و مُتَقَزِّعٌ: رقيق شعر الرأسِ متفرّقُه لا يُرَى على رأسه إلا شعراتٌ متفرّقة تطايَرُ مع الريح. والقَزَعةُ: موضع الشعر المُتَقزِّع من الرأس. حلّة: قليلة اللحم مهزولة.

(22) في مخطوط الفاصل: « ... ذلك اعتبار» مختلّ الوزن.

(23) وبرواية: « ارتفاع»، التي ذُكرت أعلاه في تضاعيف الشّرح، نطقَتْ جميع المصادر التي وقفنا عليها ذاكــرةً البيــت. وفي مخطــوط الفاصــل: « صروف... خلقة ... ». وفي مخطوط الإسعاف: « ... في أطباله ». وهي متّجهة. وفي الأساس: « وصروف ... ».

الأطباء: واحدها طُبْي كقُفْل.

(24) في مخطوط الفاصل: « فبينما الناس ... غاياها ... فيها ... » مختلّ الوزن. وفي سائر المصادر الموقوف عليها: «بينما النّاس ... ».

(25) في مخطوط الفاصل وفي سائر المظانّ الأخرى: « نعمة ... ... ثوبٌ..». وفي الدّر الفريد: ".. نعمة دنيا "، كما جاء في مخطوط الفاصل: وفي « ... قوم متعا » ولا وجه لها.

(26) في مخطوط الفاصل: « مداه تختليها وشفار » مختل الوزن. وفي حماسة البحتري: « ... إلال للفتى دانيات تختليه ... ». وفي مخطـــــوط الفاصل: « المُدَى: السّكاكين، والإلالُ: الحِرابُ؛ واحدها: أَلّة، والقُوَى: طاقات الحَبْل، والاختلاء: قَطْع الحَشيْش ».

(27) القوّة: الطاقة من طاقات الحبل.

(28) في مخطوط الفاصل: « حكم الدّهر ... » وهي متّجهة.

الظلف والطلف وجبار: الهَدَر، يقال: هَدَر دمُه هَدْراً وهُدوراً، إذا بَطَل. ومنه قولهم: ذهب دم فلان بُطْلاً وظَلَفًا وظليفًا، وهَدَرًا وطَلَفًا وطَلِيفًا، وجبارًا.

(29) في مخطوط الفاصل: « جُرْهُم منهنّ ... »، مختل الوزن إن كان منعها من الصّرف، ونافر المعنى إن كان جعلها فاعلاً. وفيه بعـــد البيـــت: « قولـــه: ريّشت جرهم: يعني أنهم زوّجوا إسماعيل — صلى الله عليه — وعلّموا أولاده آلة الحرب فكان عليهم ذلك كما قال الشاعر:

أُعَلّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَـــوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

(30) في مخطوط الفاصل: «يَحَار: يَرْجع، ويَحُوْر كذلك ».

واللأمة، مهموزةً: الدّرع، وقيل: السّلاح. و لأمةُ الحرب: أداها، وقد يترك الهمز تخفيفًا. ادّراعها: لبسها واتخاذها. (اللسان: ل ء م).

ونجد في مقصورة الأفوه (الطرائف الأدبيّة: 6) أثارةً من ذكر الطّعن في الكُلَى، في قوله:

تَخْلِـــي الجَمـــاجِمَ ورِماحُنا بالطَّعْنِ تَنْتَظِمُ الكُلَـــى

وفي الطرائف الأدبيّة: « تحمي الجماجم ... » محرّفًا.

تخلي: تقطع. قال الأعلم (ديوان الحماسة 111/1): « يقال: خلَيْت الكلأ إذا قطعتَه، وبذلك سُمّي الرُّطْبُ مِنَ الكلأ خَلًى، وواحدها خلاةٌ، ويقال للمِنْجَل مخلًى ». الكُلَى: واحدها كُلْيةٌ وكُلْوةٌ.

قال الأعلم: «وخصّ الرّماح بانتظام الكُلى إشارة إلى حذْقهم [في مطبوع ديوان الحماسة:«حذفهم»، بالفاء أخت القاف، مصحّفًا]بالطّعن وإصابة المَقْتَل».

(31) في مخطوط الإسعاف: « فيها ». وفي مخطوط الفاصل: «المَرْطى، على فَعَلَى: وهو العَدْو الشّديد، والتّجَد: العَرَق ».

وفيه احمرار: يعني من الدّم.

(32) في الطرائف: « ... منّا وبجار » صوّبه الشيخ الميمنيّ، على أنّ ما نطقت به المخطوطات صواب محض.

(33) في مخطوط الفاصل بعد البيت: «الزَّمَع: في أيدي البقر زَمَعَتان في كلّ يد ترقّان على الظّلف من باطن، والصّفّار: دُوَيْبّة مثل القُرَاد تكون في أصول الأضراع».

الزَّمَعُ: رُذالُ الناس وأتباعُهم بمنزلة الزَّمَع من الظّلف والجمع أزماع يقال هو من زَمَعِهم أي من مآخيرِهم.

(34) في الفاصل: «فقدرمتموا ... » مختل الوزن مضطرب المعنى.

(35) البيت للأخطل (ديوانه: 135) من كلمة له في هجاء قبائل قيس، وهو له في اللسان (س ي س)، وفيه: « السِّيساء: مُنْتَظَمُ فقار الظهـــر، السِّيســـاء: لغلاء مُلحق بسِرْداحٍ ؛ قال الأخطل واسمه غياثُ بن غَوْث [محرّفًا، إذ الرّجل هو غياث بن غوث لا غير] ... البيت ».

(36) في مخطوط الفاصل: «... فيكم الفوار » مختل الوزن.

(37) قال الجاحظ (الحيوان: 275/5) معلّقًا على البيت: «وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأوديّ، فلعمري: إنه لجاهليّ، وما وجدنا أحدًا من الرُّواة يشكّ في أنّ القصيدة مصنوعة. وبعد، فمن أين علم الأفوه أن الشّهب التي يراها إنما هي قذف ورجم، وهو جاهليّ، ولم يدّع هذا أحدٌ قط إلاّ المســلمون ؟ فهــذا دليل على أن القصيدة مصنوعة ».

(38) في الطرائف: « شنّ ... شنّة ».

(39) في مخطوط الفاصل: «.. صعدة مشهورة » وهي متّجهة.

الصعدة: القناة تنبت مستوية. مسمومة: تقتل من ساعتها، كأن بها سمًّا.

(40) في مخطوط الشّنقيطيّ: « وهل لأخي الحلم ... »، وهي الرّواية المذكورة في الشّرح أعلاه. وفي مخطوط الفاصل: « ... عن الجهل.. ». وفي الإسعاف: «مستطيْرا ».

(41) في مخطوط الفاصل: « إذا القوم.. » مختل الوزن.

(42) في مخطوط الفاصل: «.. أرد ولودٌ [كذا] ... لهم عنه». وفي شمس العلوم وعنه في المنتخبات: « ... لهم عنه قصار».

(43) في مخطوط الفاصل: «وبجار ... يغار » مصحّفًا.

(44) في مخطوط الفاصل: «واحتمال الغيب ... ... استثار».

(45) ثمة بقايا وشم لكلمتين، لا يُدرى ما هما.

(46) في مخطوط الفاصل: «.. ورُثناها ... في الناس ... » وهي رواية متّجهة عالية.

(47) ... تلوه أخلّ بهما الأصل، وهما في مخطوط الفاصل، وفيه: « ... إذا ... ولا في فيه ... » مختل الوزن.

(48) في مخطوط الفاصل « وأبونا، من أبو هند خيار »، وفيه بعد البيت: « اللَّقاح: القديم ؛ الذي لا يدين لغيره، وتدين له الملوك ». وفي البديع لابن المعتز 9، وعنه في الطرائف 13: « ... من بني أود.. »

(49) في الأصل: « تطح » ولا وجه لها.

(50) في مخطوط الفاصل: « فمتى ... »، وفيه بعد البيت: « الحِرار: جمع حَرَّة، وهي الأرض ذات حجارة سود، يقال: حَرّة وحُرور، ولابَة، ولُوب، وقال آخرون: مِثْلَ مَا جاءتْ عَلَى الأرْضِ الحِرَارْ، وهي الإبلُ العطاش. والأول أجوَد ».

(51) في الأصل: «خفيف ... » وفي مخطوط الفاصل: « في الخفيف ... فاتحة ... دار »، ولا معنى للفظة «الخفيف» ههنا. وهذا المعنى قد استغرقه الأفوه حين قال (اللسان: ن و ي):

وسَعْدٌ لو دَعَوتُهُمُ لَثــابُوا إليَّ حَفِيفَ غابِ نُــوَى

نوَى: موضع. وسعد: سعد العشيرة بن مَذْحِج.

(52) في الأصل: «سمّتها» وهي لفظة غير متمكّنة في موضعها ههنا.

(53) في الأصل: «خطل» ولا وجه لها.

(54) أي طال القياد على الأفلاء حتى انقطعت عن الأمّهات.

(55) في الأصل: «فَلُوّ مثل عَدُوّ » وليست في المعجمات، والذي فيها: الفَلُوُّ: المهر الصغير، وقيل: هو العظيم من أولاد ذات الحافر، ... وقد قالوا للأنثى: فَلُوَّة، كما قالوا: عدوّ وعَدُوَّة، والجمع أفلاء، مثل عدوّ وأعداء، وفَلاوَى أيضًا مثل خطايا، وأصله فعائل، وقد ذكر في الهمز ؛ ... قال سيبويه: لم يكسِّروه على فُعُل كراهية الإخلال، ولا كسروه على فِعْلان كراهية الكسرة قبل الواو، وإن كان بينهما حاجز ؛ لأنّ الساكن ليس بحاجز حصين، وحكى الفراء في جمعه فُلُوّ. (اللسان: ف ل و).

(56) في مخطوط الفاصل والصناعتين والوساطة والموازنة وأمالي ابن الشجري: « ... أن ستُثارُ » وهي متّجهة وزنًا ومعنًى، فضلاً عن ذيوعها. وكان الأفوه أوّل مَن افتضّ بكارة هذا المعنى وسنّه للشعراء بعده، ثمّ تبعه النابغة الذّبياني في بائيّته المشهورة، ثمّ تعاوره خَلْقٌ عظيم مِنَ الشعراء.

(57) في مخطوط الفاصل: « يا حجيفى أرحب في نخوة ». وفي الحماسة البصريّة: «.. أورقُ ».

الجَحْفَل: الجيش الكثير، ولا يكون ذلك حتى يكون فيه خيل. الأوْرَق: الغازي أخفَق أو غَنِم، وهو من الأضداد، والمراد هنا الغانم الظّافر. (اللسان: ج ح ف ل، و ر ق).

(58) في الأصل: « أسَر يَأسَر ».

(59) في مخطوط الفاصل: «.. إلاّ وعن عقباه.. » مختل الوزن.

(60) في مخطوط الفاصل: « ... الشّبا يوم الشّبا فيهن صفار » وهو تصحيف عجيب.وفي غيره ما عدا الأصل: «اظّفار» وهي الرّواية التي ساقها الشارح عقب البيت أعلاه.

شَبًا: واحدها الشَّباةُ: طَرَفُ السَّيْفِ وحدُّه.

(61) في مخطوط الفاصل: « ... أكتافهم ».

(62) في مخطوط الفاصل: « هبا والخيل ... خلفا من ثائر ... حِضار ».

الحِضار: ضربٌ مِنَ العدو.

والمعنى: إنّ الغبار الذي أثارته حوافر الخيل، وهي تتطرّد الفارّين، قد بلغ مَعْدَى فرس.

(63) في مخطوط الفاصل: « وتروا ... في حجرة ».

(64) في مخطوط الفاصل: « فأنيب ... عمرو »، وفيه: « قال: الإنابَة: الإقرار بالذّنب والرّجوع. وعَمْرَة: بنت عامر بن الظّرِب العدواني؛ أمّ عامر بن صعصعة، والبَوار: النفور، والجمع بُور »، ولم أدرِ لما شَرَحَ لفظة «البوار» مع أنّه رسمها في الشعر «النوار».

(65) في مخطوط في الفاصل: «... جرتم فيه مجار».

(66) في الأصل: «جدتم ... ».

المصادر والمراجع

أ – المخطوطات:

- الإسْعاف في شرح شواهد الكشاف، لخضر الموصلي، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم المخطوطة 7747، رقم المصوّر الفيلمي 3534.
- الدُّرّ الفَريْد، لمحمّد بن آيدمر، نشرها مصوّرة فؤاد سوزكين، معهد تاريخ العلوم العربيّة والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا، 1990.
- الفاصل بين الحق والباطل، لمجهول، مكتبة الجامعة الأميركية، بيروت، رقم التصنيف 764.
- كتاب يحتوى شرح عشر قصائد مشهورة، لعمر بن الحسن بن مسافر، رقم المصور الفيلمي 6773.
- مجموع شعر الأفوَه الأوْدي، نِساخة الشِّنْقيطي، مصوّرة عن المخطوطة التي تحتفظ بها دار الكتب المصرية (12 ش أدب).

ب – الكتب:

- أساس البلاغَة، للزَمَخْشَري، دار صادر، 1992.
- الأغاني، لأبي الفَرَج الأصْبهاني، دار الكتب العليمة، بيروت، ط 1، 1986، ودار الشّعب، القاهرة، 1969.
- الإكليل، للإمام الهَمْداني، الجزء الأول، تحقيق الأكْوع، دار الحريّة للطّباعة، بغداد، 1977.
- ألقاب الشّعراء ومن يُعْرف منهم بأمّه، لابن حبيب (في نوادر المخطوطات)، تحقيق عبد السّلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1954.
- أمالي ابن الشّجري، تحقيق الدّكتور محمود محمّد الطّناحي، مكتبة الخانجي، ط 1، 1992.
- الأمالي العمانية، لعيسى الرَّبَعِي، تحقيق هادي حسن حمودي، وزارة التراث القومي والثّقافة، مَسْقَط، 1992.
- البديع لابن المعتز، عبد الله بن محمّد، تحقيق عبد المنعم خفاجي، مطبعة البابي الحلبي، مصر، القاهرة، 1945.
- تاج العروس من جواهر القاموس، للزّبيْدي، تحقيق عبد السّتار فرّاج، وآخرين، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1965.
- تهذيب الألفاظ لابن السِّكّيْت، والمُهَذِّب أبو زكريا التبريزي، نشره لويس شيخو، بيروت 1895.
- الحماسة، لأبي الوليد البحتري، تحقيق كمال مصطفى، المكتبة التّجاريّة الكبرى، القاهرة، 1929، وتحقيق لويس شيخو، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2، 1967.
- الحماسة البصريّة، للبصري، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1999.
- الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبد السّلام هارون، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ط 2، 1965.
- خزانة الأدب، للبغدادي، تحقيق عبد السّلام هارون، الخانجي، القاهرة، 1979.
- رسالة الغفران، للمعرّي، تحقيق عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، 1969.
- زهر الآداب، وثمر الألباب، للحصري القيرواني، تحقيق علي محمّد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط 2،1969.
- سر صناعة الإعراب، لابن جني، تحقيق الدكتور حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، 1985.
- سمط اللآلي، لأبي عبيد البكري، تحقيق الميمني، مصوّرة دار الكتب العلمية، بيروت.
- شرح حماسة أبي تمام، للمرزوقي، تحقيق أحمد أمين، وعبد السّلام هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1967، وللتبريزي، تحقيق محي الدّين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، وطبعة دار القلم، بيروت، وللأعلم الشّنتمري، تحقيقالدكتور علي المفضل حمّودان، دار الفكر، ط 1، 1992.
- شرح القصيدة الدامغة، للإمام الهَمْداني، نشر محمّد الأكوع، 1397 هـ، 1977.
- شرح مقامات الحريري، للشريشي، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المدني، القاهرة، 1969.
- الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمّد شاكر، وعبد السّلام هارون، دار المعارف، مصر، 1377هـ، 1958.
- شعراء العربية لشيخو (المسمّى: شعراء النّصرانيّة في الجاهليّة)، للويس شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيّين، بيروت، 1926.
- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكُلوم، لنشوان الحميري، أشرف على طبعه عبد الله بن عبد الكريم، عالم الكتب، بيروت.

- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لابن فارس، تحقيق السّيد أحمد صقر، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1977.
- الصّحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، للجوهري، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط 2، 1979.
- الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمّد البجاوي، ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، ط 2، 1371 هـ، 1952.
- الطرائف الأدبية، تحقيق الشيخ الميمني، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1937،.
- كنى الشّعراء، لابن حبيب (ضمن: نوادر المخطوطات، الجزء الثاني)، تحقيق عبد السلام هارون، لجنة التأليف والنّشر، القاهرة، 1954. وتحقيق محمّد صالح الشناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1990.
- لباب الآداب، لأسامة بن منقذ، تحقيق احمد شاكر، دار الكتب السّلفيّة، 1407 هـ، 1987، عن ط 1، 1354 هـ.
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ورفاقه، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- معاهد التنصيص، لعبد الرحيم بن أحمد العبّاسي، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، 1947، طبعة مصوّرة عنها، عالم الكتب، بيروت.
- معجم ما استَعجَم من أسماء البلاد والمواضع، لأبي عُبَيد البكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ط 3، 1983.
- المقاصد النّحويّة، للعيني (بهامش خزانة الأدب ـ ط بولاق).
- مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، 1371 هـ، 1952.
- منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكُلوم، لعظيم الدّين أحمد، نسخة مصوّرة، دار الفكر، دمشق، 1981.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للآمدي، تحقيق عبد الستّار فراج، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، 1961.
- نسب مَعَدّ واليمن، لابن الكلبي، نشر العَظْم، دار اليقظة العربيّة، دمشق، ونشر ناجي حسن، عالم الكتب، بيروت، ط 1، 1988.
- نَشْوة الطَّرب في تاريخ جاهلية العرب، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمّان، ط 1، 1982.
- نظام الغريب في اللّغة، لعيسى الرّبعي، تحقيق محمّد الأكوع، دار المأمون، دمشق، ط 1، 1980.
- نهاية الأَرَب في فنون الأَدَب، للنُّوَيْري، دار الكتب المصرية، 1347، 1929.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، للجُرْجاني، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمّد البجاوي، دار القلم، بيروت.

ج – الأطاريح الجامعيّة:

- شعراء مَذْحِج، أخبارهم وأشعارهم في الجاهليّة، صنعة مقبل التامّ عامر الأحمدي.

د – الدّوريات:

- مجلة التّراث العربيّ، اتحاد الكتاب العرب، بدمشق، العدد المزدوج (81–82)/2001.

(مخطوطة يمنية نادرة)
من تراث بعض فرق الزيدية - المطرفية

بقلم/ جعفر محمد السقاف

مدخل:

تميزت أمة العرب والإسلام في عصور ازدهارها بإشعالها قبس النور والهداية بين الأمم وكذا صيانتها التراث الفكري الذي خلفه من سبقها من يونان وفرس وهنود.. الخ، فترجمه العرب وتوسعوا فيه وامتلأت الخزائن بهذا الإنتاج الضخم الذي قدمته المدرسة العربية الإسلامية في فترتها الذهبية وكانت أوربا تلتقط مت فتات تلك الموائد الدسمة.

ولذا لم تحظ أمة من الأمم ولا حضارة من الحضارات بقدر من التراث الفكري مثلما حظيت أمتنا الإسلامية، فلها من ذلك القدح المعلى والنصيب الأوفر، ويعود الفضل في ذلك إلى تلك الراية المرفوعة فوق رأس الإسلام والنور الهادي للأنام، ألا وهو (القرآن العظيم والذكر الحكيم) الذي أنزل بلسان عربي مبين من فوق سبع سماوات لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي هو صمام أمان لغتنا العربية (أم اللغات).

ولأن ما كتب عن القرآن العظيم، من تجويد وقراءات وتفسير وتأويل ورسم ومعاني ومشكل ومتشابه وغوامض وفلسفة، يعد بالآلاف[1] ورغم ذلك لم يستطع العلماء الإحاطة بكل أو جل علومه وخفاياه، بل قال بعض العلماء: إن تفسيره الحقيقي يأتي في قابل الزمان أو متزامناً مع عصرنا هذا عصر العلوم والاكتشافات العلمية المتواترة المتطابقة لما فيه.

إذن لا غرابة أن نرى بعض الفرق الزيدية اليمنية التي اندثرت مثل فرقة (المطرفية) يشتد ولعها بالقرآن العظيم والغوص في أعماق بحاره محكمة العقل وتمدف فلسفة الكون من خلال كثير من آياته والتي جلها موضع خلاف بين علماء التفسير[2].

على أن متصوفة حضرموت يرون التعمق في التفكر في معاني آيات القرآن العظيم وخاصة موضع خلاف بين علماء التفسير على أن متصوفة حضرموت يرون التعمق

* سيئون محافظة حضرموت - مكتب توثيق التراث والثقافة.

في التفكير في معاني القران العظيم وخاصة موضع خلاف العلماء وكثير الخوض في ذلك يورث الوساوس، ويرون تجنب ذلك هو الأولى لأن ذلك يشغل العبد عن التوجه إلى ربه وان ذلك ليس من الأمور التي يجب اعتقادها بالتعين مثل معرفة من هم المستثنين في قوله تعالى:" فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله"[3].

ويجدر أن نذكر أن المخطوطات اليمنية التي تقدر بنحو المليون كتاب مخطوط.. قد كثرت فيها النصوص الخاصة بالمعتزلة التي تقوم على المنطق الأرسطي، كما أنها يمنية فكراً وقلماً وما بها عربي من صلب فسكر هذه الأمة إضافة إلى أن رجال الفقه الزيدي تمتعوا بالفكر القرآني إضافة إلى طرق الجدل اليونانية[4].

وحيث إن الإمام عبد الله بن حمزة في القرن السادس الهجري أباد فرقة المطرفية جسدياً وفكرياً، ولأن الزمان باعد بين عصرنا وعصر انقراضهم ولم يبق من كتبهم غير كتاب واحد هو (البرهان الرائق المخلص من ورط المضايق) فإن المراجع عنهم والتي تمثل وجهة نظرهم شحيحة[5].

وحتى هذا الكتاب (البرهان) نرى كثيراً من المؤلفين يتجاهلونه وقد ذكره وذكر المطرفية الأستاذ (عبد الله الحبشي) في كتابه (مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن) كما أن أول من كتب عنهم د/ أيمن فؤاد سيد في كتابه[6] وتبعه الدكتور (المقالح) أما د/ علي محمد زيد فنراه تقريبياً متخصصاً في كتابه عنهم فإضافة إلى كتابه (تيارات معتزلة اليمن في القرن الـ 6هـ) نرى كتاباته عنهم في (الموسوعة اليمنية) صفحات 977/870/885/619[7].

وآخر من كتب عنهم د/ محمد الحاج الكمالي حيث سلط الأضواء على كتاب (البرهان الرائق) تأليف سليمان بن محمد المحلي في مقالين بمجلة (الإكليل) اليمنية[8].

ولأن محافظة حضرموت لم تكن خاضعة في تلك الفترة للحكم الزيدي فرب ضارة نافعة إذ بقيت من كتبهم بعض المخطوطات وقد حظيت مكتبتي بكتاب مخطوط يتيم وفريد يمت بصلاة إلى الفرق الزيدية التي اندثرت ومنها (المطرفية) والتي أغنت علم الكلام باليمن بما لا مزيد عليه. وكون هذا الكتاب مفقود الأول والآخر لم نعثر على اسم مؤلفه، ولكن من خلال مراجعتنا لما كتب عن تلك الفرق الزيدية المندثرة وكتاب (البرهان الرائق) وهذا الكتاب اجتهدت رأيي بأنه لأحد علمائهم أو لمجموعة من علمائهم . لأنه يتحدث بضمير الجمع، وهذا الكتاب يختلف عن كتاب (البرهان) كونه في الرد على ما كتبه مخالفوهم من الفرق الأخرى (المخترعة) و (الأشعرية) ..الخ.

هذا الكتاب:

يقع في 109 ورق أي 218 صفحة الحجم 16×23سم مسطرته 11 كل سطر من 8- 10 كلمات. وهو من خطوط القرن السادس الهجري ويميل إلى الخط اليمني فنراه كثيراً ما يضع نقطة تحت حرف الدال هكذا (ڊ) لتميزه عن حرف الراء (ر) الذي يتشابه معه في الرسم. كما أن معظم الكلمات بدون نقط وهذا دليل أقدمية الكتاب وخطه. وأسلوب الكتاب قوي يرقى إلى أسلوب الرعيل الأول من علماء تلك الفترة الغنية بالفلسفة (علم الكلام) وقد يستعمل الكلام المسجع كما يستشهد باشعار العرب في التحليل اللغوي خاصة (امرئ القيس). كما إن العلماء الذين ذكرهم قليلون جداً منهم (أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي)[9] كما يستند على علم النحو والتجويد والقراءات ويكثر من مقارنات الآيات القرآنية وتفسير القرآن بالقرآن لدرجة أنك تكاد لا تجد صفحة من صفحاته خالية عن آية قرآنية، بل تجد في بعض الصفحات ست آيات قرآنية من سور مختلفة، وقليلاً ما يستند إلى أقوال الصحابة أو التابعين. وهذه

نماذج من كلمات غير منقطة =

فاحر تعني فأخبر   فقال تعني فقال

الدين تعني الذين   يقال تعني يقال

تاويلين تعني تاويلين

موضوعات الكتاب

وأهمها الجدل ومجادلة الخصوم بآيات قرآنية من مشكل القرآن خاصة العقائدية، ويسميهم المخالفون ويشير بالبنان إليهم (المخترعة).. (الأشاعرة) (المرجئة) (الجبرية)..الخ وأحياناً يصفهم بـ(أعداء الله الفجرة الكفرة) وموضوع استخراج الجدل من القرآن الكريم ومشكلة ألف فيه عدد من العلماء، فقد أورد ابن القيم في فهرسته خمسة كتب أقدمها "مشكل القران" لقطرب كما أورد من بعده كتباً كثيرة وكثيرة. وأما الترجيح فإنهُ دليل معتبر في الشرع وتكرر ذكره في القرآن العظيم[10].

وجدير بالذكر تعدد المعاني التفسيرية للآية الواحدة وأن ذلك مما تقبله لغة القرآن ويطيقه بيانه. بل اعتبر المفسرون المعاصرون قبول المعاني المتعددة للآية الواحدة أصلاً ومنهجاً. وخالفهم بعض من قبلهم الذي يرجح معنى من المعاني التي يحتملها لفظ آية من القرآن يجعل غير ذلك المعنى ملغي[11].

تتمحور موضوعات الكتاب في جدل شديد مع الخصوم والمخالفين حول 437آية محكمة التريل لا تحتمل التأويل التي جمعها الإمام عبد الله بن حمزه، ثم أضاف كل آية إلى ما هو من جنسها الشريف حاتم بن جعفر الحمزي في كتاب (المجموع من آيات القرآن الشريف المبطلة مذهب الطبيعة أهل التطريف)[12].

والآن أقدم نموذج من هذا الكتاب من سلسلة أبحاثي التي سيتكون منها المجلد أوالمجلدات مستقبلاً لمعرفة طريقة تقاليد الجدل وعلم الكلام ونشاط الفكر في تلك الفترة ومقارنات وتفسير القرآن بالقرآن، ووضعت منهجي كالتالي:

1) تقديم الآية القرآنية.
2) تفسيرها من إحدى كتب التفسير وكتب مشكل القرآن المعاصرة لهذا الكتاب.
3) المجادلة والرد من صاحب الكتاب على خصومه المخالفين له في تفسير الآية.
4) التعليق.

وقد اخترت في هذه الحلقة كتابي (مجمع البيان في تفسير القرآن للطبري) وكتاب (مشكل القرآن للعز ابن عبد السلام) وكلاهما معاصران لهذا الكتاب الأول (مؤلفه) شيعي والثاني (مؤلفه) سنّي لكي تبرز مختلف الآراء[13].

وهاأنا ابدأ أبحاثي عن هذا الكتاب بهذه الآية الكريمة.

قال تعال (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليم)- النصف الآخر من الآية رقم (88) سورة يونس:

1) تفسير (مجمع البيان للطبري) مجـ3 : 88 (ربّنا اطمس على أموالهم) فدلّ ذلك على أنه أراد به الدعاء عليهم، والمراد بالطمس على الأموال تغييرها عن جهتها إلى جهة لا ينتفع بها، قال مجاهد وقتادة وعامة أهل التفسير صارت جميع أموالهم حجارة حتّى السكّر والفانيذ (واشدد على قلوبهم) معناه ثبتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك أموالهم فيكون ذلك أشد عليهم وقيل معناه أمتهم بعد سلب أموالهم وأهلكهم وقيل إنه عبارة عن الخذلان والطبع (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) قد ذكرنا وجوه وقيل معناه أنهم لا يؤمنون إيمان الجاء حتى يروا العذاب وهم مع ذلك لا يؤمنون إيمان اختيار أصلاً ثم أخبر سبحانه أنه أجاب لهما الدعوة.

2) فوائد في مشكل القرآن للعز ابن عبد السلام) ص 136 دار الشروق ط 1982م (قوله عز وجل عن موسى عليه السلام (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على

قلوبهم) مشكل، لأنه طلب أن يشد رباط قلوبهم حتى لا يدخلها الإيمان، والطلب مستلزم للإرادة، فقد أراد منهم ما أمر الله أن يكرهه منهم وينهاهم عنه. وأما قوله عز وجل (حكاية عن نوح عليه السلام) – ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً)[14] فذلك لأنه قيل له (لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن)[15] فأيس من إيمانهم وقطع بكفرهم، فصار أمراً لابد منه، بخلاف هذا. (الجواب) أقول لا إشكال لجواز أن يكون قد حصل له اليأس من إيمانهم بطريق الوحي مثلاً. فدعا عليهم بذلك، إذ لا يتعين أن يكون حصول اليأس بطريق النص[16].

3) الكتاب المخطوط لفرقة المطرفية) – ومما تعلقوا به أيضاً قوله سبحانه (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) 1هـ. قالوا فدعا ربه عليهم أن يطمس على أموالهم وأن يشدد على قلوبهم كي لا يؤمنوا إلى وقت رؤيتهم العذاب وهو الوقت الذي لا ينفعهم إيمانهم فيه فقال الله تعالى لهما قد أجيبت دعوتكما فأعلمهما أنه قد فعل بهم ما سألاه من الطمس على أموالهم والشد على قلوبهم كي لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، قالوا وليس لمعترض من خصومنا أن يعترض ما احتججنا به عليهم في هذه الآية بأن يقولوا إن قوله فلا يؤمنوا إنما معناه الإخبار أنهم لا يؤمنون وأنه ليس على معنى أنه شد على قلوبهم لكي لا يؤمنوا، قالوا متى قيل أن حذف النون ها هنا إنما هو للنصب ولو كان أراد الاستئناف لرفع وأثبت النون وقال لا يؤمنون كما قال تعالى (فذرهم في طغيانهم يعمهون)[17]. فلما حذف النون وجعل حذفها دليلاً على النصب علم أنه جعلها جواباً للدعاء يوجب أن يكون إنما دعا بالطمس والشد كيلا يؤمنوا كما قال (لولا اخرتني إلى أجلٍ قريب فأصدق)[18] فنصب فأصدق جواباً للتمني والمعنى لأن أتصدق وكذلك قوله فلا يؤمنوا معناه كي لا يؤمنوا وهذا ما لا ينكره أهل اللغة، فيقال لهم بأي شيءٍ تدفعون أن يكون التأويل في هذه الآية غير ما تأولتم والمعنى خلاف ما ظننتم بربكم – تعالى عن قولكم علواً كبيراً – وهو أن يكون على فرعون وملائه بطمس الأموال والشد على القلوب عقوبة على أفعالهم وعنادهم عن الحق ومخالفتهم للرشد لأن الطمس على الأموال والشد على القلوب لا يوجب كفرهم ولا يدعو إليه وإنما أراد بالشد على قلوبهم ما جعله فيها من الضيق والحرج والإغمام والجزع مما ظهر به موسى عليه السلام عليه وظهر به منه كما قال (يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء)[19] أهـ.

ولسنا نأبى أن يعاقب الله تعالى الكفار في قلوبهم وفي سائر أبدانهم بالآلام والغموم والأسقام وليس في ذلك منع من الإيمان ولا صد عنه ولا إغراء لمعصية ولا إيقاع فيها وأما قولهم فلا يؤمنوا حذف النون يدل على أنه قد جعل ولا يؤمنوا جواباً للسؤال قالوا فلذلك نصبه وإذا كان جواباً فقد لزم أن يكون إنما سأل ربه عز وجل طمس أموالهم وشد قلوبهم كي لا يؤمنوا 1هـ. فإنه يقال لهم أن لنا في هذا وجهين في الجواب كل واحد منهما يسقط ما تعلقتم به علينا، أهـ أما أحدهما فإنهُ يحتمل أن يكون قدم الدعاء في موضع التأخير وآخر (فلا يؤمنوا) في موضع التقديم وجعل قوله (فلا يؤمنوا) نصباً لا أنه جواباً لسؤال بالفاء، بل جعله نصباً لأنهُ عطف على المنصوب بالباء. والمنصوب قوله (ليظلوا عن سبيلك) فتقديره (ربنا إنك آتيت فرعون وملئه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ربنا أطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم) وقد ذكرنا لهذا التقديم والتأخير في القرآن وفي اللغة نظائر وليس يكاد ذلك يُحْمي فمنهُ قوله عزّ وجل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين)[20] تقديره فلا تطردهم فتكون من الظالمين ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون قوله:

فتطردهم منصوباً لأنهُ جواب الجحد بالفاء وقوله فتكون منصوباً لأنهُ جواب النهي بالفاء فقدم جواب الجحد على جواب النهي والمعنى تأخيره. وقوله عز وجل (والفجر وليال عشر والشفع والوتر)[21] إلى قولـه (إن ربـك لبالمرصاد) تقديره والليل إذا يسري إن ربك لبالمرصـاد هل في ذلك قسم لـذي حجـر لأن حقيقـة الكـلام ومستعمله يقضي أن يكون المقسم بهِ إلى حيث القسـم ومنهُ قول أمريء القيس:

وضرباً إلى لحسني فرقّ كلا منا

ورضت فذلّت صعبة اي إذلال

تقديره ورضت صعبة فذلت وقوله أيضاً:

فلو ان ما أسعى لأدنى معيشة

كفاني ولم أطلب قليل من المال

لأن قليلاً مرفوع في الرواية ففـصل بـين الفاعـل والمفعول به وكان وجه الكلام الملاصقة ومنهُ قول آخر:

الشمس طالعة ليست بكاسفة

تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

المعنى ليست بكاسفة النجوم والقمر تبكي عليـك وإنما لم تكسف النجوم والقمر لذهاب ضـوئها وخبـو نورها إذ كانت إنما تستر النجوم مذ كانت مضيئة وهذا باب يكثر الاستشهاد عليه من هذا الجـنس وفي بعـضه قناعة أهـ. والوجه الثاني أن يكون إنما نصب فلا يؤمنوا لأنهُ على لفظ جواباً لأمر ولأن لم يكـن في معنـاه لأن العرب تحكم في الإعراب على الشيء بحكم نظـيره في الصيغة وإن كان مخالفاً له في المعنى كما قال الشاعر:

فقلت لحيّـان خذ السيف واشتمل

عليه بحزم وأنظر الشمس تغربِ

فكسر الباء في تغرب للجزم وجعله جواب الأمـر وليس هو في المعنى بجواب في الحقيقة لهُ، وإنمـا تقـديره أنظر الشمس هل تغرب؟ لأنهُ قد ينظر إلى الشمس فـلا تغرب فليس يجوز أن يكون معناه معنى الجـواب وإنمـا جزمه لأنهُ في ظاهر الجواب ونصبه وإن كان مخالفاً لمعناه وحقيقته وكذلك قوله عزّ وجل (أسمع بهم وأبـصر)[22] فجعل هذا في بناء الأمر وهـو لم يـأمرهم أن اسمعـوا وأبصروا وإنما معناه ما أسمعهم وأبصرهم يقال أكرم بزيد وأظرف بعمرو ولهذا صار اللفظ للواحد والجماعـة في التعجب على أمر واحد فكل هذا يدل على صحة تأويلنا واطراده وسقوط ما حاول الخصم الإشـعاب فيـه والله المعين ولله الحمد أهـ[23].

التعليق:

يبدأ الكتاب مناقشته لخصومه في كل آيـة قرآنيـة بقوله (ومما تعلقوا به ليثبت ضعف حجة خصومه كـأنهم كالمتعلقين في الهواء بشيء ما. وعدم رسوخ حجتهم كما يرقى أسلوبه إلى أسلوب الرعيل الأول مـن المفـسرين والمولعين بعلم الكلام مثل كتاب (أمالي السيد المرتـضى ت 436هـ) فكثيراً يرد فيها (يقال لهُ أن المخالف لنا لا يصح لهُ فيه التعلق)[24] ومثل تفسير ابـن جريـر ت 310هـ الذي يبدأ تفسير الآيات بقوله (أختلف أهـل التأويل واختلفت القراءات) وقال أبو جعفر ومثل قوله (وأولى التأويلات عندي في ذلك بالصواب) ومثل تفسير (غرائب القرآن) للحسن بن محمد القمي النيسابوري ق 6هـ الذي يورد القراءات ثم التفسير. وجمع فيه جـل كتب التفسير خاصة الكشاف للزمشخري. ولا يصحح غرائب القرآن بالأمثال والأشعار كما هو شأن الكتاب المخطوط لأنهُ يرى أن القرآن حجة على غـيره ولـيس غيره حجة عليه[25].

ويورد الكتاب كلمات غريبة مثل كلمة (إشـغاب) متهماً خصومه بالمشاغبة بمعنى تهيـيج الـشر والفتنـة والخصام كما في قوله (وسقوط مـا حـاول الخـصم الإشغاب فيه)[26] ومثل قوله (لا يقدر على الأشغاب فيه جاهل) وأنظر إلى أسلوب الكتاب في الجدل ومقارعـة الخصم بالآيات القرآنية مقارناً ومستنداً إليه وقل ما يأتي بحديث نبوي مع أنهُ يكثر من أشعار العرب يقول (وممـا

تعلقوا به منها قوله سبحانه ربنا إنك أتيت فرعون وملئه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا أطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم [27] قالوا فأخبر أنهُ إنما أعطى فرعون وملأه الزينة والأموال ليضلوا عن سبيله لا ليهتدوا وهذا خلاف ما يذهب إليه مخالفونا إذ كانوا يزعمون أن الله سبحانهُ لا يعطي الكافر شيئاً من الأشياء إلا ليهتدي به لا ليضل وليؤمن لا ليكفر. فيقال لهم بأي شيء تدفعون أن تكون الآية محتملة لوجوه ليس فيها ما يوجب قولكم الذي هو من أعظم الفرية على الله سبحانهُ وعلى حكمته. منها أن يكون قوله: (ليضلوا معناه) لئلا يضلوا لأن العرب تحذف لا من الكلام وتريد إثباها أيضاً وتريد حذفها فالموضع الذي تحذف فيه (لا) والمراد إثباها قوله عزّ وجل (يبين الله لكم أن تضلوا) [28] وقوله تعالى (أن يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) [29]. وقوله (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا) [30] معناه أن لا تزولا وأن لا تضلوا وأن لا يقولوا ما جاءنا من بشير. قال امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً

ولو ضربوا رأسي لديك واوصالي.

يعني لا أبرح كما قال الله تعالى (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي) [31]. والموضع الذي أثبتها فيه لفظاً والمعنى حذفها قوله (لا أقسم بهذا البلد) [32]. وقوله (لا أقسم بيوم القيامة) [33] وقوله (لا جرم أن لهم النار) [34]. لأن معنى جرم معنى حق وقد جاء بها الشاعر ولم يجيء معها بلا فقال:

ولقد طعنت ابا عيينة طعنةً

جرمت فزازة بعدها أن يغضبوا.

على أن قوماً من أهل التأويل زعموا أن لا في قوله (لا أقسم ولا جرم) إنما هي نفي لقصة متقدمة.

واستئنافاً لقمه مستقبله فإنها ليست عماداً في اللفظ ولا صلة ولا توكيداً وإنما بمنزلة قوله تعالى (كلا لا وزر) وكلا معناها نفي أن يكون لما ظنوه من الوزر لهم من دون الله تعالى وكذلك قوله (كلا إذا بلغت الحلقوم) كأنهُ أتى بذكر يطمعهم في البقاء والسلامة وغير ذلك [35].

هذه هي الحلقة الأولى من تسليطي الضوء على هذا الكتاب وتناولت فيه تفسير أية واحدة فقط.

25/ رمضان/ 1422هـ

يتبع

الهوامش:

1. يقول الأستاذ الحبشي: أنهُ استقصى في كتابه (معجم الموضوعات المطروقة) كل مؤلفات علم التفسير أنظر الصفحات 8 ومن 301 إلى 317 و 962 و 989 مجلد 2 منشورات المجمع الثقافي/أبو ظبي 1420هـ—2000م.
2. مقاود الإنصاف، تأليف القاضي جعفر احمد اليماني، ص10، دار المعارف العربية، مصر.
3. الآية رقم (68) سورة الزمر. أنظر رسالة عبد الله الحداد لعبد الرحمن أحمد باكثير: المكتبات مجلد 2: 492/491 ط عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر.
4. فهرست مخطوط الجامع الكبير صنعاء، إعداد إدارة المكتبات بدولة الكويت (المقدمة) ص (ز) طبع بإشراف منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر.
5. تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري، د. علي محمد زايد، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية، ط أولى، 1997، ص 11.
6. مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، الصفحات 101، 593. وتاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، د. أيمن فؤاد سيد.
7. الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، ص 870 – 873.
8. مجلة الإكليل، العدد 24، 2001م، والعدد 25، 2001م، صنعاء.
9. وهو أستاذ الأشعري توفي عام 916م وهو غير أبي هاشم بن علي الذي نسبت إليه فرقة (الجبائية) من المعتزلة، أنظر المنجد في الأعلام، طك ص130.
10. مجموعة الرسائل المنيرة (الرسالة الثالثة عشر) استخراج الجدول من القران، لعبد الرحمن بن الحنبلي، المتوفى 634هـ، ص 40.
11. تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (معاصر)، جـ1: 100.
12. سيرة الإمام عبد الله بن حمزه، تأليف أبو فراس بن غنم، تحقيق عبد الغني محمود عبد العاطي، مجلدان، دار الفكر المعاصر، بيروت، جـ 2: 824، 825. وكتاب المجموع تأليف الإمام عبد الله بن حمزه، أنظر كتاب "عرض حياة وآثار الإمام عبد الله بن حمزة"، تأليف عبد الله بن حمود العزي، مؤسسة الإمام زيد، ط أولى، 2001م، ص 25 و 48.

13. عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الملقب (سلطان العلماء) المتوفى عام 660هـ، والفضل بن الحسن الطبرسي من علماء القرن السادس الهجري:
المطرفية: فرقة زيدية فجرت مواقف مذهبية جريئة وليست بحاجة إلى تعريف لكثرة ما كتب عنها الباحثون من عرب وأجانب، وأهدف من تسليطي الأضواء على هذا الكتاب مواجهة تيارين أثارا قضية المطرفية من جديد، وتاريخا غامض وبدايتها قبل في القرن الرابع الهجري وقبل أواسط القرن الخامس الهجري.
الأول: العلماء المعاصرون المؤيدون للإمام عبد الله بن حمزة أباد المطرفية مثل العلامة المجتهد: بدر الدين الحوثي، في كتابه "المطرفية"، مركز العدل والتوحيد، صعدة، ط 1، عام 2001م، والعلامة: عبد الله حمود العزي، في كتابه "عرض لحياة وآثار الإمام عبد الله بن حمزة"، ط 1، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، الأردن.
الثاني: مؤرخون معاصرون متعاطفون مع المطرفية مثل (محمد علي الأكوع) الذي قال عن إمامهم بن حمزة (أنه قتل أمما من الفرقة الزيدية المطرفية ظلما وتعسفا) أنظر السلوك للجندي، جـ 1: 384، ومجلة المسار اليسارية، العدد الأول، شتاء عام 1420هـ، ص 23.
14. الآية رقم (24) سورة نوح.
15. الآية رقم (36) سورة هود.
16. فوائد في مشكل القران، تأليف العز ابن عبد السلام، دار الشروق، ص 136 و 275.
17. الآية رقم (110) سورة الأنعام.
18. الآية رقم (10) سورة المنافقون.
19. الآية رقم (125) سورة الأنعام.
20. الآية رقم (52) سورة الأنعام.
21. الآية رقم (1) سورة الفجر.
22. الآية رقم (38) سورة مريم.
23. الكتاب المخطوط لفرقة المطرفية موضوع البحث، الصفحات 38، 39، 40، 41.
24. أمالي المرتضى، جـ4: 71–100، كشف الظنون، 2: 148.
25. تاج العروس، 3: 147–150.
26. الكتاب المخطوط، ص41.
27. الكتاب المخطوط، ص37، 38.
28. النساء، 176.
29. المائدة، 19.
30. فاطر، 24.
31. يوسف، 80.
32. البلد، 1.
33. القيامة، 1.
34. النمل، 16.
35. الكتاب المخطوط، ص39.

في مواقيت قرانات القمر للثريا

أ. يحي بن يحي العنسي

خصصت هذا الموضوع لتوضيح أشهر القرانات، وفي الواقع فإن القرانات تختلف في مواقيتها من سنة لأخرى بالتقويم الشمسي فتطرقت إلى حسابها بطريقة علمية محسوبة لم يسبق وأن تطرق إليه من سبقوني في هذا الفن.

وحساب الشهور القرانية لا يوجد حساب مثله في البلدان الأخرى ومن اقدم الزمان انتشرت معرفة هذا الحساب لأهمية نجم الثريا عند الزراع بالرغم أن التقويم القمري لا يتوافق ولا يدوم خاصة وأن أوقات الفصول ثابتة ومرتبطة بالبروج.

فأوقات الزراعة والحصاد تـرتبط ارتباطـا وثيقـا بالشهور الشمسية وفصول السنة، لأن لكل نـوع مـن المحاصيل فصل إنبات وإثمار.

ونظراً لأهمية أشهر القرانات في المواسم الزراعية رغم أنها تزيد وتنقص في أيام السنين وتعود نظرا لدقة حسابها واختلاف مواعيدها، وهنا لابد ممن ذكر..

الفرق بين السنة الشمسية والقمرية:

فالسنة الشمسية 365 يوما و (5) ساعات و (48) دقيقة و (46) ثانية .

والسنة القمرية 354 وما و (8) ساعات و (48) دقيقة و (34) ثانية.

فيكون الفرق في السنة الأولى (10) أيام (21) ساعة، و (12) ثانية، والقاعدة الفلكية أن تجبر الساعات بيوم ويضم اليوم إلى العشر الأيام ليصير الفرق (11) يومـا في كل سنة وهو نقص السنة (القمرية) الهجرية عـن السنة (الشمسية) الميلادية.

وإذا طرحنا السنة القمرية من السنة الشمسية مع إهمال الكسر من ساعات ودقائق يكون باقي الطرح (أحد عشر يوماً).

وعند الزراع علم في نقص أيام السنة القمرية عـن السنة الشمسية من خلال هذا المثل:

يا غبي من الزمن أخّرْ ثلاث وثمان

غبي: أي مَنْ يجهل مواقيت الزراعة، أخّـر: يقـصـد تأخير أيام من الشهر القمري (ثلاثة أيام زايد ثمانية أيـام) ليكون الحاصل (أحد عشر يوما). والمعنى: إذا كنت تجهل مواعيد الزراعة بالأشهر القمرية فأخر أحد عشر يوما عن موعد بذر الثمار في السنة الماضية، وعلى سبيل المثال إذا تم البذر للزرع في (9) صفر سنة 1422 هجرية الموافـق (2) مايو 2001 ميلادية، فبعد مضي هذه السنة يتأخر البـذر أحد عشر يوما من شهر صفر ويكون يوم (20) منة لسنة 1423 هجرية ليكون موافقا للتاريخ الشمسي (2) مـايو سنة 2002 ميلادية هذا ونقص السنة القمرية عن الشمسية بـ(11) يوماً كما سبق. ولو حسبنا سنة أخرى فيكـون في آخر السنة الثانية (22) يوماً وإذا أضفنا سنة ثالثة يكون في أخرها (33) يوماً وهو أكبر من شهر وهكذا في جميـع السنين، وفترة السنة الهجرية كما سبق جاءت من مجموع (12) دورة أو شهراً للقمر حول الأرض.

أدوار الشهر القمري هي:

1- الشهر القمري الهجري (الحقيقي): هو المبني على سير القمر الحقيقي من اجتماع الشمس والقمر والفتـرة الزمنية مقدارها (29) يوماً و (12) ساعة و (44) دقيقة و (3) ثوان.

2- الشهر القمري الاصطلاحي: وهو ما اصـطلح علماء الفلك الشهور العربية الشهر الأول منه (30) يوماً والشهر الثاني (29) يوماً والابتداء بشهر محرم (30) يومـاً وصفر (29) يوماً وهكذا إلى آخر السنة

3- أما الشهر الشرعي: فأوله من رؤية الهلال بعـد غروب الشمس إلى رؤيته، وهـو قـد يوافـق الـشهر الاصطلاحي وقد يخالفه..

4- الشهر القمري النجمي أو(القرني): هي المدة التي ينتقل القمر بدءاً من نجم الثريا ثم يعود مرة أخرى إلى نجم الثريا نفسها ومقدارها (27) يوماً و (7) سـاعات و (43) دقيقة (11.5) ثانية، أو (27) يوماً وثلث اليوم.

وهو المعتبر عند المزارعين بأشهر قرانات القمر للثريا، لهذا فقد تابعت مواعيد الأشهر القرانية لسنوات لغـرض تمكين القياس في ثبات الأشهر بالتاريخ الميلادي فوجـدت أن سنة 1410هـ الموافق سنة 1990م هي السنة التي توافق القياس من ابتداء دورة القمر الصغرى ومدته ثلاثون سنة، وتنطبق على الأشعار والأمثال في أوقات حساب المزارعين في مواسم السنة الزراعية لمتوسط معدل كل شهر قراني من الزيادة والنقص لأنها تختلف من سنة لأخرى ويعود كـل شهر قراني إلى مثله بالتاريخ الميلادي كل ثلاث سـنوات وبعدها يعود القران على سنتين ثم ثلاث وقد يكرر ثلاثـا أخرى وهكذا وبفاصل من يوم إلى خمسة أيام وقد لا يقـع فاصل ولا يحيد عن هذا المعـدل ولـو تـدور الـسنون والشهور.

وفكرة حساب قران القمر للثريا في المواسم الزراعية عند المزارعين هو مقارنة القمر الثريا في ليلة فردية من كل شهر قمري. حتى مقارنتها مرة ثانية لشهر كامل.

وقد أخذت من كل شهر قمري وجه لسنة 1410هـ على اعتبار أنها المقاس المحدد لمتوسط معدل كـل شـهر قراني، وعدد القرانات التي وردت في الأشعار والأمثـال للمزارعين حسب الجدول التالي:

جدول متوسط معدل كل شهر قران القمـر للثريـا وأيامه (جدول رقم 1):

عدد القرانات	أسماء الأشهر القرانية	أيام كل قران	تاريخ الموافقة بالميلادية		تاريخ الموافقة بالرومي		ما يخص قرانات الفصول
			من	إلى	من	إلى	
1	21	28	23 أغسطس	19سبتمبر	10 آب	6 أيلول	فصل الخريف
2	19	27	20 سبتمبر	16 أكتوبر	7 أيلول	3 تشرين أول	فصل الخريف
3	17	28	17 أكتوبر	13 نوفمبر	4 تشرين أول	31 تشرين أول	فصل الشتاء
4	15	27	14 نوفمبر	10 ديسمبر	1 تشرين ثاني	27 تشرين ثاني	فصل الشتاء
5	13	28	11 ديسمبر	7 يناير	28تشرين ثاني	25 كانون أول	فصل الشتاء
6	11	27	8 يناير	3 فبراير	26 كانون أول	21 كانون ثاني	فصل الشتاء
7	التسع	28	4 فبراير	3 مارس	22 كانون ثاني	18 شباط	فصل الصيف
8	السبع	27	4 مارس	30 مارس	19 شباط	17 آذار	فصل الصيف
9	الخمس	28	31 مارس	27 إبريل	18 آذار	14 نيسان	فصل الصيف
10	الثلاث	27	28 إبريل	24 مايو	15 نيسان	11 أيار	فصل الصيف
11	الشهر الأول من الحجر		شهر يونيو		حزيران		تحسب من الخريف
12	الشهر الثاني من الحجر		شهر يوليو		تموز		تحسب من الخريف

بعد توضيح أيام كل قران نأتي إلى فرد شهر قران (11) ونضع تقويما لحساب (33) سنة تامة نوضح فيه إثبات دليل تراجع الأشهر القمرية على عكس الأشهر القرانية فلا تتراجع ولكن ينتقل القران من الشهر المتراجع إلى الشهر الذي يليه بعد مضي سنتين أو ثلاث سنوات اشهر قرانية.

واليكم جدول قرانات القمر للثريا لشهر (11) وموافقتها ميلادي لمدة (33) سنة (جدول رقم 2):

م	السنة الهجرية	الشهر العربي	أيام القرانات	الموافق باليوم الميلادي	الشهر الميلادي	السنة الميلادية	ملاحظات
1	1410	جماد ثاني	11	8	يناير	1990	متوسط معدل قران (11)
2	1411	جماد ثاني	11	28	ديسمبر	1990	
3	1412	رجب	11	15	يناير	1992	
4	1413	رجب	11	4	يناير	1993	
5	1414	شعبان	11	23	يناير	1994	
6	1415	شعبان	11	12	يناير	1995	يعاد القران إلى المعدل بفارق 4 أيام
7	1416	شعبان	11	2	يناير	1996	
8	1417	رمضان	11	19	يناير	1997	
9	1418	رمضان	11	9	يناير	1998	عاد القران إلى المعدل بفارق يوم
10	1419	رمضان	11	29	ديسمبر	1998	
11	1420	شوال	11	17	يناير	2000	
12	1421	شوال	11	6	يناير	2001	عاد القران بفارق يومين
13	1422	شوال	11	26	ديسمبر	2001	

بعد أن عرفنا متوسط معدل قران (11) في الجـــدول السابق ننظر:

1- مدخل سنة 1410 (11) جماد ثاني هي متوسط معدل القران ويشير السهم إلى (8) ينـــاير 1990م وهـــو الثابت في القياس..

ثم ننظر مدخل سنة 1411(11) جماد ثاني نجد القـــران تأخر عن المعدل (8) يناير وكان يوم 28 ديسمبر 1990م.

ثم ننظر سنة 1412(11) رجب نجد القران تقدم عـــن المعدل وكان في (15) يناير 1992م.

ثم ننظر سنة 1413(11) رجب نجد القران عـــاد إلى المعدل وكان في (4) يناير 1993م وبفارق (4) أيام، وهنـــا تلاحظ تراجع الأشهر العربية من جماد ثاني سنة 1410هـــ وسنة 1411هـــ إلى شهر رجب سنة 1412هـــ وســـنة 1413هـــ بينما قران (11) لم يتراجع بل ينتقل من شـــهر جماد ثاني إلى شهر رجب بعد مضي سنتين وبعـــد رجـــب ينتقل قران (11) إلى شهر شعبان ويستمر ثلاث سنوات ثم ينتقل القران إلى رمضان وهكذا.

والقرانات التي عادت إلى متوسط معدل تاريخه هـــي المؤشر عليها (بالتظليل) لشهر قران (11).

تابع جدول قرانـــات القمـــر للثريـــا لـــشهر (11) وموافقتها ميلادي لمدة (33) سنة:

م	السنة الهجرية	الشهر العربي	أيام القرانات	الموافق باليوم الميلادي	الشهر الميلادي	السنة الميلادية	ملاحظات
14	1423	القعدة	11	13	يناير	2003	
15	1424	القعدة	11	3	يناير	2004	
16	1425	الحجة	11	21	يناير	2005	
17	1426	الحجة	11	11	يناير	2006	
18	1427	الحجة	11	31	ديسمبر	2006	
19	1428						
20	1429	محرم	11	19	يناير	2008	
21	1430	محرم	11	7	يناير	2009	
22	1431	محرم	11	27	ديسمبر	2009	
23	1432	صفر	11	16	يناير	2011	
24	1433	صفر	11	5	يناير	2012	
25	1434	ربيع أول	11	22	يناير	2013	
26	1435	ربيع أول	11	12	يناير	2014	
27	1436	ربيع أول	11	1	يناير	2015	
28	1437	ربيع ثاني	11	21	يناير	2016	
29	1438	ربيع ثاني	11	9	يناير	2017	
30	1439	ربيع ثاني	11	29	ديسمبر	2017	
31	1440	جماد أول	11	17	يناير	2019	
32	1441	جماد أول	11	6	يناير	2020	
33	1442	جماد أول	11	25	ديسمبر	2020	
34	1443	جماد ثاني	11	14	يناير	2022	

ونلاحظ تراجع الأشهر من (11 جماد ثاني سنة 1410هـ) الموافق (8 يناير سنة 1990م) حتى عادت الأشهر مثلما بدأنا (11 جماد ثاني سنة 1443هـ) الموافق (14 يناير سنة 2022م).

والتراجع يسمى بدورة عودة الحول بالسنين القمرية على مدى (33) سنة تامة كما هو الحال بين سنة 1443 ناقص 1410 يبقى (33) سنة وتعادل (32) سنة شمسية وستة أيام.

تأمل آخر الدور كان في (2022/1/14) وبدء الدور كان في (1990/1/8) فإذا طرحنا الأيام (14-8) يبقى ستة أيام، والسنين (2022-1990) سنة شمسية.

وهذا الفرق بين الشمسي والقمري هو الذي جعل رأس السنة القمرية غير ثابت في وقت معين من السنة الشمسية بل هو دائر في أيامها وندرك بدورة الحول في المدة المذكورة نصوم خلالها في (الربيع والصيف والخريف والشتاء). كما يدرك به الزراع عند البذار والحصاد.

2- القرانات التي عادت لشهر (11) هي المؤشر عليها (بالتظليل) كما سبق أي أن جميع القرارات السابقة لشهر (11) مثل شهر قران(21-19-17-15-13) وكذا اللاحقة مثل شهر (السبع-والخمس والثلاث) تعود لمتوسط معدل كل شهر قراني.

بينما جميع القرانات التي تأخرت أو تقدمت لشهر (11-9) تسري على جميع القرانات السابقة الذكر. وعلى هذا فقس.

والقرانات تكون بالمشاهدة لقران القمر مع الثريا بعد صلاة العشاء حتى قبل منتصف الليل، وقد تكون بعد منتصف الليل أو حتى وقت الفجر، أو في نهار اليوم الثاني وما على المرء إلا متابعة قران (11-9) للسنوات المذكورة في المستقبل.

جدول قرانات القمر للثريا لشهر (التسع) وموافقتها ميلادي لمدة (33) سنة (جدول رقم 3):

م	السنة الهجرية	الشهر العربي	أيام القرانات	الموافق باليوم الميلادي	الشهر الميلادي	السنة الميلادية	ملاحظات
1	1410	رجب	9	4	فبراير	1990	متوسط معدل قران (التسع) تأخر القران عن المعدل تقدم القران عن المعدل عاد القران بفارق 3 أيام
2	1411	رجب	9	24	يناير	1991	
3	1412	شعبان	9	12	فبراير	1992	
4	1413	شعبان	9	1	فبراير	1993	
5	1414	رمضان	9	19	فبراير	1994	
6	1415	رمضان	9	8	فبراير	1995	
7	1416	رمضان	9	29	يناير	1996	
8	1417	شوال	9	16	فبراير	1997	
9	1418	شوال	9	6	فبراير	1998	
10	1419	شوال	9	26	يناير	1999	
11	1420	القعدة	9	13	فبراير	2000	
12	1421	القعدة	9	2	فبراير	2001	
13	1422	القعدة	9	22	يناير	2002	
14	1423	الحجة	9	10	فبراير	2003	
15	1424	الحجة	9	31	يناير	2004	
16	1425						
17	1426	محرم	9	18	فبراير	2005	
18	1427	محرم	9	6	فبراير	2006	
19	1428	محرم	9	27	يناير	2007	

من أقوال الحكيم الزراعي الفلكي علي بن زايـــد في ميقات حلول شهر التسع أو عدم حلوله فمن أقواله:

التسع لا زَنّ دفا وإلا فهو من حد عشر

ونص آخر: *التسع لا ثار دفا وإلا فهي من حد عشر*

شهر التسع معدله من (4 فبراير إلى 3 مارس) وشـــهر (11) معدله من (8 يناير إلى 3 فبراير).

زنَّ من الزَّنينة وهو الرَّذاذ. دفا: من الدفء.

فعلي بن زايد يعرف اختلاف الأشهر القرانية بـــدليل قوله، فإذا أمطرت السماء أو ثارت الســـحب ورافقهـــا دفء فإن الجو يعتدل. ويميل إلى الدفء وهو بداية انكسار شدة البرد والسنين التي تنطبق على حلول شهر التسع هي سنة 1410 وسنة 1412هـ لأن القران متقدم وسنة 1413 وسنة 1414هـ لأن القران متقدم.

تابع جدول قرانات القمر للثريا لـــشهر (التـــسع) وموافقتها ميلادي لمدة (33) سنة:

م	السنة الهجرية	الشهر لعربي	أيام القرانات	الموافق باليوم الميلادي ←	الشهر الميلادي	السنة الميلادية	
20	1429	صفر	9	16	فبراير	2008	
21	1430	صفر	9	4	فبراير	2009	
22	1431	صفر	9	24	يناير	2010	
23	1432	ربيع أول	9	12	فبراير	2011	
24	1433	ربيع أول	9	1	فبراير	2012	
25	1434	ربيع أول	9	19	فبراير	2013	
26	1435	ربيع ثاني	9	9	فبراير	2014	
27	1436	ربيع ثاني	9	29	يناير	2015	
28	1437	جماد أول	9	13	فبراير	2016	
29	1438	جماد أول	9	5	فبراير	2017	
30	1439	جماد أول	9	25	يناير	2018	
31	1440	جماد ثاني	9	14	فبراير	2019	
32	1441	جماد ثاني	9	3	فبراير	2020	
33	1442	جماد ثاني	9	22	يناير	2021	
34	1443	رجب	9	10	فبراير	2022	
35	1444	رجب	9	30	يناير	2023	

وتلاحظ ما يوافق القران بالتاريخ الميلادي لأن منزلة سعد السعود تبدأ من (8 فبراير) وفيه مثل:

سعد السعود يدفي كل مبرود، وينبت كل عود

وإذا لم تمطر السماء ولم تثر السحب ولم يحـــس المـــرء بتغير الجو نحو الدفء فإن الجو يكون بارداً كالشهر الذي قبله (11) أي انه يضع الدليل على بقاء الشتاء.

والسنون التي تنطبق هي سنة 1411هـ لأن القـــران متأخر عن المعدل وسنة 1416. وسنة 1419، وسنة 1422، 1428، 1431، 1436، 1439، 1442، 1444هـ وعلى هذا فقس باقي السنوات على حلول شهر التسع وبدايـــة انكسار شدة البارد.

كيفية حساب اشهر القرانات:

وتطبيقياً لما ذكرته في أشهر القرانات أبداً في حساب قران(17) ســـبعة عشر أي قران القمر مع الثريـــا ليلـــة

السابع عشر (بعد الهلال) من الشهر القمري وبعد مضي (27) يوماً وثلث اليوم يقترن القمر بالثريا اليوم الخامس عشر بعد الهلال أي قران (15) بنقص يومين ونختصر عملية باقي القرانات بطرح يومين من كل قران..

فقران (17) بطرح منه يومين يكون قران (15)

ومن قران (15) بطرح يومين يكون قران (13)

ومن قران (13) بطرح يومين يكون قران (11)

ومن قران (11) بطرح يومين يكون قران (التسع)

ومن قران (التسع) بطرح يومين يكون قران (السبع)

ومن قران (السبع) بطرح يومين يكون قران (الخمس).

ومن قران (الخمس) بطرح يومين يكون قران (الثلاث).

فإذا أردت أن تعرف اليوم الذي تقارن فيه القمر الثريا وقت المقارنة. فما على المرء إلا أن يعرف يوم القران ووقت ساعة المقارنة ويزيد عليه (27) يوماً وثلث اليوم، فما بلغ اسقط منه أيام الشهر الأول كاملاً الذي اعتبرت فيه القران وما تبقي من أيام هو قران الشهر الثاني الذي اعتبرته.

مثال لذلك قران السبع:

قارنت القمر الثريا ليلة (7) من شعبان لسنة 1410هـ بعد المغرب نضيف (27⅓) يوماً وثلث اليوم على (7) أيام حاصل الجمع هكذا..

$27\frac{1}{3} + 7 = 34\frac{1}{3}$ أربعة وثلاثون يوما وثلث اليوم يسقط منه أيام شهر شعبان كاملا (29) يوماً يبقي خمسة أيام وثلث اليوم وهو قران القمر الثريا ليلة (خمسة) من شهر رمضان الساعة الثانية بعد منتصف الليل وعلى هذا تقاس بقية الأشهر.

ملخص بحث:

(نشأة مدينة زبيد في اليمن دراسة تاريخية)

أ. د / محمد عبده السروري

تعتبر مدينة زبيد غرة مدن تهامة أطلق عليها أم قرى اليمن وهي من أقدم مدن تهامة التي أسست في الفترة الإسلامية المبكرة.

وقد أدت مدينة زبيد في تاريخ اليمن خاصة وتاريخ تهامة عامة دوراً بارزاً، سوء كان ذلك من الناحية الإدارية أو السياسية أو من الناحية العلمية والاقتصادية والإجتماعية، وذلك نظراً لان مدينة زبيد أصبحت مستقر ملوك اليمن وموردا مهماً للعلماء والأدباء حيث ظلت مدينة زبيد أحدى قلاع اليمن العلمية لفترة طويلة من تاريخ اليمن، وهي بذلك تشكل أحدى مدن اليمن التاريخية الهامة والجديرة بالاهتمام والتحدث عنها.

يرتكز بحث نشأة مدينة زبيد في اليمن دراسة تاريخية على ثلاثة محاور أساسية هي المسميات، التخطيط، النشاطات، ملخصها الآتي:

المسميات:

في المسميات بدأ اسم زبيد كوادي ثم قرية ثم مخلاف ثم كورة ثم قصبة ثم مصر، فإذا رسمنا خارطة لنشأة مدينة زبيد فإنها لن تظهر من أول وهلة كمدينة متكاملة. كما هو الشأن لنشأة المدن الإسلامية كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وغيرها وذلك نظراً لان نشأة هذه المدن في البداية كمعسكرات للفاتحين المسلمين أما بالنسبة لمدينة زبيد فقد جاءت نشأتها متدرجة من حالة إلى حال إلى أن أصبحت مدينة إدارية.

وعلى الرغم من الاختلاف حول اسم زبيد هل هو اسم لقبيلة أو لناقة أو لامرأة أو لملك من ملوك حمير أو أنه صفة لمدينة زبيد لأنها زبدة أرض تهامة إلا أنه من المرجح أن اسم زبيد جاء من وادي زبيد نفسه. وفي البداية ظهر اسم زبيد وهو اسم قديم كدلالة لوادي زبيد الممتد من الجبال حتى البحر بطول يقدر بحوالي ستين كم.

ويتصف هذا الوادي بالخصب والمياه الجارية معظم السنة وإلى جانب اشتهار وادي زبيد بهذا الاسم فإنه

أحياناً يطلق عليه مسمى آخر هو وادي الحُصيب، الذي سرعان ما اندثر فيها بعد. ثم ظهر مسمى زبيد للدلالة على اسم قرية وادي زبيد وهي القرية التي نشأت في منتصف الوادي.

وفي البداية كان يطلق عليها اسم قرية الحُصيب ثم أطلق عليها قرية زبيد نسبة إلى الوادي، لغلبة اسم وادي زبيد على أسم الحُصيب.

أي أنه ظل أسم الحُصيب وزبيد يترافقان في التسمية على الوادي والقرية حتى غلب مسمى زبيد على الوادي ثم على القرية التي نشأت في منتصفه.

فبعد أن سميت زبيد كوادي وكقرية تطورت التسمية فاصبح يطلق على زبيد مخلاف زبيد، وهي تسمية قديمة للوحدات الإدارية اختصت بها اليمن، وظلت إلى بداية القرون الإسلامية الأولى.

ولما كانت قرية زبيد مركز المخلاف والوادي فقد أصبحت محطة يتوقف بها الحجاج والتجار للاستراحة من سفرهم منذ بداية الإسلام. وذلك نظراً لموقع زبيد على طريق تهامة الوسطى الموصلة من أطراف اليمن إلى مكة.

ولما تأثرت اليمن بمسميات الأقاليم الإدارية للعالم الإسلامي أطلق على زبيد في بعض الأحيان أسم كورة زبيد، ثم اتسع نطاق التسمية فأطلق على زبيد قصبة تهامة كما أطلق عليها قصبة اليمن الأسفل باعتبارها مركزاً رئيسياً أو عاصمة لمناطق اليمن المنخفضة. وعندما ظهرت في تهامة دويلات مستقلة عاصمتها مدينة زبيد أصبحت زبيد مستقر ملوك اليمن فأطلق عليها مصر.

التخطيط:

يشمل التخطيط سبب بناء مدينة زبيد وسورها وأبراجها وأبوابها وبناء دور للإمارة والحكام ومساجد وأسواق وغيره.

وبذلك ترجع نشأة مدينة زبيد كمدينة إلى ترابط عدة عوامل منها أهمية الموقع الطبيعي والعامل الإداري والسياسي والعسكري ثم العامل الاقتصادي والعلمي، وعلى ذلك فإن شروط بناء مدينة زبيد يتفق مع اختيار المدن الإسلامية في أنحاء العالم الإسلامي، والمتمثل بأهمية موقع مدينة زبيد من حيث خصوبة أرضها وتوفر المياه والمرعى والاحتطاب وطيب الهواء الملائم للسكن وغيره.

بدء نشأة مدينة زبيد كمدينة إدارية ثم سياسية حسب ما تذكره المصادر منذ خلافتي الأمين والمأمون من قبل قوم من الأشاعر أو محمد بن زياد. وكان سبب اختيار مدينة زبيد في ذلك الموقع المتوسط من وادي زبيد بناءً على أمر من الخليفة المأمون العباسي وباجتهاد من محمد بن زياد وبسبب أهمية موقع زبيد.

كانت أرض مدينة زبيد عبارة عن قرية بها دور وحولها خبت مليئ بأشجار الأراك وعقدة الطرفاء فعمل مؤسس هذه المدينة على إزالة تلك الأشجار والعقدة والبناء مكانها مدينة زبيد.

وفي بداية تخطيط المدينة كان نشأتها مدينة غير مسورة، وكان الهدف من بنائها أن تكون مدينة إدارية لعمال الخلافة العباسية، ثم اتسع نطاق السكن بها فاصبحت مدينة عسكرية وسياسية، ولما تعرضت مدينة زبيد لغزو علي بن الفضل أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجريين بدأ التفكير في تسوير مدينة زبيد.

وبذلك ظهر لمدينة زبيد سور له أكثر من مائة برج وكان الهدف من هذه الأبراج حماية السور من أي هجوم عسكري على مدينة زبيد، كما وضع لهذا السور أربعة أبواب كل باب ينفذ إلى جهة من الجهات الأصلية (المشرق والمغرب والجنوب والشمال).

وكان بناء مدينة زبيد على شكل دائري وهي بذلك تشبه بناء مدينة بغداد وقد تدرج حجم مدينة زبيد من الصفر إلى أن اصبح حجمها أكبر مدينة في اليمن، حيث بلغت مساحتها (945 معاداً) في بداية القرن السابع الهجري. إلا أن هذه المساحة تناقصت منها الثلث حيث بلغت مساحتها فيما بعد القرن الثامن الهجري حوالي (636 معاداً).

ومن أهم المعالم الإسلامية لتخطيط مدينة زبيد وجود دور للإمارة ودور للحكام ومساجد وأسواق.

فبالنسبة لدور الإمارة التي بنتها الحكومات المتعاقبة على تولي السلطة في مدينة زبيد، فقد سميت بدار الملك أو الدار السلطانية أو قصر الإمارة، كذلك اهتم كل حاكم يتولى أمر الحكم في زبيد غفي بناء دور له وشملت عملية بناء الدور للأمراء والوزراء والكتاب وكبار القادة وغيرهم، كذلك اهتم الحكام والتجار والعلماء في بناء المساجد في مدينة زبيد، وكان أول مسجد بني بها هو مسجد الأشاعر نسبة إلى أبي موسى الأشعري الذي تولى تهامة ومأرب في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

ويأتي من أهم مساجد مدينة زبيد بعد الأشاعر الجامع الكبير واستمر الحكام في تجديد هذين المسجدين وغيرهما من المساجد في زمن كل دولة تعاقبت الحكم على مدينة زبيد.

وبالنسبة لبناء المواطنين مساكنهم في مدينة زبيد فقد ظل الكثير من الناس يتوافدون للسكن في المدينة فبنوا بها العديد من الدور والمساكن، وبها وصفت المدينة بأنها بلد جليل حسنة البناء مباركة على من يسكنها، كما وصفت منازلها بأنها فسيحة وطية.

النشاطات:

تشمل النشاطات، النشاط التجاري، النشاط العلمي، النشاط السياسي.

وهي موضوعات طويلة لم يسرد البحث تفصيلات لها وإنما أعطى عنها نبذة قصيرة جداً.

من ذلك أن مدينة زبيد اشتهرت بالنشاط التجاري وكثر بها التجار من كل البلدان، كما اشتهرت بها أنواع المزروعات وأنواع المصنوعات مثل صناعة الملابس الحريرية والقطنية والملابس الأخرى، فأدى ذلك إلى أن تكون مدينة زبيد موئلا لكبار التجار من أنحاء العالم الإسلامي.

كذلك اشتهرت مدينة زبيد بالنشاط العلمي حتى أنها وصفت بأنها (محط رجال العلم والعلماء في كل فن) وانتشرت بها المدارس المتعددة. ووصفت كذلك بأنها (بلاد العلم والعلماء والفقه والفقهاء والدين والصلاح والخير والفلاح)، أي أنها (أكبر مدينة في اليمن ظهر فيها العلم والعلماء).

واشتهرت كذلك مدينة زبيد بالنشاط السياسي حيث ظهر بها عدة دويلات مثل دولة بني زياد، ودولة بني نجاح، ودولة بني مهدي، ثم الدولة الأيوبية، ودولة بني رسول. ومن هذه الدول من حكمت تهامة وحدها ومنها من حكمت معظم اليمن، وكانت حينها زبيد عاصمة للكثير من هذه الدويلات.

نأمل أن يكون هذا ملخص لبحث نشأة مدينة زبيد قد أعطى صورة توضح نشأة هذه المدينة كمدينة إسلامية لها أهميتها التاريخية والسياسية والعلمية والاقتصادية والإجتماعية عبر عدة عصور.

زبيد مدينة العلم
(والقول الفصل في تاريخ ظهورها)

بقلم القاضي اسماعيل بن علي الأكوع

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين.
لمدينة زبيد التهامية[1] اليمانية شهرة واسعة في العالم الإسلامي حتى بلغ من شهرتها أنه لا يأتي لليمن ذكر في بعض المراجع التاريخية غير اليمانية إلا من خلال ذكر مدينة زبيد، تلك المدينة التي لم تطاولها في علو منزلتها العلمية مدينة أخرى من مدن اليمن الشهيرة حتى عاصمة اليمن صنعاء.

ذلك لأنها كانت منذ صدر الإسلام تقريباً وعلى مدى قرون خلت من تاريخ اليمن الإسلامي وإلى عهد قريب أدركناه مهوى أفئدة كثير من العلماء وطلاب العلم الوافدين إليها من جبال اليمن وسهولها ومخاليفها الجنوبية، وكذلك من خارج اليمن ولا سيما من القارة الهندية (الهند حالياً، باكستان، بنغلاديش) ومن شرق أفريقيا وغيرها لينهلوا من معين معارف علماء زبيد، وليساهم من يفد إلى اليمن من العلماء بإعطاء ما عندهم من علم للراغبين من طلبة العلم فيها في الاستفادة من معارفهم المتنوعة حتى صارت زبيد كالبوتقة تنصهر فيها ثقافات ومعارف متعددة أفرزت علوما جديدة لم تكن معروفة في اليمن من قبل، وبخاصة في عصر الدولة الرسولية (626-858هـ/1229-1454م) الذي يعد أخصب عصور اليمن ازدهارا بالمعارف المتنوعة وأغزرها إنتاجاً بالمؤلفات الفريدة الغريبة بعد أن كثرت المدارس وأربطة العلم في مدينتي زبيد وتعز وغيرهما، ووقف عليها أصحابها من الأموال ما يفي بحاجات شيوخ العلم وطلابه الغرباء من مؤونة الحياة المعيشية، وذلك ليتفرغوا لنشر العلم والاستزادة منه.

وهذا هو ما أشار إلية عالم زبيد ومؤرخها عبد الرحمن بن علي الديبع المتوفى بزبيد سنة 944هـ فقد وصف لنا أحوال مدينة زبيد في كتابه "بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد بقوله: وهي بلاد العلم والعلماء والفقه والفقهاء والدين والصلاح والخير والفلاح،ولا يعلم مدينة من مدائن اليمن المعمورات ومساكنها المشهورات ظهر فيها ما ظهر في مدينة زبيد من العلم والعلماء والأثبات. هذا مع قلة كفاية أهلها وأرزاقهم الدقيقة، فهم أهل السعادة في الدارين حقيقة، وهي أم قرى اليمن، ومحط رحال العلماء في كل فن".

لذلك فقد كانت زبيد ملتقى كثير من العلماء، وصار من المتعذر حصر من وفد إليها من العلماء من خارج اليمن، ومن يطالع تاريخ هذه المدينة الخاص بها والمتفرق في بطون تواريخ اليمن وغيرها من كتب التواريخ العربية وطبقات العلماء يجد أسماء لامعة من علماء المسلمين المشهورين قد جاءوا إليها زائرين أو نزلاء بها للإفادة والاستفادة.

ومن أوائل من قدم إليها زائرا من كبار علماء المسلمين، فيما أعرف، الإمام اللغوي أبو الفضائل الحسن بن محمد الصغاني المتوفى ببغداد 650هـ فقد درّس في بعض مدارس اليمن وأقام في زبيد فأفاد واستفاد،وأجاز وأجيز حتى رحل عن اليمن.

ومن العلماء الذين وفدوا إلى اليمن واستجابوا لطلب البقاء فيها الإمام اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي المتوفى بزبيد سنة 817هـ، فإنه منذ وطئت قدماه مدينة عدن في شهر ربيع الأول سنة 796هـ، ولقي من التكريم والإنعام من السلطان الملك الأشرف إسماعيل بن الملك الأفضل العباس ما جعله يستجيب لرغبته في البقاء في زبيد، فولاه قضاء الأقضية في اليمن في اليوم السادس من ذي الحجة سنة 797هـ، وتزوج الأشرف أبنته ليشد وثاقه إلى اليمن حتى لا ينفك عنها، وتصدّر للتدريس فأقبل عليه طلاب العلم ينهلون من معارفه الكثيرة، وكان الملك الأشرف نفسه قد سمع عليه في زبيد صحيح الإمام البخاري في شهر رمضان سنة 798هـ، ولم يمنع اشتغال مجد الدين بالتدريس وأعمال القضاء الأكبر عن التأليف فقد أنجز كتابه الشهير (القاموس المحيط) في اللغة، وأهداه في مقدمته إلى الملك الأشرف اعترافا بأياديه البيضاء عليه. وخلال بقاء المجد الفيروز ابادي في اليمن اشتاقت نفسه سنة 799هـ للحج والزيارة فكتب إلى السلطان الأشرف رسالة بليغة يطلب منه السماح له بالسفر لهذا الغرض، ورد فيها قوله: "ومما ننهيه إلى المسامع الشريفة أنه غير خافٍ عليكم ضعف أقل العبيد ورقة جسمه،ودقة بنيته وعلو سنه،وقد آل أمره إلى أن صار كالمسافر الذي تحزم وانتعل، إذ وهن العظم منه والرأس أشتعل، وتضعضع السّن وتقعقع الشّن، فما هو إلا عظام في جراب، وبنيان مشرف على خراب، كيف وقد جاوز السبعين التي تسميها العرب دقّاقة الرقاب.وقد مر على المسامع الشريفة غير مرة في صحيح البخاري قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إذا بلغ المرء ستين فقد أعذر الله إليه فكيف من نيّف على السبعين، وأشرف على عقد الثمانين، ولا يجمل بالمؤمن أن يمضي عليه أربع سنين ولا يتجدد له شوق وعزم إلى بيت رب العالمين وزيارة سيد المرسلين ". وقد ثبت في الحديث النبوي ذلك،وأقل العبيد له ست سنين عن تلك المسالك، وقد غلب الشوق حتى شب عمرو عن الطوق.

ومن أقصى أمنيته أن يجدد العهد بتلك المعاهد،ويفوز مرة أخرى بتقبيل تلك المشاهد،وسؤاله من المراحم الحسنية الصدقة عليه بتجهيزه في هذه الأيام مجرداً عن الأهالي والأقوام قبل اشتداد الحر،وغلبة الأوام،فإن الفصل أطيب والريح أزيب،ومن الممكن أن يفوز الإنسان بإقامة شهر في كل حرم،ويحظى بالتملي في مهبط الرحمة والكرم، وأيضاً كان من عادة الخلفاء سلفا وخلفا أنهم كانوا يبردون البريد عمداً قصدا لتبليغ سلامهم إلى حضرة سيد المرسلين صلى الله وسلامه عليه فاجعلني-جعلني الله فداك-ذلك البريد فلا أتمنى شيئاً سواه ولا أزيد:

شوقًا إلى الكعبة الغراء قد زادا
فاستحمل الوخادة الزادا
واستأذن الملك المنعام زَيدَ عُلا
واستودع الله أصحابًا وأولادًا

هذا آخر الكتاب.

فلما وصلت هذه الرسالة إلى السلطان أجاب في طرة الكتاب إليه ما هذا مثاله:" صدر الجمال المصري على لسانه ما يحققه لك شفاها أن هذا شيء يضيق به جناني، ولا ينطلق به لساني ولا يجري به قلمي، فقد كانت اليمن

عميا فاستنارت بك فكيف يمكن أن تتقدم ؟ وأنت تعلم أن الله قد أحيا بك ما كان ميتاً من العلم، فبالله عليك إلا ما وهبت لنا بقية هذا العمر، والله يا مجد الدين يميناً بارة إني أرى فراق الدنيا ونعيمها ولا فراقك أنت اليمن وأهله،فبحياتك لما رجعت عن ذلك".

ولعل الملك الأشرف خشي أن لا يعود إلى اليمن أو تحول بينه وبين العودة إلى اليمن عوائق خارجة عن إرادته،فما كان من الملك الأشرف إلا أن بالغ في إكرامه وضاعف من عطائه فألف له أيضاً كتاباً غريب الموضوع سماه (تحفة القماعيل[2] في من تسمى من الملائكة والناس إسماعيل) كما ألف له أيضاً كتاباً (لم يذكر أسمه؟) جعل أول كل سطر منه يبدأ بالألف فاستعظمه الملك الاشرف،وأعجب به أيما إعجاب،فما كان من العلامة إسماعيل بن أبي بكر المقري الشاوري الزبيدي المتوفى بزبيد سنة 837هـ إلا ان ألف له كتاباً سماه (عنوان الشرف الوافي في علم الفقه والتاريخ والنحو والعروض والقوافي)[3] وهو كتاب نسيج وحده فإذا قرء على حسب سياق السطور فهو فقه، وإذا قرئ أوائل السطور عمودياً فهو علم العروض، وأواخرها عموديا فهو علم القوافي، وإذا قرئ العمود الأول الذي يخترق الصفحة فهو تاريخ الدولة الرسولية، والعمود الثاني علم النحو، وفيه يقول إبراهيم الأخفافي واصفاً له:

لهذا كتاب لا يصنف مثله
لصاحبه الجزء العظيم من الحظ
عروض وتاريخ ونحو محقق
وعلم القوافي،وهو فقه أولي الحفظ
فاعجب به حسناً وأعجب أنه
بطين من المعنى خميص من اللفظ

لذلك فلا عجب إذا اتسعت أفاق المعارف المتنوعة في اليمن، وعبّ منها طلاب العلم،وفي مقدمتهم أبناء ملوك بني رسول وظهرت ثمار تحصيلهم العلمي فيما نسب إليهم من المصنفات العجيبة الغريبة الفريدة في موضوعاتها، بعضها من تأليفهم قبل توليهم الحكم، وبعضها الآخر كان يتولى كتاباتها لهم بعض أعوانهم نيابة عنهم بعد أن يرسموا لهم الفكرة أو الموضوع، ويتم ذلك تحت إشرافهم-كما بين ذلك المؤرخ علي بن الحسن الخزرجي المتوفى بزبيد سنة 812هـ في ترجمته للسلطان الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل العباس بقوله:"وذلك أنهُ- أي الملك الأشرف- كان يضع وضعاً، ويحد حداً، ويأمر من يتمه على ذلك الوضع، ثم يعرضه عليه، فما ارتضاه أثبته، وما شذّ عن مقصوده حذفه، وما وجده ناقصاً أتمه. وذكر تقي الدين الفاسي في كتابه (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين) 96/5 في ترجمة السلطان الأفضل العباس بن الملك المجاهد بعد سرده لبعض مؤلفاته ما يلي: "وبلغني أن هذه التواليف ألفها على لسانه قاضي تعز رضي الدين أبو بكر بن محمد بن يوسف النزاري الصبري (نسبة إلى جبل صبر الرابضة مدينة تعز في سفحه الشمالي).

فمن المؤلفات المنسوبة للسلطان الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول (درج السياسة في علم الفراسة،وما يدل على الخيل من ملاحة وقباحة) و(تيسير المطالب في تسيير الكواكب) و(العقد النفيس في مفاكهة الجليس) (هداية العارفين 55/2) و(المخترع في فنون من الصنع) حققه ونشره محمد عيسى صالحيه.

ومنها المنسوبة للسلطان ممهّد الدين الأشرف عمر بن الملك المظفر (الإسطرلاب)، وقد ذكر في مقدمة (طرفة الأصحاب) و(التبصرة في علم النجوم) منه نسخة أطلعت عليها في مكتبة بودلين في مدينة أكسفورد سنة 1974م و(تحفة الأحباب في التواريخ والأنساب) و(الجامع) في الطب (العقود اللؤلؤية 278/1) و(طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب) نشره المستشرق السويدي سترستين، وطبع في (مجمع اللغة العربية) في دمشق سنة 1949م و(ملح الملاحة في معرفة الفلاحة) ومعي منه نسخة ناقصة، و(المعتمد في الأدوية) و(المغني في البيطرة)،

ومنها المنسوبة للسلطان الملك المجاهد علي بن المؤيد

داود (الأقوال الكافية والفصول الشافية في الخيل وصفاتها وأنواعها وبيطرتها) حققه ونشره الدكتور يحيى الجبوري، (التذكرة في معرفة البيطرة).

ومنها المنسوبة للسلطان الملك الأفضل العباس بن علي بن داود (بغية ذوي الهمم في التاريخ بأنساب العرب وأصول العجم) و(بغية الفلاحين في الأشجار المثمرة والرياحين) و(الشامل لمحاسن التاريخ في الجداول) و(العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية). وله كتاب (القاموس) الذي أحتوى على ما يقرب من 1200 كلمة تتعلق في أكثرها بفن الطبخ والملابس وعلم الفروسية والصحة، وعلم التشريح مدوناً باللغة العربية التي وضعت كلماتها في العمود الأول وبجوار كل كلمة منها ترجمتها إلى اللغات الفارسية والتركية والإغريقية البيزنطية القديمة والصقلية والأرمنية والمغولية في أعمدة موازية لها *

ولا شك أن هذه العلوم كانت معروفة في ذلك العصر لدى جمهور من المعاصرين لتلك الدولة وإلا فقد ألفت لقوم أمين لها.

ومن العلماء الكبار الذين قدموا إلى اليمن وأقاموا في زبيد شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني فإنهُ زار اليمن مرتين أولاهما في عهد الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل الذي عرض عليه استيطان اليمن ليتولى منصب قضاء الأقضية خلفاً للمجد الفيروز أبادي، فاعتذر بأنهُ لا يرغب في أي منصب كان وأنهُ لم يخلق إلا للعلم، والزيارة الأخرى تمت في عهد الناصر أحمد بن الملك الأشرف، وخلال إقامته في زبيد نسخ لنفسه رسائل في مجلد، وقد رأيته في مكتبة غوتنغن في ألمانيا وقد أهدى لي مديرها صورة من هذا الكتاب طبق الأصل ورقاً وتجليداً.

كما زار اليمن شمس الدين محمد بن محمد الجزري علامة القراءات فأخذ عنه كثير من علماء اليمن، وقد تنقل في مدن اليمن التي كانت خاضعة للدولة الرسولية ولا سيما مدينة زبيد فأفاد واستفاد.

ومن العلماء الكبار الذين قدموا إلى اليمن محمد بن محمد مرتضى الزبيدي المولود في بلدة بلجرام إحدى مدن الهند، صاحب "تاج العروس من جواهر القاموس"، فأقام في مدينة زبيد مدة غير معروفة فأخذ عن بعض علماء زبيد وأجيز ثم رحل في نهاية المطاف إلى مصر ولكنه حرص على ان ينتسب إلى مدينة زبيد لمكانتها في نفسه.

ولاهتمام ملوك بني رسول بالعلم والعلماء فإنهم كانوا يجيزون من يصنف كتاباً ويهديه إلى أحد ملوك هذه الدولة، وهذه من مزاياهم الحميدة فمن هؤلاء العلامة قاضي القضاة جمال الدين محمد بن عبد الله بن أبي بكر الرّيمي المتوفى سنة 792هـ فإنهُ لما فرغ من تأليف كتابه الشهير (التفقيه في شرح التنبيه) لأبي إسحاق الشيرازي في 24 مجلدة وقيل في 16 مجلدة حُمل من بيته في زبيد إلى بين يدي الملك الأشرف إسماعيل في أطباق الفضة ملفوفاً بالحرير والديباج يتقدمه العلماء والأمراء والوزراء فأجازه الأشرف باثني عشر ألف دينار (ثمانية وأربعين ألف درهم) قدّرها الحافظ بن حجر العسقلاني في كتابه (إنباء الغمر) بأربعة آلاف مثقال ذهباً. وأجيز آخرون من العلماء بإجازات سنية لا يتسع المقام للإحاطة بهم. "وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق".

وكما كانت مدينة زبيد على مدى تاريخها الطويل مدينة العلم، ولاسيما في عصر الدولة الرسولية فإنها قد أصيبت في عهد بعض ملوكها بما أساء إلى سمعتها العلمية، وذلك حينما سنّ أحد ملوكها بدعة (سبوت النخل) وهي احتفالات كانت تقام لأيام من كل عام في موسم البُسر والرُّطَب، كما روى الرحالة ابن بطوطة في رحلته الشهيرة خلال زيارته لليمن، بقوله:

فيخرج أهل زبيد رجالاً ونساءً وأطفالاً أفراداً وجماعات في مواكب يتقدمهم الفرسان والمجانة، ولا يبقى بمدينة زبيد أحد من أهلها ولا من الغرباء، ويقام في النخيل الرقص والغناء، كما يخرج أهل السوق لبيع الفواكه والحلوى، وكان بعض سلاطين بني رسول وملوكهم

وأمرائهم ورجال دولتهم يذهبون إلى زبيد في هذا الموسم للمشاركة في هذه المناسبة مما دفع ببعض علماء زبيد إلى الخروج منها والرحيل عنها إلى أماكن متفرقة من جبال اليمن المطلة على تهامة، وذلك كما روى المؤرخ يحيى بن الحسين بن الأمام القاسم بن محمد في كتابه (أنباء الزمن) بقوله: "رحل من زبيد قدر سبع مئة بيت من الفقهاء وأهل النجدة والحمية، وأووا إلى الجبال كُبرع وغيره، وأنكر من هاجر منهم على من تخلف منهم في زبيد،وكتب أحدهم إلى قريب له لم يهاجر قوله:

تجنب عن زبيد ولا تطاها
ولا تغررك يا ابن أخي زبيد
ففي يوم السبوت ترى مساوٍ
أتتها يوم سبتهم اليهود

كما هاجر من زبيد الشيخ الإمام أبو الربيع سليمان بن موسى بن سليمان بن علي بن الجون الحنفي الأشعري إلى الحبشة فأقام في قرية تدعى (رون) حتى توفى بها سنة 652هـ وهو الذي شرح (الخمرطاشية) وسماه (الرياض الأدبية)، وقد طبع بعد أن حققه أخي القاضي محمد بن علي الأكوع رحمه الله.

القول الفصل في تاريخ ظهور زبيد:

وأما قبل فقد كانت زبيد عامرة بالعلم والعلماء منذ انتشار الإسلام في اليمن إذ كانت مدينة زبيد موجودة آنذاك، ولا صحة لما رواه عمارة بن أبي الحسن علي الحكمي اليمني في كتابه (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد) نقلاً عن كتاب (المفيد في أخبار زبيد) لأبي الطامي جياش بن نجاح، ونقل عنه بأن عامل المأمون على اليمن ؟ كتب إليه بخروج الأشاعر وعلكّ عن طاعته، فأرسل المأمون إلى اليمن محمد بن زياد (من أولاد زياد بن أبي سفيان) عاملاً عليها على رأس جيش، ومعه رجلان أحدهما من أولاد سليمان بن هشام بن عبد الملك، والآخر محمد بن هارون من بني تغلب، فحجّ هو ومن معه سنة 203هـ 818م وسار إلى اليمن، وفتح تهامة بعد حروب جرت بينه وبين العرب، واختط مدينة زبيد في شعبان سنة 204هـ/819م، وقلّد مولاه جعفر الجبال، واختط بها (المذيخرة) فهذا كله كلام عار عن الصحة، فالدولة الزيادية[4] (وهي يمانية النسب) لم تظهر في اليمن إلا في أواخر المئة الثالثة للهجرة على يد مؤسسها أبي الجيش إسحاق بن إبراهيم بن زياد المتوفى سنة 362هـ 972م كما نص على هذا ابن جرير الصنعاني المتوفى سنة 450 في كتابه (تاريخ صنعاء) ص 91 وليس سنة 391هـ كما جاء في تاريخ عمارة.

ومما يؤكد قدم مدينة زبيد وأنها كانت عامرة بالعلم والعلماء قبل سنة 204هـ وفاة الإمام الحافظ موسى بن طارق الرعرعي الجندي الزبيدي سنة 203هـ 818م فيها أي قبل سنة مما ذكره عمارة، ثم لا يعقل أن يغفل مؤرخو الدولة العباسية عن ذكر محمد بن زياد وقدومه على رأس جيش كبير إلى اليمن، لو كان لهذا الخبر صحة بدءاً من ابن سعد المتوفى سنة 230 في طبقاته، وخليفة بن خياط المتوفى سنة 240 في تاريخه الذي أورد أسماء عمال المأمون على اليمن فرداً فرداً،وابن واضح اليعقوبي المتوفى بعد سنة 254 وأبي حنيفة الدينوري سنة 282هـ وشيخ المؤرخين محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة 310هـ كما أن المؤرخ إسحاق بن يحيى بن جرير الصنعاني ذكر في كتابه (تاريخ صنعاء) ولاة الدولة العباسية على اليمن، ولاسيما عمال المأمون، ولم يأت في هذه المراجع ذكر لما رواه عمارة على الإطلاق.

كذلك فقد وهم عمارة في أن جعفر مولى ابن زياد هو الذي اختط مدينة (المذيخرة) مع أنها قديمة، وكانت مسكناً لملوك الكلاع، ومنهم جعفر بن إبراهيم الذي قتله علي بن الفضل، وبه سمي مخلاف جعفر، ومن أوهام عمارة أنه ذكر أن الحسين بن سلامة المتوفى سنة 426 هو الذي أختط مدينة (الكدراء) الواقعة على وادي سهام، وأنه أيضاً اختط مدينة (المعقر) الواقعة على وادي ذؤال، مع أن الحسن بن أحمد الهمداني المتوفى قبل منتصف القرن الرابع

للهجرة ذكرهما في كتابه الشهير (صفة جزيرة العـــرب). ومن أراد الاستزادة من معرفة أوهام عمارة فعليه بالرجوع إلى المصادر المذكورة آنفاً، والله الموفق إلى الصواب وهـــو حسبنا ونعم الوكيل.

الهوامش

1. توجد قرية تحمل هذا الاسم في عزلة بحير من ناحية خبان (ناحية الرضمة حالياً)
2. القماعيل: جمع قمعال سيد القوم.
3. اشتهر هذا النوع من التأليف في اليمن، فقد ألف القاضي محمد بن حمزة بن المظفر من أعلام المئة الثامنة للهجرة "البرهان الكافي" احتوى علـى عشرين علما: التفسير والأصول والكلام والفقه والفرائض والحـديث واللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان والسيرة وابتداء الخلق والطب والنجوم والمنطق والعروض والرمل والسحر. وألف إبراهيم بن عمر البجلي من أعلام المئة العشرة للـهجرة كتـاب "برهان البرهان في الجبر والحساب والخطأين والأقدار والفـرائض"، منـه نسخة في مكتبة الأوقاف بجامع صنعاء. وألف القاضي أحمد بن عبـد الله السانة المتوفى بعد سنة 1105هـ كتابا أسماه "الإعلان بنعم الله الوهـاب المنان في الفقه والعروض والنحو والتصريف والمنطق وتجويد القران".
4. ومنهم بنو زياد وهو مخلاف من نواحي ذمار، وبنو زياد عزلة من بـلاد سارع من المحويت، وبنو زياد من قبائل الجنبين من مغرب عنس، وبنـو زياد من قرى بلاد الروس، وبنو زياد قرية بجوار مدينة وداع، وبنو زياد قرية في بني الحارث من أعمال صنعاء.

مدينة زبيد ...
نموذج معماري وفني يمني فريد.

أحمد حمود حاتم المخلافي*

الموقع والتسمية:

تقع مدينة زبيد في سهل تهامة بمحاذاة البحر الأحمر غرباً وبين مدينتي بيت الفقيه وحيس، وتبعد عن مدينة الحديدة حوالي (50كم) جنوباً. وقد تعددت الروايات حول تسميتها فيذكر الهمداني ((أن هذا المكان هو محل الأشاعر وما حوله كان غيظة، أي هيجة، وكانت مدينة زبيد قبل إختطاطها عقد طرفاء وآراك وحولها قصور وقرى))[1].

وسميت ببلاد الأشاعر نسبة إلى بلاد الأشاعر، وهي من القبائل اليمنية المشهورة حيث كانت (قوية الشوكة)، مرهوبة الجانب.. منازلها ما بين سِيْف البحر غرباً إلى وصاب شرقاً وفيما بين شمير جنوباً إلى بيت الفقيه شمالاً، ومن مدنهم زبيد وحيس وبيت الفقيه. وموانيهم غلافقة، والخوخة، وقبائل الجماهير، والركب، والزرانيق، والمعازبة، والقراشية، والأشاعر من أول السباقين إلى الإسلام، وينتمي إليهم الصحابي الجليل (أبو موسى الأشعري) ونسبوا إلى الأشعر، وإسمه ((نبت بن أدد بن زيد بن عمرو بن زيد بن كهلان بن سبأ، ولقب بالأشعر لأنهُ ولد اشعر الجسم))[2] ويضيف (عمارة): أنها سميت بزبيد لأنها ((مشهورة بوادي زبيد قبل الإسلام وبعده، كما جاء في خبر سطيح الكاهن، وفي حديث الأشعريين حين قدموا إلى الرسول (ص) فسألهم: من أين جئتم؟، قالوا: من زبيد، قال: بارك الله في زبيد))[3].

وفي موضع آخر يسرد (ابن المجاور) عدداً من الروايات حول زبيد وتسميتها، يغلب على بعضها الطابع الأسطوري، ومن هذه الروايات قوله: ((حدثني أحمد بن علي بن عبد الله الجماعي الواسطي، قال: ملك اليمن من التابعة يسمى (الزبا)، فسأل رجل أخر فقال: ما فعل الله بزبا؟ فقال: بيد ((أي هلك)، فسمي بالبلد (زبيد). وفي رواية أخرى يسردها (ابن المجاور) على لسان أحدهم ((قال: بل كانت الإبل ترعى في العقدة وفي الإبل ناقة تسمى زبيد عفت في العقدة، فعرف الموضع باسم الناقة)). ويضيف رواية سمعها من آخرين قوله ((بل كانت امرأة تسكن رأس وادي زبيد تسمى زبيدة، ويذكر (أبن المجاور) أيضاً ما حدثه به شيخ كبير قد تجاوز المائة عن أبيه عن جده قال: كنت أرعى البقر عند مسجد الأشاعر، وبها حينئذ عقدة شجر وغدير ماء، ويقال لما تعدى ابن زياد كله صار كل منزل ينزله يأخذ تراب أرضه يشمه ويبني في ذلك المنزل قرية،

* باحث في العلوم الإنسانية (آثار - تاريخ - إجتماع) جامعة صنعاء.

ولازال على حاله إلى أن قدم أرض الحصيب فأخذ من أرضه كف تراب فشمه، وقال لأهل الدولة: أقيموا بناءً هاهنا، قالوا: ولمِ؟ قال: لأن هذه الأرض أرض نزه زبدة هذه البلاد. فقالوا: وبم صح عندك ذلك؟ قال: لأنها طيبة بين واديين، فلما سكن المكان بنى مدينة سماها زبيد، وما أشتق زبيد إلا أنها الزبدة على ما جرى في اليوم الأول. وفي رواية أخيرة يقول (ابن المجاور): ((أنها سميت زبيد بزبيد لأن لها وادياً يسمى زبيد، فسميت البلد باسم الوادي))[4]. وهذه الرواية تتفق مع رواية عمارة. ومهما أختلف الرواة، واختلفت الروايات في التسمية، فالراجح أن مدينة زبيد من المدن التاريخية القديمة، وقد عثر فيها على ملتقطات أثرية ترجع إلى فترات ما قبل الإسلام، وكتابات بالخط المسند، وقد ظلت زبيد عامرة حتى بداية القرن الثالث الهجري، حين أختطها محمد بن زياد بأمر الخليفة العباسي المأمون، في شعبان سنة 204هـ، واشار (عمارة) إلى ذلك بقوله: ((كان وصايا المأمون لابن زياد، أن أمره بأحداث مدينة باليمن في بلاد الأشاعر بوادي زبيد، وإنما اشتهرت بابن زياد لاتخاذها حاضرة ملكه، ومقر عزه، وعقيرها))[5].

وصف مدينة زبيد:

تنتمي مدينة زبيد في تخطيطها إلى المدن الدائرية الشكل، على غرار تخطيط المدن العباسية في بلاد النهرين، والمحاطة بأسوار محصنة. أشار إليها الهمداني بأن ((عرضها ثلاثة عشر درجة، وطولها مائة وتسعة عشر درجة وربع، وقد دخلها الرحالة البشاري وأثنى عليها، وابن بطوطة وأشاد بها))[6] وتم مسح المدينة أيام المجاهد الغساني فبلغت (630.5) معاداً* وكانت مدينة زبيد عبارة عن عدد من القرى قبل أن يقوم ابن زياد بتخطيطها..وقد وجدت البعثة الكندية-التي قامت بمسح للمنطقة- قطع لفخار ترجع إلى ما قبل القرن الثالث الهجري، شرق الطريق الرئيسي (خلف موقف السيارات) استدلت البعثة أن موقع مسجد "البيسة" خارج المدينة وهو وضع يخالف النظام المتبع في المدينة الإسلامية، إذ يقع المسجد عادة في وسط المدينة وبجوار سوقها. وبالتالي فإن المسجد كان قد بني في منطقة كانت معمورة ثم اندثرت وتبقى منها المسجد كما وجدت أن أكبر تركز للفخار يرجع إلى عصر الرسوليين، حيث عثرت البعثة على آثار مستوطنات سكانية من هذه الفترة حوالي (2كم) شمال زبيد، وهذا بالتالي يؤكد ما ذكره المؤرخون عن قصور واستراحات بني رسول التي بنوها خارج المدينة.. والواضح أن زبيد قد أنكمش حجمها إلى داخل الأسوار في المائتين والخمسين سنة الماضية، عندما أصبحت "المخا" مركزا تجاريا[7].

وقد وصفت مدينة زبيد بأنها مدينة مدورة الشكل، حسنة الموقع، على النصف ما بين البحر والجبل، وأشار المؤرخ (عصام الدين عبدالرؤوف) نقلاً عن (ابن المجاور) إلى أن ((زبيد تقع بين الواديين. ومن شرقها على مسافة نصف يوم الجبال الشامخة والحصون الباذخة، والمعاقل العنيفة، والمساكن الرفيعة، ومن غربها البر الزاخر، والنخيل البواسق، وهي "زبيد" واسعة البساتين، كثيرة الخيرات والفواكه، وتعطيها الأشجار منظراً جميلاً، وبها عين جارية غزيرة المياه، تأتي من شرقها من مجرى تحت الأرض حتى تصل إلى المدينة))[8] فينتفع الناس بها وتسقي بساتينها الفيحاء.

((وسراديب المياه هذه معمورة بالأجر والجبس الحلي، وتمتد من أطراف جبال وصاب إلى المدينة وكانت تسقي البساتين المحيطة بها، وهذه المجاري أنشئت بشكل هندسي بديع في عهد الملك الفاتك النجاحي، القاضي أبو الحسن الأسواني النوبي))[9] ويشير "ابن الديبع" إلى زبيد بقوله: ((وبها عين جارية غزيرة الماء، تأتي من شرقيها في سرداب تحت الأرض، حتى تقترب من المدينة، ثم تظهر فتسقي جميع البساتين التي من خارج المدينة والتي من

* يبلغ المعاد حسب وحدة قياس المساحة في صنعاء (ثمانين لبنة).

داخلها، وليس أهل المدينة محتاجين إلى مائها، بل في كل بيت بئر... ويفضلونهُ على ماء العين المذكورة))[10].

أهمية مدينة زبيد:

تأتي أهمية مدينة زبيد في كونها مثالاً حياً على نمط تخطيط المدن الإسلامية، وتعدد وتنوع معالمها التاريخية والأثرية، ولدورها في التاريخ السياسي اليمني منذ القرن الثالث الهجري، حيث كانت زبيد عاصمة لدول ولدويلات يمنية متعددة وبالتحديد- في سنة 204هـ اختارها محمد بن زياد عاصمة للدولة الزيادية، ثم أصبحت عاصمة للدولة النجاحية، ثم للدولة المهدية، وعاصمة للأيوبيين، وكذلك في عهد بني رسول، والدولة الطاهرية، وخلال ذلك أدت مدينة زبيد دوراً علمياً متميزاً والذي لازال مستمراً إلى اليوم.

تخطيط مدينة زبيد:

أولاً: الأسوار:

أول من بنى سوراً لمدينة زبيد هو "الحسين بن سلامة" سنة 407هـ في عهد الدولة النجاحية، ثم أدار عليها سوراً ثانياً "أبو المنصور من الله الفاتكي" سنة 520هـ، ثم بني لها سور ثالث في عهد بني مهدي، وفي سنة 589هـ بني لها سوراً رابعاً "سيف الإسلام طغتكين بن أيوب"، وسوره هو الذي يلي المدينة الآن، وحول ذلك قال "ابن المجاور": ((أراد سيف الإسلام أن يدير حول البلد سوراً ذا طول وسعة، وأمر الجند أن يسكنوا ما بين السورين بدوابهم وأموالهم، فلما بني السور وفرغ منه مات ولم يمكنه مراده))[11]. ويذكر "ابن الديبع" ((أن بناء سور مدينة زبيد كان باللبن والطين، وأبوابه، وشرارفيه بالآجر، في الهواء نحو من عشرة أذرع))[12].

ثانياً: أبواب مدينة زبيد:

سبقت الإشارة إلى أن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب هو الذي أمر ببناء السور الرابع على مدينة زبيد، وعند حديثنا عن أبواب مدينة زبيد فإننا نعني بها، تلك الأبواب التي شملها السور الرابع، وعددها أربعة أبواب متماثلة بنيت من الآجر وتنتهي بعقود نصف دائرية مقصصة وتعلوها أبراج المراقبة التي تحولت مؤخراً إلى غرف بلادارة المحلية، ويبلغ ارتفاع كل منها حوالي (6م) وبعرض حوالي (3.5م).

الباب الأول: هو الباب الشرقي، والمسمى "باب الشبارق" وينفذ إلى قرية الشبارق (قرية من قرى وادي زبيد).

الباب الثاني: هو الباب الشمالي، والمسمى "باب سهام" وينفذ إلى وادي سهام ورمع ويعتبر وجه المدينة وغرها.

الباب الثالث: هو الباب الغربي، والمسمى "باب النخل" حالياً، وكان يسمى سابقاً "باب غلافقة"، وينفذ إلى غلافقة.

الباب الرابع: هو الباب الجنوبي، والمسمى "باب القرتب"، وينفذ إلى وادي زبيد ثم إلى قرية القرتب. (من قرى وادي زبيد)[13].

ويذكر "ابن الديبع" حول التجديدات، أن الأمير عمر بن عثمان بن محيا ((عمر أبواب مدينة زبيد، ودربها، وخنادقها في عام (739هـ))[14]. وفي عام (832هـ) أمر السلطان الملك الظافر الرسولي بتجديد درب مدينة زبيد وتحصينها[15].

والواقع أن أبواب مدينة زبيد تعرضت للإهمال خلال الفترة الماضية، وتم مؤخراً القيام بترميم باب الشبارق عام 1998م، وباب النخل عام 2000م.

ثالثاً: وصف منازل مدينة زبيد:-

تعتبر مدينة زبيد من المدن اليمنية الفريدة في طراز مبانيها المعماري، إذ أن المواد المستخدمة في البناء هي الآجر والجص، وترتفع بعض منازلها إلى خمسة وستة طوابق، تزينها من الداخل والخارج نقوش من الجص غاية في الإبداع والتصميم وعلى نمط واحد القديم منها والجديد، وتمثل هذه الزخارف الجصية البارزة عادة

زخارف هندسية مثل: الأشرطة الحلزونية، والمربعات والمستطيلات، والدوائر المتماسكة والمتشابكة. وزخارف نباتية منها: الفروع والأوراق النباتية المتشابكة والتي تتضمن أوراقا ثلاثية الفصوص وغيرها. وزخارف كتابية متعددة ومتنوعة الخطوط.

وشبابيك المباني متعددة ومفتوحة، وبعضها مزود بـ(الملقف) وهو عبارة عن أخشاب من سعف النخيل، تركب أفقياً، وفي الوسط قطعة رأسية تمكن أهل الدار من التحكم بكمية الإضاءة، ودرجة الحرارة، وذلك من خلال تحريكها إلى الأسفل فتفتح الأجزاء الأفقية، وتقفل إلى أعلى.

ومعظم أبواب المنازل مصنوعة من الأخشاب المحفورة والبارزة بزخارف متنوعة ومتناسقة وتعد مدينة زبيد بسورها، وشوارعها، ومبانيها، وساحاتها، تحفة فنية فريدة تليق بساكنيها الذين ظلوا محافظين على الطراز المميز والسمات الفريدة للطابع المعماري البديع، ويرجع هذا التميز إلى أثر البيئة، حيث تتميز منطقة سهول تهامة التي تنتمي إليها مدينة زبيد بارتفاع درجة الحرارة والرطوبة، فجاءت مبانيهم ملائمة لطبيعة المناخ، (مباني مكشوفة، أو تتقدمها ظلات، ودكك (مصاطب)، أو مباني مكونة من القش ومخلفات الأبقار ذات أشكال دائرية ومخروطية، أو من الطين اللبن، والطين المحروق- الآجر- وهي في العادة ذات شبابيك كثيرة وسقوف عالية. وفي الوقت الذي كانت المدن في المناطق الجبلية تبنى بسفوح الجبال التي تؤمن الحصانة الطبيعية، كانت مدن تهامة تتميز ببناء الأسوار المزدوجة والمتينة والقوية التحصين، والأبراج المدعمة للأسوار، والأبواب الموصدة ليلاً، والمصفحة بالمعادن والأخشاب القوية التي تكفل الحماية للمدينة من أي هجوم خارجي.

كما تتميز مدن تهامة بشكل عام، ومدينة زبيد بشكل خاص، بكثرة المساجد والجوامع والمدارس الإسلامية، ويتميز أهل زبيد بالإقبال على العلوم الدينية والدنيوية وعلى الأخص العلوم اللغوية والأدبية والتاريخية منذ فجر الإسلام وقد أسهمت المدارس والمساجد بتأدية رسالة علمية ومعرفية وصلت إلى معظم أنحاء اليمن، وسعى الكثير من طلاب العلم نحو مدينة زبيد للتزود بمختلف العلوم، ولا تزال تؤدي رسالتها العلمية من خلال تلك المعالم والصروح العلمية، فضلاً عن جامعة زبيد التي أنشئت مؤخراً. وأهم هذه المدارس والجوامع: جامع الأشاعر، والجامع الكبير بزبيد، والمدارس الإسكندرية، والفرحانية، والجبرية، والكمالية... وغيرها.

الهوامش:

1: الهمداني، الإكليل، الجزء الأول، صـ111.

2: عمارة، نجم الدين، تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، صـ50.

3: عمارة، المصدر السابق، صـ51.

4: ابن المجاور، تاريخ المستبصر المسمى صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، صـ68،69.

5: عمارة، نجم الدين، مصدر سابق، صـ51.

6: الهمداني، صفة جزيرة العرب، صـ .

7: تقرير البعثة الأثرية في زبيد، نشرته صحيفة الثورة في 1985/4/13م.

8: عبدالرزوف، عصام الدين، اليمن في ظل الإسلام، صـ88.

9: الهمداني، الإكليل، الجزء الأول، صـ136.

10: ابن الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، صـ48.

11: ابن المجاور، مصدر سابق، صـ74.

12: ابن الديبع، مصدر سابق، صـ48.

13: ابن الديبع، مصدر سابق، صـ49،50.

14: ابن الديبع، مصدر سابق، صـ97.

15: ابن الديبع، مصدر سابق، صـ110.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر، "الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد"، تحقيق دكتور: يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني- صنعاء.

2. ابن المجاور، "تاريخ المستبصر المسمى صفقة بلاد اليمن، ومكة وبعض الحجاز"، تصحيح: أوسكر لوفقرين، ط 2، منشورات المدينة- بيروت، 1986م.

3. الهمداني، محمد الحسن بن أحمد، "صفقة جزيرة العرب"، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط 3، مركز الدراسات والبحوث اليمني- صنعاء، 1983م.

4. الهمداني، محمد الحسن بن أحمد ، الجزء الأول من الإكليل، مركز الدراسات والبحوث اليمني- صنعاء.

5. عبد الرزوف، عصام الدين، "اليمن في ظل الإسلام منذ فجره وحتى قيام دولة بني رسول"، دار الفكر، دار الفكر العربي- القاهرة، 1982م.

6. عمارة، نجم الدين، "تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد"، تحقيق: محمد الأكوع، ط 3، 1979م.

7. صحيفة الثورة، صحيفة يومية رسمية تصدر في صنعاء، العدد (8112)، تاريخ 1985/4/13م.

المعالم الزراعية في اليمن

تأليف: يحي بن يحي العنسي

عرض لمحتويات الكتاب

عرض/ أحمد صالح الجبلي

جاء في تقديم مدير المركز الفرنسي للدراسات اليمنية السيد فرنك مرمييه أن كتاب "المعالم الزراعية في اليمن" يعد "أول دراسة مكتوبة بالعربية تتناول المعرفة الزراعية التقليدية في اليمن" وانه "نتاج بحث ميداني طويل إلى جانب إفادته من كتب المهتمين بعلم الفلك والزراعة" (ص13).

وقد اعتمد المؤلف كثيراً في بحثه هذا على الأمثال والأقوال الزراعية اليمنية والتي يعتبر "دستورا وقوانين زراعية بالغة الدقة والصدق" (ص15). أما من حيث العوامل والأسباب التي دفعته إلى كتابة ونشر هذا البحث فيعيدها إلى اثنين: أولهما التعرف على مواقيت الماضي في الفلاحة، وثانيهما الخوف الشديد من تناسي هذه المعرفة.

والكتاب صادر عن المركز الفرنسي للدراسات اليمنية عام 1998، إلا أنه وعلى الرغم من أهميته البالغة لم يجر استعراضه إلى اليوم مع كل الأسف.

يقع الكتاب في ما يقرب من (600)صفحة من القطع الكبير موزعة على خمسة أبواب تحتوي على (23) فصلاً على النحو التالي:

الباب الأول:

ويحتوي على فصلين (الأول والثاني) يغطيان حوالي (70) صفحة، حيث يتطرقان إلى طائفة من الموضوعات العلمية الفلكية كمدخل نظري يعين القارئ على فهم واستيعاب ما يلحق من معلومات في الأبواب الأربعة اللاحقة. وفي هذا الباب يجد القارئ بروج منازل الشمس والقمر وغيرهما من النجوم، ولو أن المنازل تنسب إلى القمر لكثرة مروره بها أكثر من غيره. ومن أهم ما جاء في هذا الباب تلك المعلومات المزودة

بالرسوم والجداول الخاصة بأسماء المنازل والبروج لفصول السنة الأربعة مع المصطلحات الزراعية اليمنية المقابلة لها، والتي تعود إلى اللغة اليمنية القديمة.

يوضح المؤلف أوقات ابتداء كل فصل من فصول السنة وانتهائه وفق طلوع وغروب المنازل البالغ عددها (28)منزلة أي (7) منازل لكل فصل وكذا أسماء النجوم المناظرة وأسماء الأشهر الحميرية - ولو أن الصحيح القول الأشهر اليمنية القديمة - المقابلة لأسماء الأشهر الميلادية والرومية. كما يأتي المؤلف بطائفة من الأمثال والأقوال الشعبية المتوارثة التي تتطرق إلى المعرفة الزراعية والفلكية مع تفنيد الصحيح من الخاطئ منها. هذا إضافة إلى ما أتى به من إسهام جديد في هذا المجال، كما يشير المؤلف إلى ذلك. ولعل أبرز مثال لإسهامه الجديد توضيحه لقرانات القمر للثريا، أي حلول القمر في منزلة الثريا. حيث يقول "ونظراً لأهمية أشهر القرانات في المواسم الزراعية، رغم أنها تزيد وتنقص في أيام السنين تعود نظراً لدقة حسابها وخطورة اختلاف مواعيدها، قمت بتصميم دائرة فلكية ثابتة لمتوسط معدل أشهر قرانات القمر مع الثريا على دائرة نجوم معالم الزراعة واضعاً في الاعتبار تطبيق الأمثلة في حساب المزارعين وأقوال على بن زايد.." (ص81).

الباب الثاني - فصل الربيع:

ويغطي حوالي (70) صفحة تحتوي على الفصول من (3) إلى (5). ويبدأ المؤلف فصول السنة بفصل الربيع لأن السنة الزراعية عند اليمنيين تبدأ بفصل الربيع البالغة أيامه (91) يوماً، وذلك بدخول الشمس (23) درجة من برج الجدي، وانتهائه بنهاية دخولها (22) درجة من برج الحمل. وبهذا تكون بداية الربيع من تاريخ 13 يناير وانتهائه في 13 أبريل، مشيراً إلى المنازل السبع للربيع وإلى الشهور الحميرية وغير ذلك من معلومات.

يفرد المؤلف الفصل الثالث من هذا الباب لشجرة العنب لأن بداية الاهتمام بها يبدأ من بداية الأسبوع الثاني من شهر يناير الموافق بداية "قران الحادي عشر" المهم، وبالضبط في الثامن من يناير. ففي عشرين صفحة يتناول المؤلف الاهتمام بشجرة العنب وثمرها ابتداءً من تقليم أغصان هذه الشجرة وطرق غرسها ومواقيت خدمة المحصول، والعوامل المؤثرة سلباً وإيجاباً في نموها وثمارها. وطرق وقايتها، إلى أن يختتم بسرد أصناف العنب البالغة (40) صنفاً. ثم يعرج على شجرة النخيل. ففي أربع صفحات يجتهد المؤلف ليغطي المعلومات الضرورية بزراعة الشجرة والعناية بها وحتى ثمرها، مع مواقيت كل مرحلة من مراحل الاهتمام.

في الفصل الرابع يتطرق المؤلف للحديث عن "موسم الدثا أو الدثى" والذي تبلغ مدته شهرين يوافقان شهري فبراير ومارس. ويذكر أن فبراير شهر مطير في اليمن، أما مارس فيحل موسم البذار لبعض أصناف الثمار والحبوب. وكذا موسم حراثة الأرض، حيث إن حراثة الأرض في هذا الشهر تعد أفضل فترة للحراثة حسب تجربة المزارع اليمني.

في الفصل الخامس يتناول المؤلف المراعي.. مياهها، وما يمكن أن يصيب المواشي من أمراض بسبب بعض موارد المياه وكذا بسبب بعض النبات. كما يتطرق إلى بعض الحيوانات من حيث فوائدها المتعددة. وعلى الرغم أن المؤلف هنا لا يأتي بأي جديد قياساً إلى المعرفة المتوفرة التقليدية منها والحديثة، فإن تطرقه إلى هذا الجانب، وبالمصطلحات اللغوية الشعبية أمر مهم جداً. ثم يختتم هذا الفصل بتقنية خزن المياه التقليدية ووسائله فيذكر "المواجل" و "الصهاريج" وغير ذلك من وسائل حفظ المياه التقليدية.

الباب الثالث - فصل الصيف:

ويغطي حوالي (170) صفحة تشتمل على (8) فصول، تبتدأ بالفصل السادس الخاص بالمعلومات الفلكية

الخاصة بفصل الصيف فيشير إلى منازله السبع وأسماء الشهور الحميرية فيه، ومدته البالغة (92) يوماً تبدأ من 14 من أبريل وحتى 14 من يوليو. كما يتطرق في هذا الفصل إلى الأرض الزراعية أكان ذلك من حيث أهميتها أم من حيث ضرورة الاعتناء بها إلى آخر ذلك مما يتعلق بالأرض الزراعية وهمومها.

في الفصل السابع يتطرق المؤلف إلى حيوان الثور فيشير إلى مدى أهميته للفلاح فـ "من معه ثور ملك الأرض"، كما يصنف أنواع الثيران بناءً على المعرفة المتوارثة، وطرق اقتنائها، ومناطقها المشهورة في البلاد اليمنية. كذلك يذكر خصائص الثيران، وكيفية التعامل معها أكان ذلك من حيث تربيتها، أو معاملتها أثناء العمل أو غير ذلك من معلومات بهذا الشأن.

في الفصل الثامن يتطرق المؤلف إلى أهمية فصل الصيف لدى المزارع اليمني، باعتباره الحد الفاصل للعلائم والمشيرة لمآل أو لمضمون السنة الزراعية في مجملها. فهي إما تتسم بالرخاء أو بالجدب. وكل ذلك قائم على هطول "أمطار الخمس" التي يعتمد عليها المزارع لبذر الذرة كونها المحصول الرئيسي للسنة المقبلة. كما يعتمد عليها في بذر جميع الحبوب في بداية فصل الخريف عدا زرع الذرة.

في الفصل التاسع يحشد المؤلف طائفة من الأمثال التي تحث على حراثة الأرض استقبالاً للصيف، ليسلط الضوء على المعرفة التقليدية بهذا الشأن وخاصة بعلاقة الإنسان بالثور وأهمية "البتول" (أي العامل في حراثة الأرض) ومدى معرفته لطرق الحراثة وأنواعها حسب طبيعة الأرض. كما لا ينسى علاقة هذا "البتول" العامل بالأجر في حراثة الأرض، بصاحب الأرض، وبالذات من حيث إطعامه بتقديم الوجبات في مواعيدها دون تأخير. وينبه إلى ما يتوارثه المزارع اليمني بشأن من يتكاسل فيهمل الاهتمام بالعمل في الصيف بحراثة الأرض بعد هطول الأمطار، حيث لا يُجازى إلا بالبؤس عند الحصاد في بداية موسمه في شهر "علان" – وهو شهر حميري – الموافق لشهر أغسطس.

في الفصول عشرة وحادي عشر وإثنى عشر، يتطرق المؤلف لحبوب الذرة أكان من حيث مواسم بذرها أو طرق البذار ومواسم حصادها خاصة وموسم حصاد الحبوب عموماً. فبسبب اختلاف المناخ في بعض المناطق اليمنية، والذي يسببه اختلاف ارتفاع الأرض عن سطح البحر في المقام الأول، تختلف مواسم البذار. فنراه ينبه إلى أنهُ وإن كان هذا الاختلاف في مواعيد البذار ليس كبيراً، يجب التقيد الصارم بها حتى يعود أثره الجزي على المحصول. وبهذا الصدد يشير إلى بعض المعالم النباتية المبشرة والداعية إلى بذر الذرة، منها ظهور فاكهة المشمش (البرقوق باللجهة اليمنية)، كذا ظهور النملة وقد "أريشت" أي وقد ظهر لها أجنحة تطير بها. فإذا حان موسم البذار هذا يبين طرقه في العديد من مناطق البلاد، كما يبرز الأهمية التي يحتلها "التالمي" (أي العامل المكلف برمي البذور في شقوق التربة المحروثة). كما يتطرق إلى طرق اختيار البذور ووسائل تحضيرها، وطرق حفظها، وعيوب ذلك وأضراره.. كما ينبه إلى عوامل تعثر نمو الذرة، وإلى الأمطار غير النافعة التي تهطل في غير أوانها المعهودة وما تسببه من آثار وخيمة على النبات. وبعد ذلك، ولكي تكتمل دائرة المعلومات عن الذرة نراه يتطرق إلى مواسم الحصاد الثلاثة، حيث يبين أنواع الحبوب التي تحصد في كل موسم من هذه المواسم الخاصة حتى يأتي موسم الحصاد العام "أي الصراب" كما يسميه اليمنيون، وهو موسم حصاد كل الثمار. ولا ينسى التذكير بأهمية كل موسم.

ويختتم المؤلف هذا الباب بالفصل الثالث عشر الذي يكرسه لخبرات المزارع اليمني في حقل التربة وزراعتها وتقنيتها، خاصة كيفية استرجاع خصوبة الأرض، حيث نلاحظ أن لكل منطقة طرقاً محددة، أكان ذلك بما يخص التخصيب بالسماد أو بغير السماد.

الباب الرابع ـ فصل الخريف:

يغطي هذا الفصل حوالي (150) صفحة تشتمل علي ستة فصول، حيث يبدأ بالفصل الرابع عشر المكرس لتسليط الضوء علي العديد من المعلومات الفلكية عن فصل الخريف، كما هي العادة في بقية الأبواب. فيشير إلى مدة فصل الخريف البالغة (91) يوماً، حيث يبدأ من 15 يوليو وينتهي في 13 أكتوبر. كما يشير المؤلف إلى "معلم الجحر" أو "القيظ" حيث يوضح أن المقصود بذلك فترة الشهرين التي تفصل بين موسم مطر الصيف وموسم الخريف، وما يجري فيها من ظواهر طبيعية كهبوب أنواع الرياح، وظهور بعض أنواع الحشرات والنباتات.. وما لذلك من منافع وأضرار على العمل الزراعي. والمهم أن هذه الفترة تتسم بصحو السماء وانقطاع الأمطار عموماً وذلك في الفترة الواقعة بين الأول من يونيو وحتى الحادي والثلاثين من يوليو. ويستمر المؤلف في بسط المعلومات الفلكية في الفصل الخامس عشر الخاصة بـ"حساب الخريفين" وهما الشهران اللذان يغطيان الفترة الممتدة من 23 أغسطس وحتى 16 من أكتوبر. وينبهنا المؤلف إلى اختلاف طرق حساب ذلك عند المزارعين اليمنيين في مناطقهم المختلفة.

في الفصل السادس عشر يعود المؤلف إلى بداية فصل الخريف ليتناول "ميقات مذراء الصربي عدا الذرة" أي شهر "مذران" الحميري – والأصح القول الشهر بالتقويم اليمني القديم، وليس"الحميري" لأن اليمن شهدت أكثر من مملكة استخدمت نفس هذه الأسماء للشهور في تقويمها، ولم يكن لكل مملكة أسماء شهور مختلفة عن الأخرى، وإلا لأشار إلى ذلك المؤرخون المهتمون بتاريخ اليمن القديم وانعكس ذلك في النقوش المسندية–والموافق لشهر يوليو الذي تبذر فيه العديد من الحبوب والثمار والتي تحصد في موسم "الصراب" (والصراب يعني الحصاد). ويشير المؤلف إلى أن هذا الموسم أقصر موسم زراعي في مواسم السنة الزراعية. ويكرر المؤلف هنا، كما يكرره في صفحات أخرى، أن اليمنيين يطلقون على الموسم الزراعي وعلى الغلال نسبة إلى حصدها وليس إلى بذرها. لذلك يقول اليمنيون "بذار الصربي" أو "مزروعات الصربي" ويعنون بها تلك التي تبذر أو تزرع لتحصد في موسم الصراب.

وفي هذا الفصل يتطرق المؤلف أيضاً إلى أضرار الأمطار إن هطلت في هذه الفترة، كما يشير إلى عيوب بعض أنواع البذار في هذه الفترة.

بعد البذار ونمو الذرة يحين موعد بعض الأعمال التكميلية التي تتعهد زراعة الذرة، وأهمها الحرث بين شقوق الزرع. وتجري هذه الأعمال في فترات مختلفة من اليمن حسب مناخ المنطقة المعنية وتربتها. ومن هذه الأعمال أيضاً عملية "عزل" الذرة، أي تخفيف الزرع المتجمع وذلك بقلع ما يكون ضعيفاً منهُ حتى يتسنى للقوي النمو على أفضل حالة ممكنة.

هذا ما يتناوله الفصل السادس عشر، إضافة إلى تطرقه لمناخ وأضرار الأمطار إن هطلت في هذه الفترة، وكذا لأهمية بعض الظواهر الطبيعية وما تنطوي عليه من معلومات تفيد عملية التنبؤ للأحوال الجوية في السنة المعنية. ثم نراه يواصل في الفصل الثامن عشر، تسليط الضوء على بعض المعلومات عن الأحوال الجوية والمناخ في فصل الخريف. ففيه تهب أنواع من الرياح من مختلف الجهات بعضها يحمل المطر وبعضها يحمل الزوابع الرملية وهلم جرا... كما يتحدث هنا عن بعض الظواهر المناخية وعلاقتها بالتنبؤ بما يمكن أن يحدث من أحوال جوية، أكان ذلك بالاستدلال بأنواع البروق، أو بأنواع الرياح، أو بالمطر.. وتأثير ذلك على الزراعة. كما نجد في هذا الفصل سردا لأسماء الوديان اليمنية، مع تحديد مواقعها ومصابها.. وفي الأخير يشير إلى القوانين التقليدية المتوارثة الخاصة بتصريف مياه الري من الآبار والغيول والسيول والسدود.

يفرد المؤلف الفصل التاسع عشر لشهر "علاّن" الحميري الذي يبدأ في 14 من سبتمبر وينتهي في 13 من أكتوبر. ففي هذا الشهر تهطل الأمطار، في بداية طلوعه، لتجويد الثمار. أما إذا هبت الرياح فإنها تضعفها. كما تبذر في بدايته بعض أنواع الحبوب في مناطق، وتحرث في مناطق أخرى. وهنا أيضاً يسرد المؤلف أسماء الرياح واتجاهات هبوبها، وكذا منافعها ومضارها. كما يعرّج المؤلف على حماية المزروعات بحراستها، وطرق "شرفها" أي الطرق المتبعة لإزالة بعض أجزائها وأهمية هذه العملية لتقريب الزرع من موعد حصاده. ولا ينسى المؤلف أيضاً هنا الضرر اللاحق بالمزروعات في هذا الشهر أكان ذلك من الندى أو من الآفات الزراعية. ويشير المؤلف إلى مكانة هذا الشهر عند المزارع اليمني الذي يبدأ في حصاد أول الخير لـ "المال الصربي"، كما ينوّه إلى المكانة المفرحة- إن جاز القول - لهذا الشهر في قلوب اليمنيين باعتباره "موسم الخير" و "العيد الأكبر".. ذلك لأنهُ بمقدم "علان" تنصرم آخر أيام الخريف الذي يعده اليمنيون من فصول الشدة عندهم.

الباب الخامس ـ فصل الشتاء:

يغطي هذا الباب حوالي (90) صفحة تشتمل على أربعة فصول أولها الفصل العشرون المتضمن لمعلومات فلكية خاصة بفصل الشتاء الذي يبدأ في 14 من أكتوبر وينتهي في 12 يناير. وأهم سمة لفصل الشتاء هي انقطاع المطر فيه، لذا لا نجد أثراً لموضوع الزراعة فيه، وإنما لموضوعات أخرى كالحصاد العام لمختلف أنواع الثمار، كما يتطرق للأضرار التي تقع على المزروعات من جراء البرد، وطرق تخفيض هذه الأضرار وذلك بالإسراع في الحصاد. وهنا، في هذا الفصل، يبين المؤلف طرق الحصاد، ودوس القمح والشعير، وتخزينه. كما يعرج على معايير الكيل التقليدية الخاصة بالحبوب. إضافة إلى ذلك نجد الإشارة إلى أغاني "الصراب" التي يتغنى بها المزارعون أثناء الحصاد وبمناسبته.

ولانقطاع المطر في الشتاء، يعتبر المزارع اليمني أنهُ الفصل المثالي لحراثة الأرض لتهويتها. وهنا يتطرق إلى أنواع الحراثة، ووسائلها، وطرقها.. وهذا ما جرى التطرق إليه في الفصل الحادي والعشرين. أما في الفصل الثاني والعشرين فيتناول بعض المعتقدات بشأن شدة البرد واعتداله اعتماداً على بعض الظواهر الطبيعية المناخية ويحاول تفنيدها، مثل الاعتقاد أن هطول الأمطار في الخريف دلالة على اعتدال البرد في الشتاء. كما يتحدث عن الانقلاب الشتوي الذي يبدأ في يوم 21 من شهر ديسمبر، وعلاقة شدة البرد واعتداله على جودة بعض الثمار. كما لا ينسى كعادته منافع وأضرار مطر الشتاء إن هطلت على الزرع.

في الفصل الأخير للباب الخامس ولكل الكتاب يتطرق إلى أنواع التربة وخصائصها من حيث خصوبتها، فيشير إلى أن المزارع اليمني يقسّم أرضه بطريقة حتى يتسنى له بذرها في كل المواسم الأربعة. إلا أن المؤلف يخصص لموسم "بذار القياظ" الذي يغطي شهر ديسمبر، بعض الصفحات حيث يشير فيها إلى أنواع الحبوب التي تبذر في هذا الموسم، وإلى ما يحتاجه ذلك من مياه الغيول والآبار، مع الإشارة إلى الصعوبات التي تحيط بهذا العمل الزراعي في هذا الفصل. وفي آخر الفصل يختتم حديثه عن تقنية الآبار والنواضح التقليدية معززاً ذلك ببعض الرسوم التوضيحية.

وفي الأخير، لا يمكن القول إلا أنهُ عمل جليل يسهم بحيوية وجدية في رفد مكتبة التراث اليمني الفقيرة للغاية. وكم هو مثير للأسى وللأسف أنهُ لم يقدر لكتاب مثل هذا أن يرى النور إلا بعد أن تبناه المركز الفرنسي للدراسات اليمنية، في المقام الأول، ثم المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية. وفي الحقيقة ليس لهذا من دلالة رئيسية ومغزى حقيقي إلا أن اليمن التي يكتظ تراها وفضاؤها بتراث غزير وجميل، لا نجده إلا إما مهملاً

ضائعاً مُضيعاً، وإما منهوباً، ولعل خير دليل على ما نقوله هو غياب مجلة تراثية متخصصة أو حتى نصف متخصصة علها تبث دفئاً... مهما كان ضئيلاً..

وهذا الكتاب يضع نفسه، بمعلوماته الغزيرة والواسعة، إمام أكثر من مجال معرفي.. فهو مفيد لمجال علم الفلك، وعلم الزراعة، وعلم اللغة، والعادات والتقاليد الشعبية، والأمثال والأقوال الشعبية... وأعتقد أن الثروة اللغوية التي ينطوي عليها هذا السفر الجليل في التراث تحتل أهمية بالغة الحيوية في بعض علوم اللغة.

أما أهم ما يلاحظ من قصور فهو يبدو أن شكلاً من أشكال "الخفّة" جرى عند التعامل مع تحرير الكتاب. ولعل إطلالة على فهرس الكتاب وعناوين بعض فصوله بالخط العريض من جهة، وخلو فصول أخرى من أي عنوان، ناهيك عن مدى تطابق عناوين هذه الفصول مع المضمون الفعلي للفصل.. أقول لعل إطلالة سريعة على ذلك تكفي شاهداً على ما نذهب إليه. ونرجو أن يجري تلافي ذلك مع غيره من هيأت التحرير في طبعة ثانية إن شاء الله.

هذه ملاحظة أولية.. أما بشأن الملاحظات الأخرى فبحاجة إلى مناسبة أخرى.. إن شاء الله.

العلاقات التاريخية
بين مصر القديمة وسورية
(في عهد الأسرات من 22-31 "945-332 ق.م)*

د. عارف أحمد اسماعيل**

مرت مصر بمحنة كبيرة خلال حكم الهكسوس الذي استمر أكثر من مائة عام، وانتهى بنجاح الملك أحمس الأول (1575 – 1550 ق. م) من تحرير مصر وتأسيس عهد جديد، هو عهد الأسرة 18، وهي الأسرة التي شهدت مولد الإمبراطورية القديمة التي ترسخت جذورها تحديداً منذ عهد الملك تحوتمس الثالث (1490 – 1436 ق. م)، كما بدأت فيها سياسة المصاهرة، بين الفراعنة، وملوك الممالك الأخرى في آسيا، والتي برزت أكثر في عهد الملك أمنحتب الثالث (1405 – 1367 ق.م) الذي شهد عهده توغل الأجانب داخل القصر الملكي، وأصبح لهم شأن مهم، بحيث استطاعوا التأثير على السياسة الخارجية للملك من خلال توصيل المعلومات إليه بطريقة قادته إلى عدم الاهتمام كثيراً بشئون الإمبراطورية.

واستمر الحال كذلك في عهد ابنه إخناتون الذي غير العقيدة الدينية بطريقة أثرت على مجمل الشؤون السياسية في البلاد، بل ولحق بالإمبراطورية ضعفاً شديداً في نهاية هذه الأسرة. ولكنها ما لبثت أن عادت بقوة في عهد الأسرة 19 التي تمكن خلالها الملك رمسيس الثاني (1290 – 1224 ق. م) من إعادتها إلى مستواها القوي الذي بلغته في عهد الملك تحوتمس الثالث، ثم عمل على إرساء دعائم الاستقرار بتوقيع معاهدة مع الحيثيين الذين كانوا يمثلون القوة الرئيسية العظمى المنافسة لمصر في آسيا، وذلك بعد معركة قادش التي حدثت في السنة

* أستاذ تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم المساعد – قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة صنعاء.

** ملخص للرسالة التي نال بموجبها الكاتب درجة الدكتوراه في التاريخ القديم من قسم التاريخ بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية سنة 2001م.

الخامسة من حكمه. ثم استمر الأمر كذلك يرافقه متغيرات وتوجهات وأحداث جديدة إلى أن انتهت هذه الأسرة بتولي شخص من أصل سوري يدعى " إرسو "، كان يعمل داخل البلاط الملكي. لكن هذا الأمر تم تصحيحه من قبل (ست نخت) (1184 – 1182 ق. م) الذي تولى العرش وأسس الأسرة 20، التي شهدت قيام الملك رمسيس الثالث (1182–1151 ق.م)، بالقضاء على شعوب البحر الذين أحدثوا الدمار والخراب في آسيا، ثم اتجهوا نحو مصر، فتمكن بذلك من إنقاذ مصر من محنة استعمار جديد.

وبكل أسف انتهت هذه الأسرة بظهور الخلافات بين تانيس وطيبة، مما زاد من ضعف البلاد ومكانتها وهيبتها في الخارج، وكان ذلك ملازماً لحالة من التفكك والانقسامات شهدتها سورية عموماً، وإن ظهرت في عهد الأسرة 21 علاقات جديدة مع نبي الله سليمان – عليه السلام – ومحاولة إحياء العلاقات مع فينيقيا.

إلا أن هذه المحاولات لم تستمر كثيراً، فقد تدهورت الأحوال في نهاية هذه الأسرة حتى تمكن شخص من أصل ليبي يدعى شيشانق، من تأسيس الأسرة 22 التي حكمت من "تانيس – صان الحجر" وتمكن خلالها أول ملوكها شيشانق الأول (945 – 924 ق. م) من تأسيس عهد جديد لمصر، فوثق العلاقة مع جبيل والمدن الفينيقية، ثم مع النبي سليمان –عليه السلام–، كما قام بحملة ناجحة على فلسطين في العام (21 /20) من حكمه أعادت لمصر نفوذها هناك، واستمر الحال فى العهود التالية وبدأ الآشوريون في العصر الآشوري الحديث (911 – 612 ق.م)، يشكلون مخاطر عديدة جعلت الملك وسركون الثاني (874 – 850 ق. م) يقيم علاقات طيبة مع أعداء الآشوريين في بلاد الشام أدت إلى تحالف فعلي قاده إلى الدخول في المعركة التي خاضوها ضد الملك الآشوري شلمنصر الثالث (859 – 824 ق. م)، في منطقة "قرقر" سنة 854 ق. م، مما جعل ملوك آشور يستشعرون الدور المصري الجديد، واستمرت سياسة التراجعات والتحالفات في كر وفر أمام الهجمات الآشورية المستمرة.

لقد تأثر الدور المصري كثيراً بظهور الانقسامات الداخلية ثانية، فظهرت عدد من الأسرات تحكم مصر في وقت واحد، حيث ظهرت الأسرة 23 بزعامة "بدو باست" (818، 793 ق. م) وذلك فى عهد الملك " شيشانق الثالث " (825–773 ق.م)، وحكمت من " لينتو بوليس – تل المقدام "، حتى وصل الأمر في عهد الملك وسركون الرابع (730–715 ق.م) إلى ظهور أسرة جديدة حكمت من " سايس – صا الحجر "، هي الأسرة 24 بزعامة " تف نخت " (727 – 720 ق.م)، فأصبحت البلاد تحكم من ثلاث عواصم تسيطر عليها ثلاث أسرات مختلفة ومتصارعة، الأمر الذي أدى إلى تهديد فعلي من قبل الآشوريين الذين سيطروا على بلاد الشام ووصلوا إلى حدود مصر.

وكان الملك " بعنخى " (747 – 716 ق. م) الذي يحكم في النوبة قد استطاع أن يسيطر على مصر ويؤسس الأسرة 25 التي وحدت البلاد وشهدت انتهاج سياسة دبلوماسية مع الآشوريين في عهد الملك " شاباكا " (716 – 702 ق. م) الذي خلف " بعنخى " والتي انتهت في عهده الأسرة 24 بمقتل آخر ملوكها "باك – إن – رنف" (720 – 715 ق. م).

لكن الأمر سرعان ما تغير في عهد الملك " شبتكا " (702 – 690 ق. م)، فقد عاد إلى سياسة التدخل المباشر في شؤون فلسطين والتحالف مع أعداء الآشوريين والمشاركة الفعلية في المواجهات العسكرية، ثم ظهرت فترة جديدة بتولي " طاهرقا " (960 – 664 ق. م) عرش مصر حيث استمر في سياسة التحالف مع أعداء الآشوريين، وتمكنت مصر في عهده من هزيمة القوات الآشورية في عهد الملك "أسرحدون" (681 – 669 ق.م) التي كانت قد وصلت إلى حدود مصر قاصدة غزوها.

لم تكتمل نشوة النصر عند المصريين، فقد أعاد الملك الآشوري المحاولة، وتمكن من غزو مصر في العام العشرين من حكم طاهرقا، أى حوالي سنة 671 ق. م، وبذلك وقعت مصر في قبضة استعمار جديد، لكن المصريين لم يسلموا بالأمر الواقع، بل ثاروا وتوالت الثورات حتى تمكن الملك بسمتيك الأول (664 – 610 ق. م) من طرد الآشوريين حوالي سنة 653 ق. م وتأسيس الأسرة 26 التي حكمت البلاد من " سايس – صا الحجر "، فبدأت في عهدها العلاقات مع اليونانيين الذين قدموا لهم الدعم ضد الآشوريين، وعقد تحالفاً مع " جيجس "، ملك ليديا، حوالي سنة 54 / 655 ق. م، ثم قام بحملات على فلسطين أعادت لمصر نفوذها فيها، كما أقام علاقات طيبة مع الآشوريين لمواجهة خطر "الاسكيذيين" الذين شكلوا تهديداً حقيقياً لهم وأحدثوا الدمار في بلاد آشور وفي سورية وفلسطين حتى وصلوا إلى حدود مصر، لكن الملك المصري تصرف معهم بحكمة وردهم على أعقابهم، كما أقدم على خطوة أكبر بالتحالف مع الآشوريين ضد البابليين المتحالفين مع " الميديين" في إيران، ولكن العاصمة الآشورية نينوى سقطت بأيدي الحلف البابلي الميدي سنة 612 ق. م، ولم تفلح النجدة المصرية التي أرسلها بسمتيك الأول الذي حاول دعم " آشور أوبالط الثاني "، الذي أعلن نفسه ملكاً آشورياً يحكم من مدينة " حران " الواقعة قرب الحدود السورية التركية، وتوالت المعارك بين الجانبين حتى انتصر الحلف البابلي، وبدأ العصر البابلي الحديث (626 – 539 ق. م) الذي شهد عداوات مع مصر بسبب موقفها المؤيد للآشوريين، لكن النفوذ المصري في فلسطين استمر، بل وصل الجيش المصري إلى سورية في عهد الملك "نيخاو الثاني" (610–595 ق.م).

وقد حاول البابليون في عهد الملك نبوخذ نصر الثاني (604 – 562 ق. م) غزو مصر، ووصلوا سنة 601 ق. م إلى حدودها، لكن القوات البابلية هزمت على يد القوات المصرية، ومع ذلك فقد عزز البابليون نفوذهم في فلسطين بتعيين حكام موالين لهم وعقدوا معاهدة مع المصريين استمرت إلى عهد الملك بسمتيك الثاني (595 – 585 ق. م) الذي قام بالتحريض غير المباشر في فلسطين ضد البابليين ومهد ذلك لسياسة الملك إبريس (589 – 570 ق. م) التي رأت ضرورة استعادة سيطرة ونفوذ مصر في بلاد الشام، وخرج الملك المصري بقواته واصطدم مع البابليين الذين كانوا يحاصرون القدس وفك الحصار عنها ثم اتجه إلى فينيقيا، لكن القوات البابلية عادت لمحاصرة القدس ثانية، كما وجه البابليون حملات وضربات شديدة إلى المدن الفينيقية، واضطربت الأحوال في آخر عهد إبريس، ثم تولى " أمازيس " (570 – 526 ق. م) عرش مصر وواجه خطر غزو بابلي جديد لبلاده في حملتهم التي قاموا بها عام 568 ق. م، والتي انتهت بالهزيمة أمام القوات المصرية.

ولكن مصر تحسبت لخطر جديد قادم، يتمثل في الفرس الذين أرادوا السيطرة على الشرق الأدنى القديم برمته، فتحالفت مع اليونانيين ومع بابل نفسها التي سقطت في يد الفرس سنة 539 ق. م، ثم سقطت مصر في عهد ملكها بسمتيك الثالث (526 – 525 ق. م) بمعاونة من الجالية اليهودية في إلفنتين، ومن الخائن اليوناني "فانيس ".

وتولى قمبيز (525 – 522 ق. م) عرش مصر، وهكذا وقعت مصر في عهد مستعمرين جدد، هم الفرس الذين حكموا فترة سماها المؤرخ المصري "مانيتون" بالأسرة 27، لكن ثورات المصريين ضدهم لم تتوقف حتى تمكن "آمون حر الثاني / أمير تايوس" (404 – 399 ق.م) من تخليص مصر من الفرس وتأسيس أسرة وطنية جديدة هي الأسرة لثامنة والعشرون التي حكمت من "سايس"، وقد ازدادت في عهد هذه الأسرة الجاليات اليونانية.

لكن تنازع العائلات القوية في الدلتا على العرش عاد ثانية، وسيطر " نف – عاو – رود " (نفرتيس الأول) (399 – 393 ق. م) على عرش مصر بعد وفاة أمير

تايوس، مؤسس الأسرة 29 التي حكمت من " منديس "، وفي هذه الفترة عاد الخطر الفارسي ثانية نتيجة لتوقيع معاهدة إنهاء الحرب بين الفرس وإسبرطة، فاستغل الفرس هذه المعاهدة واتجهوا نحو مصر سنة 380 ق. م، في عهد الملك "هكر – أخوريس" (393 – 380 ق. م)، الذي تصدى لهم وأفشل حملتهم، مما أثر على سمعة الإمبراطورية الفارسية كلها، ثم تشجع للقيام بحملة إلى فينيقيا.

استمرت رغبة أمراء الدلتا في السيطرة على السلطة فانتقل العرش إلى أسرة جديدة هي الأسرة 30 التي حكمت من " سمنود "، وتولى العرش مؤسسها " نختنبو الأول " (380 – 362 ق. م)، وزاد اهتمام الفرس بشؤون مصر حتى تولى " جدحر " (تاخوس) (362 – 360 ق. م) عرش مصر، واستعان بالمرتزقة اليونان ثم قاد حملة ناجحة إلى بلاد الشام، ولكن هذه المرة حدثت الخيانة من الداخل من قبل أخيه المكلف على العرش في غيابه، وبتحريض من قائد المرتزقة الإسبرطيين الملك الإسبرطي العجوز " أجيسلاوس "، فانقلب على أخيه في غمرة نجاحاته الحربية، ثم تولى ابن الوصي على العرش، "نخت حرحب" " نختنبو الثاني " (360 –343 ق. م) مقاليد الحكم في مصر.

وعلى الرغم من أن الملك الجديد تمكن من تحقيق الاستقرار الداخلي، إلا أن الخطر الفارسي زاد في عهد الملك الفارسي الجديد " ارتاكسركسيس الثالث " (359–338 ق.م)، الذي قاد حملة فاشلة للسيطرة على مصر سنة 351 ق. م. لكن الفرس لم يتخلوا عن مشروعهم الكبير المتمثل في إعادة فتح مصر، فتقدم ارتاكسركسيس الثالث سنة 343 ق. م بقواته البرية والبحرية وتمكن من دخول مصر بعد حوالي عشرة أشهر من بداية المعركة، وبذلك وقعت مصر في يد الفرس ثانية طوال ما اصطلح المؤرخون على تسميته، بالأسرة 31.

واستمر الحال على هذه الصورة حتى جاء عصر الإسكندر المقدوني، فوقعت مصر كغيرها من بلدان الشرق الأدنى القديم في يد استعمار جديد، ودخلت ضمن الإمبراطورية اليونانية سنة 332 ق. م.

نتائج البحث:

لقد أرسى الملك أحمس الأول (1575 – 1550)، سياسة تقوم على طرد العدو من الأرض ومتابعته إلى خارج الحدود، بل وتأمين مصر من ناحية الجهات التي تشكل خطراً عليها، بإيجاد نفوذ قوي وثابت فيها.

وتجذرت هذه النظرة في عهد الملوك الذين تبعوه، وبخاصة تحوتمس الثالث (1490 – 1436 ق. م) الذي حقق الاستقرار الداخلي ونظم الجيش وبنى نظام دقيق لجمع المعلومات عن الداخل والخارج، ثم بنى إمبراطورية قوية انطلاقا من أهمية بلاد الشام للأمن والاستقرار في مصر.

وقد اعتادت بلاد الشام على الثورة عند تولي فرعون جديد، فيخرج ذلك الفرعون بحملة لاستعادة نفوذ الإمبراطورية، وأخذ هذا الأمر يتكرر، ولكن مع تولي امنحتب الثاني (1436 – 1413 ق. م) برزت جوانب جديدة في سياسة تمثلت في العنف الشديد في التعامل مع الثوار لم يسبق أن انتهجها أي فرعون قبله، ويرجع ذلك إلى أنه تولى العرش وهو في ريعان الشباب، فحز في نفسه استهتار أقاليم الإمبراطورية بسلطته وهم الذين قدموا فروض الولاء والطاعة لأبيه فنزع إلى العنف لكبح جماح ذوى الميول الاستقلالية، ونجح في ذلك وتلقى التهاني من الميتانيين الذين كانوا يكنون عداءً مشتركاً مع مصر للحيثيين الذين كرسوا كل جهودهم للسيطرة على سورية وخنق تجارة المصريين وتجارة بلاد الرافدين على السواء، فقبل ذلك لكي يكسب ودهم ويضمن عدم تقاربهم مع العدو المشترك للجانبين، فقد كان يستخدم القوة للقضاء على الثورات والاضطرابات ويمد يد السلام لمن يريد ذلك.

وفى عهد تحوتمس الرابع (1413 – 1405 ق. م)، كان في آسيا ممالك متنافسة هي ميتاني وبابل وآشور وحاتي، وكانت كل من مصر وميتاني تخشيان من خطر مملكة

الحيثيين الناشئة، كما توجست كل منهما خوفاً من عواقب إقدام إحداهما على التحالف مع الحيثيين، وأمام هذه الظروف بدأ الملك تحوتمس الرابع يتجه نحو السلم بعد أن أدرك أن الحملات العسكرية لا يمكن أن تقود لوحدها إلى الاستقرار، واستغل في الوقت نفسه مخاوف ميتاني من الحيثيين آخذاً في الاعتبار محاولة ميتاني إثارة القلاقل في فلسطين في عهد أبيه أمنحتب الثاني فبدأ الأمر بانتهاج سياسة المصاهرة، وبالفعل تزوج من أخت " ارتا – تاما " ملك ميتاني وهي السياسة التي كان قد سبقه إليها والده أمنحتب الثاني، وكذلك جده تحوتمس الثالث، ولكن الجديد عنده هو أنه اتخذ من زوجته الميتانية، زوجة رئيسية، على عكس من سبقوه الذين اتخذوا من زوجاتهم الآسيويات زوجات ثانويات.

أما ابنه امنحتب الثالث (1405 – 1367 ق. م) فقد تزوج من أخت "توشراتا" ملك ميتاني، ومن ابنة ملك بابل (الكاشية) وبنت أخيها، ومن ابنة ملك إقليم إرزاوا – جنوب غرب حاتي –، وبهذا تحقق الاستقرار لإمبراطوريته، وحصل على ولاء حكام بلاد الشام، الذين أفرطوا في رسائل التملق إليه، فانصرف قليلاً عن الاهتمام بشئون الإمبراطورية، ولذلك بدأ يدب الضعف هنا وهناك.

وكما كان للزواج من أسيويات فوائد سياسية، فقد كان له كذلك أضرار كبيرة وبخاصة من جانب النساء اللاتي اتخذهن زوجات رئيسيات، فقد تسلل بعض أتباعهن إلى داخل القصر وأصبح للكثير منهم مكانة كبيرة في البلاط ورأي مسموع لدى الملك، وهو الأمر الذي ظهر تأثيره على طبيعة علاقات الملك بأقاليم الإمبراطورية في آسيا وبخاصة في المرحلة اللاحقة.

ففي عهد الملك (أمنحتب الرابع / إخناتون) (1367 – 1350 ق. م) زادت حالات التملق والتضليل من قبل أمراء بلاد الشام، فضلاً عن انكفاء الملك الجديد على نفسه والاهتمام بديانته الجديدة –التي دعا فيها إلى عبادة إله واحد، الأمر الذي جعله ينتهج سياسة مختلفة تقوم على إيجاد حالة من الاعتماد على النفس لدى أمراء سورية تخفف عن مصر عبء الحملات العسكرية التي تثقل كاهل خزينتها، الأمر الذي شجع أولئك الأمراء على العمل من اجل الاستقلال، ولعل ما ساعد على هذا الأمر هو وجود مقربين سوريين من الملك استغلوا نفوذهم لخدمة بني جلدتهم الراغبين في الاستقلال، ومثال ذلك "دودو" الذي يعمل في قصر الفرعون والذي كان على ما يبدو مرتبطا "بعزيرو" حاكم "أمورو"، ووصلت الأمور إلى حد قيام عزيرو ليس بالاستقلال عن مصر وحسب، بل بتغيير ولائه إلى عدوها الملك الحيثي " شوبيلوليوما الأول " (1380 – 1346 ق. م) الذي قاد حملة إلى شمال سورية، ومن جانب آخر فقد أدى التوغل الأجنبي داخل القصر ليس إلى تلك النتائج وحسب ولكن إلى تغيير عادات مصرية تقوم على عدم تزويج أميرات إلى خارج مصر، فتم تزويج أميرة مصرية إلى ملك أوجاريت " نقمد "، وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر حول هذا الزواج إلا أن تشابه العادات بين أوجاريت ومصر في الحرص على نقاوة الدم الملكي ربما قد جعل من هذا الزواج حقيقة.

وبلغ خطر تواجد الأجانب داخل القصر وفي الجيش إلى حد قيام شخص من أصل سوري يدعى " ارسو "، في الأسرة 19، بالسيطرة على العرش المصري، بعد الأمير سبتاح (1194 – 1188 ق. م)، بن سيتي الثاني (1200 – 1194 ق. م)، الذي كان يحكم تحت وصاية " تاوسرت " زوجة أبيه وذلك حين اضطربت البلاد وضعفت بعد عهد الملك مرنبتاح (1224 – 1214 ق. م) وهو الضعف الذي برز أكثر في أواخر الأسرة 20 عندما كان الملك يحكم في تانيس والكاهن يقوم بنفس الدور في طيبة مما أضعف السلطة المركزية.

وقد ظهرت محاولات في عهد الأسرة 21 لإعادة نفوذ مصر في فلسطين، وربما أن الملك " سي آمون " (978 – 959 ق. م) قد تجاهل أمر العلاقة مع جبيل، وفضل الاتجاه نحو النبي سليمان – عليه السلام – الذي له اتصالات مع

مدن الساحل الفينيقي، في حين أن مكانة مصر هناك كانت قد تدهورت منذ أواخر الأسرة العشرين، ربما لأن علاقة مصر مع فلسطين لم تنقطع بصورة كلية حتى في زمن الهيار الإمبراطورية، وهو الأمر الذي استغله الملك شيشانق الأول (945 – 924 ق. م) في عهد الأسرة الثانية والعشرين، لكنه لم يركز على فلسطين في بادئ الأمر بل اتجه نحو جبيل، فاستجاب له أميرها " أبي – بعل " الذي ربما أراد منافسة أحيرام ملك صور الذي أصبح لمدينته دور تجاري كنتيجة لعلاقاته الطيبة مع النبي سليمان مما قلل من الاعتماد على جبيل، الأمر الذي ربما أثار حفيظة أمير جبيل فرغب في إعادة الدور التاريخي الاقتصادي لمدينته ذات الموقع الإستراتيجي كما هو الأمر تماماً بالنسبة لشيشانق الأول الذي استهدف إعادة الأمجاد المصرية في آسيا ومن ثم التفاوض مع النبي سليمان – عليه السلام- من موقع قوي.

بعد ذلك حدثت تطورات وأحداث في عهد هذه الأسرة، تمثلت في مواصلة الرغبة في إعادة الدور المصري في بلاد الشام، وبدأت مصر تدخل في تحالفات ضد الآشوريين إلى أن وصل الأمر في عهد الملك المصري " وسركون الرابع " (730 – 715 ق. م) أن هاجمت قوات الملك الآشوري سرجون الثاني (721 – 705 ق. م) حدود مصر، ودارت معركة عند مدينة رفح، زعم الآشوريون أهم انتصروا فيها على القوات المصرية وحليفها " هانو "، ملك غزة، ولكننا نرى أن المعركة لم تحدث أصلاً وربما حدث بعض الاحتكاك أدى إلى انسحاب الآشوريين نتيجة اضطراب ما في المناطق التي يسيطرون عليها، ثم عادوا ثانية ليحققوا نصراً كما يدل على ذلك نص العام الثاني (719 ق. م)، وهو النص الذي يكشف لنا، استمرار التحالف بين وسركون الرابع وهانو ملك غزة الذي سبق له الفرار إلى مصر في عهد الملك تجلات بلازر الثالث (745 – 727 ق. م)، كما يدل على سعي الملك المصري للتحالف مع بلاد الشام وتحريضها على الثورة. كذلك أثبت هذا النص أن السياسة الخارجية لمصر –رغم انقساماتها الداخلية– مازالت طموحة، وأنها لم تتخل عن نظرتها لسورية كعمق إستراتيجي لمصر.

ويبدو أن الملك المصري في أواخر عهده قد حاول مهادنة الآشوريين بتقديم هدية إلى ملكهم سرجون الثاني في حوالي عام (716 ق. م)، حيث عاد سرجون الثاني لمهاجمة فلسطين ومصر وبخاصة مع حالة عدم الاستقرار في مصر نتيجة لظهور أسرة جديدة منافسة هي " الأسرة الثالثة والعشرون " التي وجد لملكها شيشانق الرابع (783 – 777 ق. م)، آثار في فلسطين، وهو الأمر الذي يرجح معه أن كل فريق قد سعى لتحسين وضعه الاقتصادي، بإحياء الجانب التجاري مع دول الجوار خارج القطر، وهو ما فعله شيشانق الرابع الذي يبدو أنه أقام علاقات تجارية مع فلسطين سواء كان ذلك ذا طبيعة رسمية منظمة أم انه لا يتعدى النشاط الشخصي المبعثر هنا وهناك، لأنه من المستبعد وجود حالة طبيعية في وضع غير طبيعي، وفى مدة حكم لهذا الملك لا تتعدى الست سنوات.

وما يدل على ذلك أن ملوك الأسرة الثالثة والعشرين لم يكن لهم أي دور خارجي على الصعيدين السياسي والعسكري، وهو ما اضطلع به ملوك الأسرة الثانية والعشرين وآخرهم وسركون الرابع، ومن ثم فإن ملوك الأسرة الثالثة والعشرين وبخاصة شيشانق الرابع، لم يكونوا بجانب ملوك الأسرة الثانية والعشرين أكثر من زعماء محليين يستقلون بكيان سياسي لم يستطع إثبات نفسه بعد آخر ملوك هذه الأسرة وسركون الرابع أو قبل نهاية حكمه بقليل حيث قامت أسرة جديدة تحكم كيانا ثالثا هي الأسرة الرابعة والعشرون التي لم يكن لها دور على الصعيد الخارجي، لكن ملوكها حاولوا استعادة الحكم الوطني المركزي لبلادهم حتى سقطوا أمام سيطرة النوبيين على عرش مصر ثم توحيدها، وهي الأسرة التي بدأت باهتمام ملوكها بالشئون الداخلية مع الاتجاه لإقامة علاقات طيبة مع الآشوريين حتى مجيء الملك "شبتكا" (702 – 690 ق.

م)، الذي انتهج سياسة جديدة تقوم على التدخل المباشر في الشؤون الفلسطينية، والانضمام إلى معسكر المواجهة مع الآشوريين في عهد ملكهم سنحاريب (705 – 681 ق.م)، واستمر الأمر بين الشدة والفتور حتى وصل الملك "طاهرقا" (690–664 ق.م) إلى عرش مصر فتطورت الأحداث إلى أن تمكن الملك الآشوري أسرحدون (681–669 ق.م) من تحقيق هدفه وطموحه ورغبة آبائه في غزو مصر وذلك على ثلاث مراحل: فقد قاد حملة سنة (677 ق. م) لمهاجمة حلفاء مصر في سورية ثم قاد حملة ثانية سنة (671 ق. م) التي دخل بها مصر. ولكن لم يتحقق له ذلك إلا بعد أن ذاق الأمرين على يد القوات المصرية في حملته الثانية سنة (674 ق. م) والتي حاول بها دخول مصر، فهزم على حدودها وعاد إلى بلاده، مما جر عليه وعلى جيشه أثراً معنوياً سيئاً حاول التغلب عليه بنصب تماثيل للملك "طاهرقا" في قصره بنينوى، لإعطاء صورة انتصارية معينة، تعوض الأثر المعنوي، الذي تركته هزيمة جيشه على الحدود المصرية.

على أي حال، حدث أن تحررت مصر من الآشوريين على يد الملك بسمتيك الأول (664 – 610 ق. م) الذي اتجه نحو الاهتمام بفلسطين، فقد ثبت لنا بالفعل صدق ما ذكره هيرودوت من أن هذا الملك قام بحصار أشدود طوال 29 سنة، واعتمدنا في ذلك على تفسير الحدث في سياقه التاريخي المقارن وكان منطلقنا الأساسي الأحداث المتعلقة بالإسكيذيين وربط ذلك بحدث استقلال مصر عن الآشوريين من جهة، وبمناقشة الفترة الزمنية التي حددها هيرودوت لحصار أشدود من ناحية أخرى.

فقد تبين لنا من السياق التاريخي، أن الإسكيذيين قد دخلوا الصراع وقاموا بالتدمير في آشور وغيرها، منذ العام (625 ق. م)، فإذا كان طرد الآشوريين من مصر قد حدث سنة (635 ق. م) وطوردوا حتى أشدود بفلسطين، فإنه من غير المعقول أن تكون المواجهة بين بسمتيك الأول وبين الإسكيذيين قد حدثت قبل سنة (625 ق. م)، ومن ثم فإن المدة الزمنية التي ذكرها هيرودوت لحصار أشدود من قبل المصريين والتي ربما تحالف أهلها مع الآشوريين الفارين من مصر الذين ربما كونوا حامية فيها، لا تخرج عن الحقيقة، بل هي الحقيقة بعينها؛ لأن (653 ق. م – 29 سنة ق. م = 624 ق. م)، وهو العام الذي نرجحه لوصول الإسكيذيين إلى أشدود.

وهكذا لم تنقطع رغبة الفراعنة في استعادة نفوذهم في بلاد الشام واستخدموا شتى الوسائل لتحقيق ذلك، فكل ملك من ملوك الأسرة السادسة والعشرين كان له نشاط معين في هذا الاتجاه، ومن بينهم حملة "واح إيب رع /إبريس" (589 – 570 ق. م) ملك مصر كما جاء عند كل من هيرودوت وديودور وكذلك العهد القديم، وبمقارنة هذه المعلومات نرى تصوراً جديداً لما حدث وذلك على النحو التالي:

خرجت القوات المصرية لمساعدة أهل يهودا، ولكن الجيش البابلي كان يفوق في العدد القوات المصرية، فاستغل إبريس انشغال البابليين بمحاصرة القدس، واتجه نحو فينيقيا مستعيناً بأسطوله المتواجد في البحر المتوسط، فتخلى الجيش البابلي عن محاصرة المدينة لمواجهة القوات المصرية وقطع الطريق عنها فأوشكت ثورة القدس أن تنجح، لكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى محاصرتها ثانية حتى سيطروا عليها، وذلك بعد أن أدركوا خطورة تشتت قواتهم هنا وهناك، فضمنوا السيطرة على فلسطين أولاً، ثم تحركوا نحو فينيقيا، وبذلك يكون الملك المصري قد نجح في إحباط أي طموح للبابليين في الاتجاه نحو مصر، فحمى بلاده بذكاء من خطر الغزو البابلي.

لكن حدث في عهد بسمتيك الثالث (526 – 525 ق. م)، أن وقعت مصر ثانية في قبضة احتلال جديد على يد الملك الفارسي "قمبيز" (526 – 525 ق. م)، وبرز دور الأجانب ثانية، فقد تلقى الفرس دعماً من الجالية اليهودية في مصر والذين تربطهم علاقات طيبة بالفرس الذين أطلقوا سراح اليهود المأسورين في بابل عقب

سقوطها سنة (539 ق. م)، كما تلقوا الدعم أيضاً من القائد العسكري اليوناني الخائن " فانيس " الذي كان له مركز مهم في الجيش المصري وعلى دراية كاملة بشؤون الجيش والبلاد، وهو الثمن الذي تدفعه الشعوب لقاء الارتهان للأجنبي في كل زمان ومكان.

على أي حال، عاث " قمبيز " في مصر فساداً، وقد حاول المؤرخون الأجانب، سواء اليهود أو الموالون لهم الدفاع عنه مصورين تنكيله بالمصريين بأنه بعيد الاحتمال، وذلك ليس إلا جرياً وراء استراتيجيتهم المتمثلة في مناصرة كل من يقف مع اليهود حتى ولو كان قبل مئات السنين. ولكن تم طرد الفرس من مصر بعد أن حكموها طوال عهد الأسرة السابعة والعشرين، وقام " آمون حر الثاني " (404 –399 ق. م) بتأسيس الأسرة 28. وبدءاً من هذه الأسرة ظهر الاعتماد على الأجانب يلوح في الأفق ثانية، فكثر في البلاد المرتزقة والتجار اليونان واستمر الحال في عهد الأسرتين 29، 30 التي كان من بين ملوكها " جدحر /تاخوس " (362 – 360 ق. م) الذي سير حملة ناجحة إلى سورية مستعيناً بمرتزقة أجانب من اسبرطة بقيادة ملكها " أجيسلاوس " ومن اليونان بقيادة القائد "خابرياس". وبذلك ظهرت في عهد الملك جدحر صورة أخرى لكارثة الاعتماد على الأجانب، فالقائد اليوناني أشار عليه بزيادة الضرائب وجمع أموال الناس ومجوهراتهم لصالح حملته إلى سورية، بينما أشار الإسبرطي أجيسلاوس على أخيه الذي تركه قائماً بالحكم خلال غيابه في سورية بالانقلاب عليه، وبالفعل تم ذلك في عنفوان المعركة الناجحة، وعاد ابن أخيه نختنبو الثاني ليستلم العرش من والده، أما الملك فقد كان مصيره الفرار إلى حضن عدوه ملك فارس " ارتاكسركسيس الثاني " (405 – 359)، وربما رأى أن ذهابه إلى اليونان غير مأمون فقد يسلمونه إلى الملك الجديد لإصلاح علاقتهم بمصر التي خربها القائد " خابرياس " بمناصرة الملك " جدحر "، أما ذهابه إلى الفرس فربما يكون أكثر أمناً لأنهم يرغبون في إيجاد نصير لهم ربما يقومون بدعمه لاستعادة العرش أو تغذية الصراعات وإحداث الانقسامات الداخلية التي تسهل لهم العودة إلى مصر والسيطرة عليها. لكنهم لم يستطيعوا فعل أي شيء من قبيل استغلال الوضع الجديد؛ لأنه لم يثبت قيام الملك جدحر بأي نشاط لاستعادة العرش، وإن وجدت مناوشات مع بعض الموالين له، ولكن لم يكن لها ارتباط بتنسيق معه من أي نوع.

الصراع الديني في جنوب الجزيرة العربية من القرن الرابع حتى السادس الميلادي*

ذكرى عبد الملك عبد الله مطهر

تتناول هذه الأطروحة موضوع (الصراع الديني في جنوب الجزيرة العربية من القرن الرابع وحتى السادس الميلادي)، فلا تزال مسألة الديانات تشكل مجالا واسعا للدراسة والبحث، ولا تزال المصادر التاريخية تزخر بالمادة التي يمكن إخضاعها للدراسة في ضوء النظرة البحثية الجادة والحديثة، لذلك فقد اقتضت طبيعة هذه الرسالة أن تنقسم إلى تمهيد وثلاثة فصول.

التمهيد: المعتقدات الدينية في جنوب الجزيرة العربية، وتناولت فيه دراسة المعتقدات الوثنية من حيث أسماء الآلهة ورموزها وأماكن العبادة والشعائر الدينية التي كانت تقام أثناء العبادة، مع ذكر بعض أنواع الأضاحي التي كانت تقدم للآلهة وأسباب تقديمها.

الفصل الأول: الأديان التوحيدية في جنوب الجزيرة العربية، يشتمل ثلاثة مباحث خصص المبحث الأول لظهور ديانة التوحيد في جنوب الجزيرة العربية، ركزت فيه على الرحمن، وذلك لمعرفة ما المقصود بالرحمن في النقوش، هل كان يرمز لدين توحيدي قائم بذاته أو أن له صلة باليهودية أو المسيحية أو أنه كان صدى لديانة التوحيد التي كانت معروفة آنذاك في شبه الجزيرة العربية.

وفي المبحث الثاني: الذي جاء بعنوان اليهودية، درستُ فيه الديانة منذ بداية دخولها إلى جنوب الجزيرة العربية وذلك بمقارنة النقوش بما ورد في المصادر الأخرى ثم تتبعت مدى انتشارها وكيف تقبلها المجتمع.

أما المبحث الثالث، بعنوان المسيحية، فتحدثت فيه عن هذه الديانة منذ البدايات الأولى لظهورها في جنوب الجزيرة العربية من المصادر المختلفة، وإلى أي مدى وصل انتشارها.

الفصل الثاني: طبيعة الصراع الديني وأشكاله، وقد تضمن ثلاثة مباحث أيضا، تناول المبحث الأول: الملك يوسف والمسيحيين، والعلاقات التي قامت بينهم وأهم انعكاسات هذه العلاقات، ثم الحديث عن أسباب حادثة الأخدود ونتائجها.

* اطروحة قدمت لنيل درجة الماجستير من قسم الآثار كلية الآداب جامعة صنعاء – تحت إشراف أ.د. عبد الله الشيبة. ونالت عليها الباحثة درجة الماجستير.

وفي المبحث الثاني: تناولت الدور الخارجي في الصراع، وقد تناولت بالدراسة دور كل من بيزنطة والحبشة في هذا الصراع وما الأهداف الحقيقية وراء المساعدات التي قدمها الطرفان للقوى المسيحية في البلاد.

وفي المبحث الثالث: الحملة الحبشية، فقد قمنا بدراسة الاحتلال الحبشي لجنوب الجزيرة وحاولت الإجابة فيه على جملة من الأسئلة المهمة. هل كانت حادثة نجران وتعذيب الملك يوسف للمسيحيين السبب لهذه الحملة؟ ولماذا تأخر الغزو سنوات بعد الحادثة إن كان هدفها نصرة المسيحيين؟

الفصل الثالث: أثر الصراع الديني على الأوضاع السياسية، فقد قسم إلى ثلاثة مباحث، استعرض المبحث الأول: عهد الملك سيمفع أشوع، وكيفية تولية الحكم، وما ديانته، ومدى تأثير ديانته على السياسة التي اتبعها، وما نتيجة تلك السياسة.

وفي المبحث الثاني: تطرقت الدراسة إلى الملك أبرهة الحبشي، وحكمه وما تلاه من تولي مسروق، ويكسوم، أي حتى نهاية الحكم الحبشي لجنوب الجزيرة، وكيف كانت السياسة سببا في اعتناقهم دينا معينا، وكيف تقبل مجتمع جنوب الجزيرة هذه السياسة، ونتائجها؟.

وركزت الدراسة في آخر مبحث على اليمن عشية الإسلام، وذلك بعد دخول الفرس إلى جنوب الجزيرة، وكيف تعاملوا مع الأديان المختلفة في البلاد، وكيف تقبل مجتمع جنوب الجزيرة الحكم الساساني، وما الذي استفاده الفرس من احتلال جنوب الجزيرة؟.

أما الخاتمة فقد شملت النتائج التي توصلت الدراسة أو التي ساعدت على تأكيدها، وقد زودت الرسالة بملاحق ترتبط بموضوعاتها، وقائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

ولأن لكل دراسة نتائجها وخلاصتها، فمما كشفت عنه هذه الدراسة باختصار أن ممالك الجزيرة العربية تميزت بتعدد الأديان، وظلت عبادة الآلهة الوثنية سائدة فيها حتى القرن الرابع الميلادي، حيث بدأ بعدها مجمع الآلهة الوثني في الاختفاء، وأصبح "المقه" الإله الوحيد في معظم النقوش، وظهرت بدلا عنها عقيدة توحيدية جديدة ابتداء من الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي تتضمن عبادة "الرحمن" الذي وصف بأنه إله السماء والأرض.

وأقدم ذكر للرحمن نجده في نقش مؤرخ يعود تاريخه إلى عام 493 حميري/ 378م، وهو النقش الموسوم بـBAYT AL-ASHWAL2 ويرجع إلى عهد الملك ملكيكرب يهأمن وابنيه: أبي كرب أسعد، وذرأ أمر أيمن، وارتبط ذكره بالنقوش اليهودية والمسيحية، لكن من خلال الدراسة اتضح أن جماعة الرحمانيين قبل القرن السادس الميلادي كانت موحدة، دون التسليم بالديانة اليهودية أو المسيحية، ويبدو أنهم كانوا جماعة من الأحناف الذين نعرف أنهم كانوا موجودين في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

ثم نرى اليهودية في جنوب جزيرة العرب امتدادا لهذا الاتجاه التوحيدي، لذلك فإن اعتناقها لا يعدو كونه استمرارا لتلك التقاليد، حتى وإن كانت في صورة جديدة، وفي الوقت نفسه كان ذلك الاعتناق تلبية لضرورة تاريخية ملحة أملتها ظروف موضوعية. ولعل أقدم إشارة لليهودية هو ذلك الذي ورد في نقش BAYT AL-ASHWAL 1 غير أننا لا نستطيع الجزم بأن اليهودية استطاعت الانتشار في كل أنحاء البلاد، ويحتمل أن يكون هناك أشخاص أو مناطق بعينها تركت الدين الوثني، واعتنقت الديانة اليهودية.

وظهرت الديانة المسيحية إلى جانب الديانة اليهودية التي لم تكن الديانة التوحيدية في البلاد، بل نافستها في ذلك ديانة التوحيد، فكان لها وجود في عدد من المناطق، وبعد الاحتلال الحبشي أصبحت الديانة المسيحية هي المسيطرة في البلاد، وقد تنوعت المذاهب المسيحية في جنوب الجزيرة العربية، حيث دانت بالمذهب الاريوسي في بداية دخولها، ولكن في القرن السادس الميلادي، دخل المذهب

المونوفيزي، الذي كان يدين به الأحباش، الأمر الذي سهل انتشار هذا المذهب في جنوب الجزيرة العربية، وعلى الرغم من ذلك فإنها لم تلق قبولا في المجتمع، وذلك لارتباطها منذ البداية بالإمبراطورية الرومانية وبالحبشة، والدليل على ذلك أننا لم نجد غير جماعات مسيحية قليلة بعد خروج الأحباش، وظلت متمسكة بمسيحيتها حتى ظهور الإسلام.

أما بشأن سياسة الملك يوسف نحو المسيحيين والأحباش فإنها لم تكن واضحة في السنوات الأولى من حكمه، وكل ما نعرفه أن الأوضاع العامة في البلاد لم تكن مستقرة ذلك أن بعض القبائل كانت ترى أنه مغتصب للعرش، بل أن معظم هذه القبائل كانت على علاقة وطيدة مع الحبشة، وهذا الأمر قد يفسر سبب اختيار الملك يوسف لقب "ملك كل الشعوب" بدلا عن اللقب الطويل "ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابهم في الطود وتهامة"، أما الملك يوسف فقد كان يرى أن البلاد تخضع لنفوذ خارجي، وهو الأمر الذي لم يتقبله، لذلك فقد بدأ حملة مطاردة في البلاد، فعمد إلى سياسة القمع مع القبائل المؤيدة للنفوذ الحبشي ولا سيما في المناطق التي لم تعترف بسلطته. ومن الصعوبة بمكان تقبل الفكرة القائلة أن الملك يوسف مشركا بل كان رجلا موحدا (يهوديا) وذلك حسبما تذكر نقوشه، كما أن معاقبة الملك يوسف بعض مسيحيي جنوب الجزيرة كانت في أماكن متفرقة، وبطرق متعددة، وتذكر المصادر السريانية أن الملك يوسف لم يطلب من المسيحيين الشرك بالله أو عبادة الأوثان وكل ما طلبه هو أن لا يجعلوا لله شريكا.

ومن خلال الدراسة تبين أن الحرب بين جنوب الجزيرة والأحباش في النصف الأول من القرن السادس الميلادي تعد استمرارا لصراع جنوب الجزيرة وأكسوم وهو الصراع الذي ظهرت بوادره منذ القرن الثاني الميلادي، وقد كان انعكاسا للصراع الفارسي الروماني على طرق التجارة الدولية في المنطقة العربية.

ومن استقراء الأحداث يتبين أن سميفع أشوع كان مواليا للملك يوسف قبل الاحتلال الحبشي، بل اشترك معه في حروبه التي قام بها في 518م، ويمكن القول أن من نتائج الاحتلال الحبشي لبلاد العرب الجنوبية في القرن السادس الميلادي، أن البلاد وقعت في البداية تحت حكم أكسوم غير المباشر وذلك بتعيين أحد أبناء البلاد حاكما صوريا لها هو سميفع أشوع الذي يذكر صراحة تبعيته للملك الحبشي، وقد اعتنق المسيحية تأكيدا لهذه التبعية، وهو ما لم يكن واضحا قبل توليه الحكم.

وبعد استقرار الأوضاع في البلاد يتولى السلطة بصفة رسمية قائد حبشي، فقد حكم أبرهة بعد سميفع أشوع وإن كان من الصعوبة بمكان معرفة علاقته بملك الحبشة بدقة، لكن يمكن القول إنه كان نائبا لنجاشي الحبشة في الفترة الأولى، ثم انفرد بالحكم في ظل ظروف لا زالت مجهولة، وقد تنوعت سياسة أبرهة تجاه الأوضاع في جنوب الجزيرة العربية فأحيانا يتخذ سياسة الشدة والحزم، وأحيانا أخرى يتخذ سياسة اللين والتسامح، وقد نجح في أن يعيد للسلطة المركزية هيبتها ومجدها السابقين، وحرص أبرهة على إقامة علاقات مع العديد من الدول، أهمها علاقته ببيزنطة، فعلى المستوى الديني كان هناك تعاون مع أبرهة وبيزنطة، ولذلك يمكن الافتراض بأنه اعتنق المذهب الأرثوذكسي الذي كانت تعتنقه بيزنطة، وهو الأمر الذي يظهر من نقوشه التي تتضمن صياغات دينية تختلف عما كانت عليه في نقوش سميفع أشوع.

وبعد الحكم الحبشي دخلت البلاد تحت الحكم الفارسي اسميا وحكم الأقيال والأذواء في المناطق حتى دخول الإسلام إليها. أما الأوضاع الدينية في هذه الفترة فلم تكن واضحة تماما، وكل ما نعرفه هو بقاء المسيحية في بني الحارث بنجران، أما اليهودية فلم يعد لها ذكر في المصادر، غير أنه يلاحظ أن المصادر الإسلامية تذكر بعض الأصنام التي عظمتها بعض القبائل، الأمر الذي يوحي بوجود أتباع للديانة الوثنية القديمة، وهكذا فقد كان

الوضع الديني مختلفا ومتنوعا بين قبائل جنـــوب الجزيـــرة العربية قبل دخول الإسلام.

وبنهاية الملك يوسف أسار يثأر ودخول الأحباش ومن ثم الفرس، لم تقم لسكان جنوب الجزيرة أية قائمـــة بـــل اتجهت البلاد بحضارتها القديمة نحو الاضمحلال والأفول، وعجلت الحروب والصرعات في القـــضاء نهائيـــا علـــى حضارة البلاد.